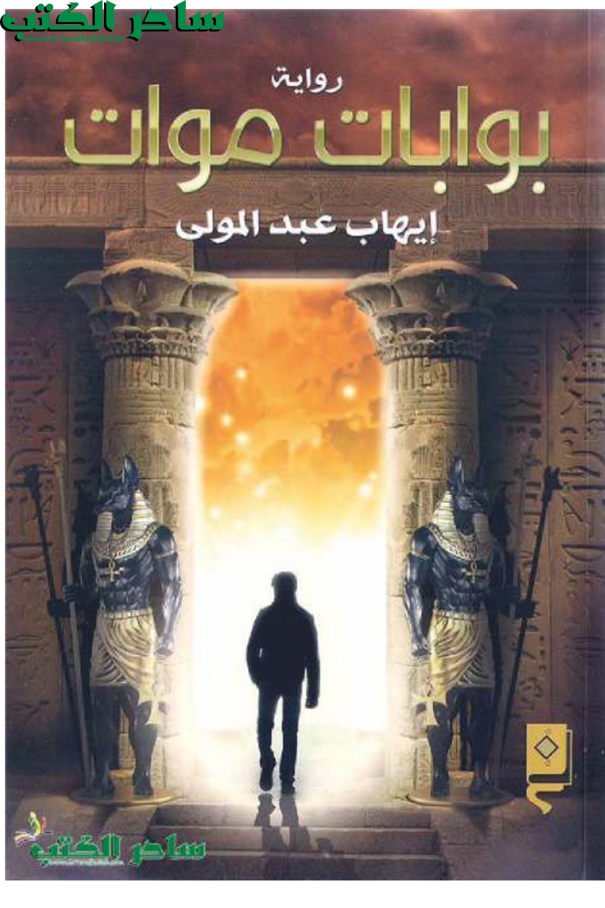


ساحر الكتب
www.sa7eralkutub.com
رواية
بوابات موات
إيهاب عبد المولى
ساحر الكتب





الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ-٢٠١٦م

اسم الكتاب : بوابات موات
اسم المؤلف : إيهاب عبد المولى
الغلاف : كريم سيد
التصحيح اللغوي : محمد عبد الغفار
الطبعة : الأولى
رقم الإيداع : ٢٠١٦/٧٢٤٨
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-٠٦٨-٠

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر – القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

بوابات موات

رواية

إيهاب عبد المولى





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ (لقمان: ٣٤).

صدق الله العظيم

«إنه من الأفضل أن تتم تبرئة ألفٍ من المذنبين، على أن يُحكم على إنسان بريء بالإعدام».

(موسى بن ميمون – القرن الثاني عشر)



الاعتراف بالنفي

«السلام عليك أيها الإله الأعظم، إله الحق. لقد جئتك يا إلهي خاضعًا لأشهد جلالك، جئتك يا إلهي متحليًا بالحق، متخليًا عن الباطل، فلم أظلم أحدًا، ولم أسلك سبيل الضالين. لم أحنث في يمين، ولم تضلني الشهوة؛ فتمتد [illegible] لزوجة أحد من رحمي. ولم تمتد يدي لمال غيري. لم أكن كذابًا، ولم أقل [illegible]، ولم أسعَ في الإيقاع بعبدٍ عند سيده. إني يا إلهي، لم أُجِع ولم أُبكِ أحدًا، [illegible] وما غدرت، بل وما كنت محرِّضًا على قتل. إني لم أسرق من المعابد [illegible]، ولم أرتكب الفحشاء، ولم أدنِّس شيئًا مقدسًا، ولم أغتصب مالًا حرامًا، ولم أنتهك حرمة الأموات. إني لم أبع قمحًا بثمن فاحش، ولم أغش الكيل.

أنا طاهر، أنا طاهر، أنا طاهر. وما دمت بريئًا من الإثم، فاجعلني يا إلهي من الفائزين». (الاعتراف بالنفي، من كتاب الموتى لقدماء المصريين، الفصل السابع عشر)

(١)

على الضفة الشرقية لنهر النيل، ٤٥ كيلومترًا شمال أسوان، يتحرك سرب، كقاطرة، مكون من ثلاث سيارات سوداء، قوية، من طراز «رينج روفر»، في سرعة عالية نسبيًا، باتجاه مدينة «تل الذهب» (كوم أمبو). تستطيع أن ترى، في داخل السيارة الوسطى - بالإضافة إلى السائق - عجوزًا، وشابًا، يجلسان في المقعد الخلفي.

كان الأشيب يدخن سيجارًا كوبيًا فاخرًا، ليبدو متسقًا مع علامات الثراء الفاحش، والنعمة التي تطل على كل ملمح من هيئته في إشغار وجلاء. أما الشاب اليافع، فبدا متناقضًا مع هيئة الكهل في كل شيء؛ فَتِيٌّ يانع، يرتدي زيًا رياضيًا، بدءًا من مقدمة رأسه الذي تزينه قبعة، أدار مقدمتها إلى الخلف، وحتى منتهى أخمص قدميه، اللتين تتواريان داخل حذائه المخصص للركض. بينما بدت السيارتان الأخريان، كسيارات حراسة، بأربعة رجال أقوياء، أعتاء، في كل سيارة، يراقبون الطريق، في تحفُّز متصل، ومن دون كلل أو نَصَب.



سرح العجوزُ في اللاشيء، عبر زجاج سيارته، الذي ترتطم به حبات المطر المتساقطة، من بين الغيوم المطيرة، في تَوغُّن وإلحاح، فكان لها وقعٌ كزَخَّات من الطلقات السريعة داخل أذنيه. رفع عينيه إلى السماء، فلم يرَ سوى سحبٍ مُتَلَبِّدة، في تلك الليلة المعتمة، من دون قمر وضَّاح.

قطع خلوتَه رنينُ هاتفه المحمول، الذي بدا كجرس إنذار يعوي في الخلاء، فالتقطه من جيبه في سرعة وضغط زر الإجابة، قبل أن يقول من دون أن ينظر إلى شاشته، وكأنه يعرف وينتظر المتصل:

- «عقرب»، نحن الآن في الطريق إلى «المعبد المزدوج»، وزير الآثار شخصيًّا يسَّر لنا الأمور، ولن يعترضنا أحد، حتى ننهي ما بدأناه.

- وأنا الآن مع «شيخ العبابدة»، في «وادي العلاقي»، داخل مغارة الذهب. هناك سيارة سوداء جيب شيروكي ستظهر خلفكم بعد دقيقة على الأكثر، دعها تتجاوزك يا «أدهم»، واتبعها إلى المعبد، وأنا سأتصل بك من جديد خلال الساعة المقبلة. تذكَّر، كل شيء يجب أن يتم بالتزامن.. ستظهر الطلاسم على الجدارين الشرقي والغربي، في اللحظة نفسها، ولثوانٍ معدودة.

وقبل أن ينهي الاتصال، قال مستدركًا:

بالمناسبة؛ علِمتُ أنه تم تنفيذ حكم الإعدام على «صابر جلال» فجر اليوم.. نستطيع أن نطوي هذه الصفحة الآن، وللأبد.

ظهرت السيارة السوداء الشيروكي في هذه اللحظة، قلّبت أضواء كشافاتها ثلاث مرات، ما استرعى انتباه السرب، فقال العجوز في صوت مسموع وصل مسامع آذان «عقرب» وقائد سيارته:

- وصلت سيارة دليل «العبابدة»، اتبعها.

ثم أنهى المحادثة.

تقدمت السيارةُ الشيروكي الموكبَ، قبل أن تنحرف في الصحراء، مجافيةً أسفلت الطريق السريع، ليتبعها الركب من دون تردد، فتتوغل في العراء، مخلفةً وراءها سحابات من الغبار، تتساقط من خلالها ذرات الرمال. غلّف الصمتُ الأجواءَ من جديد، اللهم إلا من نقر الشاب، المنهمك، على لوحة مفاتيح كمبيوتره المحمول.

التفت العجوز، رجل الأعمال البارز والأشهر في مصر والعالم العربي «أدهم الملّاح»، إلى الشاب الذي تخرج منه الأسلاك من كل جانب فبدا كالرجل الآلي، وهو يضع سماعة بلوتوث حول أذنه اليسرى، بينما يده اليمنى تلتف حول معصمها ساعة ذكية، متصلة بجهاز الآي فون المعلّق بجراب حديث حول ذراعه اليسرى، ويمسك في يده بجهاز كمبيوتر لوحي صغير، وحول وسطه جراب نحيف معلّقة عليه مجموعة من الأدوات الإلكترونية الحديثة، وهو يسأله في شك:

- أأنت بقادر على فك الرموز وطلاسم الشفرات فعلًا؟ أقسم أن أقطِّعك إربًا وألقيك لذئاب الفيافي، أنت وأخاك اللعين، إن لم نصل إلى ما نريده في هذه الليلة.



أجابه الشاب، في لا مبالاة، من دون أن ينظر إليه، وهو منخرط في ما يفعل:

– هذه هي أول مرة تتعامل معنا. أنا «ملهم» وأخي «مُمَيَّز»، نحن العبقريّان في علم المصريات القديمة ولا فخر. بل نحن الألمعيان، الفذّان بلا منازع.

أطلق العجوز سبَّة بذيئة، وأشاح بوجهه عنه، وسحب نفسًا عميقًا من سيجاره، قبل أن يطلقه مشبعًا بزفرة حارة، وهو يلقي نظرة جانبية سريعة على الشاب، قائلًا في نبرة توعدية:

– يُستحسن بكما أن تكونا كما تدعيان، وإلا سأجعل منكما قنبلتَي مولوتوف بشريتين، بالمبلغ الذي تقاضيتماه، فأحشوه حشوًا في مؤخرتيكما، ثم أشعل فيه النيران.

ساد الوجوم والسكون دقائق أخرى، قبل أن تلوح في ذلك القَفْر، وسط البيداء، أضواء صفراء باهتة، وكأنها أقمار بلا ضياء، تنير الفلاة، الجرداء، التي توغلوا فيها مسافة أربعة كيلومترات، ومن المستحيل أن يعودوا أدراجهم إلى الطريق السريع من دون «الدليل» الذي ساقهم نحو هذه البقّعة الهَوْماء.

لحظات أخرى وظهر «المعبد المزدوج»، الذي يقف وحده في شموخ، جعلت منه الإضاءاتُ الصفراء الخافتة، المعلقة على رؤوس أركانه، كيانًا أسطوريًا، فبدا كوحش عنيد، عتيد، يحرس البادية.



ترجّل «الدليل» أولًا من السيارة، في أهمية وخطورة، أمام مدخل المعبد المزدوج. شاب لا يتعدى عمره العشرين، أسمر، يلف رأسه وعنقه ونصف وجهه بكوفية حمراء، تطايرت مع اتجاه هبوب الريح العتيد إلى اليسار. يرتدي جلبابًا بنيًّا، وله عينان سوداوان تشعان ذكاءً، قبل أن يشير إلى الرجال بمعنى أن يتبعوه إلى الداخل.

تبعه «الملّاح»، يحذوه «ملهم»، الذي وقف يتأمل المعبد للحظات، في انبهار، قبل أن يخطو إلى داخله. بناؤه من الحجر الجيري، مستطيل الشكل، عرف الشاب على الفور من خبرته أنه يتبع الترتيب العام للمعابد المصرية في العصرين «البطلمي» و«الروماني».

تقدَّم الجمع في خطوات حثيثة، حتى اختفوا داخل المعبد. أربعة رجال ربضوا في الخارج يحرسون مدخله. والرجال الأربعة الآخرون يحيطون بـ«الملّاح» و«ملهم» إحاطة السوار بالمعصم، للحماية، وهم يشهرون مدافعهم الرشاشة – من حولهم – في تحفُّز.

بدأ المعبد بفناء أمامي تحيطه الأسوار، ثم قاعة أعمدة أمامية، عبروها إلى قاعة أعمدة داخلية، انتهت بقاعتين متجاورتين. قرأ «ملهم» على مدخل كل قاعة نقشًا باللغة «الهيروغليفية» القديمة يقول: قاعة «قدس الأقداس». تقدَّم إلى القاعة اليمنى، وحدد مقصورة العبادة في نهايتها، خلفها ممر داخلي ينتهي إلى أربع حجرات جانبية، على الجانب الشرقي في خط مستقيم. ألقوا نظرة سريعة على الحجرات من دون أن يدخلوها. لم يكن هناك شيء، فقط حجرات خاوية.

عادوا أدراجهم، إلى القاعة اليسرى، ليروا التصميم نفسه مع اختلاف بسيط؛ يوجد خلف مقصورة العبادة ممر داخلي يقود إلى قاعة واحدة جانبية على الجانب الغربي، دلفوا إليها مباشرةً. الحجرة خالية من أي شيء سوى من غطاء دائري يتوسط أرضيتها، له مقبض حديدي. اتجه «ملهم» إليه مباشرة، بينما وقف «الملّاح» والرجال الأربعة على مدخل الغرفة يرقبون، ثم رفع الغطاء الحديدي، فكشف عن سلم حجري، يمتد للأسفل، بزاوية شديدة الانحدار، لا يرى نهاية على مرمى بصره لدرجات السلم التي تتوالى وكأنها تقود إلى بئر مظلمة بلا قرار. التقط قلم إنارة من جيبه، وصوَّبه إلى الأسفل فلم تزده الإنارة إلا حيرة.

أخرج من جيبه جهازًا يبثُّ الموجات الرادارية تحت سطح الأرض ويستقبل صداها المنعكس عن سطح الطبقات المختلفة، فيرسم أشكالًا على شاشته الصغيرة قبل أن ينعقد حاجباه.

ظهر القلق على وجه «الملّاح» فتقدم إلى حيث يقف «ملهم»، ونظر إلى السلم التحتي، وسأله:

- ماذا هناك؟

لم يرفع «ملهم» عينيه من على شاشة جهازه وهو يقول في توتر:

- هذا مستحيل عمليًا.

- ما المستحيل أيها الأحمق؟

- هذا السلم!

- ما له؟

- ما له من قرار!

قبل أن يَسُبَّه «الملّاح» من جديد، علا رنين هاتفه المحمول، في فراغ المعبد، ما زاد من توتُّر الموقف.

وفي اللحظة نفسها، على بعد ١٣٥ كيلومترًا من «المعبد المزدوج»، ولمسافة تمتد لأكثر من ٢٥٠ كيلومترًا في اتجاه شمال غرب/ جنوب شرق، يمتد أكبر وديان مصر، وإحدى المحميات الطبيعية، داخل الشبكة التي تضم أكثر من خمسمائة موقع، تنتشر في مائة دولة، ضمن برنامج الإنسان والمحيط الحيوي (ماب)، الذي أطلقته منظمة اليونيسكو العالمية عام ١٩٧١م بغرض حماية الأنظمة البيئية المتميزة.

كان أخو «ملهم»، الأكبر، «مميز»، شديد الشبه به، يرتدي زيًّا مماثلًا له، ويتحدث بنفس طريقته إلى الملياردير أربعيني العمر «عزت عقرب»، شريك «أدهم الملاح»، وهو يقول:

- المصري القديم هو أول من نظَّم أسس حماية البيئة في العالم قبل اختراع برنامج «ماب» بآلاف السنين؛ فقد كان برنامجهم يشتمل على حماية عناصر البيئة الثلاثة: الماء، والتربة، والهواء.. بل وحماية البيئة الداخلية أيضًا. إن اهتمامهم بنهر النيل، الذي كان سر حياتهم، والمحافظة عليه من التلوث، علا قائمة اهتماماتهم، فترسخت في عقيدة كل مصري أنه لن يدخل الجنة ملوث للنيل؛ لذلك كان ...

قاطعه «عقرب» في غلظة وهو يقول:



- اخرس أيها الأحمق. من الأفضل أن تكون أنت وأخوك بارعَين في حل الشفرات، مثل براعتكما في التاريخ وهذا الهراء الاستعراضي الذي لا طائل منه، وإلا سأجعلك تتبول في نهر النيل فتلوثه، لكي تغضب المصريين القدماء، وتحل عليك لعنتهم، قبل أن أنهي حياتك بطلقة، تؤدي إلى ثقب آخر في مؤخرتك، وتذهب بعدها إلى الجحيم مباشرة.

ابتلع «مميز» لسانه وهو يسير خلف «عقرب» مباشرة، الذي يسير بدوره خلف دليل آخر من شباب «العبابدة»، ليهتدوا للطريق عبر ممرات متشابكة، داخل مغارة عملاقة في وادي «العلاقي».

الملياردير «عزت عقرب»، لا يختلف عن شريكه «أدهم الملاح» سوى في الهيئة، لكنهما يتقاربان في السمات الشخصية إلى حد كبير ويتماثلان في بذاءة اللسان. أربعيني العمر، له وجه مستدير، بملامح عظيمة، خشنة، جافة، لا تحمل أي نوع من الذكاء، شعره مجعد قصير، وجسده ممتلئ، ولكنه قوي، سريع الغضب، مغرور، معجب بذاته إلى حد الجنون.

بعد دقيقة، كان «عقرب» يجلس مع شيخ مشايخ العبابدة البشارية داخل المغارة، والشيخ يواصل:

- من يموت عندنا لا يُسجل، ولا حتى من يُولَد. كل من قضى نحبه في صحرائنا، من أولاد العبابدة، لن يشعر بهم أحدٌ أبدًا.

أشعل «عقرب» سيجارًا وأخذ نفسًا عميقًا، والشيخ يتابع:



- ليس لدينا هنا أيضًا مستشفيات ولا مدارس، لا شهادات ميلاد ولا وفاة.. حتى الزواج عُرفي، من غير مأذون ولا قسيمة زواج.. لكن، على الأقل، نحترم قانون العرب، ليس هناك أحد يستطيع التعدي على حرمة جاره في القبيلة، أما في المحافظة، ومع وجود القانون، فهناك قطع طرق، وسرقات.. نحن نحيا في دولتنا الخاصة جدًّا، وقانوننا الخاص، ونظامنا المالي المستقل.

اقتحم «عقرب» صلب الموضوع مباشرة:

- قلت لي إن هناك رسالة من «الحطَّام».

بدا التأثُّر على وجه شيخ مشايخ العبابدة، ما قابله صبر نافد على وجه «عقرب»، الذي حاول أن يواريه من دون جدوى، لينعكس على ملامحه جليًّا وهو يسمع:

- «الحطَّام»، الله يرحمه، لا يوجد من لم يُسبغ عليه من خيره وفضله، في مَحياه، بكرمٍ من الله، سبحانه وتعالى، وحتى بعد موته، ما زلنا نرفل فيما تركه لنا. بارك الله لنا في ابنه. لكن كل رجال «العبابدة»، وشرفك، سيناصبون العداء للمجرمين وإن طال ديمومة الدهر، أولئكم الذين تسببوا في موته؛ الضابط الذي قبض عليه، دماؤه سالت أنهارًا، وعيناه تحملان نظرة رعب. والقاضي الذي حكم فُقِدَ أثره للأبد..

احتقن وجهه فجأة، وبدا الغضب مجسمًا من خلال عينيه ونبرات صوته، عند وصوله إلى هذه النقطة، وكأنه يتذكَّر ما لا يرضيه، ثم قال في لهجة قوية، متوعدة، صارمة:

- وهذا الذي أعدمه، وشرفِك لن نتركـه، ولـو بعـد عـشر سـنين، الثأر موصـول، ولـن يُقطـع إلا بـدمٍ.. دم «سـعد العـشماوي». رجـال «العبابدة»، المبتلون بالمرض اللعين (الجـذام)، سـيلتقونه عـن قريـب، حالفين، غير حانثين، أن يـسطروا بأصـابعهم المتآكلـة خاتمـة الحكايـة، ليهلك من هلك عن بيِّنة، وهو أعلم بما اقترفت يداه. يكفيـه مـا يلاقيـه من الرعب والويل والثبور، منذ ذلك اليـوم؛ فهـو يعلـم أنـه مفـارق.. سيموت اليوم أو غدًا.

بدا الاهتمام على وجـه «عقـرب» عنـد نقطـة بعينهـا، مـن حـديث الشيخ، فعدَّل من جلسته وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجاره، قبل أن يقول:

- ابنه؟! حدود معلوماتي أنه قُتل، حتى...

قاطعه شيخ العبابدة بإشارة حازمة من يده ليمنعه من الاستدراك:

- «فَرّاس الحطّام» لم يُقتل. لقد حميناه، وأخفيناه، حينما هوجِم بغتةً وغدرًا في قصره، من رجال الحكومة. رعيناه حتى يكبر ويـشتد عـوده؛ ليعود فينتقم.. ابن «الحطّام» راجع.. لكن حينما يشاء العلي السميع.

- وما رسالة «الحطّام»؟

- لا نعرف كل شيء حتى اللحظة، لكننا في طريقنا إلى ذلك!

بدا الامتعاض والدهشة على وجه «عزت» وهو يقول:

- كيف لا تعرف؟



- «صابر» الذي نُفِّذ فيه حكم الإعدام، اليوم، ذراع «الحطَّام» اليمنى. أتت امرأته، ومعها أمانة كانت تحملها منه، وصَّاها «صابر» أن تصلني حال موته. عرفنا منها بعض التعليمات؛ لهذا طلبنا منك أن ينتظرنا «أدهم الملاح» عند «المعبد المزدوج»؛ فالأمانة كانت رسالة من «الحطَّام» معنونة باسمك.

ثم ناوله علبة ذهبية صغيرة مغلقة بقفل ذهبي وقال:

- ذكر أيضًا في رسالته أن مفتاح القفل معك وحدك.

خفق قلب «عقرب» في قوة وهو ينظر إلى العلبة الذهبية، وبيد مرتعشة من فرط الإثارة، أخرج سلسلة مفاتيحه، ليَبرز منها مفتاح ذهبي صغير.. تبادل «مميز» نظرة خاصة مع «شيخ العبابدة» والجميع يحبس أنفاسه، بينما يولج «عقرب» المفتاح في القفل ويديره، لتصدر عنه تكّة خافتة، كانت إشارة ليتنفس الجمع الصعداء.

وفي المعبد المزدوج، كان «أدهم الملَّاح» يغلي غضبًا، وقبل أن ينفثه حممًا ملتهبة في وجه «ملهم»، علا رنين هاتفه، فالتقطه وهو يقول في حدة:

- ألم أطلب منك أن تكف عني؟ قلت لك: ليس عندي استعداد لاستمرار التعاون مع منظمة «الأوميجا» هذه.

تشتت انتباه «ملهم» وأدار عينيه من على شاشة جهازه، حينما صرخ «الملَّاح»:



- هل تهددني أيها الأحمق.. اسمعني جيدًا يا «جيـداليا»، سأفـضح أمركم للعامة إذا ما حدث لي مكروه.

ثم أغلق الهاتف وقال وهو يلهث من فرط الانفعال:

- وأنت أيها الأبله، ما معنى أنها ليس لها من قرار؟ هل تخترق الكرة الأرضية وتنفذ من الجهة المقابلة في الفضاء؟!

برقت عينا «ملهم» إثر كلمات «الملّاح»، وكأنه أهدى له خاطرة على طبق من ذهب، وهمَّ بقول شيء ما، إلا أن رنين هاتف «الملّاح» قطع حديثه للمرة الثالثة، فالتقطه هذه المرة في لهفة، وهو يقول:

- ما الأمر يا «عقرب»؟

اتسعت حدقتاه وارتجفت أطرافه انفعالًا، و«ملهم» يحاول أن يسترق السمع لما يقوله «عقرب»، و«الملّاح» يردد:

- يا إلهي! الصندوق! نعم.. نحن نقف أمام البئر، ولكن الأحمق يقول إنها ليس لها قرار.. ماذا؟! حسنًا.. حسنًا.. عرفت ما ينبغي علينا عمله.. شكرًا يا صديقي العزيز، وأنت طيب.

أما «عقرب» فقد كان يتابع مسيرته داخل المغارة، خلف شيخ العبابدة، وإلى جواره «مميز»، بأسلاكه ومعداته التي تخرج من جسده، يقول وهو ينهي حديثه مع «الملّاح»:

- تبدو هدية جميلة لعيد ميلادك غدًا يا صديقي.. كل عام وأنت بخير مرة أخرى؛ فالساعة تجاوزت منتصف الليل.. سنقيم احتفالًا كبيرًا في قصرك غدًا.. أما الآن فسنهبط للأسفل مائة متر، لن تكون

هناك إشارات استقبال، فلن أستطيع أن أحدثك هاتفيًا.. ظني أننا سنصل بنهاية الممر في غضون عشر دقائق.. افعل كما أمرتك، حتى تصل إلى «الجدار الغربي».. لا تتحرك من أمامه؛ فالتعليمات داخل الصندوق تقول إن الكلمات ستظهر لثوانٍ معدودة بمجرد أن أنثر على «الجدار الشرقي» الغبار الذهبي.

في اللحظة التالية، انقطع الاتصال، نظر إلى شاشة هاتفه، فلم تكن هناك إشارة استقبال واحدة.. فوضعه في جيبه، كقطعة خردة أصبحت بلا فائدة، والتفت إلى «مميز» الذي يقول:

- هذا النفق الذي نسير فيه للأسفل حُفِرَ داخل الصخور في الوادي، وهو يصل إلى مستويات كثيرة تحت سطح الأرض.. ولكن بزاوية ميل خفيفة، ولو كان منحدرًا رأسيًا، لكان بقادر على أن يحتوي تمثال الحرية، ولن يبرز له رأس على السطح! لكنه أمر غريب حقًّا! فلا يبدو لي أن هناك غرضًا محددًا لهذا النفق.. فما أراه على الشاشة، التي أمامي، يشير إلا أنه لا يقود إلى شيء.. فقط حائط مصمت.

تنحنح «شيخ العبابدة» مهيئًا نفسه للحديث، ثم قال وهو يتقدم في قوة وثبات وكأنه شاب فتي:

- وهل تظن يا بني أن هناك نفقًا يمتد إلى ١٠٠ متر تحت سطح الأرض من دون فائدة؟

هزَّ «مميز» كتفيه وقال وهو يشير بكشافه إلى جدران النفق الضيق التي لم تكن تحتوي سوى على الأحجار:

- في ظروف أخرى، كنت سأقول إن جدران النفق هي الهدف، إذا كان لا يقود إلى شيء.. لما قد تحتويه من نقوش وزخارف.. ولكن كما ترون.. لا شيء.. فقط أحجار مصمتة جر...

قطع حديثه وتوقف بغتة، ما جعل «عقرب» يتعثر ويصطدم بظهره، فقال له غاضبًا:

- ماذا هناك أيها الأبله؟ لماذا توقفت فجأة؟!

هزَّ «مميز» رأسه استنكارًا قبل أن يرفع عينيه إلى «عقرب» ويقول:

- الجدار الذي ينتهي عنده هذا النفق لا يوجد شيء بعده!

- نفس ما قاله أخوك الأحمق لـ«الملّاح» أيضًا، عند بئر «الجدار الغربي». التعليمات التي انتهينا إليها أن نقف عند الجدارين، في لحظة متزامنة، ولا يهم ما يوجد بعدهما أبدًا.

وصل الجمع - على عمق ٩٤ مترًا بالتحديد - عند نهاية النفق الضيق المظلم، الذي تنيره كشافات الإضاءة الصفراء فتتجسد ظلالات وخيالات مرعبة، كأشباح تتحرك معهم وإلى جوارهم. انتحى كل من «مميز» و«شيخ العبابدة» إلى اليمين وإلى اليسار، ليفسحا لـ«عقرب» طريقًا فيما بينهما، ليواجه الحائط وحده. وقف على مسافة متر واحد منه، ثم أخرج الصندوق، الذي تركه له «الحطّام» من جيبه، وأخذ منه حفنة من رماد ذهبي، همَّ أن يبعثره على الحائط، إلا أن «شيخ العبابدة»، استوقفه محذرًا ومنبّهًا:

- تذكَّر! لا تستعمل كل الرماد. أبقِ قليلًا منه. التعليمات تقول: إن هذا الرماد سيُستخدم لكل من: «الجدار» و«الوجه الذي ليس له

ملامح»؛ فهذا هو «الجدار». ولا تسألني عن أي «وجه» يتحدث، فلا أعلم عن هذا شيئًا حتى اللحظة، لكن يبدو أن بقية من هذا «الرماد»، ستكون لذاك «الوجه» اللعين الذي ليس له ملامح!

أومأ «عقرب» برأسه متفهمًا، فأبقى بعضًا منه داخل العلبة، ثم بعثر الجزء الأعظم منه على الحائط.

وفي ثوانٍ، أخذت حبيبات الرماد تصنفر الحائط، وكأنها صانع ماهر، لِتُجْلي ما عليه. وقف ثلاثتهم يتطلعون في انبهار إلى النقوش الذهبية، التي برزت من العدم على الحائط.

التقط «مميز» جهازه ورفعه أمام صدره، لتظهر النقوش على شاشته وكأنه يلتقط صورة، ثم في سرعة كانت النقوش الهيروغليفية تُترجم إلى اللغة العربية، عبر برنامج متطوِّر خاص.

ساد الصمت داخل النفق، الذي تغلِّفه الرائحة العطنة، بينما العيون كلها تتجه صوب «مميز» الذي عقد حاجبيه في اهتمام وبدأ يقرأ النص المنقوش على الجدار في صوت قلِق:

- الجدار الشرقي.. للأسف، بات مكتوبًا عليَّ الهيام في الحال الوسيط، عندما يتلاشى الاختلاف، عند الحد الفاصل بين الأيام؛ حيث الأثر غير الواعي. فلتقُدني المعرفة على درب تجاوز الخوف والرهبة، ولتدفعني الحكمة وأمهات كل المعارف من الخلف، ولتحرر دربي من مخاوف الجهل، ولتضعني في قلب يقظة «الشمس»، بترتيب، عبر البوابات الاثنتي عشرة.



ما زلت مرتبطًا بمن أحببت، وقد بات مكتوبًا عليَّ الهيام وحيدًا في كون آخر، ها أنا ذا الآن أواجه الصور الفارغة لمرآة انعكاس، ومن خلال عين الأنوار الخمسة الطاهرة المشعة للحكمة الأساسية، اهدِني بلا خوف ولا وجل للطريق الصحيح عبر البوابات الصحيحة، وإلا هلكت، وإن كان مكتوبًا عليَّ العذاب بسبب صُنعي السيئ، فلتجنّبني الألم، ولتنطلق من أعماق حقيقة الذات الخالدة، متجسدةً من أجلي كآلاف الرعود، نغم ذاك التعبير السداسي الخالد، ثلاثة ثلاثة ذهبية، هم مني، بدمي هُمْ.

بمجرد أن أنهى كلماته، كانت النقوش الذهبية تختفي تدريجيًّا من فوق الجدار..

وفي اللحظة نفسها، حيث المعبد المزدوج، ظهرت فجأة النقوش أمام أعين «ملهم» و«الملَّاح»، كما أنبأه «عقرب»..

أما «ملهم» فقد قام بنفس ما قام به أخوه وبدأ يقرأ في صوت خاشع:

الجدار الغربي.. هو الرجل الذي يخطو على طريق الأمس. يحمل السر عبر الأنسال الملكية. سيعرفونه لعشر ليالٍ، كي ينسوه لعشرة قرون. كالقمر الوضَّاء فوق البحر. هو القادم من النهار، ذلك الذي يسير إلى العالم الآخر بإرادته، من يهب حياته ويترك جسده الفاني. اليتيم، حامي أبيه، ذو العين الواحدة.

قِفوه أمام الأبواب، التي تحجب عامة الناس؛ فهم ينتظرونه منذ قديم الأزل، وسيكون التابوت لجسده؛ ليبدأ رحلته من الوصول، تلك التي تحدد الطريق، ذا السكاكين الحامية، في بئر العالم السفلي، ومن



الأيام المكملة، من كل أسبوع، وفي كل فصل من فصول السنة، فيصل إلى النجوم الخالدة، في المدة المحددة للتلاقي من كل قرون كثيرة. وسيذبح الموت بجناحيه كل من يحاول أن يقترب وهو لا يعرف الطريق.

وأنت الآن في طريقك؛ لأنك قد أعطيت قوة، وستُعطَى الحكمة. وحينما تكون أمامه، يمكنك فك جميع قيودك، فك رباطاتك، واطلب سريان الدم فيك. فينمو جسمك، وينهض، وسيشع عقلك.. وعندها ستكون ما سوف تكون.. بعدها لا رجوع عنه.

أنهى «ملهم» كلماته والنقوش تنقشع من فوق الجدار، ثم رفع عينيه وهو يعدل من وضع طاقيته للأمام، ليجد نفسه مركزَ نظراتِ الجميع، فقال «الملّاح»:

- حسنًا.. ما معنى هذا أيها الأحمق؟

لملم «ملهم» حاجياته وقال وهو يستعد للرحيل:

- نحتاج بعض الوقت، أنا وأخي، لنفسِّر هذه الطلاسم.. هيا بنا.

أمسك «الملّاح» بيده وهو يقول في حدة:

- ستشرفنا أنت وأخوك ضيفين في قصري حتى ننتهي من هذا الأمر.

وكان هذا آخر ما قيل.

***



وفي اللحظة نفسها، بعيدًا جدًّا، على بُعد آلاف الأميـال، بالتحديـد أسفل «هرم الشمس، والقمر»، في دولة «المكسيك»، كان يتقدم عبر ممـر طويل، بخطوات ثابتة، رجل رفيع طويل، حاد القسمات، له شـعر بنـي وعينان زرقاوان قاسـيتان جليَّتـان مـن وراء عدسـتي نظـارة مـن دون إطارات، وهو يعدل من وضع شارة كبيرة تتوسط منتصف صدره، وإلى جوارها ثلاث كلمات:

أوميجا كبير.. (جيداليا).. «Ω».

الممر له أرضية مصقولة لامعة، تطأ قـدماه نقـشًا يتكـرر كـل مـتر، يمثل «شمسًا» تحتوي بداخلها «قمرًا» يحتـوي بـدوره «هرمًـا». وضـوء أزرق باهت ينبعث قرب التقاء جدارَي الممر بأرضـيته، فغـشي الـضوءُ الأزرق الجميل الأرضَ البيضاء الرخامية، ليبـدو وكأنـه يـسير بحذائـه اللامع فوق بحر صافٍ.

انتهى الرجل عند باب معدني، تتوسطه الشارة التي يرتديها نفسها، لينبعث شعاع من منتصف الـشارة، كماسـح ضـوئي غمـره مـن منبـت

شعره حتى أخمص قدميه، قبل أن ينفتح الباب، ويدلف مسرعًا إلى القاعة، وينغلق الباب من ورائه، وهو ما زال يتقدم بالثبات نفسه إلى داخل القاعة، التي يتوسطها تابوت زجاجي. ألقى نظرة على الجسد المسجى العاري، الراقد بلا حراك داخل سائل خاص، بينما تحيط رأسه خوذة تخرج منها خراطيم معدنية.

الجسد العاري كان لشاب عشريني أصلع نحيل طويل قوي البنية، يحمل مرفقه الأيسر رسمًا لثعبان يلتهم ذيله. قال الرجل بلهجة خاصة، وهو يوقف عمل الأجهزة:

- الآن بدأ العد التنازلي.. بدأت في التحرك سلسلة من الأحداث، كل منها سيقود لما يليه. لا توجد قوة تستطيع إيقاف ما بدأ أو العودة إلى الوراء...

قطع حديثه وهو يراقب السائل الذي بدأ منسوبه في الانخفاض والانسحاب تدريجيًا من قاع التابوت، ثم خلع الخوذة من رأس الجسد المسجى من غير حراك، ففتح الشاب عينيه فجأة، والرجل يتابع:

- أبدًا..

ثم ابتسم في قسوة وهو ينظر إلى عيني الشاب، قبل أن يقول:

- انهض يا «فَرَّاس الحطَّام»؛ فقد تلقينا إشارة بدء العد التنازلي، ولم يعد هناك الكثير من الوقت. فقط «عشر» ليالٍ هي كل ما تبقَّى. نحتاج إلى عقلك الـ«ما بعد إنساني» أيها الرجل.

(٢)

تعالت الضحكات الصاخبة من خلف أسوار ذلك القصر الأنيق، الذي تشع منه الأنوار مع نغمات الموسيقى التي تنبعث من سماعات ضخمة، موزَّعة بدقة في جميع أركان الحديقة الغنَّاء، بينما يقف في شموخ، منعزلًا عن كل ما حوله، لا يجاوره أي بناء، إلا من أشجار وارفة احتضنته بأغصانها، في عناية، لتحجبه عن العيون في غيرة واضحة، وكأنها تستأثر بالنظر إليه وحدها، فتبعده عن أعين الفضوليين والحاسدين والمتلصصين.

وبينما كانت السيارات حديثة الطراز، باهظة الثمن، تتجاوز بوابة القصر المذهبة، واحدة تلو الأخرى، يقف على جنباتها حارسا أمن مسلحان، اقترب رجل من بوابة القصر، مترجِّلًا على قدميه، أربعيني العمر، قوي البنية، ضخم الجثة، طويل القامة، له صدر عريض يصد

الريح إذ تزأر، مُهاب في خطواته، لـه ذراعـان قويتـان، يرتـدي قميصًا أسودَ خفيفًا، وسروالًا له اللون نفسه، لا يتناسبان مع ليلة زمهريرية من شهر فبراير، ليثير شكوك رجلي الأمن فور ظهوره؛ لسببين: الرجـل لا تبدو عليه مظاهر الثراء، هذا من جهة، ومن جهة أخـرى، يترجَّـل عـلى قدميه، ومن المستحيل أن يـصل إلى تلـك البقعـة عـلى طريـق «مـصر – إسكندرية» الصحراوي، من دون وسيلة مواصلات..

توقف.. ماذا تريد؟

قالها أحد الحارسين في خشونة، وهو يشير بيديه إليـه أن يقـف، إلا أن الرجل مضى في طريقه، وكأنه لم يسمع شيئًا، فهرول الحارس خلف الرجل ليمنعه.

جذبه من يده في عنف، محاولًا إيقافه قبل أن يتجاوز بوابة القـصر. بمجرد أن قبضت يده على كف الرجل، حتى استشعر قوة عـضلية غـير عادية تنبعث من الرجل، الذي أدار أصابع يديه بمهارة وحنكة؛ ليقبض هو بقبضته على كف الحارس، بكلابة من حديـد، بينـما اسـتدار الرجـل ببطء وهدوء وهو ينظر إلى عيني حارس الأمن مباشرة، بتحديقـة ثاقبـة ثابتة نافذة، شعر معها حارس الأمن بقشعريرة باردة تـسري في جـسده كالتيار، بينما تواثب قلبـه داخـل جـدران قفـصه الـصدري وهـو يـرى انعكاس صورته على عيني الرجل الواسعتين الـصارمتين. كـان وجهـه خشن الملامح، له شارب كثيف. لم يستطِع الحـارس أن يـرى أكثـر مـن هذا؛ لأنه كان مشغولًا بالصورة المنعكسة عـلى بؤبـؤي عينـي الرجـل السوداوين؛ حيث رأى فيهما أبشع صورة يمكن أن يراها المرء لنفسه..



لحظة موته!

رأى نفسه يتدلى من حبل المشنقة، وقد فاضت منه الروح، بينما تدلَّى لسانه خارج فمه، الأمر الذي جعله يُفلِت يد الرجل كالملسوع، وكأن جسده موصل معدني تتنقل الحرارة من خلاله. وبمجرد أن ترك يد الرجل، اختفت الصورة المخيفة من عيني الرجل، فلم يجرؤ على لمسه من جديد، لكنه لم يستطِع مفارقة عينيه اللتين بدا له أنهما تتسعان بلا نهاية، كانتا عينين سوداوين، عميقتين كالمحيط، غرق فيهما بكل كيانه، وتسمَّر في مكانه، بينما استدار الرجل في ثقة، وتابع طريقه نحو بوابة القصر في ثبات، ورجل الأمن الثاني، الذي يراقب الموقف في دهشة، لم يستوعب لماذا وقف زميله ساكنًا كالحجر، فرفع مسدسه في اتجاه الرجل، وقال في صرامة وبصوت عالٍ محذرًا إياه:

– قف وإلا سأطلق النار!

وقف الرجل في مكانه، واستدار في بطء وهدوء، وكأنه امتلك وقت الدنيا كله، لينظر إلى عيني حارس الأمن مباشرة، الذي أدرك، مما حدث لزميله، أن عليه ألَّا يقترب من هذا الرجل، الذي يفصله عنه أربعة أمتار كاملة. أما الرجل، فقد قام بفعل غريب: وضع كفه اليسرى على بطنه وهو يرفع يده اليمنى في اتجاه حارس الأمن، وقال محذرًا في صوت عميق، ثقيل، بطيء، وكأنه يأتي من أعماق بئرٍ سحيقة:

– إياك أن تفعلها.

وكأن «راسبوتين» بُعِثَ من جديد، بصولاته وجولاته، في التنويم الإيحائي، حتى عبر الهاتف، مع أناس تأثروا به، من دون التقاء الأعين،



تسمَّر حارس الأمن الثاني في مكانه أيضًا، ليتركه الرجل ويدلف في سرعة عبر بوابة القصر ويغيب داخله..

وعلى بعد مائتي متر داخل القصر، كانت هناك مائدة طويلة إلى جوار حمام السباحة، عليها أشهى وأرقى المأكولات، يلتف من حولها رجال في حلل أنيقة وسيدات يرتدين ما يُظْهِر أكثر مما يُخْفِي، يقلن للقمر انزل فنجلس مكانك!

كان «أدهم الملاح» في هذه اللحظة يرتدي حلة كاملة من اللون الأبيض، تنافس شعره الذي اشتعل شيبًا، ورابطة عنق حمراء حريرية، يرفع كأسًا من الخمر، بنصف عقل، من أثر الكحول، ليبادل شريكه «عزت عقرب» التحية.. لتتعالى التهاني وأصوات التصفيق، ثم تنبعث موسيقى كلاسيكية بدأ معها كل زوجين بالرقص على أنغامها، بينما اقتربت فتاة مثيرة، لم يمضِ سوى عشرين سنة فقط على مولدها، لكن بشرتها بقيت على حالتها كيوم ولادتها ناعمة، مسار عروقها يبدو واضحًا للعيان من خلف خدها المشرب بحمرة رقيقة، وفستان قصير تكاد ترى منه لُبَّ ساقيها:

– هل تسمح لي بالرقص معك سيد «أدهم»؟

غمز «عقرب» لصديقه، وهو يلكزه في كتفه، ثم قال:

– سأتركك الآن يا صديقي.. يبدو أن لديك ليلة حافلة تحتاج منك إلى بعض الخصوصية.. أما أنا فعليَّ أن أذهب إلى الأخوين «ملهم» و«مميز»، لأرى ما توصَّلا إليه.



ابتسم «الملّاح» وهو يودع صديقه، الذي ابتعد عنه مسرعًا.. ثم التفت إلى الفتاة وسحب نفسًا عميقًا من سيجاره الفخم، الذي يمسكه بيمناه، وهو يخترقها بنظراته من منبت شعرها حتى أضابع قدميها الرقيقتين، ثم أطلق الدخان في الهواء، وتجرع بيسراه كأسه مرة واحدة، ليقول بعدها بصوت عابث لا يتفق أبدًا وسنه:

- بالطبع يا جميلتي، سأسمح لك بأكثر من الرقص هذه الليلة.. سأسمح لك بكل شيء؛ فأنتِ تروقين لي بشدة.

أعقب كلماته بضحكة عابثة، ووضع قدحه الفارغ على الطاولة، من دون أن يُلقي له بالًا، فيسقط على الأرض ويتحطم ويتناثر زجاجه، بينما يتجه إلى الفتاة بعينين متسعتين عن آخرهما وفم مفتوح كالخرتيت.. وفجأة، اعترض طريقه الرجل ذو الشارب الكث، المتشح بالسواد، ليقف حائلًا بينه وبين الفتاة، أزاحه «الملّاح» عن طريقه بكلتا يديه وهو يقول:

- ابتعد عن طريقي أيها الأحمق!

لم يستطِع «أدهم» زحزحة الرجل القوي عن مكانه بوصة واحدة، فقد نظر إلى عينيه مباشرة وقال في لهجة متوعدة وكلمات قليلة:

- «صابر جلال» يرسل إليك تحياته من الجحيم. لقد ذهب إلى هناك البارحة، لكنك كنت مشغولًا مع «مشايخ العبابدة» ورفيقك الأحمق، في مغامرة من مغامرات «أنديانا جونز»، داخل المثلث الذهبي جنوب البلاد.



تبخَّر أثر الكحول من عقل «الملَّاح» واستعاد صوتُه قوتَه وهو يهز رأسه في قوة، كمن أنهى لتوه «تحدي الثلج» الشهير، وبدا وكأنه نسي كل شيء عن الغادة الفاتنة التي كانت تنتظر منه أن يُراقصها، وأشار إلى الرجل المتشح بالسواد إشارة صارمة أن يتبعه.

بعد عشر دقائق، كان «الملَّاح» يجلس وراء مكتبه الأبنوسي الفاخر، داخل غرفة مكتبه المصممة على الطراز المصري القديم، كل ركن منها فرعوني بلا استثناء.

تحتل أحد جدرانها مكتبة عملاقة، وقف أمامها الرجل المتشح بالسواد لحظات، قبل أن يجلس على المقعد أمام المكتب. أخرج العجوز من علبة أنيقة على طرف مكتبه سيجارًا، أشعله ثم أخذ منه نفسًا عميقًا، قبل أن يكح في قوة فيقول بصوت مختنق:

- كيف عرفت العلاقة بيني وبين «صابر»؟ وما حدود معلوماتك؟

تجاهله الرجل وعيناه تدوران داخل أرجاء المكتب في إعجاب، متأملًا التصميم الرائع، ما دفعه أن يقوم من مقعده ويتجول بحرية داخل الغرفة وكأنه في متحف آثار. وقف أمام لوحة جدارية بها رسومات مصرية قديمة، ووضع يديه خلف ظهره وهو يقول لـ«الملاح» من دون أن ينظر إليه:

يبدو أننا نتشارك في الاهتمامات يا سيد «أدهم»؛ فأنا عندي شغف يقترب إلى حد الجنون بالحضارة المصرية القديمة.. هذه اللوحة مثلًا...



قطع حديثه وهو يشير بيده إلى اللوحة المرسومة على ورقة البردي، التي تتوسطها ساعة، بها اثنتا عشرة عقربًا، كل عقرب تشير إلى اتجاه، بينما أراح «الملاّح» ظهره على مقعده، وعقد كفّيه وهو يكاد يفترس بنظراته الرجل الذي تابع:

- لوحة بديعة، تحمل معاني كثيرة.. إنها لوحة رمزية رسمها فنان حقيقي.. تمثل رحلة غروب الشمس كما تخيّلها المصري القديم، التي كانت سبب اعتقادهم بالخلود، الأمر الذي دعاهم إلى تحنيط موتاهم. فكما أن الشمس تموت مع الغروب وتُبعث مع الشروق، فهذا هو الحال ذاته مع روح الميت: يموت ليعبر إلى العالم السفلي المظلم، في مدة الاثنتي عشرة ساعة، ويُبعث في النهار من جديد، مع شروق شمس جديدة، وأفولُ ليلٍ ماضٍ.

بدت ملامح ابتسامة شبحية، سرعان ما تبخرت من فوق شفتي «الملاّح» إعجابًا بالرجل، الذي أسره بأسلوبه منذ اللحظة الأولى، ليزيد إعجابه مرة ثانية، حينما عرف أن الرجل يشاركه الاهتمامات نفسها.. حالة نفسية خاصة يتشارك فيها البشر؛ فهم دائمًا ينجذبون إلى من يشاركونهم هواياتهم واهتماماتهم، أكثر من أي أحد آخر. فضيّق عينيه وهو يعيد اكتشاف الرجل وينظر له من منظور جديد، وهو يعبث في مقدمة ذقنه، والرجل يتابع:

- ولكن للأسف، من قام بهذا العمل الفني لم يكن على علم بما فيه الكفاية.. هناك خطأ لا يُغتفر في هذه اللوحة.

- وما هذا الخطأ يا سيد؟

التفت إليه الرجل ببساطة، وقال وكأنهما صديقان:

- «سعد».. «سعد العشماوي».

- وما هذا الخطأ يا سيد «سعد»؟

- أنا متأكد أنك تعلم أن هناك ارتباطًا بين كل ساعة من ساعات العالم السفلي، باتجاه جغرافي معين؛ فالساعات الأولى والثانية والثالثة والرابعة مسجلة على الجدار الغربي للمنزل الخفي، والخامسة والسادسة على الجدار الجنوبي، والسابعة والثامنة على الجدار الشمالي، والساعات من التاسعة إلى الثانية عشرة مسجلة على الجدار الشرقي.. بينما التحديد الجغرافي المشار إليه في اللوحة يعكس وضع الجدارين الشرقي والغربي.

ابتسم الرجل في دهاء، إعجابًا بذكاء «سعد»، ثم سأله في جدية:

- حسنًا، أستشعر أننا سنكون صديقين، لا عدوين.. سأكون سعيدًا بأن أعرض عليك أن تعمل عندي.

التفت إليه «سعد العشماوي» وواجهه مباشرة، وقال وهو يهز رأسه نفيًا:

- شعورك غير صحيح بالمرة. «سعد العشماوي» لا يعمل عند أحد، ولن نكون صديقين أبدًا.. وهذه هي آخر مرة نلتقي فيها.

أطفأ «الملّاح» سيجارته وقال:

- حسنًا.. في هذه الحالة، سأعيد عليك السؤال الذي لم تُجِب عنه: كيف عرفت العلاقة بيني وبين «صابر»؟ وما حدود معلوماتك؟

– أنا أعرف كل شيء، سيد «أدهم».

لسبب ما، لا يدري «الملّاح» كنهه، أدرك الرجل أن الماثل أمامه صادق في ما يقول، ما جعله يريح ظهره على كرسي المقعد وكأنه يبتعد عن نظرات «سعد» الصارمة، قبل أن يسأله من جديد:

– ماذا تريد؟

– لعلك تعني «كم تريد؟».. مليون دولار فقط.

– هذا مبلغ كبير يا سيد «سعد».. أريد أن أتأكد أنك بالفعل لديك ما تدينني به.

نظر «سعد» إلى عيني «الملّاح» نظرة صارمة، ثم وقف في مكانه واتجه بثبات إلى المكتبة العملاقة التي تحتل الجدار المقابل لمكتب العجوز، ووقف أمامها لحظات، قبل أن يجذب مقعدًا إلى بقعة معينة بالقرب من أقصى اليمين، ووقف عليه ثم أزاح مجلدًا سميكًا، ليظهر من خلفه بروز صغير له لون المكتبة نفسه، إذا رأيته حسبته عيبًا في التصنيع. ضغط «سعد» على البروز ثم أعاد الكتاب إلى مكانه، واستدار يواجه العجوز، الذي سمع صريرًا من خلفه، أدار معه كرسيه دورة كاملة، ليبدأ الجدار – وراء المكتب – في التحرك إلى اليسار كاشفًا عن حجرة أخرى خالية. قفز «سعد»، من فوق الكرسي، في رشاقة، واتجه إلى الغرفة السرية التي كانت خالية تمامًا إلا من سجادة أنيقة في منتصفها، أزاحها «سعد» بقدمه، فظهر من تحتها غطاء حديدي، وقف فوقه مباشرة، وهو يواجه العجوز، ثم فرد راحتيه بطريقة مسرحية قائلًا:

- كانت هناك مستندات شائقة تثبت تورطك في الخيانة العظمى في الأسفل، أدلة ستجعلك تذهب إلى حبل الإعدام مباشرة، أنت والسيد وزير الآثار شخصيًّا.

حافظ العجوز على هدوئه وهو يقول:

- كيف استطعت أن تحصل على كل هذه المعلومات؟

- ليس هذا هو موضوعنا الآن، فلا تشغل بالك به.

ثم نظر إلى ساعته، وقال في صرامة:

- بقيت خمس دقائق، إن لم أخرج من هنا سالمًا، ستذهب بعض الأدلة التي تدينك إلى مكتب المدعي العام.. يجب أن أخرج من هنا سريعًا حتى أنقذك!

- ومن أدراني أن مسلسل الابتزاز هذا لن يستمر بعدما تحصل على النقود؟

- هذا صحيح، ليس هناك من ضمانات سوى هذه.

قال عبارته في ثقة وهو يشير إلى عينيه، اللتين واجه بهما عيني «الملّاح» مباشرة، لينسحب وعيه أمام عينيه ويغادره.

أما «سعد» فقد تحرك في سرعة إلى الغرفة السرية وأزاح الغطاء الحديدي لينزل إلى الحجرة السرية. غاب خلالها دقيقة، ثم عاد أدراجه، ووقف أمام «أدهم الملاح» من جديد وكأن شيئًا لم يكن.

ثم سأله وهو يبتسم ابتسامة بلا معنى:

- نِفسك في إيه؟!

انتفض العجوز وكأن وعيه عاد إليه، لكن «سعد» لم ينتظر إجابة العجوز وتابع:

- أعلم أنك تريد أن تستيقظ من نومك لتجد أن هذا كان كابوسًا وانتهى.. سأحقق لك أمنيتك.

ثم قال وهو يتجه نحو باب غرفة المكتب:

- مقابر «العشماوي»، مدينة العاشر من رمضان، بعد غدٍ، الساعة الخامسة فجرًا، سيكون الباب مفتوحًا. مُر رجالك بالتوجه إلى شاهد قبر «العشماوي»، سيجدون هناك مفتاح المقبرة فوقه، ليضعوا النقود بداخلها، ثم انسَ كل شيء عني، وأنا سأرحل للأبد، ولن ترى وجهي مرة أخرى.

ثم فتح الباب، وقبل أن يغادره توقف فجأة وكأنه تذكر أمرًا ما.. فتراجع خطوات إلى الوراء، ليقف في منتصف غرفة المكتب ويقول:

- هناك كلمات لا تنتمي إلى أي من كتابات المصريين القدماء، وُضعت هنا على سبيل الخطأ.

كان يشير بسبابتيه في حيرة، يمينًا ويسارًا، ككاسحات المياه من فوق زجاج سيارة، في يوم مطير، وهو يقول:

- أين هي؟ أين هي؟ آه.. هذه هي!

ثم توقف أمام لوحة بعينها بها نص مكتوب باللغة الهيروغليفية:



- هذه الكلمات لا تنتمي بأي حال إلى المصريين القدماء ولم توجد في مصر، بل كانت عند بوابة معبد «تاييس» في روما؛ حيث كان ينتصب تمثال لامرأة منتقبة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها تحمل بين يديها لوحًا عليه تلك النقوش التي تقول...

قطع حديثه وتابع من دون أن ينظر إلى الكلمات، وكأنه يحفظها عن ظهر قلب:

- أتراك تجهل يا «أسكليبوس» أن مصر هي مرآة السماء وأنها الانعكاس السفلي لكل ما تقرره القوى السماوية؟! ولكن يجب أن تعلم أنه على الرغم من هذا، سوف يأتي يوم يبدو فيه وكأن المصريين قد اتبعوا بكل تقوى - ولكن سُدًى - ديانات الآلهة، وأن تضرعاتهم بقيت عقيمًا، لم يُستجَب لها؛ حيث ستتخلى الآلهة عن مصر، وستعود إلى السماء تاركة خلفها مسكنها القديم، أرملة بلا دين، محرومة من الوجود الإلهي.. عندئذ ستتحول هذه الأرض المقدسة إلى مقابر تعج بالأموات. مصر.. يا مصر! لن يبقى من دينك سوى نصوص غامضة، لا تؤمن بها أجيالك القادمة، لن يبقى سوى كلمات منقوشة على الحجر...

قطع «سَعد» قراءته والتفت إلى «الملّاح» وهو يشير له بتحية المغادرة في طريقه إلى الباب، وهو يتابع النص:

- لن يبقى سوى كلمات منقوشة على الحجر، تتحدث عن شيء كان اسمه «تقوى»!

(٣)

- ولكن هذا مبلغ كبير يا أستاذ!

بدت على وجه الشاب البسيط علامات الاستفهام وهو يستحث الرجل أربعيني العمر، ذا العينين الثاقبتين الجالس أمامه في هدوء، أن يفصح عن اسمه، ليجيبه «سعد» في لهجة مؤدبة حازمة:

- يمكنك أن تناديني بالأستاذ، أنا أفعل الخير ولا أحب أن يعرف الآخرون من أنا. ثم إن ربع مليون جنيه ليس مبلغًا كبيرًا لأتبرع به لدار أيتام تؤوي أكثر من خمسين طفلًا بائسًا؛ فهم يحتاجون، بل ويستحقون، أكثر من هذا بكثير..

تطلّع الشاب إلى الحقيبة السوداء التي تحوي بداخلها النقود وهو يقول مترددًا:



- لكني لا أستطيع أن أقبل هذا المبلغ من دون إجراءات رسمية. ثم من أدراك أني لن أنفق هذا المبلغ على احتياجاتي الشخصية وليس على احتياجات الأطفال؟

- أنا لا أذهب لأي دار أيتام.. أنا أتحرَّى جيدًا قبل أن أتبرع بنقودي. حُسن خلقك وسمعتك الطيبة التي بنيتها لسنوات لا يمكن أن يكونا وهمًا. ثم إن مجرد سؤالك هذا أمر كافٍ كي أتيقن من أني قد اخترت المكان الصحيح.

نظر الشاب في تردد إلى عيني الرجل الصارمتين، ليهرب منهما إلى الحقيبة، قبل أن يحسم أمره بالنفي، مدللًا على ذلك بحركة رأسه فأغلق الحقيبة، ثم أدارها ليزيحها في اتجاه «سعد»، قائلًا:

- آسف.. لن أستطيع قبول هذا المبلغ.

- اعتبر أنك وجدته على باب الدار.

ابتسم الشاب وقال:

- لا أستطيع.. فأنت تجلس أمامي الآن.

تطلَّع «سعد» طويلًا إلى الشاب، علم أنه لن يثنيه عن عزمه.. فجذب الحقيبة وهو يقف، ثم مد يده إليه ليحييه في أدب:

- أشكرك أستاذ «مهند».

وغادر الغرفة في سرعة، ومنها إلى الطابق الأرضي، وعبَر الممر الذي يقود إلى خارج أسوار الدار، وعلى يمينه ويساره حديقة يلعب فيها الأطفال البؤساء.



قبل أن يغادر أسوار المكان، جذب انتباهه طفل صغير يجلس على دكة وحيدًا منعزلًا عن أقرانه، لا يلعب أو يلهو معهم، فتسمَّر في مكانه يراقبه لثوانٍ قبل أن يحسم أمره ويعدل عن قراره بالمغادرة.

اتجه إلى حيث يجلس الصغير على دكته، التي اتخذت مكانًا قصيًا في الحديقة، تظللها أوراق شجرة وارفة، تحجب أشعة الشمس الضعيفة التي نجحت في التسرب على استحياء بخد محمرٍّ خجلًا، من خلف السحب البيضاء. لم يحادث الصغير، بل جلس إلى يمينه، متخذًا وضعيته نفسها، محاكيًا إياه، في جلسته المنكسرة؛ حيث يجلس محني الظهر مطأطئ الرأس، يشبك كفيه، يضعهما بين ساقيه. الفارق أن قدميه كانتا تلامسان الأرض، بينما لم تصل قدما الصغير إلى هناك!

لم يُعِره الصغير اهتمامًا، بل بدا أنه لم يشعر بوجوده على الإطلاق. دقيقة كاملة مرت من الصمت، وكأنه يريد أن يُشعِر الطفل أنه يتوحد معه في مشاعره. لم يقطع هذا الصمت سوى حفيف الأشجار على أثر رياح فبراير الباردة.

مد كفه اليسرى ومسح بها على شعر الصغير، وقال:

– لماذا أنت حزين يا صغيري؟ أراك لا تلعب مع أقرانك!

رفع الصغير عينيه إليه.. في البدء لمح «سعد» خوفًا في عيني الصغير، الأمر الذي اعتاده من الآخرين؛ فعلى الرغم من ملامحه الوسيمة كانت ضخامة جسده، عيناه الواسعتان، شاربه الكث، وملامحه الصارمة بشكل عام – دائمًا – تبعث الرهبة في النفوس. بل طالما شعر أن بعض الناس ينفرون منه. فابتسم في حنان للصغير، الذي



لانت ملامحه وشعر بالطمأنينة والسكينة مع ابتسامته. فالأطفال يمتلكون حاسة نافذة، يرون ما خلف الأقنعة التي يرتديها البشر. فقال بلهجة طفولية، متخليًا عن تحفظه، ومندفعًا في مشاعره، متحمسًا، كعادة الأطفال الذين تتذبذب مشاعرهم بين الفينة والأخرى، وبلهجة منفتحة ناحية الوافد الجديد إلى جواره:

– أريد قطارًا يسير على قضبان طويلة.. كل يوم يقول لي أستاذ «مهند» غدًا، ثم لا يشتري لي شيئًا.. إن غده لا يأتي أبدًا.

ابتسم «سعد» وهو يمسح على رأس الصغير مرة أخرى، وترك حقيبته إلى جواره، وقال وهو يقف ليواجه الطفل مستعدًّا للرحيل:

– أعطِ هذه الحقيبة إلى أستاذ «مهند»؛ فلقد اتفقت معه أن يشتري لك القطار بمجرد أن تسلمه إياها.

بدت علامات السعادة والفرح في عيني الطفل الذي أشرق وجهه كألف قمر، ووقف فوق الدكة ليحتضنه، ملقيًا نفسه بين ذراعيه وهو يلف ذراعيه الصغيرتين حول عنقه في حب، قائلًا:

– أشكرك يا عمو.. ما اسمك؟

– يمكنك أن تناديني «بابا نويل»! نِفسك في إيه تاني؟

هز الصغير برأسه بمعنى أنه اكتفى.

فقبَّله «سعد» في جبهته وهو يُنزله أرضًا، ثم أمسك بالحقيبة ووضعها في يد الصغير وهو يضربه على مؤخرته مداعبًا:

– هيا، أعطِ الحقيبة للأستاذ «مهند».

طار الصغير فرحًا، ليزف خبره السعيد، فوقف «سعد» يراقبه حتى اطمأن إلى أنه توارى إلى داخل المبنى، حيث مكتب «مهند».

ثم غادر المكان في سرعة.

* * *

على بُعد مئات الأميال، في اللحظة نفسها، كان يقف أمام «جابر وهدان» - شيخ مشايخ العبابدة - رجلان من رجاله، داخل مغارة وادي «العلاقي»، وهو يقول:

- «الحطَّام» ما يرتاح في تربته، من غير دم.. لازم نقطع الإيدين اللي لفت الحبل حوالين رقبته.

قال أحد الرجلين:

- ما تحمل هم يا شيخنا.. «سعد العشماوي» ما هيطلع عليه نهار وهو حي.

- الكلام سهل يا ولدي، بس «سعد العشماوي» مش سهل.. واعر قوي بألف راجل.. عشر سنين، بعشر محاولات قتل، ما نتج عنها إلا عشرين شاب من زينة شباب العبابدة، ما نعرف لهم طريق للحين.

- وعد، هيكون تحت قدميك.



- بالسلامة يا رجالة.. نسوانكم: وعيالكم في حمايتنا، اطمنوا.. في رقبتنا ليوم الدين لو حصل لكم مكروه.

ثم ضرب بعصاه أرضًا وهو ينهي حديثه:

- منتظر جثة «سعد العشماوي»، تحت قدمي.



(٤)

ألقى «سعد» نظرة على ساعته، التي أعلنت عن خمس دقائق فقط تفصله عن الثلاثين دقيقة التي يقضيها يوميًا في تمرين الهرولة. في الساعة السابعة والنصف مساءً يخرج من منزله المنعزل في حي «العاشر من رمضان»، الذي يقع على أطراف المدينة الصناعية، ويعود بعد نصف ساعة. أقرب منزل إليه يبعد عشر دقائق بالسيارة.

الشارع هادئ، لا يوجد سواه تقريبًا، وعربة نصف نقل تقف وحيدة، مطفأة الأنوار، على بُعد أمتار منه، بجوار سور مصنع مهجور. ظلام الليل الحالك أسفر عن وجوده مع اختفاء قرص «الشمس» وطبيعة المنطقة الصناعية التي تخلو من العمال مع غروبها، بالإضافة إلى درجة الحرارة المنخفضة في ذلك الوقت من السنة، ما كان كفيلًا بأن يحوِّل المشهد كله إلى لوحة ساكنة إلا من متحرك واحد: «سعد العشماوي».

كان يركض بملابسه الرياضية السوداء الخفيفة، متحديًا بها برودة الجو.

فجأة، تغيَّر كل شيء..

العربة التي كانت تقف في سكون، إلى يمين الرصيف الذي يركض إلى جواره، تحركت فجأة في اتجاه الخلف بسرعة غير عادية، وكادت تصطدم به، فقفز فوق الرصيف، بسرعة بديهة عالية، وأكمل ركضه فوق الرصيف، الذي كان عرضه مترين، يحده حائط لمصنع مهجور. إلا أنه سمع فجأة صرير إطارات تأكل الأسفلت أكلًا، فالتفت وراءه، ليرى العربة تقفز فوق الرصيف، مخلفةً سحابة صفراء من الغبار، وتتجه نحوه في إصرار.

وبداخل السيارة، كان رجلا «العبابدة» يستعدان لأن ينهيا الموقف. الرجل الجالس إلى جوار السائق يطلق وابلًا من الرصاص، من نافذة السيارة، ليمنع «سعد» من النزول عن الرصيف، الذي بدا وكأنه وقع بين المطرقة والسندان.. لقد أصبح محاصرًا تمامًا.. إلى يمينه وابل لا ينقطع من الرصاص، وإلى يساره سور المصنع، وخلفه سائق السيارة يضغط بدال السرعة إلى منتهاه، ليدهسه، وهو يصرخ:

– «الحطَّام» سايب وراه رجالة.

وفي اللحظة الأخيرة، انبطح «سعد» أرضًا!

فضغط الرجل، فجأة، كابح سيارته، التي انزلقت بعدها إلى الأمام أمتارًا كثيرة، بفعل القصور الذاتي، وارتفعت العجلتان الخلفيتان قليلًا

إثر التوقف المفاجئ، وانحرفت غضبًا عنه إلى اليسار لتصطدم بالجدار في خشونة، وشرار من النيران ينبثق إثر الاحتكاك، قبل أن تخمد حركتها، بعدما تحطَّم جانبها الأيسر تمامًا، وتحطم معه زجاج السيارة إلى جوار مقعد السائق، الذي صرخ بغضب:

- اللعنة.. أين ذهب هذا الرجل؟

أجابه زميله:

- لقد لمحته ينبطح أرضًا ويلصق وجهه بالأرض قبل ثوانٍ من الاصطدام.

- انزل لنبحث عنه.

ترجَّل الرجلان بمدافع رشاشة وزي موحد: جلباب بنيّ، ورأس اختفى من وراء كوفية حمراء، بها نقاط بيضاء لا يبرز منها سوى العينين.

دارا حول السيارة..

ولا شيء!

اختفى «سعد» من الوجود.

قال الرجل لرفيقه:

- أين ذهب هذا الرجل؟ هل تبخر؟

أتبع كلماته وهو يميل برأسه في مستوى عجلات السيارة، لعل «سعد» يختبئ أسفلها..



في اللحظة التالية، شعر الرجل للحظة وكأن قطارًا اصطدم برأسه.. بعدها أظلم كل شيء..

فلقد تحركت السيارة فجأة إلى الخلف، بسرعة عالية، لتصطدم برأسه، فتسحقه سحقًا تحت عجلاتها، ليسقط صريعًا في الحال. أما صديقه فقد قفز إلى اليمين في آخر لحظة، لينجو بنفسه، إلا أن قدمه اليسرى لم تسلم، فقد سحقتها عجلات السيارة.. فسقط أرضًا وهو يصرخ متألمًا، وسقط على بُعد متر منه مدفعه الرشاش.

بعدها رأى باب السيارة الأيمن يُفتح، وينزل منه «سعد» ويتقدم نحوه بخطوات ثابتة، وعيناه تشتعلان غضبًا.. لاحظ بعينين زائغتين ووعي مفارق أن ذراع «سعد» اليمنى مغطاة بالدماء تمامًا..

حاول الرجل أن يمد يديه ليمسك بالمدفع الرشاش، فلم يصل إليه، ما اضطره إلى أن يزحف على بطنه، إلا أن «سعد» كان إليه أقرب، فضرب بقدمه على أصابع الرجل في قوة، فسحقها سحقًا. هنا سطع البرق مرتين متتاليين على جسد «سعد»، وكأنه يطلق إشارة البدء لأن تهطل الأمطار في غزارة، فخلع قميصه ومزَّقه قطعتين، لتلمع عضلاته القوية على ضوء القمر ومياه الأمطار التي تبلله، وهو يلتقط المدفع الرشاش ببقايا القميص الممزق، ويفرغ رصاصات المدفع في رأس الرجل.

(٥)

دخل «سعد» من باب منزله عاري الصدر، يربط ذراعه بقطعة قماش من قميصه الممزق، ليوقف نزيف الدماء. اقترب منه كلبه الذي أطلق عليه «آنوبيس»، الذي رسمه المصريون القدماء على بردياتهم، له رأس «ابن آوى» على جسد إنسان، وكان يعد دليل الموتى وحارس العالم السفلي في معتقداتهم.

الكلب من نوع «البيتبول»، هجين، من عدة فصائل كلبية، يتميز بقوة كبيرة وشراسة أكبر، وكأنه وُلد للقتال فقط. يعد أخطر أنواع الكلاب في العالم، وفقًا لمنظمة «سي دي سي» العالمية لرعاية الكلاب، ممتلئ الجسم والعضلات، يزن ٢٩ كيلوجرامًا، ما يجعله شديد الخطورة في أثناء الهجوم، لونه رمادي يميل للسواد، وصدره أمهق، كامل البياض. ما إن رأى سيده يدلف من الباب بذراعه المصابة، التي تنبعث

منها رائحة الدماء، حتى اقترب منه في هلع يتودد إليه ويطمئن على ذراعه فيلعقها. أزاحه «سعد» بيده السليمة، وهو يقول:

- أنا بخيرٍ يا «آنو».

لم يبتعد «آنوبيس» عن سيده، بل ظل يلصق جسده بذراعه، مواسيًا، ما أغضب «سعد» وهو يشير إليه بعينين صارمتين مخيفتين أن يذهب بعيدًا، ثم قال بلهجة قوية آمرة:

- قلت لك إني بخير.. اذهب بعيدًا.

على الفور أطاعه الكلب خوفًا وانتحى مكانًا قصيًّا في ركن غرفة الاستقبال، لكنه وقف، مخلصًا، يراقب سيده من بعيد.

فالكلب دائمًا يبحث له عن سيد يخشاه ويخافه ويحترمه.. وحينما يسيطر كلبٌ على قطيع من الكلاب، وتكون له الزعامة والحظوة، لا يأكل بقية القطيع إلا حينما ينتهي هو، ويخشاه بقية الكلاب؛ لأنهم يدركون أنه يفوقهم قوة.

يدركون أنه السيد.

«آنوبيس» يدرك جيدًا قوة سيده.. لطالما تقاتلا وهما يلعبان، وحينما يمسكه «سعد» من أرجله الأربع، يشعر الكلب بكلابة من الفولاذ لا يستطيع منها فكاكًا. يعرف جيدًا أن سيده يتفوّق عليه قوة.

قام «سعد» من مكانه، متجهًا إلى المطبخ ليحضر كوبًا من الماء، لا يشربه إلا مثلجًا، صيفًا كان أم شتاءً. وضع فيه مكعبين من الثلج



وشريحة من الليمون، ثم جلس بعدها على مقعده الخشبي الهزاز المفضل أمام النافذة، التي تطل على حديقة منزله الصغيرة، فتح زجاجها على مصراعيه لتهب رياح الشتاء الباردة.

تناول جرعة كبيرة من المياه ثم أراح رأسه للوراء وأغمض عينيه وهو يسحب نفسًا عميقًا، ويترك الريح الباردة تصطدم بصدره القوي.

وغاب في ذكرياته.

لا أحد يسكن معه في المنزل الكبير، المكون من طابقين: أرضي، له حديقة صغيرة، يعتني بها جيدًا، وعلوي، مكون من شقتين؛ فالخطة كانت أن تكون له شقة، ولأخيه «سليم» الشقة المقابلة. وأبواه اللذان تبنياه، هو وأخوه منذ أن كانا صغيرين، كانا يقطنان الطابق الأرضي، الذي يسكن هو فيه الآن، لكنهما تركاه، كما يفعل كل الأحبة، ماتا، لينتهي به الأمر وحيدًا، منذ عشر سنوات، وهو يبلغ عامه الثلاثين.

أخوه التوأم «سليم»، كان يعمل محررًا بصفحة حوادث في جريدة شهيرة، وفُقِدَ منذ عشر سنوات، في أثناء كتاباته سلسلة مقالات صحفية تناقش مافيا تهريب الآثار المصرية، التي كان يتزعمها في ذلك الوقت «الحطّام». أما والداه الحقيقيان فلم يعرفهما أبدًا..

ورث بيتًا في الصعيد، من أربعة أدوار، في كل دور شقتان، يؤجره بالكامل، ما يؤمِّن له دخلًا شهريًّا معقولًا يكفي احتياجاته، إذا أصبح هذا - في يوم ما - مصدر دخله الوحيد.

لم يُنجب، ولم يتزوج، بسبب طبيعة عمله التي وقفت عائقًا في سبيل هذا. لم يجد من تقبل بوظيفته، وهو أيضًا لم يحاول كثيرًا؛ فهذا لم يكن من طبيعته: أن يحاول وهو يعلم أنه مرفوض.

«جلاد» هو، يقبض الأرواح في الدنيا، عن طريق تنفيذ حكم الإعدام، تطبيقًا لأحكام القضاء، بعد أن يسأل المحكوم عليه قبل لحظات من تنفيذ الحكم:

نِفسك في إيه؟

أما هو فلم يجد من يسأله: نِفسك في إيه؟!

على الرغم من أنه يعرف جيدًا «نِفسه في إيه».

كان لديه أحلام وأمنيات..

كأي شاب..

حَلُمَ أن يقتني مزرعة، يزرع فيها نباتات نادرة، ويربي فيها الحيوانات..

وجد عِشقه في النباتات والحيوانات، حينما ابتعد عنه البشر.

كان يتمنى أيضًا، ابنًا، ليكون له سندًا وعونًا في كبره..

وزوجة تحبه.. يرعاها وترعاه..

يحلم بحياة هادئة..

لكن القدر لم يناوله ما يتمنى..

بل قدَّر له حياة خاصة جدًّا، يقترب من الموت بصورة شبه دائمة. وها هو الآن على مدار عشر سنوات، ما زال الرجال يقاتلونه من أجل أخذ الثأر منه، مقابل رأس «الحطَّام» الذي أعدمه ليطبِّق حكم القانون.

ما ذنبه هو؟!

ما الجرم الذي اقترفه؟!

لقد كان يؤدي عمله فقط. هو يعلم جيدًا كيف يتعامل هؤلاء الرجال مع فكرة «الثأر». أجيال سوف تسلمها لأجيال، إلى أن يقتلوه، حتى لو تم هذا على يد آخر رجل حي من رجال العبابدة.

وهو يعلم جيدًا أنهم سينالون منه..

عاجلًا أم آجلًا..

فقط يتمنى أن ينسئ الله في عمره حتى يدرك ما يتمنى..

لا يطلب أن يعيش الحلم.. فقط يتمنى أن يدركه، حتى إن لقي حتفه في اليوم التالي.. هل هذا كثير؟

إن الحياة التي يعيشها، يقتنص فيها الأرواح، جافة خشنة وحيدة، لا يجاوره فيها سوى «ملك الموت»، الذي يستشعر وجوده وقربه الدائم منه.

الاقتراب من الموت كثيرًا غيَّر أيضًا من شخصيته وملامحه، وطوَّر لديه حاسة خاصة جدًّا: قراءة ورؤية أفكار المقبلين على الموت.

استغل هذه الموهبة في ابتزاز المذنبين الحقيقيين، ولكنه كان يأخذ من أموالهم ليعيد توزيعها في مصارف الخير.. منذ يومين، وتحديدًا في الليلة التي أُعدم فيها «ضابر جلال»، ذراع «الحطَّام» اليمنى، تجلَّت موهبته، ليرى داخل عقله الرسالة التي تركها له «الحطَّام»، وصورة «أدهم الملَّاح»، ليلتقط طرف الخيط. فكان عليه أن يزرع بعض أجهزة التصنت المتطورة في بيت «الملَّاح» وقبو قصره؛ حيث يعمل «ملهم» و«مميز»؛ ليعرف المزيد.. فالموضوع متعلق بأمر يخصه شخصيًّا لسببين، السبب الأول: أن كل الدلائل تربط بين اختفاء توأمه «سليم» وسلسلة مقالاته الصحفية التي هاجم فيها «الحطَّام». علّ تقفِّيه هذا الأمر قد يساعده في العثور على أخيه. أما السبب الآخر فهو أن الأمر متعلق باهتمامه الرئيسي: الحضارة المصرية القديمة.

عرِف من أجهزة التصنت أن رسالة «الحطَّام» تحمل سرًّا خطيرًا، شفرة من أعقد الشفرات، من يفك طلاسمها يصل إلى أسرار الحضارة المصرية القديمة وعلومها.

أما قدراته العقلية والنفسية، وتحديدًا قدرته على التأثير الإيحائي، فكانت تزدادُ. لم يعرف لهذا سببًا أبدًا، ولم يحاول أن يعرف..

زاد صمته..

اتسعت وحدته كثيرًا..

وضاق عالمه، فأصبح صغيرًا..

ابتعد عن الناس أثيثًا، واقترب من نفسه جزيلًا..



إلا من ثلاثة أصدقاء، تعرَّف عليهم بحكم طبيعة عمله، وأفسح لهم مكانًا خاصًا داخل قلبه: دكتور الطب الشرعي «معتز وهدان»، الذي يحضر أحيانًا ضمن كتيبة الإعدام، ويشاركه اهتماماته في علم المصريات القديمة، وعم «سعيد»، مغسِّل الموتى، و«عبد العاطي»، عامل المشرحة. هكذا اختُزِلَ عالمه في هذه المحاور الأربعة: أصدقاؤه الثلاثة، كلبه «آنوبيس»، نباتات حديقته، اهتمام واحد وهواية وحيدة، انغمس فيها حتى النخاع: علم المصريات القديمة.

هذا كان كل عالمه.. وباختصار.

قام من مقعده ليسقي نبتة إلى جوار النافذة، لونها أحمر غريب، كان قد زرعها في أول يوم تولى عمله الجديد كجلاد، وأول حالة أعدمها: «الحطَّام»، الذي حينما مشى معه إلى حجرة الإعدام، كان يخطو إلى مصيره، عارفًا أنها نهاية «الحطَّام»، جاهلًا أنها بداية جديدة له.

نقطة تحول محورية وجذرية، لم تعد بعدها حياته كسابق عهدها.

فقد أصبح طريد فكرة واحدة مخيفة قاتلة: الثأر.

الثأر في عُرف هؤلاء الأقوام عدالة لا تحتاج إلى قانون، وشرف عظيم.

في البداية، سأل نفسه: لماذا هو؟ لماذا اختاره القدر لهذه المهمة؟ ثم لم يلبث أن استسلم لمصيره وعاش ينتظر الموت في كل لحظة..

عرِف أن عليه ألَّا يربط حياته بالأحياء؛ فهو، ولا بد، مفارق.



بعد أن أنهى السقاية، حلَّ قطعة القماش المربوطة حول ذراعه، واطمأن أن الذراع توقف نزيفها، فألقاها على أقرب مقعد.

اختار قطع أثاث منزله البسيط على الطراز المصري القديم. كل شيء هناك نظيف، نضيد للغاية، وصُفَّ بعناية بالغة. اتجه مباشرة إلى الحمام، ووقف مستندًا بكفيه على الحوض، يتطلع إلى وجهه الرجولي الخشن الوسيم. لقد أُعطي بسطة في الجسم، بشرة بيضاء، شعرًا أسودَ، فاحمًا، ناعمًا، قصيرًا، يُمشِّطه للوراء دائمًا، وجهه نحيف، بذقن مدبب، وعينين سوداوين، واسعتين، تشعر أنهما مكحلتان، له أنف متناسق، فوق شفتين رفيعتين حازمتين، يغطي شفته العليا شارب أسود مميز. لكن وجهه، ككل، يبعث الرهبة في قلب من يراه..

له تأثير، مخيف وكاسح يرهب من حوله.

مسح بيده على شعيرات ذقنه النامية، وقال وهو يتطلع لنفسه إلى المرآة في إعجاب:

- من أين أتت هذه الملامح الوسيمة؟ عليَّ أن أتقدم بالشكر لوالديَّ. لكن عليَّ أن أعرف من هما أولًا!

جهَّز العُدة ليحلق ذقنه بشفرة حلاقة لها ذراع عملاقة.

أنهى حلاقته، ثم نزع بقية ثيابه، وأخذ حمامًا دافئًا، ليبث في جسده بعض الدفء في ذلك اليوم البارد.

بعد عشرين دقيقة، كان يجلس يشرب قهوته، من غير سكر، أمام شاشة التلفاز. نظر إلى ساعته، كانت الثامنة والنصف مساءً. أمسك جهاز التحكم عن بُعد، وضغط رقمي قناة فضائية بعينها.



كانت المذيعة الشهيرة «مريم الصواف»، من برنامج «ما وراء الخبر»، التي لها طلة فاتنة وبسمة محببة، تقول:

- الآن معنا سيادة وزير الآثار، على الهواء مباشرة، لمدة ساعة كاملة، وسنفتح المجال لتلقي اتصالاتكم في النصف الثاني من الحلقة.

جلس «سعد» يتابع نصف الساعة الأول في ملل، وهو يمارس هوايته في تقييد رسغيه بكلابشات ويحررهما بإبرة دقيقة، ثم التقط هاتفه، قبل نهايتها، وأصابعه تنقر الرقم الظاهر على الشاشة، وطفق ينتظر..

جاء دوره بعد عشرين دقيقة كاملة، فقال وهو يسمع صوته العميق، واثق النبرات من خلال شاشة التليفزيون:

- أهلًا بك يا سيادة الوزير.. أنا أحاول أن ألتقيك منذ أكثر من شهر كامل، من دون جدوى.. تركت لك أكثر من رسالة، لكن بلا مجيب. لا أدري إن كانت رسائلي تصل إليك أم لا! أنا فقط أريد أن أتحدث إليك بخصوص مشروع الآثار في منطقة المثلث الذهبي الخاص، وتحديدًا في منطقة «العبابدة».

تغيَّر وجه الوزير لثوانٍ، وبلع ريقه، ثم ثبت نظره نحو الكاميرا الأمامية وكأنه سيخترقها بعينيه، ليرى محدثه من وراء شاشة تلفازه! بينما ابتسم «سعد» وهو يعلم أن الطلقة أصابت هدفها. قال الوزير في حذر وهو يحاول السيطرة على انفعالاته:



- لا أدري عن أي مشروع تتحدث يا بني. لكن مكتبي مفتوح للجميع. يمكنك أن تأتي إلى مكتبي غدًا الساعة ١١ صباحًا.

ابتسم «سعد» ولم يعلق، بعدما نجح في حجز موعد مع الوزير.

أنهى المكالمة من دون كلمة أخرى، وأغلق التلفاز، ثم وضع كفيه خلف رأسه وأغمض عينيه ليغفو في سِنَة قصيرة.

بعد عشر دقائق، لم يكن «سعد» قد تجاوز مراحل النوم الثلاث، ما زال في مرحلة نوم «حركة العين غير السريعة»، التي نادرًا ما تبدأ الأحلام فيها، ويكون فيها النشاط العقلي أقرب إلى التفكير منه إلى الحلم. الغريب أنه يتذكر الأحلام، أيضًا على الرغم من أن الوضوح المكثف للأحلام وزيادة تذكُّرها لا يحدثان في هذه المرحلة أبدًا.. بل تحدث فقط خلال المرحلة التي تليها: نوم حركة العين السريعة.

كان يرى الحلم نفسه، الذي يراوده منذ فترة طويلة.

رأى نفسه داخل حجرة الإعدام، يستعد لمباشرة عمله المعتاد، لكن هذه المرة وحده من دون كتيبة الإعدام، التي تكون موجودة لحظة تنفيذ الحكم. الغرفة مساحتها ١٢ مترًا مربعًا، تتوسطها طبلية خشبية، يعلوها «بلانكو» من الحديد على ارتفاع مترين، يُربط فيه حبل المشنقة. الطبلية الخشبية، التي يقف عليها الجاني، عبارة عن ضلفتين تفتحان بواسطة ذراع حديدية تسمى «السكينة»، يقف «سعد» إلى جوارها ممسكًا بها، ينتظر لحظة التنفيذ، ليسحبها، فتنفتح الضلفتان الخشبيتان، ويسقط المحكوم عليه بالموت عبرهما؛ حيث البئر العميقة المظلمة، التي عمقها أربعة أمتار كاملة تحت الأرض.

رأى نفسه يسأل المذنب، بزيه الأحمر وغطاء أسود يخفي من وراءه كل وجهه، السؤال التقليدي:

- نِفسك في إيه؟

سمع صوتًا غريبًا، وإجابة أغرب.

الإجابة كانت:

نفسي أقتلك.

فجذب «سعد» السكينة من دون تردد.

وبينما تُفتح الضلفتان ويهوي الرجل، تحولت دائرة حبل المشنقة إلى عداد رقمي، مؤشره يشير إلى علامة غريبة لا يفهم لها معنى: «ووو».

وبينما يهوي الرجل، حطَّم الأساور الجلدية التي تصفد يديه، وأزاح الغطاء الأسود عن وجهه، ليرى «سعد» وجه الرجل.. وتتسارع نبضات قلبه إلى أقصى مدى..

فلقد كان يرى نفسه..

كان «سعد» يشنق «سعد».

فيستيقظ من سِنته والعرق البارد يتصبب على جبينه، ليقفز إلى جواره كلبه المخلص «آنوبيس»، ويزيح عن جبينه القطرات المالحة في ود وحب ووفاء بلا حدود.

تركه «سعد» يشد من أزره بينما ظل هو مسترخيًا، مستجديًا الهواء أن يمر عبر فمه وأنفه. ظل لحظات طوالًا ساكنًا، وهو مغمض العينين،



يهز رأسه في استنكار، غير راضٍ عمّا يمر به. بات له فترة ليست قصيرة على المنوال نفسه حتى أصبح يخاف من فكرة النوم..

صديقه «معتز» نصحه أكثرَ من مرة أن يذهب إلى طبيب متخصص، إلا أنه كان يرفض في كل مرة، في إباء.

يبدو أن عليه أن ينصت إلى نصيحة صديقه هذه المرة.

ألقى نظرة على ساعته. هي العاشرة مساءً.. عليه أن ينام مبكرًا؛ فلديه يوم حافل ينتظره في الصباح. سيذهب أولًا - فجرًا - إلى مقابر «العشماوي»، لإحضار النقود التي طلبها من «الملّاح»، ثم سيتوجه لمقابلة وزير الآثار في الميعاد المتفق عليه. وفي المساء سيسافر إلى الإسكندرية؛ حيث سجن «برج العرب»، ليبيت ليلته، فلديه أمر قبض روح في صبيحة اليوم الذي يليه. وكعادته، منذ أول يوم بدأ فيه هذه المهمة، شغّل جهاز الكمبيوتر الخاص به، ونقر على ملف خاص يحتل عنوان «٢١ جرامًا»؛ وهو ذاته الاسم الخاص بالروح، في الثقافة الغربية، إثر التجربة الشهيرة التي قام بها الطبيب الأمريكي «دانكن ماكدوغال»، لقياس وزن الروح.

بداخل الملف، نقر مرة أخرى، مرتين متتاليتين، على ملف إكسيل معنون بـ«سِجل الأرواح المسلوبة».

لسبب لا يدري كنهه، بدأ هذه العادة وواظب عليها: يكتب قبل ليلة تنفيذ حكم الإعدام، اسم الشخص، والتاريخ، ورقم الروح وبعدما ينفذ الحكم - لا قبله - يرى في منامه، وفي الليلة نفسها، هل

الشخص مذنب أم بريء! وقد كان يصدق ما تقوله له أحلامه، فيستيقظ من نومه ليسجل في خانة أخرى ما رآه.

عليه الآن أن يسجل الحالة القادمة، وينتظر بعدها ليعرف الحقيقة.

البيانات الآتية في الصف رقم «٦٥٦».

«٢١ جرامًا».

سجل الأرواح المسلوبة			
الرقم	التاريخ	الاسم	مذنب/ بريء
١	٦ يونيو ٢٠٠٦	الحطّام أشجع	مذنب
..	..	..	..
٦٥٣	١٨ [illegible] ٢٠١[illegible]	سباح هاني	بريء
٦٥٤	١٠ يناير ٢٠١٦	إك[illegible] يعقوب	مذنب
٦٥٥	١ فبراير ٢٠١٦	[illegible] جلال	مذنب
٦٥٦	٤ فبراير ٢٠١٦	سيد الأسي[illegible]	

أغلق الجهاز ثم ذهب إلى سريره وعيناه تقرآن لوحة على الجدار أمامه بخط عربي أندلسي أصيل، عليها أبيات من شعر رابع الخلفاء الراشدين، ظل يقرؤها مرة بعد مرة، حتى غاب في سبات عميق:

النّفس تبكي على الدّنيا وقد علمت

أن السّعادة فيها ترك ما فيها

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها

إلّا الّتي كان قبل الموت بانيها



فإن بناها بخيرٍ طاب مسكنه

وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها

ودورنا لخراب الدّهر نبنيها

(٦)

اقتحم «عزت عقرب»، ومن خلفه «أدهم الملَّاح»، قبو قصر الأخير؛ حيث يحتجزان «ملهم» و«مميز»، من دون استئذان.

كان الأخوان يجلسان على الأرض، وسط القبو، متقابلي الوجهين، كل منهما يضع جهازه على حجره، وسماعتين داخل أذنيه ويحرك رأسه مع نغمات الموسيقى الصاخبة، التي تسربت خارج حدود آذانهما. لم يلتفتا إلى القادمين، غير عابئين، وكأنهما غير محتجزين!

وقف «عقرب» بينهما وهو يسأل كليهما:

- هل توصلتما إلى شيء؟

لم يجبه سوى صوت الموسيقى الصاخبة التي تتسرب من السماعات فجذب سماعات الأذن، بكلتا يديه، من كليهما، وهو يعاود سؤاله في غضب:

-هل توصلتما إلى شيء أيها الأحمقان؟

أجابه «ملهم»، وهو يضع السماعة من جديد، من دون أن ينظر إليه:

تقريبًا.. دقيقة واحدة، نرتب أفكارنا.

نظر «عقرب» في ذهول إلى «ملهم»، وأدار رأسه إلى «مميز»، الذي أعاد سماعة الأذن أيضًا، واندمجا مع أنغام الموسيقى من جديد! فنظر إلى أمامه في دهشة، لتقابله نظرات «أدهم الملّاح»، الذي أومأ إليه بمعنى أن يتريث قليلًا..

بعد دقيقة واحدة -كما وعدا - وقف الأخوان، ثم أوصل «مميز» جهازه بجهاز عرض الصور (البروجيكتور). بينما وقف «ملهم» أمام الصورة المسقطة يستعد أن يلقي محاضرة على مسامع «أدهم» و«عزت»، بطريقة احترافية، تدل على أنهما يعرفان جيدًا ما يفعلانه.

تغيّرت لهجة وأسلوب «ملهم» تمامًا، وبدأ حديثه بأسلوب عملي، وكأنه شخص آخر غير الذي كان يجلس أرضًا يستمع للموسيقى منذ قليل:

- هذه مقدمة لا بد منها. سنقسم هذه الجلسة إلى قسمين: القسم الأول سنمر فيه سريعًا عبر المحطات التي أفنى فيها «الحطّام» عمرًا كاملًا، وحتى الرسالة التي تركها، التي قادتنا إلى موقع الجدارين. أما القسم الثاني فسيبدأ من حيث انتهينا، في تحليل الطلاسم، التي وجدناها على الجدارين.



أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن يتابع:

- بالنسبة للقسم الأول، وطبقًا للترتيب الزمني في رسالة «الحطَّام»، التي احتوت على عشر محطات قضاها في البحث عن «المعرفة الكاملة»، سنلقي الضوء على ثلاث محطات رئيسية:

المحطة الأولى: «الهرم الأكبر» وأبحاث الدكتور «خليل مسيحة»، في ثمانينيات القرن المنصرم.

المحطة الثانية: معبد «أوزوريس» في مدينة «أبو دوس» سنة ٢٠٠٦، وكانت سبب إلقاء القبض على «الحطَّام».

ثم المحطة الثالثة، الأخيرة: جمجمة كهف مانوت «الجليل» - ٢٠١٠ - التي أتمها «فرَّاس الحطَّام» قبل أن يختفي، ومن دون أثر.

التقط «مميز» طرف الخيط من «ملهم»، وأظهرت الصورة المسقطة على الحائط الهرم الأكبر (انظر ملحق ١ - آخر الكتاب)، ومقطعًا هيكليًّا يوضح الغرفة السفلية وغرفة الملكة وغرفة «خوفو» المزعومة، وقال:

- نحن نتفق جميعًا، أو بالأخص مجموعة البحث عن أسرار المعرفة، على أن غرفة «خوفو» الحقيقية، بداخل «الهرم الأكبر»، ليست هي الغرفة التي تعلو غرفة الملكة، وأن كل الدلائل المنطقية تشير إلى أن أسرار بناء الهرم الأكبر وكل علوم وحضارة المصريين القدماء، أعظم الحضارات قبل الميلاد، تم إخفاؤها في مكان ما.



كانت أولى المحاولات الجدية في البحث عن هذه الأسرار بقيادة الطبيب عالِم الآثار المصري «خليل مسيحة»، بدراساته على «الهرم الأكبر». فقد كان دائمًا لديه قناعة، لم يُخفِها في أي محفل، بأن غرفة دفن «خوفو» الحقيقية لم يُعثر عليها بعد، وأنها لا بد أن تكون موجودة في «الجيزة»؛ وذلك لأسباب تاريخية، منها وأهمها: أن بُناة الأهرام في الأسرات «الرابعة» و«الخامسة» و«السادسة» اختاروا أن تكون غرف الدفن تحت الأرض، بعكس غرفة «خوفو» الحالية التي تقع في أعلى البناء.

تابع «ملهم» حديث أخيه عند هذه النقطة:

- وحسب نصوص «الأهرام»، فإن الملك بعد وفاته يذهب إلى السماء بواسطة «مركب الشمس»؛ ليصبح نجمة بجوار نجوم «أوزوريس» في مجموعة «الجبار»، وهذا ما تحققه أنفاق التهوية بغرفة «خوفو»، التي تشير إلى مجموعة «الجبار» بدقة مذهلة. اعتقد الدكتور «خليل»، أيضًا، صدق رواية «هيرودوت»، مؤرخ القرن «الرابع قبل الميلاد»، عن غرفة أسرار «خوفو»، حينما أخبره المصريون، وقتها، أنها تقع تحت «الهرم الأكبر»، وأن قبر «خوفو» في جزيرة، تحيط بها المياه من كل الجوانب، وتصلها عن طريق قناة تمد المياه من نهر النيل. استعان «الحطّام» بخبير في علم المصريات القديمة، كما استعنتم أنتم الآن بنا (أنا وأخي)، وبعد بحث طويل، نصحه الخبير أن يتبع نفس طريقة تحديد مواقع بعض النجوم بواسطة كوكبة «الجبار».

سأله «عقرب»:



- وما هذه الطريقة بالضبط؟ ولماذا كوكبة «الجبار» تحديدًا؟

جاء دور «مميز» هذه المرة ليجيب:

- كوكبة «الجبار» هي واحدة من أشهر الكوكبات السماوية؛ لوضوحها الكبير وشدَّة لمعان معظم نجومها. كما أنَّ هيئتها - التي تخيلها الناس منذ القدم - كمحاربٍ يقف حاملًا سلاحه وعلى خصره حزام يتألف من ثلاثة نجوم، هي بالترتيب: «النطاق» و«النظام» و«المنطقة». هذا بالإضافة إلى أن إحدى وأهم النظريات لبناء الأهرامات تنص على أنَّ: الأهرامات المصرية قد بُنِيت على نسق نجوم حزام الجبار الثلاثة من حيث المواقع (نسبة إلى المسافات بين نجوم الحزام) والحجم (نسبة إلى لمعان النجوم). وكان نجم الجبار، في مصر القديمة، يُرمز إليه في الأساطير والميثولوجيا المصرية القديمة بـ«أوزوريس».

تابع «ملهم»:

- كما يؤدي امتداد خط النجوم الثلاثة - «المنطقة» و«النظام» و«النطاق» - إلى نجم «الشعرى اليمانية»، الذي اتخذه المصريون القدماء ساعة كونية لعلاقته بالفيضان، نصحه دليله أن يُسقط الصورة السماوية على الأرض، فوصل بعلاقات رياضية معقدة إلى مقبرة «أوزوريس»، المعروفة بـ«أبيدوس»، وهنا ننتقل للمحطة الثانية؛ حيث كان...

قاطعه «مميز» عند هذه النقطة، ليضيف:

- قبل أن ننتقل إلى المحطة الثانية، أقول: إن الدكتور «خليل» اتخذ غرفة «الملكة» بالهرم كبداية لبحثه أيضًا، ولا بد أن أشير هنا أيضًا،

والشيء بالشيء يُذكر، إلى أن فتحة التهوية الجنوبية في غرفة الملكة تتجه نحو نجم «الشعرى اليمانية» تحديدًا. المهم، بعد بحث مضنٍ في هذه الغرفة، وبتحليل الفراغات باستخدام الأشعة «الكتلية»، خرج علينا الدكتور «خليل» ليقول إنه تمكَّن من تحديد موقع مدخل غرفة كنوز «خوفو»، لكنه لم يُفصح أبدًا عن الكيفية.

ولم يترك لنا الدكتور سوى مذكرات تقول إنه قد أمر بأن يوقف أبحاثه بناءً على أمر من جهات سيادية مصرية. وذكر أنه تأجلت الحفائر حسب طلب المصلحة، لإفساح المجال لبعثة أمريكية طلبت استخدام الأشعة الكونية للبحث عن الغرفة السرية، وطلبت مصلحة «الآثار» من الدكتور «خليل» تأجيل الحفائر لمدة ستة شهور، لكنها لم تُستأنف من وقتها وحتى اليوم! هذا بشكل رسمي فقط. لكن ما لا يعرفه العامة أن «الحطَّام» التقط الخيط وأكمل ما بدأه الدكتور، مع البعثة الأمريكية، من خلال منظمة عالمية قوية، تسعى بدورها إلى الحصول على هذه الأسرار.

قال «ملهم»، والصورة المسقطة تتبدل فتعرض صورة حجر عليه زهرة ملونة:

- المحطة الثانية: «زهرة الحياة» - معبد «أوزوريس» في مدينة «أبو دوس» سنة ٢٠٠٦.

هذا المعبد هو الوحيد في المدينة الذي ينخفض ٥٠ قدمًا تحت سطح الأرض. وبداخل هذا المعبد توجد رسمة لزهرة الحياة (وهي رمز شائع في أديان عدَّة) على قطعة من الجرانيت. الغريب أن هذه



الرسمة لم يتم نحتها في الصخر، لكن تمت طباعتها على ذرات هذه الصخرة بشكل غريب يوحي باستخدام أشعة مثل الليزر. أفاد الخبراء بأنه لو تم قطع الصخرة عرضيًّا لوجدنا الرسمة ممتدة إلى عمقها. هذه الرسمة دليل قاطع على امتلاك المصريين القدماء تكنولوجيا لا نعرفها، مثلها مثل تكنولوجيات كثيرة أخرى، ما زلنا نجهل أسرارها؛ كبناء الأهرامات والتفريغ الهوائي لصف أحجاره وعلوم الفلك، وغيرها كثير.

وبما أن هذه الزهرة هي أهم ما يميز هذه المنطقة، وبناءً على توجيهات الخبير العبقري الذي يتتبع اللغز، طلب من «الحطَّام» أن يقتني هذه الصخرة بأي شكلٍ كان. وكانت عملية تزييف الحجر ونقله هي التي كشفت «الحطَّام» للحكومة المصرية. وبعد البحث والتحري انكشفت علاقته بالبعثة الأمريكية والمنظمة العالمية التي نقَّبت عن الآثار، وتم اتهامه بالخيانة العظمى وأُعْدِمَ على أثرها. المهم، حملت هذه الصخرة الدليل الثالث داخل أحشائها، الذي قادهم، عبر لغز آخر، إلى محطتهم الأخيرة.

تابع «مميز»، والصورة المسقطة على الحائط تُبرز جمجمتين متقابلتين (ملحق ٢):

المحطة الثالثة: كهف «مانوت» – «الجمجمة المشوهة».

سأله «الملَّاح»:

– ما هذه الجماجم الغريبة؟

- هذه الجماجم تُعرف باسم «الجماجم المشوهة». وهناك الكثير من الأدلة المسجلة في المخطوطات القديمة على أن قدماء الملوك والوزراء المصريين قاموا بتشويه جماجمهم عن عمد، حتى يتشبهوا بآلهة «الشمس». ولكن مهما حاول الإنسان تشويه شكل الجمجمة، لا يمكن أن يغيِّر شكل المخ دون أن يصيبه بضرر فادح ومميت. وللوصول إلى هذا الشكل، كانوا يضعون طوقًا ضيقًا من الحديد، حول رؤوس الأطفال حديثي الولادة، ليصبحوا على هذه الحالة. ولقد وجدنا الكثير من التماثيل المصرية القديمة التي ظهرت الجمجمة فيها بهذا الشكل، ووجد «فراس الحطَّام»، بداخل هذه الجمجمة، «الرماد الذهبي»، وإشارة صريحة للجدارين الشرقي والغربي، ليأتي القسم الثاني من هذه الجلسة، ودورنا في تعقب الجزء الأخير من هذه الشفرة الممتدة عبر عقود!

قال «ملهم» مستدركًا، في خُيَلاء:

- أحب أن أشير هنا إلى أن الخبير العبقري الذي حل هذا اللغز حتى هذه المرحلة كان هو عمنا «ذكي».

أصدر «الملَّاح» من أنفه صوتًا منفِّرًا وهو يقول:

- كان عليَّ أن أستنتج هذا؛ فالنسل القذر يُعبِّر عن نفسه بقوة...

قطع حديثه على أثر رنين هاتفه، فالتقطه مجيبًا في سرعة:

- ظهر أخيرًا؟! جيد جدًّا.. أريد النقود، وأريد لهذا «العشماوي» ألَّا يغادر مدافن عائلته حيًّا.. هل فهمتم؟

(٧)

في اللحظة نفسها، وعلى بعد ١٥٠ كيلومترًا، كانت سيارة سوداء رباعية الدفع تقطع ذلك الطريق الهادئ، بكشافات غير مضاءة.. إلى جوار سور مقابر «العشماوي»، القصير، الذي لم يُخفِ الشواهد والأضرحة، التي برزت معلنةً عن وجودها في تحدٍّ سافر أمام أعين المارة، باعثة وناثرة شحنات مقبضة مخيفة، في ذلك الطريق الضيق المظلم، الذي نادرًا ما ترى فيه أحدًا في نور الصباح.

أما مع سواد الليل، فكان يتحوَّل إلى بقعة خاوية خَلاءٍ مُوحِشة.

هدَّأت السيارة من سرعتها، حتى باتت تسير على سرعة لا تتجاوز كيلومترًا واحدًا في الساعة، قبل أن تتوقف عند بقعة بعينها، ثم أضاءت كشافاتها وأطفأتها، مرتين متتاليتين، لتتلقى إشارة مماثلة من سيارة لها نفس اللون والحجم، كانت تقف في الظلام، لن تستطيع رؤيتها أبدًا



حتى تقترب منها. بدأت بعدها في التحرك ببطء، وتوقفت بمحاذاة السيارة الأخرى، ليقول سائقها إلى نظيره:

– حظ سعيد مع نوبة المراقبة، حتى الآن لم يظهر هذا «العشماوي»، لأخذ النقود.

– لا تقلق، هو لنا من المُنْظَرِينَ.

أغلق بعدها زجاج السيارة، اتقاءً للبرد الشديد في تلك الساعة المتأخرة، ووضع مؤشر التدفئة على أقصى مدى له، وطلب من زميله الجالس إلى جواره أن يصب له كوبًا من القهوة الجاهزة، التي تم إعدادها سابقًا، لتكون ونيستهم مع سجائرهم في نوبة الحراسة. بينما في المقعد الخلفي، انشغل رجلان آخران في تنظيف مسدسيهما.

بعد مرور ساعتين، وقبل الفجر بحوالي نصف الساعة، كانت البرودة لا تُحتمل في الخارج. زجاج السيارة تكثَّف عليه بخار الماء، لاختلاف درجات الحرارة بين داخلها وخارجها، ومؤشر درجة الحرارة في الخارج أعلن عن ٥ درجات فوق الصفر.

فجأة، تَغيَّرَ كل شيء بغتة.

عاصفة عاتية أعلنت عن نفسها، صرير رياح، أمطار غزيرة، رعد وبرق بلا انقطاع، ومع إضاءة البرق، لمح الرجال «سعد» يتجاوز المدخل، يرتدي قميصًا أسودَ خفيفًا، وسروالًا له اللون نفسه، لا يتفقان مع الإعصار البارد الذي يبتلع كل شيء خارج السيارة. لسبب ما، وعلى الرغم من أن الرجال الأربعة مسلحون، أقوياء البنية، سرت



قشعريرة باردة تنافس البرودة التي في الخارج، من إطلالة ذلك الرجل، الذي يعالج قفل بوابة المقبرة، ويدلف في سرعة وكأنه ذاهب إلى نزهة.

من أين أتى هذا اللعين؟ هل ظهر من العدم؟ من المستحيل أن يكون قطع كل تلك المسافة من أول الشارع، سيرًا على الأقدام من دون أن نراه!

سأبلغ «الملّاح» حالًا بظهوره.

وحسب الخطة الموضوعة سابقًا في حالة ظهور الرجل، غادر رجلان السيارة، على الأقدام، بينما تحركت السيارة، لتقف أمام البوابة مباشرة.

كان الجو شديد البرودة بالفعل، والبخار ينبعث من فم أحد الرجلين، وهو يقول لزميله بصوت مرتعش من شدة البرد:

- هذه القرعة اللعينة.. لم يكن لنا نصيب لنكون نحن الجالسَين بالسيارة.. لقد كُتب علينا أن نواجه هذا الشيطان الذي لا يبالي بالبرد داخل المقابر المخيفة في هذا الجو العاصف.

لم يُجِبه زميله، الذي كان مشغولًا بالبحث عن الرجل الذي بدا وكأنه تبخَّر. فلا وجود هناك سوى لشواهد المقابر المخيفة، التي تلقي ظلالًا مرعبة، على أثر كشافات بيضاء باهتة متناثرة هنا وهناك. أما الرجل نفسه فلم يكن له وجود.

تحرك الرجلان ببطء وتوجُّس، في اتجاه شاهد قبر «العشماوي»، كل منهما يشهر مسدسه في تحفز، ويتلفت حوله يمينًا ويسارًا، بينما تبلل



الأمطار وجهيهما فترتجف شفاهُهما، مع ذلك الهدوء المطبق، الذي لا يقطعه سوى صرير رياح وعواء كلب وهزيم رعد مصاحب لإضاءة برق، مع فكرة الموت التي تحيط بالمكان ككل، متجسدة في شواهد القبور، وروائحها العطنة، التي نتجت عن اختلاط ماء المطر وتربة المدفن، فتحوَّل المشهد كله للوحة حية نابضة مقبضة سوداء جنائزية، من لوحات «جويا».

وعلى بُعد ثلاثين مترًا، هي كل المسافة التي تفصلهما عن شاهد القبر، سقط قلباهما في أقدامهما؛ فلوهلة ظهر «سعد» فوق شاهد القبر. وحينها تبادل الرجلان النظرات لمدة ثانيتين لا أكثر، ليلتمسا اليقين في أعين بعضهما البعض من أن ما رأياه كان حقيقيًا، لكن حينما أعادت أعينهما النظر كرَّة أخرى إلى حيث كان يقف «سعد»، لم يكن له أي أثر. ليبتلعهما الشك، ويتركهما عدم اليقين، في حالة تخبط، ما بين الوهم والحقيقة.

وفي داخل السيارة الرباعية، التي تسد مدخل بوابة المقابر، لم يكن الوضع أفضل حالًا كما يظنان؛ فلقد كان السائق يحاول الاتصال بهما ليطمئن قلبه، وفجأة انفتح باب السيارة الخلفي وانغلق في ثانية لا أكثر. وقبل أن يلتفت الرجلان ليريا ماذا حدث، كانت تنفجر في المقعد الخلفي عبوة بها غاز أبيض، بمجرد أن استنشقاه أصابتهما صدمة وارتعش جسداهما، وعلت الوجهين علامات الألم والتشنج وكأن صرعًا أصابهما؛ فقد كانا يمران بأعراض «إسفكسيا الخنق»، حتى النهاية!



وفي داخل المقبرة، كان الرجلان يقتربان ببطء من شاهد القبر، كان ذلك القبر يقع بين شجرتين عملاقتين، ولم يكن هناك أي كشَّافات إلى جانبهما، وفي ليلة غير مقمرة كهذه، غارت نجومها وتوارت خلف السحب السوداء التي تجري مسرعة، كأنها قطعان ذئاب سماوية تطارد بعضها البعض إلى غاية مجهولة، انتفضت الشجرتان، وتمايلت أغصانها على القبر. ترقصان رقصة هيستيرية على أنغام اصطدام قطرات المطر الغزير بشاهد القبر المسربل في ظلام دامس، الذي لم يهتك ستره سوى برقٍ سطع لثوانٍ، أتبعته ثلاث طلقات رعدية، جفلت معها عيونهما، ووجل لها قلباهما، وهما ينعيان سوء حظهما، حينما ساقتهما الأقدار بين شواهد الموت وأضرحته، في هذه الليلة السوداء.

الضريح بناؤه عجيب؛ دائري الشكل، تعلوه قبة حجرية كبيرة مزخرفة بنقوش جنائزية، بابه غير موصد، دخل الرجلان في حذر، وأحدهما يُخرج مصباحًا كهربائيًّا من جيبه، ليسلط ضوءه على السلم الحجري المنحدر إلى أسفل الضريح. نزلا درجات السلم في خوف وحذر وترقب، لتفرز الخلايا أليفة الكروم هرمون الإبينيفرين، وتزداد مع تدفقه نبضات قلبيهما وانقباض الأوعية الدموية داخل أجسادهما، لتحضيرهما إلى حالتي الكر أو الفر اللتين يقبلان على إحداهما. وفي الأسفل كانت تنتظرهما في خشوع ثلاثة توابيت خشبية يعلوها الغبار..

قال أحدهما في رعب:

- من أين أتى هذان التابوتان؟! منذ ساعتين، حينما نزلنا إلى هنا لنضع النقود، لم يكن هناك سوى تابوت واحد!

بلع زميله ريقه بصوت مسموع، لم يجرؤ أن يفتح فمه خشية أن يزعج بصوته من في القبور. فجأة تعالت أصوات ضرب وطرق معدني منتظم في الأعلى، وكأن هناك من يطرق بمطرقة حديدية على شاهد القبر. شعر معها الرجلان أن هذه الدقات تشبه قرع الطبول التي كانت تُستخدم لإعلام الخصوم ببدء الحرب، كما فعلها الصينيون قبل الميلاد، لأول مرة، بستة قرون كاملة.

في اللحظة التالية مباشرة، بدأت الحرب، فعليًّا، بغلق دفتي الباب الحديدي أعلى السلم، وصوت مزلاج ينزلق إلى داخل اللوحة المعدنية في إطاري البوابة فيستحيل معه خروجهما. ثم تحركت الأرض – تزامنًا – من تحت قدميهما واهتزت، فسقط الكشاف الكهربي بعيدًا، قبل أن يهويا بشكل رأسي داخل حفرة أسطوانية ضيقة تقع أسفل التوابيت، على عمق ثلاثة أمتار، ونصف قطر نصف متر، تشبه البئر الفارغة، مليئة بعظام وجماجم كالجبال. شعرا برعب شديد وهما يشاهدان هياكل الموتى التي تحيط بهما من كل جانب، وقد خُيِّل إليهما أنها تتحرك، وهي في الواقع كانت تتحرك، ولكن بفعل حركتهما الهيستيرية. يتطلعان إلى أعلى الحفرة في ذعر، وكلما يحاولان الصعود على جدرانها الترابية الزلقة، يعودان من حيث أتيا، في رحلة سيزيفية بائسة، تهيل على رأسيهما مزيدًا من ذرات التراب والغبار، وتقذف في قلبيهما المزيد من الرعب.

لم تكن هناك إضاءة بالأعلى سوى المصباح الكهربائي الذي سقط من يد أحدهما قبل وقوعه في هذا الشرك الذي نُصِبَ إليه في حنكة وبراعة، ثم سمعا صوت خطوات ثقيلة مقبضة، ورأيا ظلالًا بالأعلى،



انطفأ بعدها الضوء المنبعث من المصباح الكهربي، وبدأ معه انهيار التراب فوق رأسيهما بفأس عملاقة، وهما يصطرخان في رعب، يدركان حقيقة ما يحدث لهما الآن..

كان يتم دفنهما..

حيين..

وهما يشعران!

(٨)

من «ذكي» إلى «ملهم» و«مميز»! ما شاء الله، سلالة فاخرة بنت «...»! وماذا بعد هذا كله؟! فقط ننتقل من لغز إلى لغز عبر عقود. هل انتهينا أخيرًا وسنصل إلى ما نصبو إليه؟

تفوَّه «عقرب» بهذه الكلمات في ضجر وهو يجذب مقعدًا ليجلس أمام الحائط المسقط عليه صور العرض التقديمي، فتبادل «ملهم» و«مميز» نظرات غير مطمئنة، وحملت ملامحهما أمارات لم ترُق أبدًا له ولا لـ«الملاح»، قبل أن يقول «مميز»:

- للأسف، ما زال أمامنا الكثير.. كل هذا الطريق الوعر والشاق، الذي قُطِعَ عبر ربع قرن ويزيد، يبدو أنه كان فقط البداية. مجرد رَيْعَان للوصول إلى هذه الطلاسم المعقدة، التي علينا التعامل معها بحذر. الأخبار السارة أننا نجحنا في فكٍّ جزئي لشفراتها. أما الأخبار غير



(٨)

من «ذكي» إلى «ملهم» و«مميز»! ما شاء الله، سلالة فاخرة بنت «...»! وماذا بعد هذا كله؟! فقط ننتقل من لغز إلى لغز عبر عقود. هل انتهينا أخيرًا وسنصل إلى ما نصبو إليه؟

تفوَّه «عقرب» بهذه الكلمات في ضجر وهو يجذب مقعدًا ليجلس أمام الحائط المسقط عليه صور العرض التقديمي، فتبادل «ملهم» و«مميز» نظرات غير مطمئنة، وحملت ملامحهما أمارات لم ترُق أبدًا له ولا لـ«الملاح»، قبل أن يقول «مميز»:

– للأسف، ما زال أمامنا الكثير.. كل هذا الطريق الوعر والشاق، الذي قُطِعَ عبر ربع قرن ويزيد، يبدو أنه كان فقط البداية. مجرد رَيْعَان للوصول إلى هذه الطلاسم المعقدة، التي علينا التعامل معها بحذر. الأخبار السارة أننا نجحنا في فكٍّ جزئي لشفراتها. أما الأخبار غير

السارة فهي أن هذه ليست نهاية البحث كما توقعنا، بل بداية لسلسلة أخرى من الألغاز، التي نأمل أن تكون الأخيرة هذه المرة. ولكن مع بعض البحث في أماكن أخرى أشار إليها النص.

أخذ «الملّاح» شهيقًا عميقًا يستلهم منه المزيد من الصبر، وهو يجذب مقعدًا آخر ليجاور «عقرب»، ويشير لهما بأن يكملا ما بدآه.

بدأ العرض التقديمي بصورة منقسمة إلى ثلاثة أجزاء: الجزء العلوي يحتل نصف الشاشة، ويوجد به اثنتا عشرة بوابة متتالية، أعلى كل منها رقم، تبدأ من رقم «٦»، ثم عشر علامات استفهام متتالية، وانتهت برقم «١٢».

٦\؟\؟\؟\؟\؟\؟\؟\؟\؟\؟\١٢

بينما انقسم النصف السفلي من الشاشة إلى رُبعين، الربع الأيمن حمل صورة لكتاب عنوانه «الخروج إلى النهار»، بينما الربع الأيسر حمل كتابًا ذهبيًّا عنوانه «المعرفة الكاملة». ليقول «ملهم» وهو يشير بكفه اليسرى ناحية الصورة ويحركها حركة دائرية، لتعبر يداه على الأقسام الثلاثة المعروضة على الشاشة:

- هناك علاقة تربط بين هذه الأجزاء الثلاثة المعروضة على الشاشة، التي هي لُبُّ الطلاسم التي نحاول أن نسبر أغوارها. اسمحا لنا أن نأخذكما في رحلة قصيرة عبر بعض المعلومات المهمة المتعلقة بحياة المصري القديم ومعتقداته، حتى نستطيع أن نقف جميعًا على أرضية مشتركة من المعرفة، تسمح لكما باستيعاب المنطق الذي اتبعناه في حل رموز هذه الشفرة التي وجدناها على الجدارين الشرقي والغربي.



سأله «عقرب»:

- وما هذه العلاقة؟

- المصري القديم كان يحنط موتاه فيتحولون إلى مومياوات؛ لإيمانه بحياة الخلود بعد الموت وأنها هي الحياة الحقة، فكان يؤمن أنه بعد موته يذهب في رحلة مخيفة عبر العالم السفلي، يعبر خلالها اثنتي عشرة بوابة، في اثنتي عشرة ساعة، وإذا ما عبرها بسلام يمر بالمحاكمة، فيوضع قلبه على كفة ميزان دقيق، وفي الكفة الأخرى ريشة تسمى ريشة «ماعت». وإذا ما تجاوز كل هذا، يخرج للنهار أو «الخلود». وبالمثل الطلاسم التي وجدناها تشير إلى أنهم طبقوا المفهوم نفسه في حماية علومهم وأسرارهم. هناك عالَمٌ آخر أخفوا فيه هذه العلوم، ولكي تصل إليها لا بد أن تتجاوز اثنتي عشرة بوابة أيضًا، بترتيب محدد، وإن تجاوزتها، تصل في هذه الحالة إلى المعرفة الكاملة.

الأمر الذي جعلنا نركِّز جهودنا البحثية في هذا الاتجاه، لنفهم أسرار الشفرة التي تركوها لنا، فكان علينا أن نجيب عن سؤالين مهمين، الأول: كيف نصل إلى هذا العالم السفلي أو «الآخر»؟ وأين هو؟ ثانيًا: ما ترتيب عبور البوابات الصحيح، التي بدا واضحًا من شفرتهم، أنهم غيَّروا ترتيبها، وأن جزءًا كبيرًا من الحل يعتمد على معرفة الباحث من هذا الترتيب!

- مهلًا.. كيف ربطتها هذا بذاك؟!

- لعدة أسباب، أهمها: أن كلمات الشفرة مقتبسة بالفعل من هذا الكتاب، مع إضافة بعض الكلمات التي نستنتج منها أنها مفاتيح الحل..



هذه الكلمات التي وضعنا تحتها خطًّا على هذه الشريحة هي الكلمات المقحمة على النصوص الجنائزية.

قطع حديثه وهو يعرض شريحة عليها النص الجنائزي (ملحق ٣)، ثم أعاد الشريحة السابقة وأشار بسباته إلى ربع الشاشة الأيمن السفلي، الذي يعرض صورة كتاب «الخروج من النهار»، ثم قال:

- وُجِدت نسخ كثيرة منه في مقابرهم، وهو عبارة عن مجموعة من التعاويذ الجنائزية السحرية، الهدف منها خدمة المصري المتوفَّى، وتعريفه في مقبرته بالطريق في رحلة الآخرة، ويشتمل هذا الكتاب على نصوص تساعده في معرفة سكان العالم السفلي والكائنات المحجوبة والأبواب والطرق التي يمر عليها كي يصل إلى الخلود؛ لأنه كان يتوجَّب عليه معرفة ما يفعل ومعرفة أبواب وساعات الليل بمجرياتها وحراسها، ومعرفة تعويذات البراءة التي تساعده في رحلته.

تابع «مميز»، بعد أخيه الذي توقف ليشرب جرعة ماء:

هذا الكتاب سُمي في عصرنا الحديث «كتاب الموتى»، واسمه الأصلي «كتاب الخروج في ضوء النهار». وهو يقوم على خلفية أسطورية، استمر تأثيرها في وعي ووجدان المصريين قرابة ثلاثة آلاف عام، وهي أسطورة «إيزيس» و«أوزوريس».

ومن أشهر فصول هذا الكتاب - الذي يتكون من ٢٠٠ فصل -: الفصلان الـ١٧ والـ١٢٥، الذي كان يمثل المرحلة الأخيرة، وهو محاكمة المتوفَّى في العالم الآخر؛ حيث يمثل المتوفى أمام «أوزوريس» ومعه ٤٢ قاضيًا، ويؤدي فيها اعترافًا شهيرًا يسمى «الاعتراف بالنفي».



ضحك «ملهم» ضحكة خفيفة، معلقًا على ما يقوله أخوه:

- هذا الاعتراف بالنفي يبدأ دائـمًا بــ«لا» أو «لم» لإنكـار الأفعـال السيئة، لكن المثير في الأمر أنهم كانوا يحتاجون تعاويذ حتى يخدعوا من يقومون بمحاسبتهم، وكأنهم يعترفون ضـمنيًّا بـأنهم قـاموا في حيـاتهم بهذه الأفعـال المشينة فعليًّـا، وأنهـم لم يكونـوا هـؤلاء القـوم الـورعين الصالحين، بل يحتاجون إلى تعاويذ تساعدهم على نفي هذه الأعمال.

بادل «مميز» أخاه الابتسامة، بينما بدا على «عقرب» و«الملَّاح» ضيق النفس، قبل أن يندفع «عقرب» في غضب كعادته وهو يقول:

- انجز يا روح أمك انت وهو.

تابع «ملهم» بالإيقاع نفسه غير مبالٍ بتعليق «عقرب»:

- إن المصريين القدماء لم تكن ثقافتهم ثقافة «حياة»، بـل هـي في الواقع ثقافة «موت». كانوا يعيشون طيلة حياتهم وهم يـضعون نـصب أعينهم الجانب المقابل لهذه الحياة.. ومع ذلـك لم يـوقفهم هـذا المبـدأ في حيز البلادة، بل كانوا أقوامًا متقدمين حضاريًّا، وسادوا العالم بتفـوقهم الحضاري.. كانوا قومًا منتجين.. عاملين مهرة: تخطـيط ودقـة ومتابعـة وجداول أعمال تُنافِس أعظم مديري المشروعات العـالميين في التخطـيط والتنفيذ.

تابع «مميز»:

- وكانت «الشمس» هـي المـصدر الرئيسي لهـذه الفلـسفة؛ فهـي مصدر الحياة على الأرض، وهذا صحيح، لكن الذي ليس صحيحًا هـو

أنهم اعتبروها إلهًا يموت عند الغروب ويُبعث من جديد مع الشروق، بعدما يعبر تلك الرحلة المخيفة في العالم السفلي، وكأن الشمس حينها تغيب تغطس في باطن الأرض في ذلك العالم التحتي، ولأنهم عرفوا أن اليوم ٢٤ ساعة، فقسموا رحلة الشمس اليومية في العالم السفلي إلى ١٢ ساعة، عبر ١٢ بوابة، يحرس كل بوابة وحوش مخيفة.

سحب «ملهم» الخيط – من جديد – ليقول:

– وبما أنهم اعتبروا الشمس إلهًا يموت ويبعث، يوميًّا في تعاقب الشروق والغروب، ظنوا أن الميت سيمر بالرحلة نفسها ليُبعث من جديد.

قاطعه «الملّاح» هذه المرة في ضجر، ممزوج بنفاد صبر وغضب:

– أيها الأحمقان، من يجلسان أمامكما الآن أمضيا عمرًا في علم المصريات القديمة ولا يرغبان في سماع المزيد.. عشر سنوات قضياها في البحث عن الأسرار الخفية وسر التقدم الحضاري الذي توصل إليه المصريون، مئات من شباب العبابدة لقوا حتفهم عبر سنين، ونحن نقتفي آثار هذه المعرفة. «الحطّام»، نفسه، قضى نحبه وهو يبحث عن هذا السر، وأنا خاطرت بكل شيء وما زلت أخاطر.. ما وجدناه على الحائطين الشرقي والغربي كان نتاج مشوار عسير، ولم أكن أتخيل أنه بداية لغز جديد.. ظننته النهاية.. اقفز إلى حل الشفرة مباشرة، ومن دون مقدمات سخيفة.

قال «ملهم» في سرعة:

- حسنًا، هذا ييسِّر الأمور كثيرًا.. السطور التي وجدناها هي عبارة عن مقتطفات متفرقة من كتاب الموتى، وتمت إضافة بعض الكلمات بينها، ولا نجد سببًا واحدًا لإقحام كلمات لا تمتُّ بصلة للنص الجنائزي سوى كونها وسيلة لفك الطلاسم.. ليفسِّر النص نفسه.. ولقد قلبناها من عدة أوجه ولم نجد لها سوى معنى واحد.

- وما هو؟!

أخذ «ملهم» نفسًا عميقًا وهو يلقي نظرة جانبية على «مميز»، وكلاهما يقول في نفَس واحد، في تزامن مدهش:

- لقد أخفى المصريون القدماء أسرار علومهم في منطقة لم يصل إليها أحد من العالمين سوى في معتقداتهم وكتب الآخرة التي تخصهم.

قال «عقرب» و«الملَّاح» في نفَس واحد وفي لهفة وجشع واضحين:

- أين؟

تبادل «ملهم» و«مميز» النظرات وهما يجيبان، أيضًا، في اللحظة نفسها:

- المنزل الخفي، في حقول الأيارُوا.

ضرب «عقرب» على فخذيه بكفيه، وهو ينظر إلى سقف الحجرة وقد بلغ منه التحمل والصبر أقصى المنتهى، وهو يقول:

- وأين تقع «حقول الأياروا» اللعين هذه؟

- بعد تجاوز «الكون الفوضوي» مباشرة!



هنا قام «الملّاح» من جلسته وهو يمسك «ملهم» من تلابيبه:

– أيها الأحمق، لا تأخذنا من لغز لآخر.. وما «الكون الفوضوي»؟ وكيف نتجاوزه؟

– سأوضح لك.. إن العالم السفلي، الذي تحدث عنه قدماء المصريين، مكان عجيب ومخيف.. كانوا يخشونه لأنهم قوم منظمون متقدمون حضاريًا، وكانوا يظنون أن هذا العالم السفلي، باختصار، هو مواجهة مع الفوضى!

ردد «عقرب» و«الملّاح» في آنٍ واحدٍ:

– مواجهة مع الفوضى؟!

– نعم.. مواجهة مع الفوضى، معتقداتهم تقول: إنه بعد الخلق ظهرت جزيرة ذات نظام عادل ومنطقي، لكنَّ قسمًا كبيرًا من الكون بقي غير مكتمل الخلق وفوضويًا.. فكان غير عقلاني؛ أي شيء ممكن أن يحدث هناك.. كثير من «كتب الموتى» تتناول هذا السحر اللامنطقي؛ وذلك بمحاربة قوة غير منطقية، بوسائل غير منطقية أيضًا..

– حسنًا.. لو افترضنا أن ما تقوله صحيح، فكيف نتجاوزه؟

– الطلاسم تقول: إنه بعد تجاوز الاثنتي عشرة بوابة. لكن المشكلة أن في عالمهم السفلي، البوابات التي يعبرها المتوفَّى وُضعت بترتيب منطقي من ١ إلى ١٢. أما في هذا العالم، الذي أخفوا فيه هذه الأسرار، فقد غيَّروا ترتيب البوابات لتصبح كمتاهة، أشاروا لنا فقط إلى بوابتي



الدخول والخروج. ومن لا يعرف ترتيب البوابات سيظل عمره هائمًا في ذلك العالم، يحاول أن يعبرها.. وهذا أمر مستحيل عمليًّا.

الأمر أشبه بأن تحاول أن تُدخل كلمة سر من ١٢ متغيرًا، حتى تصل إلى الترتيب الصحيح للأرقام بالصدفة، ما يترك لنا ملايين الاحتمالات.. وللدقة، بالمفهوم الرياضي الحديث: ١٢ مضروب ١٠.

ثم ظهرت الشريحة المسقطة على الحائط وهي تحمل سطرًا واحدًا:

12 P 10 = factorial(12)/factorial(2) = 239500800

مليارا احتمال.. فقط.

(٩)

لم يكن هذا - بالتأكيد - ما يرغب في سماعه «عقـرب» و«المـلَّاح»، أن ينتهي هذا الأمر بحل أكثر تعقيدًا، فاندفع «عقرب» مغاضـبًا ناحيـة «ملهم» وأمسك بتلابيبه ودفعـه في قـسوة وخـشونة إلى الخلـف، حتـى التصق ظهره بالجدار، وهو يقول:

- أيها الأحمق، هل تظن أنك تستطيع خـداعي؟ هـذا الكنـز الـذي يبحث عنه جارِ البحث عنه منذ أكثر من ربع قرن.. وهذا هو آخر جزء، الذي يُفترض أن يحمل كل الحلول بين ثناياه.. لن تستطيع خداعي أنت وأخوك الأحمق.

ثم أخرج مسدسه من جيبه وصوَّبه إلى رأس «مميز» وهـو يقـول - غير مازحٍ - لـ«ملهم»:

(٩)

لم يكن هذا – بالتأكيد – ما يرغب في سماعه «عقرب» و«الملَّاح»، أن ينتهي هذا الأمر بحل أكثر تعقيدًا، فاندفع «عقرب» مغاضبًا ناحية «ملهم» وأمسك بتلابيبه ودفعه في قسوة وخشونة إلى الخلف، حتى التصق ظهره بالجدار، وهو يقول:

– أيها الأحمق، هل تظن أنك تستطيع خداعي؟ هذا الكنز الذي يبحث عنه جارٍ البحث عنه منذ أكثر من ربع قرن.. وهذا هو آخر جزء، الذي يُفترض أن يحمل كل الحلول بين ثناياه.. لن تستطيع خداعي أنت وأخوك الأحمق.

ثم أخرج مسدسه من جيبه وصوَّبه إلى رأس «مميز» وهو يقول – غير مازحٍ – لـ«ملهم»:

- تحدَّث أيها الأحمق، وإلا نسفت رأس أخيك، قبل أن أفعل ما وعدتك به وأزيِّن مؤخرتك بفجوة ثانية.

أما «مميز» - الذي بدا وكأن المسدس المصوَّب إلى رأسه لا يخيفه - فقال في هدوء:

- إنك لم تترك لنا الفرصة لنكمل ما بدأناه. اترك أخي ودعنا نكمل حديثنا. لقد قلنا: إن هناك اثنتي عشرة بوابة، تقابل اثني عشر احتمالًا، لا نعرف منها سوى بوابتي الدخول والخروج، ما يترك لنا أكثر من مليارَي احتمال، هذا حقيقي. لكننا قد نجحنا في حل جزئي للشفرة.. هناك الكثير من الأجزاء الناقصة، التي ما زلنا نسعى إلى إيجاد علاقات تربط بينها.

ارتخت قبضتا «عقرب» حول رقبة «ملهم»، الذي أفلت تلابيبه في حنق وعاد إلى موقعه ليكمل العرض التقديمي، ليظهر على الشاشة النص الجنائزي:

- كما تريان، النص الجنائزي منقسم إلى جزأين، لكنهما غير منفصلين: جزء الجدار الشرقي وجزء الجدار الغربي، والمقطعان متصلان، ويجب أن نتعامل معهما كوحدة واحدة.

مرَّ «عقرب» و«الملَّاح» بأعينهما سريعًا على الكلمات، و«ملهم» يقول:

- سنشرح لكما السبب الذي جعلنا نربط هذا الأمر بالعالم السفلي ومجرياته وكيف حددنا أول متغير في الشفرة: رقم «٦».

الإجابة في هذه الشريحة.

على الحائط صورة جدول عنوانه: ساعات وأبواب (ملحق ٤).

و«ملهم» يتابع:

- النص الجنائزي على الجدار الشرقي يقول: ليبدأ رحلته من الوصول، تلك التي تحدد الطريق، ذا السكاكين الحامية، بئر العالم السفلي.

وهذه هي نفسها البوابة رقم «٦» في جدول الساعات والأبواب.

نظر «عزت» إلى الجدول مرة أخرى قبل أن يسأله:

- ما هذا الجدول؟ وما العلاقة بين «الساعات» و«الأبواب»؟

- الجدول هو أسماء بوابات العالم السفلي والتي كان يعتقد المصري القديم أنه سيعبرها بعد وفاته، في اثنتي عشرة ساعة طوال مدة الغروب أو الإظلام حتى تشرق الشمس بعدها من جديد، وعلاقة الساعات بالأبواب، الجمع بينهما، ما هي إلا محاولة ربط أبديتي «الزمان» و«المكان»؛ فالساعات هي التي تحدد مسيرة «الشمس» خلال الزمان، كما ذكر في «كتاب الموتى». والبوابات الاثنتا عشرة هي التي تحدد مسيرتها من خلال «المكان»، وذلك في كتاب آخر من كتبهم التي تصف العالم الآخر بدقة (كتاب البوابات).

بالمناسبة، إن مجرد معرفتنا بوابة الدخول واستنتاج بوابة الخروج اختزلا تقريبًا مليار احتمال.



وكما قلنا، الكلمات المقحمة على النص الجنائزي أفادتنا في معرفة خمسة متغيرات أخرى، ليصبح الترتيب كالآتي:

١٢\٢\؟\؟\؟\؟\٤\٧\٣\١٠\٥\٦

قال «عقرب» في لهفة:

- كيف عرفتم ترتيب الأرقام السابق؟

- لقد وضعوا لنا متتالية رقمية، أفادتنا في حل نصف الشفرة، تتلخص في الكلمات القليلة الآتية:

«ليبدأ رحلته من الوصول، تلك التي تحدد الطريق، ذا السكاكين الحامية، بئر العالم السفلي، في الأيام المكملة، من كل أسبوع، في كل فصل من فصول السنة، ليصل إلى النجوم الخالدة في المدة المحددة للتلاقي».

تابع «مميز» في غرور:

- كما شرحنا لكما، تحتاجان لعباقرة مثلنا على دراية بجميع تفاصيل علم المصريات القديمة؛ فهذه الشفرة تعتمد على فهم كامل لثقافة المصريين القدماء وحياتهم وتقويمهم وعلومهم؛ فمثلًا:

رقم «٦» كان هو رقم بوابة الدخول كما أسلفنا الذكر.

بينما رقم «٥»، فقد جاء من كلمتي «الأيام المكملة».

فقد كانت السنة، في التقويم المصري القديم، تتكون من ١٢ شهرًا، والشهر ٣ أسابيع، وكان كل أسبوع ١٠ أيام، وفي نهاية السنة، كان يضاف ٥ أيام تسمى الأيام المكملة، ليصبح عدد أيام السنة ٣٦٥.

فتصبح المتتالية الكلامية مقابلة المتتالية الرقمية: رقم ٦ ثم رقم ٥.

وبالمثل بقية الكلمات التي تقابلها أرقام:

من كل أسبوع، في كل فصل من فصول السنة، ليصل إلى النجوم الخالدة، في المدة المحددة للتلاقي.

الأسبوع كان ١٠ أيام وليس ٧.

و كانت السنة في تقويمهم مقسمة إلى ثلاثة فصول فقط وليست أربعة كما هي اليوم: «٣».

ليصل إلى النجوم الخالدة، وهي نجوم الدب الأكبر السبعة، في علومهم الفلكية: «٧».

أما في المدة المحددة للتلاقي: «٤»، فلقد كان هناك تقويمان في العصر الفرعوني، هما: التقويم المدني (الرسمي) والتقويم الشمسي (الفلكي)، وكان التقويمان يتطابقان كل ١٤٦٠ سنة لمدة ٤ أيام.

وأخيرًا، صالة الحقيقة، دائمًا تسبق بوابة الخروج، ما جعلنا نستنتج آخر رقمين في المتتالية: ٢، ١٢.

قال «الملّاح» وقلبه يخفق من الانفعال:

- وأين تقع هذه البوابات؟

- هذا ما نأمل أن نعثر عليه في رأس المثلث الذهبي.

- أي مثلث ذهبي تقصد؟



- هذا سيقودنا إلى الجدار الشرقي وكلمة مهمة مقحمة على النص الجنائزي.

ظهرت الصورة المسقطة على هيئة شريحة تحمل شكل «مثلث»، رأسا قاعدتيه إحداثيات «المعبد المزدوج»؛ حيث كان «الجدار الغربي»، و«مغارة وادي العلاقي»؛ حيث كان «الجدار الشرقي»، ونقطة مرسومة أخرى تمثل رأس مثلث، و«ملهم» يتابع:

- «ثلاثة ثلاثة ذهبية».. تفسيرها لنا هي أنها مثلث؛ حيث كان المثلث في علومهم الرياضية له الاسم نفسه «ثلاثة ثلاثة».

وكما كان حل عمي «ذكي»، للمحطة الثانية، حينما أوصى بإسقاط تقاطع نجوم حزام «الجبار» على الأرض، فوصل بـ«الحطَّام» إلى معبد «أبيدوس». فمن دراستنا للمنهج الذي استخدمه عمي «ذكي»، إلى جانب أنها طريقة معتمدة في الشفرات منذ قديم الأزل، لكي يعلم من يحاول أن يتتبع الحل أنه على الطريق الصحيح، أن يجد علامة تؤكد صحة استنتاجه، ولأن من وضع الشفرة المعقدة هو هو الشخص نفسه، والعقلية نفسها، فلِمَ لا نتبع الأسلوب نفسه ونكون رأس المثلث؟ وإذا وجدنا ضالتنا عند رأس المثلث، تأكدنا أننا نسير على الطريق الصحيح فيما توصلنا إليه، حتى هذه اللحظة في تفسيرنا للشفرة. هذا ليس تكتيكًا مبتكرًا - بالمناسبة - فدائمًا يحمل جزءٌ من الحل ما يؤكده.

أشار «عقرب» عند نقطة رأس المثلث وقال:

- وعلى أي أساس حددتما إحداثيات بقعة رأس المثلث بهذه الدقة؟ نحن نستطيع رسم عدد لا نهائي من المثلثات من نقطتين فقط.



أجابه «مميز»:

- هذا صحيح بالنسبة للمثلث العادي، لكن الأمر يختلف كثيرًا حينما تعرف رأسي مثلث ذهبي وطول ضلع واحد!

الكلمات صريحة: ثلاثة ثلاثة ذهبية.

لا أفهم.. ما هذا المثلث الذهبي؟

هناك «مثلث ذهبي»، بمحافظة البحر الأحمر، بالصحراء الشرقية، هذا مشروع مصري حديث، أعدته الهيئة القومية للاستشعار عن بُعد، وعلوم الفضاء، بهدف تنمية المنطقة التي تقع بين سفاجا والقصير وقنا. وعلى الرغم من أن هذا المثلث عرفه المصريون؛ لما يحتويه من ثروات منذ القدم، فإننا لا نرجِّح أن هذا المثلث الذهبي له علاقة بالشفرة.

لهذا سنتجه إلى علم الرياضيات.

في الهندسة الرياضية، المثلث الذهبي له ثلاثة تعريفات، ولقد أدخلنا هذه المعطيات في برنامج رياضي جغرافي، برمجناه لنحصل على ثلاث نقاط مختلفة، وعلينا قبل كل شيء أن نركِّز جهود البحث في هذه المواقع الجغرافية التي تماثل النقاط الثلاثة إحداثيا على أرض الواقع:

الموقع الجغرافي الأول أو رأس المثلث من التعريف الأول: المثلث الذهبي، هو مثلث متساوي الساقين، يكون فيه الضلعان الطويلان متساويين، ونسبة طول الضلع الطويل إلى الضلع الصغير (القاعدة) تساوي النسبة الذهبية.

$$\varphi = \frac{1+\sqrt{5}}{2}.$$

وهذا يقودنا إلى الموقع «أ».

أشار إلى دائرة حمراء حول إحداثيات نقطة بعينها، على الخريطة، تظهر إلى جانبها كلمة: الموقع «أ».

الموقع الجغرافي الثاني، من التعريف الثاني:

وهو شكل المثلث الذي يوجد في النجمة الخماسية حيث قياس زاوية الرأس =

$$\theta = \cos^{-1}\left(\frac{\varphi}{2}\right) = \frac{\pi}{5} = 36°.$$

وهذا يقودنا إلى الموقع «ب».

ظهر على الخريطة موقع آخر حوله دائرة صفراء، وداخلها الموقع «ب».

الموقع الجغرافي الثالث من المفهوم الثالث: أنه مثلث لأطوال أضلاعه نسبة ١:٢:٢.

وهذا يقودنا إلى النقطة «ج»، كما تظهر أماكنها على الخريطة.

وهل عرف المصريون القدماء هذا كله؟

كنت أتوقع سؤالًا مثل هذا؛ لهذا أعددت لكم هذه الشريحة (ملحق ٥)، التي تحمل جزءًا يسيرا جدًّا من الإحصاءات قادمة مباشرة من قبل التاريخ من حضارة هؤلاء القوم، لكن المتعمِّق في المصريات القديمة يعلم أن هذا فقط نقطة من بحر، وإلا لما كان هناك داعٍ إلى كل هذا التعقيد للحصول على أسرار هذه الحضارة. وكل هذه السنين والمشقات لأنه، ببساطة، الحصول على هذه الأسرار كنز بلا ثمن.

كان «عقرب» يلتهم بعينيه هذه المعلومات.. قد سمع الكثير عن تفوق الحضارة المصرية القديمة، وطالما تعامل معها على أنها أساطير بعيدة المنال، لكن هذه المرة خفق قلبه في قوة وهو يستشعر فخرًا لأنه ينتمي إلى هذه الحضارة، وطمعًا؛ لأن هذا كله وأكثر سيصبح ملكه عمَّا قريب، فنظر إلى «الملَّاح» ليرى وقع هذا الأمر عليه، إلا أن العجوز بدا مشغولًا للغاية وهو يحاول الاتصال برجاله في مقابر «العشماوي»، ليتابع تطورات الموقف، إلا أن الأمر أقلقه بشدة حينما لم يُجِبه أيٌّ من الرجال الأربعة..

وانتفض في شدة حينما اقترب منه «عقرب» وهزه هزة خفيفة وهو يسأله:

- ما الأمر يا «ملَّاح»؟ أين ذهبت بعقلك؟ نحن الآن نقترب من تحقيق الحلم يا صديقي العزيز.

أشعل «الملَّاح» سيجارًا وارتعشت يده انفعالًا وهو يقول:

- هناك أمر غير سار، كنت أظن أني أستطيع احتواءه، من دون أن أشركك أو أشغل بالك به، لكن يبدو أن الأمور خرجت عن السيطرة.

بدا «عقرب» غير مهتم بأي شيء الآن وهو يقول لصديقه:

- فليذهب أي شيء آخر إلى الجحيم يا صديقي. سنلتقي غدًا في قصرك، وأعدك أن أساعدك في كل مشكلاتك. أما الآن فيبدو أن هذين الغلامين يستحقان كل سنت دُفع لهما. هذان العقلان الذهبيان يستحقان ما هو أكثر.

ثم وجَّه سؤالًا لكليهما:

- عليكما الآن أن تقولا لي، بخبرتكما الذهبية: أيٌّ من هذه المواقع الثلاثة ترجحان أن نبدأ به؟ بالتأكيد لديكما لمحات عبقرية أخرى، ونحن ليس لدينا وقت كافٍ للتنقيب في هذه الأماكن مجتمعة.

نظر «مميز» إلى «ملهم» ثم قال:

- موقع «ب»، الذي أطلقنا عليه «سيتا»، والذي يشير إليه المثلث الذهبي، للنجمة الذهبية.

ضيَّق «عقرب» عينيه وخفق قلب «الملَّاح» وهو يسأل:

- لماذا؟

أعاد «ملهم» الصورة لمثلث النجمة الخماسية وقال:

- لأن هذه النجمة تحتوي على خصيصة ذهبية أخرى؛ فهي تحقق النسبة «المقدسة» أو «الذهبية» (فاي ١.٦١٨)، التي تتحقق عندما تكون النسبة لمجموع قيمتين عدديتين والأكبر بينهما تساوي النسبة بين أكبر العددين، والأصغر بينهما، وهي تتحقق في الهرم الأكبر أيضًا، حيث

ارتفاع غرفة ملك «خوفو» التي تقع في نسبة الهرم الأكبر الذهبية. والنجمة ترسم بخطوط متساوية الطول تتقاطع في خمس نقاط في الوسط، كما أن النسبة بين قطعة منها والبعد بين رأسين متتاليين خارجين تساوي النسبة المقدسة فاي.

بدا على وجه «مميز» القلق وهو يقول:

- هناك أمر آخر ينبغي أن تدركاه، يبدو أن عامل الوقت ليس في صالحنا هذه المرة.. وهو أمر لم يكن متَّبعًا في المراحل والمحطات السابقة.. الأمر هذه المرة محدد ومقيد بمدة زمنية. وقد بدأ العد التنازلي - بالفعل - منذ أربعة أيام، وتحديدًا، منذ لحظة ظهور الطلاسم على الجدارين.

انتقل قلقه إلى «عقرب» و«الملَّاح»، قبل أن يقول الأول:

- لا أفهم شيئًا مما تقول.

- الشفرة تقول: سيعرفونه لعشر ليال كي ينسوه لعشرة قرون.. هذه كلمات أخرى مقحمة على النص الجنائزي، وليس لها معنى - من وجهة نظرنا - سوى أن العد التنازلي بدأ منذ أربعة أيام. وبعد ستة أيام، ربما سينغلق الطريق الذي يقودنا إلى هذه العلوم لمدة عشرة قرون كاملة.

- وما أدرانا أن ما توصلتما إليه حتى هذه اللحظة صحيح؟

- هذا أمر بسيط.. لقد قلنا لكم: لو بحثنا في النقاط الثلاث التي افترضناها، ولم نجد دليلًا يقودنا لمعرفة ترتيب باقي بوابات العبور،

فهذا معناه أن طريقتنا في تحليل هذا اللغز خاطئة تمامًا، لكن لـو وجـدنا شيئًا فهذا معناه أننا على الطريق الصحيح، وكلي ثقة أنه كذلك.

– وما مصدر هذه الثقة؟

– سببان، الأول: أنه من المستحيل أن تكون كل هذه الاستنتاجات المنطقية مصادفة. الثاني: أن من وضع هـذه الـشفرة المعقـدة منـذ آلاف السنين هو شخص واحد، له طريقة تفكير واحـدة، ونحـن نـستطيع أن نستنتج الآن، بناءً على جميع المحطات السابقة، طريقة تفكيره.

وكان هذا هو فصل الختام لهذه الجلسة.

ومن دون كلمة أخرى، وعلى الفور، ودون إضـاعة ثانيـة واحـدة، بدأ «عقرب» و«الملَّاح» في القيام باتصالاتها الهاتفية، للتحضير للمهمـة التالية والوصول إلى الرأس..

رأس المثلث الذهبي.

(١٠)

- لديَّ موعد سابق مع سيادة الوزير في الحادية عشرة صباحًا.

رفعت مديرة مكتب الوزير عينيها من على التقارير الموضوعة أمامها وتأملت الرجل الواثق الوسيم، بملامحه الخشنة وشاربه الضخم وعينيه الواسعتين السوداوين، فخفق قلبها في رهبة لثوانٍ وهي تسحب نفسها من بحر عينيه بصعوبة، وقالت وهي تقرأ البيانات من على شاشة الكمبيوتر:

- أستاذ «سعد العشماوي»، موظف بقطاع السجون، ترغب في مقابلته لتعرض فكرة مشروع في المثلث الذهبي بمصر، وتحديدًا في قرية «العبابدة».

ابتسم «سعد» وهز رأسه في صمت ولم يعقب. أشارت له بالانتظار على المقعد الفاخر المواجه لها، فنظر إلى ساعته وقال في صوت عميق ثقيل:

- الساعة الآن الحادية عشرة، حسب الموعد المتفق عليه تمامًا، وأنا لديَّ مواعيد مهمـة، ولا أظـن أن وقتـي يسمح لي بالانتظـار طـويلًا. سأعطيكم من وقتي خمس دقائق إضافية.

تجسدت ملامح الدهشة على وجه المديرة وهي تتطلع مـرة أخـرى إلى الموظف بمصلحة السجون الذي يمهل مكتب الوزير خمـس دقـائق فقط قبل أن يرحل! لم تملك مع تأثيره الكاسح إلا أن تـشير إليـه ناحيـة غرفة الانتظار، وتقول في كلمات خرجت منها مرتعشة، أرادتها واثقة:

- من فضلك، اجلس وسيقابلك سيادة الوزير.

رفع «سعد» يده اليسرى، التي أعد ميقات ساعة إيقافهـا عـلى عـد تنازلي خمس دقائق، ثم ضغط على زر التشغيل، ليظهر أمام عيني مـديرة المكتب العداد الذي بدأ يتناقص بالفعل، فرفعت سماعة الهاتف المتـصل بمكتب الوزير مباشرة وكأنها تنبئه بالتطورات.

جلس «سعد» على مقعده، في ثبات وظهرٍ مشدود، وطَفِقَ ينتظر.

بعد أقل من دقيقة، ظهرت امرأة في غايـة الرقـة والأنوثـة، عيناهـا تشعان ذكاءً، وقفـت أمـام مـديرة المكتـب تحادثهـا، التـي أشـارت لهـا بالانتظار، كما فعلت مع «سعد»، الذي تطلع إليها مرة أخرى، فتعرفهـا على الفور.. «مريم الصواف».. مذيعة قناة «الخبر» الفضائية المـشهورة، المملوكـة للمليـارديـر «أدهـم المـلَّاح»، تخصـصـت في بـرامج التحليـل السياسي للساحة الدولية، عُرفـت بـذكائها وجمالها الـشديدين، عينـين عسليتين، وشعر أسود يصل إلى خصرها، وبشرة بيضاء غرَّاء، وشـفتين ورديتين منمنمتين، يعلوهما أنف دقيق متعالٍ.



التقت أعينهما وهي تسير بخطوات رشيقة عملية، تتجه إلى غرفة الانتظار، وجلست غير بعيدة عن «سعد» الذي تجاهلها، ما جعلها تندهش. هذه أول مرة لا يتم التطفل عليها من العامة! أينما وُجِدَت يلتف حولها المعجبون والمريدون لأي نوع من المصلحة. لا تفهم - أيضًا - لماذا جذبها هذا الرجل، الرابض، وكأنه أسد أنهى لتوه التهام فريسته، فاستكان في ثقة وامتلاء كمن لا يرغب في شيء آخر في هذه اللحظة. هي أيضًا التقت - بحكم عملها -الكثير من الشخصيات المهمة والحساسة، حتى إن آخر لقاءاتها كان مع رئيس الجمهورية شخصيًا، لكنها لم تقابل بعدُ من له مثله حضوره، فدفعها الفضول الأنثوي وطبيعة عملها كمذيعة وصحفية إلى أن تتعرف أكثر على هذا الرجل. تقلقلت في مقعدها حتى تجذب الانتباه، فنظر ناحيتها نظرة سريعة، فتشبثت بعينيه وابتسمت، ثم فتحت شفتيها لتقول شيئًا ما لتبدأ معه الحديث، إلا أنه أبعد عينيه عنها من جديد وكأنها غير موجودة، فمطت شفتيها في عدم رضا وظلت ساكنة، لا تدري كيف تقتحم هذا الكيان الغامض.

نظر «سعد» إلى ساعته.. انتهت الدقائق الخمس.

وقف في مكانه معلنًا عزمه على الرحيل، فلمحته مديرة المكتب فقامت من جلستها واتجهت إليه متعجلة، قائلة:

- أستاذ «سعد»، أنا أعتذر لك بشدة. هلا انتظرت خمس دقائق أخرى من فضلك؟ سيادة الوزير على الهاتف مع رئيس الجمهورية، ولكنه على علم بوصولك ويرغب في مقابلتك.

وضع «سعد» كفيه في جيبي بنطاله وهو يقول في لهجة حاسمة، علمت معها مديرة المكتب أنه لا توجد قوة في الوجود ستثني الرجل عن قراره:

- «سعد العشماوي» لا يتراجع في كلمته أبدًا. لقد قلتها خمس دقائق فقط، ولن تزيد.

ثم نظر إلى عينيها مباشرة بضع ثوان، قبل أن يميل على أذنها اليمنى ثم يقول هامسًا في لهجة أخافتها:

- سأرحل، ولن أعود.. ولكنه هو الذي سيأتي إليَّ.

ومن دون كلمة واحدة، غادر الغرفة في خطوات واسعة، غير عابئ بأن يلقي نظرة على العيون التي تخترق ظهره.

تحفزت كل عضلات «مريم»، وهي تجلس - بالكاد - على طرف مقعدها، وحبست أنفاسها من فرط الانفعال وهي تراقب المشهد، وفضولها أصبح علوه كالجبال، لا بد أن تعرف المزيد عن هذا الشخص. قامت من مقعدها واتجهت إلى مديرة المكتب لتسألها:

- من هذا الرجل؟

هزت مديرة المكتب رأسها وهي تكوِّر شفتيها فتطلق زفرة حارة، عبَّرت عن حيرتها واضطرابها، قبل أن تقول وهي تنظر إلى حيث اختفى:

- «سعد»..

«سعد العشماوي»!

(١١)

اشتد الريح العاصف على تلك المدينة الساحلية في محافظة الإسكندرية، تزامنًا مع أنواء «الشمس الصغيرة»، التي تتسم ببرودتها الشديدة وأمطارها الغزيرة لعدة أيام من دون انقطاع.

وداخل حجرة الأمن الخاصة، التي تقع في منتصف المسافة، بين بوابتي الدخول والخروج لسجن «برج العرب»، كان الحارس المسئول من نوبة الحراسة الليلية يُحكِم غلق النافذة بعدما ألقى عقاب سيجارته خارجها، وزجاجها يئن تحت حبات المطر التي تحوَّلت إلى كرات قاسية صغيرة من الثلج تنقر عليه في إصرار رتيب مزعج، ثم قال وهو يتناول من زميله، الذي يشاركه نوبة الحراسة، كوبًا من الشاي الساخن احتضنه براحتيه في لهفة، مستجديًا بعض الدفء أن يسري في أوصاله المتجمدة:

- يا لها من ليلة!

أجابه صوت نباح «كلب» من مكان قريب، وكأنه يتفق معه أن الليلة كئيبة، فقال زميله:

- يبدو لي أن هذا نباح الكلب «آنوبيس». «سعد العشماوي» سيبيت في السجن الليلة لينفذ حكم الإعدام غدًا في السابعة صباحًا على تاجر المخدرات «سيد الأسيوطي».

- تقصد «سعد الشبح»! هذا الرجل يظهر فجأة ويختفي أيضًا فجأة. لا أدري بالضبط أي وسيلة مواصلات تقله.

بنهاية كلماته، ظهر «سعد» وكلبه على بعد عشرين مترًا من بوابة السجن، وكأنه برز من العدم، متشحًا بالسواد كعادته، مرتديًا قميصه وبنطاله الأسودين، يتحرك في تؤدة وثقة، وكلبه يسير إلى جواره في فخر، وكأنه يسعده أن يكون هذا الرجل هو سيده.

- من أين يظهر هذا الشيطان بالضبط؟ انظر كيف يترجل بزيه الخفيف في هذا الجو العاصف.. هذا الرجل فعلًا «عزرائيل الإنس».

دلف «سعد» عبر البوابة الصغيرة المخصصة لعبور الأفراد من دون أن يبالي حتى بإلقاء التحية على رجلي الأمن، اللذين سمع أحدهما يقول بعد تجاوزه البوابة:

- حتى السلام تَضِنُّ به علينا!

لم يتلقَّ الحارس أي اهتمام من «سعد»، بينما قفز زميله من فوق مقعده وكأن هناك نارًا تشتعل تحت مؤخرته، وألصق وجهه وكفيه بزجاج النافذة الباردة وهو يقول لزميله:

- هل رأيت ما رأيته؟! هذا الشيطان لا تبلله مياه الأمطار، جاف بملابسه كمنشفة تحت شمس الصيف!

- يبدو أن هذا الرجل بدأ يخيفك حتى تخيلته ذا قوى خارقة. بالتأكيد هو يبتل مثلنا. تناسَه. سيقبض الروح التي أتى لأجلها ويرحل. نحن لا نراه كل يوم على أي حال.

بعد خمس دقائق، كان «سعد» يقف بملامحه الجامدة أمام مأمور السجن، طلب منه أن يلقي نظرة على الرجل الذي سيمنحه التأشيرة إلى العالم الآخر بعد ساعات قليلة. هو إجراء ضروري وليس شكليًّا؛ فالجلاد يجب أن يلقي نظرة على المتهم؛ لكي يحدد طوله ووزنه؛ فلكل شخص عقدة حبل مختلفة حسب الطول والوزن، حتى لو كان هناك شخصان لهما نفس الوزن ومتفاوتا الطول، يجهِّز للطويل عقدة وطول حبل أكبر من القصير الذي عقدته أقصر.

ويتأكد بنفسه من سلامة «الطبلية» وأن «الضلفتين» تفتحان حال جذب ذراع السكينة.

كان «سعد» يقف الآن خارج قضبان زنزانة «سيد الأسيوطي» إلى جوار مأمور السجن، يتطلع إلى الميت، الحي، الجالس على أرضها ببدلته الحمراء. رفع رأسه إلى وجه «سعد» والتقت الأعين. عَلِمَ الرجل بعدها أن هذا هو جلاده.. هذا الرجل المخيف هو الذي سيقبض روحه بعد ساعات، أما «سعد» فقد وضع كفيه حول خصره النحيل وهو يميل برأسه قليلًا لليمين، يتأمل ضحيته عبر البارات الحديدية، سابرًا أغوارها، فتواثب قلب الرجل داخل جنبات صدره وهو يشعر برهبة

وخوف بلا حدود مع نظرات «سعد» إليه، الذي كان له بمثابة «عزرائيل». ظل «سعد» على حاله لمدة دقيقتين لا يبرح مكانه أو يغيِّر وقفته، ثم أرخى ذراعيه محاذيا جانبيه وأدار ظهره مغادرًا المكان في إغضاء، يتبعه المأمور في إطراق، ليذهب «سعد» بعدها مباشرة إلى غرفة الإعدام ليعد طول الحبل ومقاس عقدته ويتأكد من أن المعدات كلها تعمل بكفاءة.

الجميع يعلم كيف يتقن «سعد العشماوي» عمله إلى أقصى مدى. أنهى فحصه الروتيني واتجه بعدها إلى الغرفة التي سيبيت فيها لينفذ حكم الإعدام في السابعة صباحًا.

في الرابعة والنصف صباحًا، اعتدل «سعد» في فراشه.. لم يغمض له جفن طوال الليلة السابقة. في الحقيقة، الأمور ساءت بشدة في الآونة الأخيرة، فلقد عاد إلى حاله في أثناء بداية عمله في هذه المهنة المضنية؛ فبعد مرافقته للجلاد كمساعد في أول حالتي إعدام، انتابته كوابيس بشعة، ولم يجرؤ على النوم. فأعطاه الجلاد خاتمه، الذي لم ينفك عن إصبعه منذ عشر سنوات كاملة. خاتم غريب على هيئة ثعبان يقف فمه على منتهى ذَيله.

وكأن روح مُعلِّمه كانت معلقة بهذا الخاتم، يذكر «سعد» جيدًا ما حدث بعدها.. توفي المعلم في الليلة نفسها، ليحل محله هو في مهمة قبض الأرواح التي دنت قُطُوفُها.

عمل «سعد» قبلها، لمدة عقد كامل، حارسًا في السجون التي تحمل في طياتها أخطر المجرمين. كانوا يستفيدون من بنيان جسده الضخم



والقوي وملامحه الصارمة، ليرافق المساجين الخطرين ويحرسهم في أثناء عملية نقلهم. خضع أيضًا لعدد من التدريبات الخاصة في استخدام السلاح، ومهارات القتال اليدوي، وكان يبلي دائمًا بلاءً حسنًا، بل متميزًا. فبعد شهور من أي تدريب، أيًّا ما كان نوعه، كان يتفوق على أساتذته، هذا إلى جانب ذكائه الواضح. لا يوفيه الآخرون حقه؛ بسبب حصوله على مؤهل متوسط. بحكم سابق، يظنون أنه محدود الذكاء. على الرغم من أنه ليست هناك أي علاقة بين التعليم ومستوى الذكاء. فـ«سعد» لم تُتَح له فرصة التعليم الجيد، لكنه كان قارئًا ومثقفًا. هو الذي تطوَّع في معهد أمناء الشرطة، لينضم إلى فرقة حراسة المساجين الخطرين، بل ويصبح قائدها في فترة وجيزة، إلى أن جاء هذا اليوم، وهذه العملية المرعبة التي كانت حديث الرأي العام وشاغله لفترة غير قصيرة..

عملية إعدام «الشبح»..

زعيم عصابة متخصصة في نهب الآثار وبيعها إلى الخارج نظير مقابل فلكي، رجل غامض، مخيف، شهرته «الحطَّام»، التفت حوله الشائعات وعلاقته بالسحر الأسود.

كانت مواجهة عنيفة شرسة، بين فرقة قوات الصاعقة وكتيبة حراسة «الحطَّام» الخاصة، داخل قصره المنيف، في منطقة جبلية على أطراف «سيناء». تلقى الرجل عدة طلقات وقضى نحبه. بعدها بثلاث سنوات، دلت التحريات على أن الرجل لا يزال حيًّا ويمارس نشاطه، ليُلقى القبض عليه من جديد، ولم يستطِع أحد أن يفصل في أمره إذا ما

كان قد لقي نحبه في المرة الأولى أم هو شبيه له أم تم إنقاذه وتمت فبركة أمر الدفن. هذا اللغز يبدو أنه من الألغاز التي ستظل معلقة للأبد، ولكنه لُقِّب إثر هذه الحادثة بـ«الشبح».

حُكِمَ عليه بالإعدام هذه المرة، وتولى «سعد» عملية حراسة هذا الشيطان، وحينما تم تحديد موعد إعدامه طلبوا من «سعد» أن يعمل مساعدًا للجلاد لمدة أسبوعين؛ لأنه سيكون موجودًا داخل غرفة الإعدام في أثناء تنفيذ الحكم على «الحطَّام»، ولازم «سعد» معلمه الذي كان الجلاد الأوحد في مصر لمدة ٣٠ سنة.

لم يفترق عنه، ينتقل من سجن إلى سجن، يشاهد معلمه وهو ينتزع الأرواح هنا وهناك. في هذه المرحلة، كان دور «سعد» محدودًا، يقتصر على إحضار المتهم من غرفته وإحكام السيطرة عليه واقتياده إلى مكتب مأمور السجن، ثم توصيله إلى غرفة الإعدام حتى يقتنص الجلاد روحه.

يذكر «سعد»، حينما سأله: لماذا لا يوجد سوى جلاد واحد في مصر؟ أن الرجل أجابه في ثقة:

- أيوه يا بني.. زي مفيش غير رئيس واحد للجمهورية، مفيش غير جلاد واحد، وانت يا «سعد» هتكون الجلاد الأوحد من بعدي.. ما هو مفيش غيرك يا بني ينفع يعمل الشغلانة دي!

فمنذ أن وقعت عينا المعلم على التلميذ، قال له بعد نظرة طويلة متفحصة من منبت شعره إلى أخمص قدميه:



- انت اللي بـدوَّر عليـه مـن سـنين. انـت يـا «عـشماوي» قـابض الأرواح من بعدي.

وفي ليلة تنفيذ عملية الإعدام الخاصـة بـ«الحطَّام»، حـل التعـب بـ«الجلاد» فجأة، ونُقل للمستشفى، بعدما أصابه نزيف حـاد، مـن دون سبب، لقي حتفه عـلى أثـره مبـاشرة، ليـترك كرسـيه شـاغرًا، وليعـتلي «سعد» العرش تلقائيًّا وتوكل له أول مهمة إعدام في حياته..

قبض روح «الحطَّام».

شخصيًّا!

ويالها من مهمة يبدأ بها حياته المهنية الجديدة، التي سـاقته الأقـدار ليتبوأ هذا المقعد، ويصبح الجلاد الوحيد في طول البلاد وعرضها.

الجميع ظل ينتظر المواجهة المرتقبة..

«الحطَّام» ضد «الجلَّاد»..

كان هذا هو مانشيت الجرائد الرسمية في ذلك اليوم، مذيلًا بتعليق كاريكاتيري: هل ينجح «الجلاد» في قنص روح «الحطَّام» هذه المـرة، أم سيعود «الحطَّام» من جديد للمرة الثانية على التوالي؟

«الحطَّام»، الذي تضاعف الخوف منه أضعافًا كثـيرة، بعـدما قـضى الجلاد نحبه في ليلة تنفيذ الحكم. حينهـا استعـصى عـلى العقـول هـضم فكرة أن الأمر لم يتعدَّ كونه مصادفة!

في صبيحة اليوم التالي مباشرة، وفي أثناء تنفيذ الحكم، عاين «سعد» شيئًا غريبًا لم يرَه من قبلُ في حالات الإعدام التي عاينهـا في أثنـاء عملـه



مساعدًا للجلاد، فلقد كان «الحطّام» متماسكًا للغاية، مهيبًا، وكأنه لا يخشى الموت!

ذلك المخلوق المرعب الذي ترتعد الفرائص عند ذكره: المنون، السام المخيف، الغامض، وغير المحبب للنفس الإنسانية، بل وحتى البهائم، فعندما يشعر الأسد بدنو أجله، فإنه يهجر القطيع إلى مكان بعيد ليلقى حتفه في صمت. «الفيل» يسقط على قدميه الأماميتين ويرتطم رأسه العملاق بالأرض في خشوع وذل، وكأنه يقول للتراب: منك خُلِقت وإليك أعود تارة أخرى. وإذا وقع حيوان في فخ حيوان آخر فإنك ترى في عينيه المعنى الحقيقي للرعب.. فليس هناك أعز من الحياة.

افترس «الحطّام» «سعد» بنظراته القاسية، عندما سأله السؤال التقليدي: «نِفسك في إيه؟»، ليسمع على أثره أغرب إجابة يتوقع أحد سماعها في هذه اللحظات بالذات:

- أتمنى الموت؛ لأنه يعطيني الحياة. أنا هو، وهو أنا. «الحطّام»، فرس الأراضين وصقر السماوات. وأنا بقادرٍ على أن أقلب حياتك رأسًا على عقب. سأجعل أراضيك سماوات، وسماواتك أراضين، سأشدك إلى وتد المجهول، فتعلق للأبد كضحية، لا يجدها مفترس فيأكلها، فتستريح من العذاب، أو من يفك أسرها ليحررها فيمنحها الخلاص.

تطلّع «سعد» إلى عيني الرجل في صرامة، ثم لمح على ذراعه رسمًا يماثل النقش الذي على خاتم معلمه الذي ترك له إياه، مع فارق بسيط:

أن نقش خاتمه عبارة عن ثعبان يقف فمه عند منتهى ذيله، بينما الرسم على ذراع «الحطَّام» ثعبان يلتهم ذيله.

كان «الحطَّام» يقول في قسوة:

- اسمك «سعد العشماوي»، وأنا أول روح تقبضها. أؤكد لك أنك ترتكب أكبر خطأ في عمرك كله. اترك هذه المهمة لغيرك وغادر الغرفة ولا تعُد إلى هنا أبدًا؛ فأنا أحب القوة والأقوياء وأشم فيك رائحتها، وأكره أن أراك تدمر نفسك بنفسك.. ستكون نهايتك بالحبل، إذا انتهجت هذا الدرب، بإرادتك.

لم يكن «سعد» على استعداد لأن ينصت لأحد..

فجذب ذراع «السكينة».

فجأة شعر بألم شديد في يده بينما تُفتح الضلفتان ليهوي جسد «الحطَّام» داخل البئر، كان «سعد» يرفع يده أمام عينيه فيشاهد قطرات الدم التي تسيل من جرح يده. خيَّم على المكان صمت مطبق ورهبة حقيقية.

هكذا وبكل بساطة.. هل هذا هو كل شيء؟!

لقد ظنت كتيبة الإعدام أن الأمور ستكون أعقد من هذا بكثير.. فقط بعض الطرقعات؛ فعملية الإعدام تُحدِث كسرًا في فقرات الرقبة وتهتكًا في النخاع الشوكي، فيموت على أثرها المحكوم عليه خلال دقيقة أو دقيقتين على الأكثر، ويُترك بعدها لمدة ١٠ دقائق في فصل



الشتاء، وربع ساعة في فصل الصيف، معلقًا في الحبل، حتى يتجلط الدم الذي ينزف منه عقب عملية الشنق.

بعد عشر دقائق، نزل «سعد» برفقة مساعده لنقل جثة «الحطَّام» من البئر، رفع الغطاء الأسود من حول رأسه، وهو يفك وثاق الحبل من حول رقبته، لتتلطخ ثيابه بالدماء.

فجأة فتح «الحطَّام» عينيه وكأنه الشيطان، ونظر إلى عيني «سعد» نظرة قاسية مخيفة مرعبة، سقط على أثرها مساعده أرضًا مغشيًّا عليه من الرعب، بينما كان «الحطَّام» يمسح الدم حول رقبته ويلصقه بكف «سعد» التي ما زالت تنزف.

ثم أغمض عينيه وهمدت حركته للأبد.

أما «سعد» فوقف لاهثًا، ينظر إلى كفه لحظات، ثم مسح الدماء في قميصه وهو يشعر أن هناك شيئًا تغيَّر داخله وأن الأمور لن تعود إلى سابق عهدها بعد اليوم..

أبدًا.

حاول إنعاش مساعده، إلا أن الرجل انتهى! توقف قلبه من الخوف وفارق الحياة.

وقف «سعد» داخل البئر المظلمة وحده يتطلع إلى الجثتين في صمت.

روحان قد غادرتا عالمنا في هذا المكان.



أخذ نفسًا عميقًا فدخل الهواء الرطب إلى صدره مشبعًا برائحة الموت. شعر أن قدميه لا تقويان على حمله، فاتجه إلى جدار البئر وجلس أرضًا مسندًا ظهره عليه، بينما يرتكز بمرفقيه على ركبتيه وهو ينظر من حوله وكأنه يبحث عن «ملك الموت» الذي كان موجودًا داخل البئر منذ لحظات. أراح كفه التي تنزف على تربة البئر فشعر بأن هناك شيئًا يخترقها.. رفع كفه، ليرى نبتة صغيرة خضبتها دماء يديه، فأخذ يحيل التراب من حولها، حتى اقتلعها من جذورها ووضعها في جيبه وقرر أن يزرعها في بيته.

وحينما طلب منه مأمور السجن أن يبيت ليلته في السجن أيضًا؛ لأن هناك حالتي إعدام في اليوم التالي ولا يوجد جلاد سواه، أجابه «سعد» في لهجة خاصة:

- زي مفيش غير رئيس واحد للجمهورية.. مفيش غير «عشماوي» واحد.

وكان هذا إيذانًا ببداية جديدة في حياته، التي اتخذت منعطفًا خاصًا جدًا..

منعطف الموت.

عاد «سعد» بمركبه الشراعي إلى شاطئ بحر ذكرياته على أثر حركة «أنوبيس»، الذي شعر باستيقاظ سيده، والذي دائمًا ينام على الأرض إلى جوار سيده. وقف يهز ذيله في سعادة لرؤيته يغادر فراشه. لم يُعِره «سعد» اهتمامًا.. دخل إلى الحمام مباشرة ليستحم.. بعد عشر دقائق كان



يقف أمام المرآة يتطلع إلى وجهه المرهق، الشاحب، مرتديًا اللون الأسود المحبب إلى قلبه.

بعد ساعة، سيقبض روحًا بشرية، تنفيذًا لحكم الإعدام.

هل هي «مذنبة» أم «بريئة»؟ لم يكن يستطيع معرفة هذا في بادئ الأمر، ولكن - وكأي مهنة في الدنيا - تصقلها الممارسة، تطوَّر الأمر معه، وأخذ منعطفًا حادًّا خطيرًا؛ ففي أثناء قبض «الروح المسلوبة»، رقم «٥٠٠»، كما يقول سجل «٢١ جرامًا»، أدرك «سعد» أن الرجل يقول الصدق وهو مظلوم تمامًا، وكأنه كان يرتقي مرحلة متقدمة، تجاوز قرار إنكار الضحية التي، أيضًا، كانت تتقدم مع كل حالة إعدام إلى حالة ذهنية خاصة، تعرض صورًا واضحة، في جَلاء، وكأن يشاهد فيلمًا عالي الجودة، بتقنية «العرض البطيء».

تَعلَّمَ من هؤلاء «الأحياء - الأموات» الكثير.

فليس هناك أصعب من أن تقترب - جدًا - من أحدهم لحظة وفاته، من مر منا بمثل هذه التجربة لا تغادر أعماقه، وتحفر في ذكرياته، بل وتأخذ منه شيئًا يُفقد للأبد! وكأن جزءًا منك يغادر مع المتوفَّى إلى الدار الآخرة، ضريبة وجودك معه في مثل هذه اللحظات المقدسة، التي يَنْبَلِج فيها ذلك الجسر الذي يصل بين الدارين:

الدار «الدنيا» والدار «الحقة».

عندها تتبلور أمامك تلك الحقيقة، في أوضح معانيها، وفي إشعار: إن هذه «الدنيا» قطار بلا مكابح، يسير على قضبان ولا يوجد ما يُوقِفه،



قد غادر محطته يوم مولِدك، ويتجه حثيثًا نحو «محطة الوصول» المعدة سلفًا.

ومحطة وصولك، أنت، قد تكون الآن.. أو التالية.. أو بعد ثلاث أو أربع محطاتٍ.

ولكنك إليها ذاهب، وعنها رَاغِب، متناسيًا أنك في الرحلة. اطمأن قلبك واستقر لها، فظللت عليها عاكِفًا، بانيًا قصورك المزخرفة، التي ستتركها لمن لا يزالون داخل القطار، بينما أنت قد غادرته في محطة «الوصول»، التي لأجلها تكبدت فيها مشاق وعناء هذه الرحلة.

«الموت» هو محطة «وصول»، لا «رحيل».

و«سعد» قد عاش آخر عشر سنوات من حياته يقترب من هؤلاء في لحظاتهم الأخيرة، ومع كل حالة يُفْقَدُ منه شيء دنيوي ليحل محله «شيء ما»..

لا يدري كنهه..

فقط «شيء ما».. ولكنه، قادم من «هناك».

تَعلَّمَ أيضًا ما يُرْكِز عليه المفارِق للحياة، وما يشغل باله في مثل هذا المشهد الجلل، الذي لا يأتيه الموت بغتة، بل من يُساق إليه مجبَرًا غير مخير. تسعة وتسعون في المائة من الحالات التي تعامل معها كان جُلُّ تفكيرها، قبل ثوانٍ من مفارقة الروح، مُنْصَبًّا على «الشخص» الذي تسبب في وجودها في مثل هذا الموقف.. هل هي امرأة؟ هل هو رجل؟ هل هي «نفسه» التي أُلْهِمَتْ فجورها وتسببت فيما وصل إليه؟ هل هي



آثام اقترفها، أم أموال كان يحتاج إليها، أم كان طامعًا فيها؟ هل هي غِيرة، أم غضب، أم لحظة جنون؟

المشكلة أن هذا الأمر يبرق في ذهنه مع تنفيذ حكم الإعدام، وليس قبله، فلا يستطيع منع الجريمة قبل وقوعها؛ فإزهاق روح بريئة جريمة، حتى إن كان عن غير قصد.

منذ ذلك اليوم، تكرر الأمر في جميع الحالات التي تلتها، حتى إن الخانة الرابعة التي تركها في الليلة السابقة يعود ليملأها بعد تنفيذ الحكم بأحد الاختيارين: «مذنب/ بريء». كان قد قرر الاحتفاظ بهذا الملف وأودع طريقة الحصول عليه في وصيته، حتى يتسنى للناس أن يعرفوا حقيقة موتاهم، حتى إن لم يصدقها أحد أو يكن هناك دليل مادي واحد يثبت صحة كلامه، لكنه شعر أن عليه أن يقوم بهذا الفعل حتى إن كان ما يراه ويعرفه رؤى وأوهامًا ليس لها أساس من الصحة.

لكنه أمر غريب لا يستوعبه قلب بشر، أن يستشعر هذا الظلم كله. المظلومون كُثر في هذا العالم، كم من سجين أُلقي في غياهب السجون سنين طويلة ولم يقترف إثمًا! كم مفارق للحياة حُكِم عليه بالموت وهو بريء! الأمر الأغرب أن شعور المظلوم كاملًا كان ينتقل إلى عقله وروحه، وكأنه هو الذي ظلم. عرف معها أنه ما من شعور يقارَن بهذا في الوجود..

شعور الظلم..

الظلم بكل أنواعه..

مجرد وضع الشيء في غير موضعه، ظلم.

الظلم.. أصبح لا يمقت شيئًا سواه، ذلك الذي هيمن جورًا على الدنيا.

ما عاد يسأل الله في هذه الحياة سوى العدل.

لكنه لن يقف متفرجًا، يضع كفيه في جيبيه.

سيرد المظالم، بطريقته الخاصة.

فليأخذ القانون مجراه..

ولتأخذ العدالة - أيضًا - مجراها..

نهران متوازيان لا يلتقيان..

إلا في حالات نادرة للغاية.

هكذا علمته الحياة، وبناءً عليه، وضع قوانينه الخاصة.

أما «سيد الأسيوطي»، تاجر المخدرات، المحكوم عليه بالإعدام، فكان يمر بأسوأ لحظات حياته على الإطلاق.

ففي الخامسة فجرًا، تم فتح غرفة الحجز الخاصة به، وإعطاؤه حبوبًا مهدئة لتجعل جسده يسترخي، ثم سحبه مُساعِدا «سعد» بقيود حديدية إلى غرفة المأمور، وظل هناك من الساعة الخامسة حتى السادسة صباحًا. وهذه الدقائق الستون كانت أصعب ساعة في حياته، أخذ يسترجع ذكرياته كلها.. يبكي.. يصرخ.. ينظر إلى السماء..



يضع يده على رأسه.. يتأكد أن الدنيا لا تساوي جناح بعوضة.

بعدها، تم اقتياده إلى غرفة الإعدام، وعقارب الساعة تتوجه إلى السادسة والربع صباحًا. كان الظلام يخيِّم على كل شيء في تلك الساعة المبكرة. ظهر في عيني الرجل، مرتديًا حلته الحمراء، الخوف الشديد، وهو يغرق في ظلمات ثلاث: ظلمة غرفة الإعدام، التي تقع في جوف السجن المعتم، الذي ما زالت تغلفه ظلمة نهار وليد، لم تشرق شمسه بعد.

هنا ظهر «سعد» مرتديًا الملابس السوداء ليباشر مهام عمله. كان أول عمل قام به أن استبدل بالقيود الحديدية أخرى جلدية، حتى لا يؤذي الرجل نفسه. برفقته كتيبة الإعدام كاملة، التي تتكون من قرابة «٥٠» شخصًا، من الطب الشرعي والقضاة ومندوب من مديرية الأمن التابع لها المحكوم عليه وشيخ ومأمور السجن وعدد آخر برفقته. وقف «سيد» بين مساعدي «سعد»، أمام الغرفة المكتوب عليها بالخط الأحمر «غرفة إعدام».

وتمت قراءة ملخص سريع للقضية:

إنه في يوم كذا حدث كذا، وصولًا إلى صدور حكم الإعدام شنقًا. وعند كلمة «شنقًا» تحرك «سعد» نحوه وتسلَّمه، وتوقف به ثواني حتى قال له الشيخ: «قُل يا بني من ورائي: أشهد ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»..

ردد «سيد» الكلمات بصوت مرتعش، و«سعد» يسأله السؤال التقليدي قبل تنفيذ حكم الإعدام:

- نِفسك في إيه؟!

أجابه «سيد» في توسل، بعينين باكيتين:

- أريد أن أصلي.

وبما أن هذا الطلب أمر مشهور دائمًا، يُحفظ داخل حجرة الإعدام جردل من المياه وسجادة صلاة. فك «سعد» قيود الرجل الجلدية، سمح له أن يتوضأ ويصلي. ظل «سعد» على ركبتيه ساجدًا إلى جوار الرجل، يضع يديه أسفل رأسه عند كل سجدة، خشية أن يلطمها في الأرض ويؤذي نفسه. علا بكاء الرجل ونحيبه بنهاية الركعتين ولم يفارق سجادة الصلاة. بمجرد أن سحبها «سعد» من تحت قدميه، عرف أن الرجل تبوَّل على نفسه من شدة الخوف، ولم يقوَ على الوقوف. حاول «سعد» أن يقيم صلب الرجل، إلا أن الرجل كانت قدماه تخذلانه، وهو يردد في يأس وجزع شديدين، ما لهما من منتهى:

- اتركوني.. اتركوني.. لا أريد أن أموت.. أرجوكم.. سأصلح من نفسي وأتوب.

وفجأة وقبل أن يضع «سعد» الأساور الجلدية من جديد، حول يديه، جذب «سيد»، من بنصر إصبعه، الخاتم السميك الذي يرتديه، والذي أعطاه إياه معلمه، و...

بلعه.

اختنق الرجل وحاول كل من في الغرفة إنقاذه، إلا أن وجهه ازرقَّ..



وفارقت روحه الحياة.

الرجل من شدة خوفه من لحظة إعدامه، قرر الانتحار..

لقد فرَّ من الموت، بالموت!

وقف «سعد» يراقب المشهد في ثبات، ثم نظر إلى أصابع يديه في غضب، الخالية من الخاتم، الذي لم يفارقه منذ عشر سنوات.

ولم يعرف أي شيء عن الرجل، ما السبب الذي أودى به إلى هذا المطاف، ولا حتى إن كان بريئًا أم مذنبًا.

(١٢)

جلس جَمْعٌ مكونٌ من: «عقرب» و«ملهم» و«مميز»، يحتمون داخل خيمة في نقطة بجنوب مصر، وأمامهم مجموعة كبيرة من شباب «العبابدة» ينقِّبون في الموقع «سيتا»، الذي يحدد رأس «المثلث الذهبي» طبقًا لمثلث «النجمة الخماسية».

صحراء جرداء، واسعة مقفرة، يُنتهك عرضها، مبعثرة رمالها، رياح فبراير الباردة المحملة بالأتربة، ما جعل كل العاملين يخفون جُلَّ أجسادهم، سوى من العينين واليدين.

أشاح «عقرب» ببصره عن هاتفه المحمول في تعجب. هذه هي المرة الثالثة التي يحاول الاتصال فيها بشريكه «الملَّاح» من دون جدوى. آخر ما قاله له إنه مرهق ولن يستطيع أن يوجد معه في الموقع «سيتا». أثار قلقه أيضًا أن «الملَّاح» لمح إليه بأنه يمر ببعض المضايقات من



شخص يبتزه، ومنظمة دولية كانت تريد منه الانـضمام إليهـا، اتفقـا أن يلتقيا ليناقشا هذه المشكلات بمجرد عودته من الموقع «سيتا». المـشكلة أن «عقرب» غرق حتـى أذنيـه في «كتـاب الأسرار»، ولـن يتـسع عقله ليعرف المزيد عن مشكلات «الملّاح»، ولكـن عليـه أن يـساعده في هـذا الأمر حين يعود.

تحوّل ببصره إلى الشابين المنهمكـين في دأب، مـن دون كلـل، على الأجهزة المبعثرة حولهما، من كل اتجاه، وهو يسأل في غلظة:

– مرت خمسة أيام على ظهور النقوش، وهذا هو اليوم السادس، ما المدة المحددة التي قسمتهاها بين النقاط الثلاث المقترحة؟ لـربما توجـب علينا الشروع بالتنقيب في البقعتين الأخريين في نهايـة اليـوم إن لم نـصل إلى شيء. إن هذه العاصفة الترابية لن تهدأ قبل يـومين، ومـن الغبـاء أن نظل هنا إلى الأبد.

كالعادة لم يجبه أيٌّ من الشابين، والموسيقى الـصاخبة تتـسرب مـن سماعات آذانهما، لتزيد من غيظه، وهما يلوكان علكتيهما بطريقة مستفزة، همَّ «عقرب» بجذب السماعات وإلقاء سـيل مـن أقـذع الألفـاظ عبر آذانهما، بدلًا من تلك الموسيقى، إلا أن الإجابة أتته مـن زعقـات عاليـة من العمال. فمال ببطء إلى اليسار ليرى ماذا هناك خارج الخيمة. وقبل أن يقوم من مكانه، كان «ملهم» و«مميـز» يـسبقانه ركـضًا إلى الخـارج تجاه حفرة من الحفر التي يقف حولها العمال وهم يهللـون. فقـال لنفـسه، في امتعاض، وهو يتقدم نحو مركز الضجيج:



- هذان الأحمقان. يبدو لي أنهما - فقط - يسمعان ما يحلو لآذانهما أن تسمعه. أعدكما أن أجتزها حين انتهائكما من فك هذه الشفرة.

سأل «ملهم» أحد الخبراء الشباب الذي يعمل في التنقيب بشكل رسمي في الحكومة، و«يُقَلِّب عيشه قطاعي» مع مافيا الآثار:

- ماذا وجدتم هنا؟

- على عمق عشرة أمتار رأسيًّا، وجدنا فراغًا أفقيًّا يبدو أنه ممر يمتد في الاتجاهين. أمرت رجلين بالتحرك جهة اليمين واليسار لنرى أين البداية والنهاية لهذا النفق.

نظر «عقرب» إلى «ملهم» و«مميز» من دون أن يقول شيئًا، لكن عينيه كانتا تقولان الكثير. هذان الوغدان يعلمان جيدًا ما يفعلان، حادا الذكاء، بارعان بالفعل في علم «المصريات القديمة». ويبدو أنهما فعلًا يفسران الشفرة بشكل صحيح حتى اللحظة، لا يمكن أن تؤدي التفسيرات الخاطئة إلى مثل هذه المصادفات. هناك شيء ما حتمًا.. شعر أنهما فعلًا على الطريق الصحيح.

بعد عشر دقائق، خرج شاب من الحفرة، اتجه ليتحدث مباشرة مع خبيرهم، وبعدها بخمس دقائق خرج شاب آخر، فعل مثله..

تقدم الشاب المسئول عن مجموعة الحفر إلى «عقرب» الذي يتوسط «ملهم» و«مميز» وقال وهو يشير بسبابته للأسفل:

- النفق الذي عثرنا عليه تحت الأرض، ينحدر جهة اليمين بميل خفيف وينتهي ببئر فارغة، وإلى اليسار ينتهي بجدار.. فماذا نحن فاعلون الآن؟



قال «مميز» مباشرة:

- البئر هي لحماية المقابر من الأمطار الغزيرة. هذه ليست مقبرة، ما يدفعني لأن أقول: إنها بئر كاذبة لتضليل اللصوص. في قاعها ربما نجد ما نبحث عنه، هذا إن كانت تتبع نفس طريقة تصميم الآبار الملحقة بالمقابر الفرعونية. مُر رجالك بتجهيز كل شيء وتعليق السلالم الحبلية على البئر، سنهبط ثلاثتنا إلى الأسفل.

أمر الرجل شباب «العبابدة» بتنفيذ ما طُلِبَ منه، بينما تسارعت دقات قلب «عقرب» وهو يشعر أنه يقترب من ذلك الحلم الذي بحث عنه طويلًا.

«كتاب الأسرار»، الذي يحتوي على المعرفة الكاملة لعلوم المصريين القدماء وأسرار تلك الحضارة العظيمة العريقة.

كانوا دائمًا يلقبونه بالغبي، هي عقدة طفولة.. فالجميع ينظر إليه على أنه من عائلة ثرية لم يعانِ في حياته، عبارة عن كيس من النقود بعقل فارغ.. أصبحت ثروته لا تهمه. العالم كله سيعرف عمّا قريب من هو «عقرب»، حينما يصل إلى علوم لم يصل إليها أحد على كوكب الأرض. فجأة استدعى عقله الإنسانة الوحيدة التي خفق لها قلبه، مع قربه من تحقيق حلمه، هي ستفخر به حتمًا، ولا شك.

جذب هاتفه من جيبه ونطق اسمها: «حبيبتي»، لتظهر على الشاشة صورة «مريم الصواف» وهي تبتسم. خفق قلبه وهو ينظر إلى صورتها، بعدها انقطع الرنين.. ثم جاءته رسالة تقول:



- آسفة.. مشغولة.. سأتصل لاحقًا.

احمر وجهه وهو يتمنى أن يلقي الهاتف أرضًا فيحطمه وينفث عن غضبه، قائلًا:

- إنَّ «لاحقًا» هذه لا تأتي أبدًا أيتها الحمقاء.

نظر «ملهم» و«مميز» إلى «عقرب» ثم إلى بعضهما بعضًا. كانا قد اعتادا تصرفاته الطفولية الغريبة ومزاجه المتقلب كالأطفال، لحظة يمدح ذكاءهما، وبعدها بثانية ينعتهما بالأحمقين. فهو منذ أن كان طفلًا فشابًّا، إلى رجلٍ، اعتاد أن يحصل على كل ما يريد بمجرد التفكير فيه.

أشعل «عقرب» سيجارًا، بأصابع مرتجفة مرتعشة، سحب نفسًا عميقًا وهو يغمض عينيه، ثم نفخ نيكوتينه، وكل ذرة في كيانه تشتعل. بلغ الغضب منه مبلغًا، وبدأ يشعر بأن مشاعر الحب التي حملها يوما إليها بدأت تنساب خارج وعاء قلبه، ليحل محلها ما تسكبه هي من إهمال وتجاهل؛ فتفاعل الإهمال والتجاهل مع جدار قلبه الفارغ وكانت النطفة..

نطفة جنين محمل ببصمات جينية مخيفة..

الكراهية.. الانتقام.. الثأر لكرامته..

ملياردير مثل «عقرب»، بسطوته وماله، لن يتورع أن يقتلها ليشفي غليله، إن استمرت على عنادها. لن يعتاد أبدًا فكرة أن هناك «شيئًا» لا يستطيع الحصول عليه.

المشكلة أنها ليست «شيئًا»!

الإشكالية تكمن في بعض الأنفس البشرية الضعيفة، التي تبيع نفسها وعرضها وكرامتها، لسبب دنيوي، وهذا هو السبب الرئيسي الذي يجعل بعض الأثرياء يظنون أن كل شيء يُشترى..

حتى «الإنسان»!

انتزعه من أفكاره صوت الرجل الذي يقول له في احترام:

– كل شيء جاهز.. تستطيعون النزول إلى النفق الآن.

قرر ثلاثتهم أن يتجهوا إلى اليمين أولًا ليستكشفوا البئر، ثم يذهبوا بعدها لجهة اليسار، ليروا الجدار.

وصل ثلاثتهم، بعد دقائق، إلى قاع «البئر الكاذبة». ثم وقفوا يتأملون، في انبهار كامل، جدرانها التي ترتفع لمسافة خمسة أمتار، المليئة بنقوش وزخارف لم يرَ «عقرب» مثيلًا لها. بينما وقف «الأخوان» ملتصقي الظهر، في نقطة مركز البئر الدائرية، وهما يدوران بكشافاتهما على جدرانها. احتل الانبهار ملامح وجهيهما احتلالًا. أما «عقرب» الذي لم يفهم لهذه النقوش معنى، فسألهما في اندفاع:

– ما هذه النقوش أيها الأحمقان؟

أجابه «مميز»، وهو في حالة نشوة غير عادية، مأخوذًا بالنقوش، من دون أن ينظر إليه:

– كتاب «ما هو كائن في العالم الآخر»! تم نقشه على جدران هذه البئر وأرضيتها بالكامل بتقنية منمنمة لم نرَ مثلها من قبل.



- وما هذا الكتاب اللعين؟

رفع «مميز» كمبيوتره اللوحي المحمول وضغط عدة أزرار، ثم ناوله لـ«عقرب» وكأنه يناول طفله دمية ليلهيه بها فيتركه وشأنه. تناول «عقرب» الجهاز، وأخذ يقرأ (ملحق ٦).

كان «ملهم» يقول لأخيه:

- هل تذكر أين وجِدت النسخة الكاملة من كتاب «ما هو كائن»؟

- نعم، وُجِدت النسخة الكاملة من كتاب الـ«أمدوات» في مقبرة الملك «تحتمس الثالث»، في «وادي الملوك» بالبر الغربي للأقصر.

- هل هذا معناه أن هذه البئر، التي نقف فيها الآن، «الموقع سيتا»؟ قد لا تكون هي بوابة الولوج التي تحدثت عنها الشفرة، وعلينا إضافة موقع آخر للبحث: مقبرة «تحتمس الثالث»!

مال «مميز» برأسه لجهة اليمين قليلًا وهو يرفع حاجبيه ويدير راحتي كفيه للأعلى وهو يقول:

- ربما! حتى إن كانت هذه هي، فلم نصل بعدُ إلى الشروط اللازمة التي تؤدي إلى فتح هذه البوابة.

- حسنًا، هيا بنا نخرج من هذه البئر، لنكتشف ما يختفي وراء الجدار في الجهة المقابلة من الممر. لقد أمرت الرجال بعمل فجوة عبر الجدار تسمح بعبورنا لنرى ما وراءه.

بعد مرور عشرين دقيقة.. كان الجمع يتجاوز فجوة الجدار، ليجدوا ممرًّا آخرَ، قادهم إلى قاعة جانبية خالية من النقوش، في مواجهة

المدخل، وإلى الناحية اليسرى يوجد ممر آخر إلى قاعة دفن تحتوي تابوتًا، وقد رُفع سقفها على ستة أعمدة، وزُينت جوانبها بصور ممثلي «الموت» الثلاثة: «أوزوريس» و«حتحور» و«آنوبيس». أما سقفها فنُقِش بلوحة بديعة، من صنع فنان قدير، لوحة مجسمة للسماء في زرقة لونها وانتشار النجوم اللامعة فيها. والأرض نفسها، التي يقفون عليها، قد غُطِّيت بصور متقنة، رُسمت بالألوان على أرضية صفراء، حتى يُخَيَّل للناظر أنها مخطوطات من البردي محلاة بالصور.

قال «ملهم» في انبهار:

– معظم هذه النقوش عبارة عن مشاهد ونصوص كتاب «ما في العالم السفلي». هل تعرف، يا أخي، أين وُجِد هذا الكتاب أيضًا كاملًا؟

أجابه «مميز»:

– هذا الكتاب ظهر كاملًا في حجرة الدفن بمقبرة الملك «تحتمس الثالث» ومقبرة وزيره «وسر آمون»، ثم مقبرة «أمنحتب الثاني» الذي وضع ساعات الكتاب الاثنتي عشرة كاملة في تتابع.

برقت عينا «ملهم» وهو يقول في حماس:

– بالضبط هذا ما كنت أبحث عنه.. الرجل الذي وضع ساعات الكتاب الاثنتي عشرة في تتابع.. «أمنحتب الثاني».. شعرت دائمًا أنه موجود من دون أن يذكر اسمه.

ثم رفع رأسه مرة أخرى إلى سقف الحجرة، يتأمل لوحة السماء التي إن رأيتها حسبتها ثلاثية الأبعاد (ملحق ٨). وعقله يعمل بأقصى



سرعة، فجأة، برقت فكرة مجنونة داخل عقله، فأخرج هاتفه والتقط صورة لسقف الحجرة، ثم أشار بسبابته إلى ثمانية نجوم في أقصى اليسار وهو يقول لأخيه:

- هل لاحظت شيئًا غريبًا هنا؟

تأمل «مميز» اللوحة وهو يحاول أن يربط عدد النجوم الثمانية، التي يشير إليها أخوه، بكل شيء عثروا عليه حتى هذه اللحظة. يرى ثمانية نجوم، تليها أربعة، فسبعة، تقود إلى عشرة، فنجم واحد، ثم أحد عشر نجمًا أخرى، فنجمتين. عقد حاجبيه، وبدت علامات التفكير العميق على وجهه، قبل أن تختمر فكرة ما في رأسه.

وقبل أن يشاركها مع أخيه، شتت «عقرب» انتباهه بصيحة دهشة. كان يقف أمام التابوت وهو يشير إلى «الأخوين» أن يقتربا، قائلًا في ذهول:

- يا إلهي.. هذا مستحيل.. هل تريان ما أرى؟!

(١٣)

جلس «معتز وهدان»، الصديق المقرب إلى «سعد العشماوي»، أمام شاشة كمبيوتره، يتصفح البريد الإلكتروني، ابتسم وهو يرى تلك الرسالة الواردة:

From: Hamed.zien@nanoglobal.com Feb 05 (1 day ago)

To: Me

Subject : مؤتمر «هرم التكنولوجيا – النانو»

– عزيزي «معتز»..

أنا أتشرف بدعوتك إلى مؤتمر «هرم التكنولوجيا» وافتتاح جامعة «النانو تكنولوجي» في مدينة «زويل» بعد يومين. مرفق إلى حضراتكم مسودة العرض، لكي تضيفوا الجزء الخاص بكم من مقترحات.

وشكرًا.

«حامد زين».

Attachements : Technology_Pyramid_ Conference.PPt

Click Here to Reply or Forward

بحكم طبيعة عمله طبيبًا شرعيًّا، وتخصصه الدقيق في علم أحياء الأدلة الجنائية، وتحديدًا في مجال «الأنثربولوجيا الجنائية»، التي تعتمد على استخلاص الأدلة من بقايا العظام وتقنيات الحمض النووي، أحدث ما وصلت إليه العلوم في هذا المجال الحيوي، تمت دعوته.

أجاب العالم الكبير الحاصل على جائزة «نوبل»، بأنه سيتشرف بالحضور. بعدها أعاد إرسال الرسالة الإلكترونية إلى صديقه الوحيد، وضغط زر الإرسال.

From:M_Wahdan@gmail.com

To: Saad.Elachmawy@gmail.com

Subject :FW«مؤتمر «هرم التكنولوجيا – النانو

– عزيزي «سعد العشماوي»..

سيسعدني حضورك إلى مؤتمر «هرم التكنولوجيا» وافتتاح جامعة «النانو تكنولوجي» في مدينة «زويل» الأسبوع المقبل. فأنا سألقي هناك كلمة، إلى جوار العالم الكبير. عليك أن تفخر بي كصديق.

تحياتي:

«معتز وهدان»

انطلق رنين الهاتف، بمجرد أن بعث رسالته الإلكترونية، وكأنها استدعت اتصالًا ما، على رقمه الخاص. ابتسم للمصادفة، قبل أن تنمحي ابتسامته ليحل محلها قلق علا وجهه للحظات وهو يقرأ على شاشته:



Unknown number.

دكتور «معتز وهدان».. من المتحدث؟

- أنا الرائد «هيب هصار» من جهاز «الأمن الوطني». هناك جريمة قتل، والجثة عُثر عليها ملقاة في جراج «مول الحياة» في «وسط البلد». نحتاج إلى طبيب شرعي في مسرح الجريمة قبل أن نأخذ الجثة إلى المشرحة.

- ولماذا يتابع القضية رجل من جهاز «الأمن الوطني»؟

- بسبب شخصية القتيل.

- ومَن القتيل؟

- «أدهم الملّاح». الملياردير المعروف، صاحب قناة الخبر الفضائية.

(١٤)

في اللحظة نفسها، وعلى بُعد مئات الكيلومترات إلى الجنوب الشرقي، تحت الأرض، كان «عقرب» و«ملهم» و«مميز» يقفون أمام التابوت في دهشة وشغف.

«عقرب» ترتجف كل ذرة من أطرافه، بينما وقف «الأخوان» في فخر، إعجابًا بذكائهما الذي يتقين معه، مع كل خطوة، أنهما يسيران على الطريق الصحيح.

دار «ملهم» حول التابوت وهو يتحسسه في إعجاب ثم قال:

- لولا أنني أعرف أن هذا التابوت موجود داخل «الهرم الأكبر»، وتحديدًا على نفس منسوب «النسبة المقدسة»؛ حيث تقع غرفة الملك «خوفو» تحديدًا، لظننت أنني انتقلت «آنيًا» إلى داخل «الهرم الأكبر». هذا التابوت نسخة طبق الأصل من تابوت «خوفو».

سأله «عقرب» في لهفة:

- كيف جيء بهذا التابوت إلى هنا؟ فمقاييسه لا تسمح بإدخاله عبر ممرات الغرفة، أو بابها، أو حتى الممر الضيق نفسه!

- يبدو أنه دخل بالطريقة نفسها التي دخل بها التابوت نفسه إلى داخل الهرم.

- وما هذه الطريقة؟

- في الواقع الطريقة نفسها تعد أحد الأدلة الصارخة على تقدم «المصريين القدماء» في علوم «إدارة المشاريع». حجر التابوت وغطاؤه أُحْضِرا من «أسوان» ووضعا في مكانهما في أثناء أعمال البناء؛ لأن مقاييس الأنفاق أصغر منه بكثير. أما الجرانيت فقد أُحْضِرَ من الجنوب إلى الشمال؛ لأنه لا وجود للجرانيت في شمال مصر. فأحضروه من محاجر «أسوان» ونقلوه عبر نهر «النيل» حتى «الجيزة»، وذلك يتطلب عملًا إداريًّا على أعلى المستويات؛ إذ وجب وصول الشحنات في وقت مناسب مع أعمال الإنشاء على هضبة الجيزة لبناء حجرة التابوت وما لها من سقف وتسقيفات تسمى «تسقيفات خفض الضغط». أي، باختصار: على مدار العشرين سنة التي بُني فيها الهرم، كانت هناك خطة عمل ومعرفة دقيقة متى سيصلون بارتفاع الهرم إلى النسبة الذهبية ليبنوا غرفة الملك، وينسقوا إحضار الجرانيت من الجنوب إلى الشمال، ومن ثم يكملوا البناء، حتى قمة الهرم.

كان «عقرب» يدور حول التابوت في حيرة شديدة، بينما يعمل عقلا «ملهم» و«مميز» في سرعة غير عادية، في محاولة لمعالجة سر التطابق الشديد، والأهم: سبب وجود هذا التابوت هنا.



الفارق الوحيد بين التابوتين أن هذه هي المرة الأولى التي يريان له غطاءً؛ فتابوت «خوفو» حينما عُثر عليه كان من دون غطاء. وظل الجميع في حيرة لعدم معرفتهم أين اختفت مومياء «خوفو» وكنوزه.

كان «مميز» يدور حول التابوت وهو يدرسه في شغف، ثم توقفت أصابع يديه عند نقطة بعينها، فنزل على ركبتيه وهو يقول:

- مهلًا.. هناك شيء غريب هنا..

ثم أشار إلى «ملهم»، فاقترب منه وهو ينظر من خلف كتف أخيه إلى حيث يشير، ثم تبادلا نظرة ذات معنى، ما جعل «عقرب» يهتف في لهفة:

- ماذا هناك؟

لم يسمع إجابة مباشرة؛ فقد اعتاد غرابة أطوارهما. فقط رأى «ملهم» يُخرج جهازه اللوحي من حقيبته، وبعد ثلاثين ثانية، كان يعرض صورة تابوت «خوفو» من داخل «الهرم الأكبر» أمام عيني «عقرب»، وهو يشير إلى نقطة بعينها في ركن التابوت الأيسر، قائلًا:

- حينما أمر «الخليفة المأمون» بحفر مدخل «الهرم الأكبر»، فهو لم يعرف -- حينها - مدخله الأصلي الذي نعرفه اليوم، وُجدَ في جدار التابوت على ناحيته الغربية ثلاثة ثقوب مستديرة. كل المؤرخين وعلماء الآثار كانوا قد خلصوا إلى أن غطاء التابوت الجرانيتي «المفقود» كان مثبتًا بواسطة ثلاثة قضبان معدنية في ركن التابوت، وحينما حطمه اللصوص، ليسرقوه، خلَّفوا وراءهم هذه الثقوب الثلاثة المستديرة التي تراها في الصورة، ولكن...

قطع عبارته في حيرة وهو يخلع قبعته الرياضية فيحك رأسه، ويكأنه يحث عقله على التفكير، ثم كوَّر شفتيه مطلقًا زفيرًا طويلًا وهو يعيد قبعته على رأسه، بعدما عكس مقدمتها لتشير إلى الخلف، قائلًا:

- إذا اعتبرنا أن هذا التابوت الذي أمامنا نسخة مطابقة لتابوت «خوفو» المنزوع غطاؤه؛ فلماذا لا نرى هذا الغطاء الجرانيتي مثبتًا من الزاوية نفسها بالقضبان الثلاثة المزعومة؟

- هذا صحيح! هذه ملحوظة عبقرية.

قالها «مميز» وهو يدور مرة أخرى حول التابوت، فتعثرت قدمه بأداة معدنية بارزة. انحنى ليلتقطها بين يديه و«عقرب» يسأله:

- ما هذا؟

تناول «ملهم» الأداة المعدنية الصغيرة من أخيه وهو يقول:

- هذا خطاف، كان يُعتقد أنه يُستعمل في عملية «فتح الفم الرمزية» التي كانت تُجرى على مومياء الملك لتتسرب إليها الحياة ويتمكن من الإقلاع من الكوة المقابلة لغرفته، ومن ثَمَّ ينطلق إلى مقره الأبدي في مملكة «أوزوريس»، الموجودة في مجموعة «أوريون» الفضائية، ولهذا كان الدكتور «مسيحة» يظن أن غرفة الأسرار تفتح بشروط ثلاثية مندمجة: «زمنية، فلكية، روحية»!

قال «عقرب»:

- لا أفهم شيئًا مما تقول أيها الأحمق..



نقر «ملهم» على شاشة كمبيوتره اللوحي في سرعة، وناوله لـ«عقرب» الذي أخذ يقرأ في اهتمام (ملحق ٧) ، بينما دار «مميز» حول التابوت ليقف عند ركنه، الذي يحتوي مثيله في الهرم الأكبر على الثقوب الثلاثة ، ثم قال وهو يبتسم:

- هناك تجويف صغير، على مقاس هذا الخطاف، يبدو لي أنه صنع من أجله.

في هذه اللحظة، كان «عقرب» قد أنهى قراءته، فقال وهو يناول الكمبيوتر لـ«ملهم» في سخط:

- ما زلت لا أفهم شيئًا من هذا.. أنت وأخوك الأحمق تصران على تعقيد الأمور أكثر مما هي معقدة.

تجاهله «ملهم» وهو يراقب «مميز»، الذي كان يمسك بالخطاف ويضعه داخل التجويف ليزيح غطاءً رقيقًا، فظهرت من خلفه الثقوب الثلاثة كما توجد حاليًا في تابوت «خوفو».

الثقوب الثلاثة، بها ثلاثة تجويفات.

التجويفان الأول والأخير كانا يحتويان على خاتمين، في دقة مدهشة، وكأن التجويف قد صُمِّمَ ليحتوي الخاتم. أما التجويف الأوسط، فلم يكن يحتوي على أي خواتم..

فقد كان هذا الخاتم..

مفقودًا.





(١٥)

تقدم «سعد» بخطوات واثقة، تحت الأمطار المنهمرة، من دون مظلة، بثيابه السوداء الخفيفة، داخل مستشفى «الهُوِيْنى»، بعدما أبرز هويته الميري لأمن البوابة. بعدها انعرج إلى أقصى الجزء الشرقي؛ حيث يرتفع مبنى كئيب، مظلم، مكون من طابقين؛ عليه لافتة متسخة، قديمة، قرأ عليها:

«مشرحة الهُوِيْنى، وثلاجات الموتى»

وكمن يعرف طريقه جيدًا، ارتقى خطوات السلم، المُصفرّ، القديم، بقامة مشدودة، متجهًا إلى «الصندوق الأسود» للأموات، وحيث تقبع القبور الباردة فوق الأرض، التي يُقال لها: «ثلاجات الموتى». صمت القبور يخيِّم على المكان، ورائحة الموت تُعبِّق الأرجاء.

وقع خطواته تتردد أصداؤها، فتزيد الموقف رهبة، وقد أصبح له رائحة..

رائحة «الفورمالين».

كان عامل المشرحة نائمًا بجوار الجثث، يفترش الأرض، متدثرًا بكفن أبيض. اقترب منه «سعد» وانحنى يهزه برفق ليوقظه، وهو يقول في صوت خفيض كي لا يثير ذعره:

- «عبد العاطي».. استيقظ يا «عبد العاطي».

فتح الرجل العجوز عينيه، اللتين عكستا سعادة بالغة مع رؤية وجه «سعد»، ليقوم من رقاده، في لهفة وود حقيقيين، واحتضنه قائلًا:

- «سعد العشماوي»! أين أنت منذ زمن يا رجل؟ لقد أوحشتنا كثيرًا.

اشتم «سعد»، في جسمان الرجل الفقير البسيط، رائحة الموت الممزوجة بالعرق، لكنه لم يتأفف منه. «سعد العشماوي»، الرجل المخيف، كان محبوبًا في أوساط «الموت» ومن يعملون في هذا المجال: عمال المشارح.. مغسلو الأموات.. الحانوتي.. الطبيب الشرعي.. عُرِف عنه أيضًا سخاء يديه مع البسطاء؛ فهو يعرف جيدًا ضيق الحال الذي يمر به العاملون في هذه المهن وشظف معيشتهم.. هم ناس منسيون، يتعاملون يوميًّا مع أشد الأمور وطأة، فهم ما بين جثث متحللة، دماء، يرقات تخرج أمامهم من جثة متعفنة، تفوح منها رائحة الموت، تنظيف ثلاجات، غسيل أموات، ويتقاضون الفُتات!!

مِهن يقبل بها المحتاجون فعلًا، ولا شك، الذين ليس لديهم من مصدر رزق آخر، فلا هم يتسولون ولا يسألون الناس إلحافًا. «عبد العاطي»، على سبيل المثال، يتقاضى في النوبتجية الواحدة أربع جنيهات ونصف الجنيه فقط لا غير؛ لذا اتخذ «سعد» دورًا لم يبرحه. كان دائمًا يزورهم، ويقضي معهم الوقت، يرفه عنهم، ويغدق عليهم بالأموال والصدقات.

لكزه العامل البسيط بمرفقه وقال مداعبًا «سعد» بعبارته المشهورة التي يسأل بها المحكوم عليهم بالإعدام قبل لحظات من قبض أرواحهم:

- نِفسك في إيه؟!

ابتسم «سعد» وقد فهم دعابته وهو يقول:

- صدقني، أنا الوحيد الذي لا تتمنى أن تسمع هذه العبارة منه.. على العموم أنا نفسي في كوب من الحبر الأسود.

- سأعد لك أثقل كوب شاي تجرعته في حياتك، سأجعله أمرَّ من العلقم، أعرف ذوقك القاسي يا «سعد».

ربت «سعد» على كتفه في إعزاز وجذب مقعدًا ليجلسه عليه. جلس وعيناه تدوران في أرجاء الغرفة. يرى طاولة للغسل، ملحقًا بها خرطوم مياه، ورخامة لوضع الجثة للتشريح، و«ديب فريزر» لوضع الحرز من جثة المتوفَّى، مثل عينة دم، أو عينة من معدة الجثة مثلًا في حالات التسمم، أجزاء مقطوعة من جثة ملقية في إهمال على الأرض

جوار الثلاجة. كان هناك أيضًا سخان مياه صغير معلق على الحائط فوق الحوض.

ساد الصمت الثقيل، لدقائق، إلا من صوت غليان المياه، وأصوات خرفشات، خافتة، ليس لها من مصدر، وكأنها همسات المتوفين داخل المشرحة. صدر من هاتف «سعد» إنذار يفيد بتلقيه رسالة في بريده الإلكتروني، قرأ عنوانها في سرعة:

- معتز وهدان.. هرم التكنولوجيا.

حمل الرجل الصينية، وفوقها كوبان من الشاي، افترش الأرض عند قدمي «سعد» وهو يناوله الكوب الساخن بأطراف أصابعه، فشكره «سعد» بأدب جم، وقال له في تواضع:

- إن لم تأتِ لتقعد إلى جواري، سأنزل أنا فأجلس إلى جوارك!

ولما ظل الرجل على توقيره، افترش «سعد» الأرض إلى جواره، ثم رشف رشفة من كوب الشاي، وقال له:

- الله! تسلم إيدك يا «عبد العاطي». أحلى كوب شاي دائمًا أتناوله معك، وسط هذا الهدوء، هيا احكِ لي آخر نوادرك في العمل داخل المشرحة.

ابتسم الرجل، وقال:

- منذ يومين، دخلت جثة الثلاجة، وعند نحو الثانية صباحًا، استيقظت على صوت دقات طبلة زفة شعبية! ففزعت وخرجت من المبنى إلى مكتب المدير مباشرة. رويت له ما حدث، فضحك وقال لي:

إن هذه مجرد تهيؤات. فصدقته.. ولكن، في البارحة، تكرر الأمر ثانية، فهرعت إلى قسم الاستقبال، حتى أستطيع النوم. وفي الصباح، حضر أهل المتوفَّى فتعرفوا عليه، وعرفت منهم أنه كان يعمل طبالًا بلديًّا في الأفراح الشعبية.

ضحك «سعد» من قلبه حتى ظهرت نواجذه، ما أغرى عامل المشرحة أن يقول له المزيد متحمسًا:

- هل تعرف ابن أخت عم «سعيد»، مغسل الموتى؟

- نعم.. لقد قابلته بالصدفة في زيارتي السابقة، هذا كان منذ شهرين تقريبًا.

- أمس الأول كنت أنا وهو نحمل إحدى الجثث لنُدخلها ثلاجة الموتى، فإذا بالجثة تلطمه على وجهه، ففزع وأصابته حالة هيستيرية وأخذ يصرخ في رعب وهو يهرول خارج المكان. اتضح بعد ذلك أن يد المتوفَّى كانت معلقة على «الترولي»، وعندما تم حمله وقعت على وجهه..

ضحك وهو يقول متابعًا:

- لكنه رفض العودة إلى عمله منذ ذلك الحين، وأكد لي أنه لن ينجب أبدًا مرة ثانية.

كان «سعد» يضحك فعلًا من قلبه، لا شيء يستميل قلبه كمجالسة البسطاء. أطلق زفرة أتبعها بسؤال:

- وكيف تتعاملون مع انقطاع الكهرباء المتكرر؟

بدت علامات الجدية على وجه عامل المشرحة وهو يقول:

- هي أكبر مشكلة تواجهنا الآن، الأمر يمتد لساعات، وللأسف ثلاجات الموتى ليست من ضمن الأقسام التي تعمل بمولدات حال انقطاع التيار الكهربي.. عندها تنبعث رائحة يصعب تحملها. وحينما اشتكينا إلى المدير قال لنا بالحرف الواحد:

- إذا كانت الدولة لا تستطيع أن تفي باحتياجات الأحياء من الكهرباء، فهل نبحث عن نصيب الأموات منها؟ هذه رفاهية ولا شك.

بدت علامات الاستياء على وجه «سعد» وقال بعدما رشف آخر رشفة من كوب الشاي:

- أنا آسف لسماع هذا يا صديقي. بإذن الله ستنصلح الأحوال في القريب العاجل، وسيحصل كل من الأحياء والأموات على نصيبهم من الكهرباء.

ثم سأله في خبث، مغيِّرًا دفة الحديث:

- هل ما زلت تتقاضى أجرًا من أهل المتوفين الذين يودون رؤيتهم؟

احمر وجه العامل خجلًا، وتساءل كيف عرف «سعد» هذه المعلومة، لكنه استدرك في سرعة:

- أنت تعلم بالحال يا «سعد» بيه.. العين بصيرة واليد قصيرة.. لكني لا أُغضب المولى عز وجل أبدًا.. أنت لا تعرف حجم المغريات التي تواجهني يوميًّا لبيع الجثث جملة أو بالقطاعي.

طفا تساؤل على عيني «سعد» ليجيبه الرجل مستدركًا:

- الجثة جملة، أي: الجثة بأكملها. أو بالقطاعي: للأعضاء الداخلية، كالكبد، والكليتين، والَّذي منه.

مط «سعد» شفتيه في عدم رضا وهو يردد:

- الَّذي منه؟! أراهن أن هناك الكثير من «البيزنس» يتم في أدراج الجثث المجهولة، التي لم يتم التعرف على هوية أصحابها.

أومأ «عبد العاطي» برأسه موافقًا. بعدها مضت لحظات من الصمت، قطعها «سعد» وهو يقوم ليقف في مكانه قائلًا:

- أريد أن تأخذني في جولة داخل الثلاجة.. هناك شخص أبحث عنه.

لم يسأله «عبد العاطي» من يكون هذا «الشخص»، فطالما نكَّرَهُ «سعد» ولم يُسَمِّهِ، فلا جدوى من السؤال.. فهو لن يجيبه.. أبدًا.

أشار له «عبد العاطي» أن يتبعه، حتى وصلا إلى باب «ثلاجة الموتى» الحديدي، الذي يسبقه باب خشبي. فتح قفل الباب الخشبي، ثم سحب مزلاج الباب الحديدي. بمجرد أن فُتِحَ هبت رائحة كريهة لفحت وجهيهما. وقعت عينا «سعد» على الأرفف التي وُضع عليها الموتى، والأرضية المتهالكة، التي بها عدد من مجاري المياه التي تطرد مياه الغسل إلى الصرف الصحي.

الثلاجة مساحتها أربعة أمتار في أربعة، يصل ارتفاع سقفها إلى ثلاثة أمتار ونصف المتر، معلق بها وحدتا تبريد، إحداهما معطلة، كما

قال «عبد العاطي» لـ«سعد» وهو يتجاوزها، جدرانها منقسمة إلى قسمين، الأعلى مدهون بدهان أبيض، ملطخ ببقايا دماء جافة متخثرة، بينما يكسو السيراميك الأبيض نصفها الأسفل. تقبع داخلها جثامين الموتى متلاصقة، على أرفف حديدية رصاصية اللون، يعلوها حامل مصنوع من مادة من «الاستانلس ستيل» المثبت في أرضية متهالكة من السيراميك الرخيص، تُحمل فوقها جثث موتى محظوظين، بينما عشرات الجثث، الأقل حظًّا، لم يكن لها مكان على الأرفف، فاكْتُفِي بوضعها على حامل من الألمونيوم، مفرود على الأرض، إن وُجد، وإذا لم يوجد، فالأرض تتكفل بحملها. أما وجوه الموتى فتحكي قصصًا مختلفة لأشخاص كانوا معنا وفقدوا أرواحهم ما بين جناية ووفاة طبيعية واغتيال أو حادثة طريق..

تغشتها رائحة الموت من كل مكان داخل الثلاجة، لكن «سعد» بدا ثابتًا، متمالكًا أعصابه، وكأنه في حديقة. أعمار الموتى تبدو على وجوههم؛ فمنهم أطفال لم يبلغوا من العمر سوى أشهر، وكان هذا أكثر ما يؤلمه. هناك شباب في مقتبل العمر، وشيوخ. آثار التعفن طمست بعض ملامحهم. كل جثة مثبتة بها ورقة صغيرة مدوَّن عليها تاريخ دخولها المشرحة وطبيعة حادثة الموت ورقم المحضر، عليها ملابسها التي جاءت بها، بعضها ملابس فاخرة، باهظة الثمن، قال «عبد العاطي» لـ«سعد» إن هناك عمالًا في المشرحة يسرقون هذه الملابس في بعض الأحيان!

بعد رحلة مضنية بين الوجوه، لم يجد «سعد» جثة «سيد الأسيوطي»، التي جاء إلى هنا من أجلها، التي تحتوي خاتمه المفقود في



أحشائها. فأشار لـ«عبد العاطي» بالخروج، الذي كتم سؤالًا يؤرقه، ولكنه لم يشأ أن يزعج «سعد» به في أثناء بحثه. وبمجرد خروجها، ألقى سؤاله:

- فقط لو تخبرني عمَّن تبحث، فقد أستطيع أن أساعدك!

قبل أن يجيبه «سعد»، سمعا من خلفهما صوتًا صارمًا يقول:

- ماذا تفعلان، أنتما الاثنان، هنا؟

(١٦)

- عجيب! يبدو أن هناك خاتمًا ثالثًا مفقودًا.

أتبع «مميز» كلماته بالتقاط أحد الخاتمين، بينما تناول «ملهم» الآخر وهو يتأمل النقش المميز لثعبان يلتهم رأسه، ثم قال:

- هذا الخاتم يشبه تمامًا الخاتم «شن» في الأساطير المصرية القديمة، الذي كان يصنع دائرة سحرية حول صاحبه ويمده بقوة وقدرات خاصة.

رقص قلب «عقرب» طربًا على أثر كلمات «ملهم» الأخيرة؛ فسعيه وراء القوة المطلقة دائمًا يحرك الطفل الصغير الذي يسكنه، الأمر الذي دعاه أن يقتلع الخاتمين اقتلاعًا من كفي الأخوين، ثم رفعهما أمام عينيه وهو يمعن النظر في نقش الثعبان الذي يلتهم ذيله، قبل أن يرتدي كل

خاتم في بنصر. رفع كفيه أمام عينيه اللتين تلمعان في فخر، وكأنه ينتظر القوى الخارقة أن تحل في جسده، ثم...

لا شيء.

– ما هذا؟ لا أشعر بأي شيء أيها الأحمقان.

مطَّ «مميز» شفتيه، ثم قال:

– نحن لم نقُل أبدًا إن هذين الخاتمين يمدان مرتديهما بقوة ما. إن ما قلناه تحديدًا: إنه «يشبه» الخاتم «شن». ثم لا تنسَ أن هذا ما قالوه في بردياتهم، ولا نعلم من أين أتوا بمثل هذه الترهات! أنا أظن أن هذه الخواتم الثلاثة.. أعني هذين الخاتمين، بالإضافة إلى الخاتم الثالث المفقود، قد صُنِعت كي توضع ثلاثتها في ثقوب التابوت الثلاثة. عندها ربما قد يحدث شيء ما.

كان «ملهم»، في هذه اللحظة، يتحسس بطرف سبابته التجويف الأوسط، الذي أُعِدَّ كي يحتوي الخاتم المفقود، قبل أن يقول:

– أو.. ربما كان الخاتم الثالث هو الذي يمد صاحبه بالقوة.

ليجيبه «عقرب» ساخطًا:

– اللعنة!! لماذا كل شيء ينقصنا في هذه الدنيا يكون هو ما نبحث عنه تحديدًا؟ علامَ بنيت استنتاجك هذا؟

أخرج علكته من فمه ووضعها في التجويف، ثم أخرجها فقربها من وجهي «عقرب» وأخيه:



- الخاتم المفقود هو الوحيد الذي لا يلتهم فيه الثعبان ذيله، بل يلف فمه تمامًا على منتهى ذيله.

نظر «عقرب» إلى العلكة، في غباء، التي استخدمها «ملهم» كطينة صلصالٍ، يحاول أن يستوعب المعنى العميق من وراء الكلمات من دون جدوى، فقال:

- وما معنى هذا بالضبط؟ وأنت أيها الأحمق، ابصق علكتك من فمك لأنها تستفزني.

بصق «مميز» العلكة، بينما يجيب أخوه:

- مجرد استنتاج. إن ما نبحث عنه ليس كنزًا عاديًّا كأي كنز آخر، بل هو الحكمة المجردة وأسرار أعظم الحضارات قاطبة. لو نظرتُ إلى الأمور بالطريقة الفلسفية نفسها التي كان يتعامل بها المصري القديم، فأقول: إن هذا الأمر، ببساطة، يدل على أن هذه الأسرار لو وقعت بين يدي الشخص الخاطئ، سيسيء استخدامها، ما يجعله يدمر ما حوله، وقبل كل شيء، يدمر نفسه، كما يلتهم الثعبان نفسه على الخاتمين. أما الخاتم المفقود، فقد صُنِعَ من أجله فقط.. هو ذلك الشخص الذي يملك حِكمة تؤهله وتعطيه المقدرة أن يتعامل مع مثل هذه الأسرار؛ لذا فهو يملك الخاتم الذي لا يأكل الثعبان فيه نفسه.

أنهى كلماته، ثم ابتعد خمس خطوات عن التابوت، ليتحرك نحوه من جديد وهو يؤدي مشهدًا تمثيليًّا ويقول:

- أتخيَّل أن الخاتم الذي نبحث عنه ليس مفقودًا كما نظن، بل مع الشخص المختار، الذي يخطو بنفسه إلى داخل التابوت.. يخلع خاتمه..

يضعه في التجويف.. فتكتمل الخواتم الثلاثة، التي أراها بعين الخيال أزرار تشغيل آلة «كونية» ما.. ثم يرقد في التابوت وينطلق – ولا ندري كيف – عبر البوابات الاثنتي عشرة، في رحلة العالم السفلي، التي إن تجاوزها بنجاح سيصل إلى المعرفة الكاملة.

برقت عينا «مميز» وهو يردد كلمات بعينها من الشفرة:

– هم يعرفونه.. ذلك الذي يسير إلى العالم الآخر بإرادته.. من يهب حياته.. ويترك جسده الفاني.. فهم ينتظرونه منذ قديم الأزل.. وسيكون التابوت لجسده.. ليبدأ رحلته بترتيب، من «الوصول، تلك التي تحدد الطريق ذا السكاكين الحامية».

كانت الكلمات لها وقع مختلف هذه المرة. مع كل خطوة يخطونها تتحول الشفرة إلى عبارات لها معنى. تمامًا كمعزوفة موسيقية، يأتي فيها اللحن الأخير، من كل فصل، كإقفال لجملة موسيقية ستصعد في الفصل التالي إلى جملة أخرى تضيف إلى اللحن متعة وفهمًا عميقين الأهم من هذا كله، أن المؤشرات كلها تدل على أنهم يتعاملون مع هذا الأمر بذكاء وحرفية، ويسيرون على الطريق الصحيح، ولا بد.. الأمر الذي أشعل الحماسة داخل قلوب ثلاثتهم، فتوحدت مشاعرهم.

قال «عقرب»:

– حسنًا، لا أستطيع أن أكبح فضولي أكثر من هذا.. أريد أن أعرف ما بداخل هذا التابوت.

تعاون ثلاثتهم على زحزحة غطاء التابوت الجرانيتي.



ومع العيون اللاهفة، والقلوب الخافقة، التي لم تُطِق الصبر على قطع المسافة ما بين مجهول الانتظار وحتى النظر إلى داخل التابوت، شحذ الجميع عضلاتهم لزحزحة الغطاء الجرانيتي الثقيل. كانت الإثارة تتصاعد، حتى خُيِّل لـ«عقرب» أن قلبه سيتوقف.

ومع كل جزء ينزاح، يكشف التابوت عن أسراره، فتتلألأ عيون ثلاثتهم انعكاسًا لما تراه. حتى رُفِع الستار كله، وانكشف المحجوب..

ليضيء ما بداخله كل الغرفة، وما حولها.

كألف شمس، وشمس.



(١٧)

التفت «سعد» في بطء إلى الصوت المألوف، ثم أشرق وجهه وهو يقول في ود حقيقي:

- عم «سعيد».

تهللت أسارير الرجل العجوز وهو يقول:

- «عشماوي»!

أما «عبد العاطي» فقد تنفس الصعداء وهو يقول:

- لقد أرعبتَني يا عم «سعيد».. ألن تكف عن هذا العبث؟

- وماذا يفيدك وأنت صاحب قلب ضعيف؟ عليك أن تكون ليثًا ذا قلب جسور مثل «سعد العشماوي».

عم «سعيد» رجل بسيط يعيش على هامش الحياة، في أواخر الخمسينات من عمره. غير متزوج بسبب الفاقة وضيق الحال. نزح من الصعيد منذ عشرين سنة، وما زال يعمل مغسل أموات منذ ذلك اليوم وحتى الآن. هو، كما يقولون، مقطوع من شجرة. «سعد» نَصَّبَ نفسه ابنًا لهذا الرجل، يمر عليه بين الفينة والأخرى، ليعطيه ما يجود به من الخيرات.

افترش ثلاثتهم الأرض، في بوح إنساني يفوح بمسك البساطة؛ ليدور بينهم حديث ودي، كعادتهم كلما اجتمعوا. كان «سعد» يقول مداعبًا عم «سعيد»:

- كيف تجرؤ على النوم ليلًا وأنت تغسل الأموات في المشرحة؟

فيرد عم «سعيد» في تحدٍّ مازحٍ:

- بل قل لي أنت: كيف تجرؤ على النوم وأنت تتسبب في وقوعهم تحت يدي؟

فيبتسم «سعد» في بساطة ويقول:

- أنا أنفذ القانون.

- وأنا أشعر بالبركة، أني أُكْرِم الموتى قبل تكفينهم، وأسلمهم لأهليهم طاهرين، جاهزين للدفن.

تنحنح «عبد العاطي» ثم سأل عم «سعيد»:

- بماذا تشعر لحظة دخولك على المتوفَّى؟



- لحظة دخولي على المتوفَّى لتغسيله وتكفينه هي من أسعد لحظات حياتي؛ فأنا أشعر وقتها بقربي من المولى، عز وجل، أجهِّزه لمقابلته، فأنا أحب الحياة مع الأموات عن الأحياء. وأمنيتي أن أُغْسل وأُكفن ولا أخرج من غرفة التغسيل إلا على الدار الآخرة!

مرَّ عليهم عامل آخر من المشرحة، فألقى عليهم السلام وهو يقول مداعبًا قبل أن يرحل:

- أعوذ بالله! «عشماوي» و«مغسل موتى» و«عامل مشرحة» في مكان واحد. استر يا رب.

فيسُبه عم «سعيد» وهو يقول ضاحكًا:

- امشِ من هنا يا بن «الهَرِمَة»، غدًا ستقع تحت يدي لكي أُغَسِّل مؤخرتك القذرة.

هنا قام «سعد» منهيًا جلسة الأنس هذه بالقرب من ثلاجات الموتى، وأخرج من جيبه بعض الأموال ووضعها في جيوب العاملين البسطاء، على وعد بلقاء آخر قريبًا.

وقبل أن يغادر الغرفة، سأل عم «سعيد»:

- أين «سيد الأسيوطي»؟ لقد ظننت أنه في الثلاجة ليُعرض على الطب الشرعي في الصباح. فالرجل قد مات مختنقًا وليس عن طريق حبل المشنقة.

- أنت تعرف ثراء عائلته.. لقد أنهوا الموقف سريعًا، وقالوا: إن إكرام الميت دفنه. لم يتم عرضه على الطب الشرعي؛ لأنهم لم يوجهوا أي اتهام بالقتل. وقد أخذوه لكي يُدفن هذا الصباح، وأنا غسلته بيدي.



هز «سعد» رأسه متفهمًا وشكرهما بأدب مرة أخرى وغادر في سرعة. بينما نظر عم «سعيد» في امتنان إلى حيث كان يقف، ثم قال:

- ياله من رجل رائع.

- هو بالفعل كذلك.. كل من يعرفه يحبه.

- ربنا يبارك له.. لا يعرف الكثيرون أن هذا «العشماوي» يمتلك أرق قلب في الدنيا كلها.

وكان هذا آخر ما قاله عم «سعيد»، قبل أن يفترشا الأرض ويتدثرا بالكفن، ثم يناما ملء جفونهما..

إلى جوار الجثث!



(١٨)

تألقت الوجوه مع انعكاسات الأضواء الذهبية المنبعثة من داخل التابوت الذي كشف الستار عن لآلئه المكنونة..

ثلاث قطع أثرية لا تقدَّر بثمن!

أُولاها: تمثال ذهبي متوسط الحجم، على هيئة «صقر» ناشر جناحيه، مرصَّع بأحجار كريمة، وزجاج ملون بطريقة «كلوازوني».

ثانيتها: «سوار» للذراع على هيئة «عُقاب» ناشر جناحيه أيضًا، ويقبض بمخالبه على مفتاح الحياة، مطعَّم بنفس الأحجار الكريمة..

وذات الزجاج الملون.

ثالثتها: ورقة من البردي ملفوفة، وعليها شمع لاصق، كما هي لم تُفتح منذ آلاف السنين.



سقط فك «ملهم» السفلي انبهارًا، وهو يمسك ورقة البردي. كان هذا أكثر مما يُحتمل. بين يديه مخطوطة لم تُفتح من عهد قبل الميلاد. تصاعدت ضربات قلبه وهو يحل الشمع اللاصق بحذر، ويفردها أمام أعين «مميز» و«عقرب».

ورقة البردي كانت تحمل صورة واحدة، وفوقها بعض الحروف الهيروغليفية، التي ترجمها مباشرة قائلًا بصوت لاهث:

- من هنا يرتفع «الصقر»، حاله كحال النجوم، ليحلّق بعيدًا، عاليًا جدًّا في السماء، إلى حيث تولد النجوم. وهناك سيقترب كثيرًا من الشمس، التي لا تحرق.. شمس أشعتها المعرفة، ودفؤها السلام، فقط لأبناء «حورس» (ملحق ٩)، هم من سيمحقون أهل «الثعبان».

نظر «مميز» نظرة ذات مغزى إلى أخيه، وهز رأسه موافقًا، وكأن الأعين تبادلت الحديث وأنهته قبل أن تتقطر الكلمات من الأفواه:

- هذا بلا شك «حورس» الذي كان رمزه «الصقر» في بردياتهم، حامي أبيه، ذو العين الواحدة.

ثم قفز في الهواء فرحًا وهو يقذف قبعته لتستقر على رأس «عقرب» وهو يقول:

- يااااي!! نفس الكلمات التي في الطلاسم.. نحن على الطريق الصحيح.. نحن على الطريق الصحيح. وقد فعلناها. فككنا رموز شفرة استمرت على مدار عقود.

لم يشارك «ملهم» أخاه فرحته.. بل بدا على ملامحه قلق عنيف عصف بملامحه عصفا، وهو يقول بكلمات بطيئة وكأنه يزنها حرفًا حرفا:

- لا أظن يا أخي أن وقت الاحتفال قد حان بالفعل.. هناك أمران جعلاك تنسى الفرحة، كم هما عصيَّين. نعم نحن نسير على الطريق الصحيح ولا بد، لكن معرفتنا الحل أمرٌ، والوصول إلى المعرفة أمر آخر.

أنهى عبارته وهو يشير بسبابته إلى الصورة المرسومة على ورقة البردي تحت النقوش الهيروغليفية.

كانت الصورة لإنسان يرتدي قناعًا مصمتًا بلا ملامح، من الذهب الخالص، يرقد داخل التابوت، مرتديًا السوار حول ذراعه، واضعًا الطائر الناشر جناحيه فوق صدره.

أقحم «عقرب» رأسه الضخم بين كتفي الأخوين، متسائلًا بلغة جسده، وهو يرى الفرحة تنحسر من على وجه «مميز» ليحل محلها قلق عارم. طال صمت «الأخوين»، فانتقل قلقهما إلى «عقرب»، الذي سألهما بصوت مضطرب:

- ماذا هناك؟

وفجأة تحطَّم السكون..

وكأنه نزع فتيل القنبلة.

أطلق «ملهم» سبة وهو يترك ورقة البردي من بين يديه، بينما ضرب «مميز» براحتيه على رأسه وهو يهز رأسه، ما ضاعف توتره، فانفلتت حبال أعصابه وهو يعيد السؤال:

- مـاذا هنـاك أيهـا الأحمقـان؟ مـاذا فهمـت أنـا مـن كـل هـذه الاستعراضات البهلوانية؟

التفت «ملهم» إلى «عقرب» وهو يشير إلى ورقة البردي:

- أحقًّا لم تتعرف إلى هذا القناع المصمت؟

دقق النظر وهز رأسه نفيًا.

- هذا القناع الآن ملك لمتحف «سان لويس» للفنون، وقد اختفى من المتحف المصري في القاهرة منذ ٤٠ عامًا. أعلن النائب الأمريكي أن وزارة العـدل الأمريكيـة ستتوقف عـن اتخـاذ أي إجـراءات قـضائية لاستعادة هذا القناع، الذي عمره نحو ٣٢٠٠ عام، وإعادته إلى مصر هذا بعد أن طلبت المحكمة الأمريكية تقديم ما يثبت سرقته، وهو الأمر الذي لم تتمكن وزارة الآثار المصرية من القيام به.

ولمعلوماتك، هذا القناع يزن ١١ كيلوجرامًا من الـذهب الخالص النقي، أي أنه يعد من المستحيل تهريبه واستعادته من الولايات المتحدة. نحن نحتاج إلى «جيمس بوند» أو «إيثان هانت»، بطل سلسلة المهمة المستحيلة، أو رجل مثل «أدهم صبري» للقيام بمهمة استعادة هذا القناع.

سأله «عقرب»:

- ولماذا تفترض أن وجود هذا «القناع» أمر ضروري؟

- أنا لا أفترض.. أنا متأكد.. هل تظن أن هؤلاء الفراعنة الأوغاد قد يمزحون في حماية أسرارهم؟ ألا ترى معي كم التعقيدات التي



تعاملنا معها حتى الآن، والتي ما زلنا نخوض غمارها؟ الأمر واضح كالشمس.. لا نستطيع أن نفترض بعد هذا كله أنه يمكن الاستغناء عن إحدى القطع.. لم يذكروا لنا أن هناك قطعًا «إجبارية» وقطعًا «اختيارية» في هذا اللغز اللعين إن لم تكن لاحظت هذا! ثم إن هناك أمرًا يبدو أنك قد نسيته.. ألا يبدو لك هذا القناع هو الوجه الذي ليس له ملامح الذي طلب منا «شيخ العبابدة» ادخار بعض الرماد لأجله؟!

باختصار.. المشهد واضح جليٌّ كما أراه أنا. على الشخص الذي يحمل الخاتم المفقود أن يضعه في التجويف الأوسط داخل هذا التابوت، لم يرقد فيه «بإرادته»، ويضع الطائر فوق صدره، ثم يرتدي هذا القناع اللعين والسوار، وفوق هذا كله عليه أن يعرف ترتيب العبور عبر البوابات الاثنتي عشرة، التي ما زلنا نجهل ترتيب آخر خمس بوابات منها، فقط ليزداد الأمر سوءًا مع اختفاء هذا القناع، الذي يحتاج وحده لعملية مخابراتية خاصة لاستعادته. المدة المتبقية أصلًا لن تسمح لنا بهذا كله.

- لا أفهم ما جدوى هذا القناع الذي ليس له ملامح أصلًا؟

- بالضبط.. جعل القناع مصمتًا أمرٌ له دلالة رمزية خاصة في الفلسفة المصرية القديمة؛ فهو يعد تجسيدًا أعلى للقوة المجردة خارج الحدود الإنسانية؛ لأن الولادة تطلب أن يكون ذكرًا أو أنثى، وجعله مصمتًا من دون ملامح بشرية أو حتى حيوانية يعد صيغة استعارة رمزية لمن يرتديه. وكأنه يوحد توحيدًا لا ينفصم بين الأنثوي والذكوري، بين الحيواني والإنساني.. ويسبغ هذا القناع على مرتديه في مراسم تتويج خاصة بُعدًا يتجاوز قدرة البشر.

- أيها الأحمقان، لقد دفعت لكل منكما نصف مليون دولار كي أصل إلى حل هذا اللغز اللعين، على اعتبار أنكما أعظم من أنجبته البشرية في علم المصريات.. ألم تقولا لي إنكما الألمعيان ولا فخر؟! صدقاني، إن أول فعل سأقوم به هو أن أخصيكما فلا يُعرف لكما جنس، سواء ذكر أو أنثى. وعندها لن تحتاجا إلى هذا القناع كي يخفي نوع جنسيكما. أنتما حتى لم تتوصلا إلى ترتيب البوابات الصحيح. وحدسي يخبرني أنكما فقط تحاولان تعقيد الأمر لكي يبدو خارجًا عن إرادتكما فتداريا عجزكما وغباءكما من وراء مشكلة القناع البسيطة هذه. قولا لي ترتيب البوابات أولًا وأنا سأرقد بنفسي في هذا التابوت من دون هذا القناع، وإلا ...

قاطعه «ملهم» عندما أتى على ذكر البوابات وهو يشير إليه أن يصمت:

- لحظة واحدة.. لقد نسيت أمرًا مهمًّا.. اللوحة التي وجدناها في البئر.

ثم أخرج هاتفه وهو ينظر إلى الصورة (ملحق ٨)، لتدور رحى الأفكار داخل عقله الفذ، وتُنتج دقيق الحلول..

ثم قال في فخر:

- عرفت حل شفرة البوابات.

٦\٥\١٠\١\٣\ ٧\٤\٨\٩\١١\١١\١٢\١٢

- كيف عرفت هذا؟

أجابه بسؤال:

- ما آخر رقمين توصلنا لهما في هذه المتتالية؟

- ٧ و٤.

أشار «ملهم» إلى صورة اللوحة المعروضة على شاشة جهازه وهو يكبّرها من جهة أقصى اليسار:

- لو دققت النظر في هذه اللوحة، ستجدها تبدأ من هنا، وكأنها تعطينا إشارة إلى أننا على الطريق الصحيح.. لاحظ هذا.. عدد النجوم ٧، ثم ٤، وهما آخر رقمين في المتتالية، تليهما ٨ نجوم رأسية، ثم تنعرج كأنها مسار، فتعد معها ٩ نجوم، ثم نجمة واحدة، ثم ١١ نجمة، ثم نجمتين (كما توقعنا لأنها صالة الحقيقة)، وأخيرًا ١٢ نجمة.. الأهم من هذا هو صورة المصري القديم فوق مركب الشمس، وصورة أخرى له وهو ينتهي عند رقم ١٢ وفوق رأسه...

أكمل «مميز» وعيناه تلمعان:

- فوق رأسه الشمس.. رمز الحكمة والخلود.

ابتسم له «ملهم» ولم يعقب.

كان «ملهم» متحمسًا، سعيدًا لما توصلا إليه في حل شفرة من أعقد الشفرات، التي شعر معها أنه يغوص في رحلة عقلية، ذكية، عبر العصور، وكأنه «فوتون» يفقد طاقة ضوئية مع كل عقدة، فينتقل من مسار إلى مسار حتى يصل إلى قمة المنتهى.



ثم تذكر أمر القناع، فأرخى كتفيه في حركة بائسة ثم قال في فتور:

- وعلى الرغم من كل ما توصلنا إليه، فهذا لا يمنع أنه ما زال أمامنا بعض الأجزاء الغامضة التي يجب تحديدها بدقة. لكن هذا كله سيصير بلا فائدة من دون القناع.. لقد فشلنا.

تنحنح «مميز» قبل أن يقول لأخيه وهو يفرد أمام عينيه ورقة البردي:

- هناك أمر آخر قد يكون له مدلول خطير في الكلمات الهيروغليفية، هل لاحظت هذه الكلمات: «حاله كحال النجوم»... إلى حيث «تولد النجوم»، وعلاقتها بالنسر؟

قطَّب «ملهم» بين حاجبيه وهو يقرأ الكلمات مرة أخرى.. ثم نظر إلى أخيه في ذعر وهو يقول:

- هل فعلًا تظن ما ظننته؟!

مط أخوه شفتيه وأومأ برأسه من دون أن يتكلم..

هنا فاض الكيل بـ«عقرب» تمامًا، فقال وهو يلتقط مسدسه من جرابه، وقد فقد السيطرة على أعصابه:

- أقسم أن أفرغ هذه الرصاصات في رأسيكما إن لم تكفا عن هذا الأسلوب المستفز.. كفى ألغازًا، فلدينا الكثير منها.

قال «ملهم»، ولأول مرة، منذ لقائه «عقرب»، بصبر قارَب على النفاد:



- وهل هذا سيُحدث فارقًا لديك؟! حسنًا.. اسمع يا سيدي: المناطق الكثيفة لولادة النجوم، أو «مدينة نشأة النجوم»، تقع على حدود الأعمد المظلمة لـ«سديم النسر»، وبالتحديد عند «أبراج التخليق» التي يطلقون عليها «الحقول البلازمية». مدينة نشأة النجوم هذه تبعد عنا ٧٠٠٠ سنة ضوئية. هذا هو المكان الذي نظن أنه المشار إليه بكلمة «حيث تولد النجوم». أما «حاله كحال النجوم»؛ فالحالة الرابعة للمادة، بعد السائلة والصلبة والغازية، هي الحالة النجمية.. بمعنى أدق: حالة «البلازما».

هل كل شيء يبدو واضحًا إليك الآن، ولديك كل المعطيات التي ستساعدك على اتخاذ قرار حكيم؟ أتمنى هذا؛ لأننا لا نملك المزيد!

تجاهل «عقرب» سخريته بسؤال عملي، ربما لأول مرة أيضًا:

- وكيف يتأتّى لنا الذهاب إلى هناك؟

أشاح عنه بوجهه ساخطًا وهو يقول:

- لا أعرف.. ربما عبر هذا التابوت.. ولكن أين القناع؟

ساد صمت ثقيل مديد عميق، ولم يجرؤ أحد على الكلام.

لم يستطِع عقل «عقرب» استيعاب أن تكون هذه هي النهاية..

هكذا، وبكل بساطة.

أول شخصين خطرا على باله في هذه اللحظة هما: صديق عمره «أدهم الملّاح»، ومحبوبته «مريم الصواف».



تذكَّر كيف ضاعت هي من بين يديه، كما ضاع حلمه، الآن، مع ظهور مشكلة القناع. التقط هاتفه، وهو ما بين متحير ومتردد..

شعر أنه يحتاجها..

يريد أن يحادثها في هذه اللحظة..

فأظهر صورتها على شاشة جهازه، وقبل أن يتصل بها اختفت صورتها، لتحل محلها نغمة وأيقونة رسالة مستلَمة جديدة.

فتح الرسالة في شغف، الواردة من هاتف «أدهم الملَّاح»، وقرأ:

نستطيع أن نساعدك في الحصول على القناع الأصلي..

بل، وأكثر من هذا..

حل الجزء الأكثر تعقيدًا من الشفرة..

هذا لغز أكبر منك، وأنت تحتاج إلى مساعدتنا.

ضغط زر إعادة الاتصال، فلم يجبه. ثم وصلت له رسالة، بعدها مباشرة، من الهاتف نفسه، تقول:

نحن لسنا «أدهم الملَّاح». نفِّذ التعليمات الآتية: اتجه إلى المطار مباشرة. استقل طائرتك الخاصة إلى «تل أبيب»، وهناك، سيلتقيك رجلنا في المطار، ليأخذك بعدها إلى مدينة «الجليل الغربي». يجب أن تكون هنا في غضون أربع ساعات لا أكثر.. لسنا بحاجة إلى أن نذكرك أننا على شفا مولد اليوم السادس منذ ظهور الطلاسم..

أي: بقيت أربعة أيام.. فقط!

(١٩)

اعتدلت «مريم الصوَّاف» من اتكاءتها على الوسادة وهي تحتضن دمية «باربي» بعينين زرقاوين شقيتين، لها شعر أشقر ثائر، وابتسامة بريئة لا تتبدل، تعتلي شفتيها الورديتين مهما كانت الظروف.

كانت تشاهد الأخبار داخل فيلتها الأنيقة، التي تقع داخل حي «السلمانية» الراقي، في ملل. اقتربت منها قطتها الجميلة، المنحدرة من سلالة بريطانية، فصيلة «بورميلا»، التي تمتاز بالفضول والذكاء الشديدين. القطة لها عينان خضراوان، طرق عليهما الوسن بلطف، فبدتا نصف مغمضتين، تستدعيان النوم، كعيني صاحبتها الجميلتين، اللتين تحدقان في شاشة بلازمية عملاقة، تلائم جو الغرفة الفاخر. وكأن القطة شعرت بالغيرة من الدمية، فجاءت لتنال، هي الأخرى، بعض الاهتمام. وضعت «مريم» الدمية المبتسمة جانبًا، وأخذت تعبث



في أطراف خصلات شعرها الأسود الناعم بسبابتها وإبهامها، كعادتها كلما أخذتها أفكارها بعيدًا، بينما غاصت القطة في حجرها تلتمس بعض الدفء.

شغلها ذلك الرجل الغامض، منذ لقائها معه في مكتب الوزير قبل يومين..

«سعد العشماوي».

لا تدري ما السبب الذي جعلها تتعلق به. الرجل أثار فضولها منذ الوهلة الأولى. رجل غير عادي، ثقته في نفسه بلا حدود، لا يمكن تجاهله. أينما ظهر يجذب الانتباه إليه، من دون أي مجهود. له حضور قوي، وقوة غامضة تنبعث منه، لم تدرِ لها مصدرًا..

عيناه تلازمانها منذ أن فارقتهما.

انتزعها من شرودها رنين هاتفها. اختلست نظرة سريعة على شاشته فقرأت عليها:

- مكالمة آتية: «عزت عقرب».

مطت شفتيها في ملل والتقطت هاتفها من دون رغبة، وهي تقول:

- نعم؟

أتاها صوت غاضب يحاول صاحبه أن يخفف من حدته:

- هذه رابع محاولة للاتصال بك، لماذا لم تعاودي الاتصال؟

- مشغولة.

سكت الصوت لحظة، وكأنه يسيطر على انفعالاته:

- «مريم».. اسمعيني.. أنا أحتاج إليك.. أنا أريد أن أقابلك غدًا.. علينا أن ننهي هذا الخلاف في أسرع وقت.

- أي خلاف تقصد؟ لا يوجد بيننا أي خلاف.. أم تقصد الطلاق؟

- بل هو خلاف.. وعلينا أن نتجاوزه في أســ...

قاطعته في حزم:

- بل هو طلاق.. وأنا قلت لك أكثر من مرة: إن هذه هي النهاية. أرجوك، اتركني وشأني. عليَّ أن أذهب الآن.. إلى اللقاء.

أنهت مكالمتها وهي تطلق تنهيدة حارة.. لقد أغلقت هذه الصفحة من حياتها تمامًا، وليست على استعداد حتى لإلقاء نظرة عليها من جديد.

الرجل كان يشكِّل عقبة في سبيل تحقيق آمالها وطموحاتها.. رجل لا يقيم وزنًا سوى للمال، أحد أباطرة رجال الأعمال في الشرق الأوسط، عائلته غنية جدًا، لم يبدأ من الصفر، بل من ثروة هائلة. ضاعف من هذه الثروة في زمن قياسي. شارك «أدهم الملَّاح» في قناة «الخبر»

الفضائية التي تعمل هي فيها.

لم يفهم أبدًا احتياجاتها، بل حتى لم يحاول.

إن كل امرأة لها طبيعة واحتياجات خاصة ومختلفة، لن تستطيع التعامل معها أبدًا من دون أن تفهم هذه الاحتياجات، والأهم من هذا هو أن تكون على استعداد أن تتقبلها!

ثم تفكر أن ترتبط بها إن أردت..

لكنه لم يفعل ذلك.. لقد كان يستمع لما تريد من دون فهم.. يظن كغيره من الرجال أن عليه أن يتزوجها أولًا ثم يقنعها فيما بعدُ أن تتخلى عمّا تريد هي. لا أن يعملا معًا لتحقيق أحلامها، كلٌّ بكيانه.

الأمر الذي زادها عنادًا على عناد؛ فـ«مريم الصواف» لم تكن امرأة جميلة وناجحة فقط، بل امرأة على قدر عالٍ من الذكاء. تحتاج إلى رجل من نوع خاص ليحتويها. وليس هناك الكثيرون من الرجال الذين يستطيعون التعامل مع امرأة ناجحة مشهورة ذكية، بل وثرية أيضًا.

بالنسبة للملياردير «عزت عقرب» وعلى الرغم من أن تلك الأسباب السابقة كلها كانت هي السبب وراء إعجابه بها، حتى يرى العالم أجمع أنه رجل استحق امرأة مثلها، فإنه بعد أن حصل عليها، ظن أن مهمتها في الحياة قد انتهت عند هذه النقطة، وأنها فعلت كل ما فعلته في السابق من أجله، ولكي تظفر به. ولقد امتلكته وامتلكت من خلاله كل شيء: الثروة والشهرة والمال.. هنا وظيفتها في الحياة يجب أن تنتهي لتعيش في ظل رجل يؤويها ويُطعمها ويضاجعها.

تفكير غير عادل يسيطر على عقل «عقرب»، بأن المرأة غاية طموحها رجل ناجح، وعليها الآن أن تختفت وتنزوي وتفقد حياتها وتحيا من خلاله..



هذا المنطق المريض قد ينجح مع أي امرأة أخرى..

إلا مع «مريم»..

وهذا ما لم يفهمه «عزت».

«مريم» أيضًا من أسرة ثرية، وتلقت تعليمها الجامعي بالجامعة الأمريكية في القاهرة، وحاصلة على ماجستير إدارة أعمال من جامعة «كامبريدج» في «لندن».

امرأة غير عادية.. لم تجد بعدُ الرجلَ الذي يستطيع أن يفهم هذا كله، ويتعامل معها بـ«الطريقة المناسبة».

عندما سألتها أمها بعد انفصالها عن «عقرب»: وما الطريقة المناسبة؟ كانت إجابتها السريعة والمباشرة: الرجل المناسب سيعرف ما الطريقة المناسبة.

بعد انفصال «مريم» عن «عزت»، التف حولها المريدون من كل حدب وصوب، ومن داخل البلاد وخارجها، لكنها قد قررت أن توقف دقات قلبها، حتى إشعار آخر..

انتزعها من شرودها خبرٌ تقدمه مذيعة زميلة، فاعتدلت في جلستها في حدة، ما جعل قطتها تفر بعيدًا..

كان على الشاشة الوزير - الذي رأت «سعد» عنده منذ يومين - يحيط به رجال الشرطة وحول كفيه الأساور الحديدية، بينما صوت المذيعة يرافق الصورة، تشرح كيف أن هناك مجهولًا ترك للمدعي العام



مستندات تدين «الوزير» بالخيانة والعمالة مع منظمة أجنبية، وتكفي أن تذهب به إلى حبل المشنقة. ومن دون سبب قفز أمام عينيها «سعد» وهو يقول آخر كلماته لمديرة مكتبه:

- سأرحل، ولن أعود.. لكنه هو الذي سيأتي إليَّ.

غريزتها أنبأتها أن «العشماوي» لا بد أن يكون وراء هذا كله.. فحينما سألت مديرة المكتب عن اسمه، كصحفية ومذيعة، وباتصالاتها المتشعبة، عرفت في اليوم التالي مباشرة أن هذا الرجل هو الجلاد الأوحد في مصر.. يبدو أنها لم تكن مصادفة إذًا أن تقول المذيعة على الشاشة: إن الأدلة قد تصل برقبة الوزير إلى حبل المشنقة، ويقول «العشماوي» مهددًا مديرة مكتبه: إنه هو الذي سيأتي إليَّ.

هذا سبق صحفي ولا شك. عليها أن تقابل هذا «العشماوي» في أسرع وقت ممكن. تناولت هاتفها وطلبت رقم مساعدها في العمل لتلقي عليه بعض التعليمات بخصوص اللقاء التليفزيوني القادم لقنوات «الخبر» الفضائية.

بمجرد أن أنهت محادثتها، أتتها تلك الرسالة من رقم مجهول..

فتحت الرسالة لتقرأها.. لم تكن تحوي سوى كلمات قليلة:

سبق صحفي لقناة الخبر، جثة صاحب القناة شخصيًّا في جراج مول الحياة.

أخذتها الصدمة والدهشة، فدارت بعينيها إلى ما حولها في حيرة..



لتلتقي عيناها عيني الدمية «باربي» الزرقاوين، مرة ثانية، التي لم يبدُ عليها أنها تأثرت بخبر موت «أدهم الملّاح» كما تأثرت هي..

فالدمية كانت تبتسم لها في براءة..

طوال الوقت..

كعادتها.

(٢٠)

تحركت ماسحات مياه الأمطار جهة اليمين فوق زجاج سيارة الدكتور «معتز وهدان»، لتسمح له بالرؤية فينة، ثم تعود المياه المتساقطة كالشلال، لتعوق عينيه عن الرؤية أمامه، قبل أن تعود الماسحات أدراجها جهة اليسار، فتكسح المياه تارة أخرى. وما بين حركتها البندولية المتأرجحة، التي لا تهدأ، شحذ حواسه كلها وهو يرى الطريق بصعوبة؛ لغزارة الأمطار هذه الليلة، الأمر الذي دفعه إلى أن يعدل مؤشر التحكم بالماسحات، ليستحثها على العمل بأقصى سرعة.

انبعث رنين هاتفه المحمول، فاسترق نظرة عابرة على شاشته. رأى اسم «سعد العشماوي»، ضغط زر الإيجاب على سماعة البلوتوث وبادر صديقه مازحًا:

- لقد أضعت وقتًا ثمينًا وأنا أختلس النظر إلى شاشة التليفون. من الأحرى، استنتاج أن «سعد العشماوي» هو الكائن الليلي الوحيد الذي

يشعر بأريحية شديدة لكي يتصل بي في الساعة الواحدة صباحًا، وفي عز الشتاء.

انبعث صوت «سعد» الحازم دائمًا، قائلًا في جدية:

- بل أنت الذي أضعت وقتًا ثمينًا بهذه المقدمة الطويلة.. أين أنت؟

- أنا في طريقي إلى جراج مول الحياة، وسط البلد.. هناك حادثة قتل، ولا بد لي من معاينة مسرح الجريمة؛ فالقتيل شخصية عامة ولها حضور دولي.

- كم تبعد عن المول؟

- حوالي ٢٠ دقيقة.

- حسنًا.. سألقاك هناك.

وأنهى المكالمة.

هز «معتز» كتفيه، لا يلوي على شيء آخر سوى الوصول إلى وجهته. وحده يعلم غرابة أطوار صديقه، فلم يعد تشغله طريقته الجافة في التعامل، لكنه يدرك أن «سعد» رجل وصديق مهذب، بمعنى الكلمة. من الصعب أن يجود الزمان بمثله هذه الأيام؛ لهذا استمرت علاقتهما معًا عقدًا من الزمان.

شرد «معتز» وهو يغوص في بحر الذكريات المسمى «كان»، إلى ذكريات أول لقاء بينهما، الذي جرت مقتضياته داخل غرفة الإعدام منذ



١٠ سنوات. وياله من مكان يشهد أول تعارف بين صديقين! امرأة أوقف قلبها من الخوف، قبل لحظات من إعدامها، طلبوا منه التوجه لتشخيص سبب الوفاة، وهنا التقى «سعد». يومها لمس فيه جانبًا إنسانيا جميلًا. فبعدما أنهى فحص الحالة، تجاذب أطراف الحديث معه، وعرف منه أنه يعيش في منطقة «العاشر من رمضان»، وأنه يكره قيادة السيارات في مثل هذه الشوارع المزدحمة، كمستعمرة نمل غير منظمة، فعرض عليه أن يقله بسيارته.

وفي الطريق، لاحظ صمته الطويل وإجاباته المقتضبة.. كان لديه الكثير مما يود أن يعرفه عن قابض الأرواح: ما مشاعره؟ هل يشعر بالخوف؟ ما أسلوب حياته، وعلاقته بأهل بيته؟ إلا أن «سعد» لم تكن به رغبة للحكي، فلم يعطه المساحة اللازمة لكي يسرب هذه الأسئلة كلها، فلقد وضع السدادة داخل الحوض، بعد أول سؤال، في جملة واحدة: «من فضلك، أنا مرهق، ولا أرغب في الحديث. لقد كان يومًا شاقًا».

وطوال المسافة، أراح «سعد» ظهره على المقعد، وأغمض عينيه، حتى ظن أن الرجل غرق في سبات عميق، فخفض صوت المذياع إلى أقصى درجة حتى لا يزعج النائم.

ثم سمع صوت «سعد» الرخيم الآتي من أعماق سحيقة يقول:

- من فضلك، هلا توقفت هنا؟

ضغط مكابح سيارته، وهو ينظر في دهشة من حوله، قبل أن يسأله:

- ماذا هناك؟

كان «سعد» يغادر السيارة وهو يقول بطريقته المهذبة نفسها:

- دقيقة وسأعود.. انتظر هنا من فضلك.

راقبه في دهشة إلى حيث يتجه.

كان هناك رجل عجوز، فقير، ضعيف، نحيل، يجلس على الجهة المقابلة من الطريق، يضع يده على رأسه في حسرة، ومن رعشة جسده عرف أن الرجل يبكي. إلى جواره، عربة خشبية صغيرة، مالت على جانبها الأيمن، وتناثرت حبات البرتقال، حتى منتصف الطريق، وإطارات السيارات تلهو بها في قسوة، من دون أن تبالي بالرجل.

غادر «معتز» سيارته يرقب ما يحدث.

في البدء، بيد قوية، أعاد «سعد» وضع العربة المقلوبة.

ثم اتجه إلى الرجل وجلس القرفصاء أمامه وهو يربت على كتفه شاهد «سعد» يُخرج من جيبه منديلًا ويمسح دموع الرجل العجوز، ثم يضع المنديل في جيبه. بعدها أمسك بكفيه، مرفقي العجوز، ليساعده على الوقوف. رآه يتبادل معه كلمات قليلة، ثم يلتقط محفظته من جيبه يسحب منها نقودًا ويناولها للعجوز.

ولم يترك الرجل حتى رأى الابتسامة تعلو وجهه من جديد.

انتزع «معتز» من شروده السرينة المميزة لسيارات الشرطة بألوانها الزرقاء، التي تقف أمام مدخل الجراج العمومي متعدد الطوابق. اجتاز



بسيارته، قاصدًا الطابق الرابع والأخير. لمح «سعد» يتبادل أطراف الحديث مع رجل في زي ملكي، مسدسه معلق في جراب بارز. «سعد» أشهر من نار على علم في عالم الجريمة، وأدواته، من قضاة وشرطة وطب شرعي، الكل يعرف بعلاقة الصداقة الوطيدة التي تجمعه بـ«معتز»؛ لهذا لم يكن من العسير أن يبرر سبب وجوده الآن في مسرح الجريمة. رفع «معتز» يده محييًا زميله، تركه «سعد» ليباشر مهام عمله، ووقف مستندًا إلى مقدمة سيارة صديقه وهو يعقد مرفقيه أمام صدره، يراقب ما يدور حوله في صمت.

أول شيء وقعت عينا «معتز» عليه كان الشريط البلاستيكي الأصفر الذي يحدد «مسرح الجريمة» من قِبَل المتحرين، الذين يمنعون عامة الناس من الاقتراب منه، حتى وصول الشرطة الجنائية، فيتحول بعدها إلى اسم «مجمد الأماكن»؛ وذلك لحفظ الأدلة التي تُستخدم فيما بعد للتحري والتقصي.

تم تحديد «مسرح الجريمة» بالطابق الرابع بأكمله، الذي قد يصل في بعض الأحيان إلى عدد من الكيلومترات، كما هو الحال في حوادث الطائرات.

تقدم الضابط الذي كان يتحدث معه «سعد»، وقدم نفسه إلى «معتز»:

- الرائد «هَيْب هَصّار»، من الشرطة الجنائية.

تطلع «معتز» إلى الضابط، الثلاثيني، فارع القامة، قوي البنية.. حدد سريعًا من لون عينيه الخضراوين وشعره البني القصير وملامحه الوسيمة، بالإضافة إلى اسمه، أن الرجل له أصول شامية.

وأنا دكتور «معتز وهدان»، خبير الطب الشرعي، هلا قصصت لي سريعًا ما حدث في مسرح الجريمة قبل أن أباشر عملي من فضلك؟

أشار «هيب»، من وراء الشريط البلاستيكي، إلى جثة الرجل العجوز الملقى على ظهره في ساحة الجراج، بجوار سيارته، بينما جلس شرطي إلى جوارها يرسم على محيطها، بطبشور أبيض، ليحدد مكان وشكل الجثة، بعد رفعها، وهو يقول:

- أول من وصل إلى مسرح الجريمة كان أنا، بصفتي رئيس فريق التحقيق، وثلاثة من عساكر الشرطة، على أثر تلقينا اتصالًا هاتفيًا من مجهول، ثم قمنا بعملنا من تأمين ساحة الجريمة وتسييج محيطه بالشريط الأصفر، وعكفنا على انتظارك لنشرع بعدها في جمع الأدلة.

اقترب «معتز» من جثة «أدهم الملّاح»، وهو يلقي نظرة شاملة عليها، يقف إلى جواره «هيب». الجثة ملقاة على ظهرها، بدت ملامح الألم والرعب على الوجه. الحلق مقطوع بجرحين عميقين، وكان الجزء السفلي من بطنه ممزقًا، ومجروحًا جرحًا عميقًا خشنًا، كما كانت هناك عدة جروح أخرى في القدمين، ولكن بسكين آخر حوافه متعرجة.

نظر «معتز» نظرة بلا معنى إلى «هيب»، ثم سأله وهو يعدل من نظارته الطبية بإطارتها البيضاء، التي بدت متناقضة مع بشرته السمراء:

- متى وجدتم الجثة؟

- لم يتعدَّ الأمر الساعة.. لقد تلقينا اتصالًا من مجهول، قال إنه كان يستعد لمغادرة الجراج، مع دقات عقارب ساعة منتصف الليل تمامًا،

عندما رأى رجلين يتشاجران، فظن أن أحدهما صدم سيارة الآخر، فتجاوزهما، ليسمع بعدها صوت صراخ محتضر، ليعود من جديد علّه يمد العون إن استطاع، ليفاجأ بالجثة، واعتذر عن أي تفاصيل؛ فالمكان كان مظلمًا، ولم يستطِع أن يدلي بتفاصيل أخرى تساعد على تحديد هوية القاتل المحتمل.

هز «معتز» رأسه نفيًا وقال في حسم:

- أيًا ما كانت هوية هذا المتصل، فهو كاذب تمامًا.

قطّب «هيب» ما بين عينيه، وهو يردد الكلمة في تساؤل:

- كاذب؟!

- وفي كل ما قال.. أولًا: نحن نقف في المكان الخطأ، هذا ليس «مسرح الجريمة»، هذا هو «المكان الفرعي»، ومسرح الجريمة في مكان آخر، وأيًا كان من ألقى بالجثة في هذا المكان، فله غرض، أن يبعد الجميع عن «مسرح الجريمة» الحقيقي. محاولة كسب وقت. يبدو أن هناك أمرًا مهمًّا يتعين عليه القيام به الآن في مسرح الجريمة الفعلي، ونحن مشغولون الآن بفحص الجثة في الجراج. هذه الجثة قُتلت من ٣ إلى ٤ ساعات، وتم نقلها إلى هنا.

مسح «هيب» وجهه بكفيه، كعادته كلما عجز عن فهم أمر ما.

- هلا أوضحت علام بنيت استنتاجك بأن هذا هو مسرح الجريمة الفرعي؟ ولماذا قلت إن الجريمة لم تحدث منذ ساعة كما ادعى المتصل؟

- كما تعلم أن «المكان الفرعي» هو الذي شهد فعلًا جنائيًا متصلًا بالجريمة والأماكن العامة المستغلة من طرفها. أما «مسرح الجريمة» فهو المكان الذي تمت فيه الجريمة. هذه الجثة نُقِلت إلى هنا، ولأن الجاني لا يفهم في الطب الشرعيّ، فقد ألقى الجثة على ظهرها. ولو علم ما هي «الرمية الزرقاء» لكان ألقاها على بطنها.

- الرمية الزرقاء؟!

- نعم.

قال كلمته وهو يتبعها بإشارة إلى ملابس القتيل المهترئة عند بطنه الذي ظهر منه لون أزرق، وتابع:

- هذا هو المكان الخطأ، لظهور اللون الأزرق.. لو كانت الجثة على حالها، لظهرت في منطقة الظهر.

بدت علامات عدم الفهم من جديد على وجه «هيب»، ليتابع «معتز» ملقيًا المزيد من الضوء:

- الرمية الزرقاء تظهر مع اتجاه الجاذبية، وهذه البقع الزرقاء تتشكل بسببٍ سريان السائل والدم بالجثة باتجاه الأماكن المنخفضة بفعل الجاذبية الأرضية.. ومن المستحيل أن يكون بطن الجثة في هذا الوضع هو اتجاه الجاذبية!

أما لماذا مر أكثر من ساعة على الوفاة، فهذا أمر متعلق بـ«الصمل الموتي» أو ما هو معروف للعامة بـ«التخشُّب الموتي»، وهي إحدى العلامات المعروفة للوفاة وتحدث بسبب تغيرات كيميائية في

العضلات، ما يجعل الجثة متصلبة وحركتها صعبة، تبدأ هذه العلامة في الظهور بعد ساعتين إلى أربع ساعات.

حين وصل إلى هذه النقطة، كان يضغط بيده أمام عيني «هيب» في أماكن متفرقة من الجثة وهو يتابع:

- التخشب كلي. هذه جثة فارقت الحياة منذ ساعات. هذا أمر واضح. هناك أيضًا - بالطبع - عدة عوامل تؤثر على سرعة التصلب كدرجة الحرارة المحيطة؛ فالحرارة تزيد من سرعة التصلب، والبرودة تقلل من سرعته، وهذا ما سآخذه في عين الاعتبار وأنا أضع تقريري النهائي.

مطَّ «هيب» شفتيه وقال وهو يلتقط هاتفه، وينقر على شاشاته مبتعدًا عن «معتز»:

- يبدو أن الأمر سيكون معقدًا هذه المرة، خصوصًا مع شهرة القتيل.

في اللحظة التالية، ظهر في المكان «ميكروباص» أبيض عليه شعار قناة «الخبر»، بلونه الأحمر المميز، المملوكة للقتيل، ونزلت منه «مريم الصواف» مع مساعدها، وفريق يحمل ثلاث كاميرات.

أوقفها «هيب» بإشارة صارمة من يده، وقد تعرَّفها على الفور:

- أستاذة «مريم». من فضلك.. غير مسموح بالتقاط صور للجثة، ثم كيف عرفتم بأمر الحادث؟

أجابته «مريم» في تحدٍّ بلا سبب:

- هل توجه لنا اتهامات؟

- أنا الرائد «هيب هصار» وأنا لا أوجه اتهامات.. لكن أي معلومة ستقودنا إلى القاتل.

ثم نظر إليها مليًّا، وفي صرامة، وهو يعقد ساعديه أمام صدره، ثم أعاد سؤاله في حزم:

- والآن.. كيف عرفتم بالحادث؟

حركت «مريم» كفيها حركة عشوائية بلا معنى، ثم عقصت شعرها خلف أذنيها، كعادتها كلما شعرت بتوتر، وهي تجيب:

- تلقيت رسالة من مجهول، تقول إن هناك سبقًا صحفيًّا لقناة «الخبر»، على القناة أن تكون أول من يذيع نبأ مقتل صاحبها.

تبادل «معتز» و«هيب» النظرات.. كانت عينا «معتز» تقول بوضوح:

- ألم أقُل لك هناك من يعبث معنا؟

أمر بعدها فريق التفتيش الجنائي بنقل الجثة إلى المشرحة، إلى حيث هو ذاهب الآن، بينما اتجهت إليه «مريم» لتسأله:

- هل لديك أي معلومات يا دكتور؟

أشار «معتز» برأسه نفيًا وهو يتجه إلى سيارته وهي تتبعه في إصرار وفضول صحفية نشطة، لتلقي عليه المزيد من الأسئلة؛ لِتُفاجأ بـ«سعد العشماوي» يقف مستندًا على مقدمة السيارة.



فقالت مصدومة وكأنها رأت شبحًا، وفي عدم لياقة:

- أنت من جديد؟!

أجابها «سعد» بنظرة باردة، خاوية، ولم يبالِ حتى بالرد عليهـا. ثـم دلف إلى مقعد قيادة سيارة صديقه، وهو يقول له:

- سأقود أنا إلى المشرحة، فأنا أحب القيادة في الشوارع الخالية.

وانطلـق بالـسيارة، في مهـارة وسرعـة، تاركًـا «مـريم» غارقـةً في ذهولها، وهي تتطلع إلى حيث اختفت السيارة، وعقلها يتطاير منه ألـف خاطرة وخاطرة!

(٢١)

بعـد سـاعة، تـم تـسليم جثـة «أدهـم المـلّاح» إلى مكتـب الطـب الشرعي، محفوظًا معها «شرشف الأدلة». وقف «معتـز» داخـل «غرفـة التشريح»، ليقوم بعملـه في تحديـد أسـباب الوفـاة، وإلى جـواره يقـف «سعد»، يرتديان الزي الكامل، الخاص بوجودهما داخل تلـك الغرفـة، للوقاية والحماية، الـذي يتكـون مـن: سـترة، مِئْـزَر، قفـازات مطاطيـة، نظارات، وكمامات واقية..

عيادات التشريح – بوجه عام – تثير الرعب في الأنفس. كل ما هو متعلق بها مُضنٍ؛ حيث يتم التعامل بشكل يومي مع أشخاص مكلومين نتيجة فقدان من يحبون.. العيون الدامعة، الصرخات، الوجـوه الذاهلـة الشاحبة، هي جزء يسير من الباقة التي تحصل عليهـا بمجـرد وجـودك داخل هذا المطبخ الذي له أدواته الخاصة. لهذا كـان لزامًا التعامـل مـع ذوي المتوفَّى بحساسية واحترافية.



إنشاء وحدة خاصة داخل المشرحة، لتبليغ الأخبار السيئة لهم، لم يكن على سبيل الرفاهية، هذه الوحدة تضم واعظًا دينيًّا واختصاصيين نفسيين واجتماعيين، يجلسون مع أهل المتوفَّ ويسعون إلى تصبيرهم.

طبيعة المكان نفسه مُنهِكة نفسيًّا، ليس فقط لأهل المتوفى وأقربائه، بل حتى للعاملين أنفسهم؛ كونهم يشاهدون أمورًا لا يستطيع أن يستوعبها العقل، خاصة في الأمور الجنائية، إضافة إلى المناظر شبه اليومية التي يراها المشرِّحون والعاملون في الطب الشرعي، ما يجعلهم يمنحون العاملين في التشريح إجازة قصيرة كل فترة؛ لكي يتجاوزوا عن المناظر السلبية التي شاهدوها.

وقف «سعد» - بعينين حَصِيفتين، من دون وجل - يراقب كل ما حوله في تركيز وانتباه عاليين. عَدَّلَ من وضع كمامته؛ فرائحة المادة النفاذة الحافظة (الفورمالدهيد) تطغى على هواء الغرفة المخيفة، التي أُخرِجَت فيها أحشاء وأدمغة آلاف الجثث من قبل، حتى أصبحت الرهبة طلاءً لجنباتها الخضراء، وملاطاً لأرضيتها الرخامية الباردة. الغرفة تحتوي على: طاولة كهربائية حديدية، بحجم سرير طبي، مليئة بفتحات لتصريف ما يخرج من جسم الجثة المُشرَّحة، عبر فتحات الصرف الصحي. ومنشار كهربائي؛ لقص عظم الجمجمة، حتى يتسنى إخراج الدماغ بشكل كامل. إضافة إلى عدد من المشارط الطبية والمقصات، وشاشة كبيرة للأشعة، وجهاز كمبيوتري، لمعاينة الحالة. هناك أيضًا حوض مياه بصنبور مياه واحد، تتساقط منه قطرات رتيبة، متقطعة، لتُقِضَّ سكون الغرفة من حين لآخر، فتزيد من جو التوتر العام الذي يغمر المكان.



حملت عينا «سعد» خاطرة، ضمن فعاليات عقله العليا، لكنها لم تتجاوز فصوص قشرته المخية، وهو ينظر إلى جسد العجوز المُسجَّى من دون حراك، المثبت بحبال في الطاولة حتى لا تتغير وضعية الجثة أثناء عملية التشريح. لقد التقاه مرة واحدة منذ أيام قليلة، حينما كان يحتفل بعيد ميلاده، وهو شيخ طاعن في أرذل العمر، يعيث في الأرض فسادًا.. هل لو عَلِمَ أنه سيلقى حتفه بعد أسبوع، كان سيقيم مثل هذا الاحتفال؟ الآن يرقد صامتًا ينتظر قرار «حق إكرامه»، ليتوارى تحت الثرى، وقد بُعِثَت روحه إلى السماء، وبقي جسده في الدنيا ينتظر تعفنه وتحلله.

التقط «معتز» المنشار وهو يقول لـ«سعد»:

لا أدري ما سر شغفك المفاجئ بعلم التشريح، لكني سأحاول أن أعطيك درسًا مبسطًا.

صوت المنشار الكهربي يعمل وهو يقطع به الرأس.

التشريح يبدأ عن طريق شق فروة الرأس لرفعها، ومن ثَمَّ نشر الجمجمة؛ لاستخراج الدماغ وفحصه وتحديد الإصابة أو أي نزيف أو خلافه، ثم يتم إرجاع الدماغ إلى داخل الجمجمة، وإجراء عملية تجميل بسيطة. وبعد ذلك يتم الانتقال للجسم، ويتم إجراء فتحة، ابتداءً من أسفل الذقن حتى أسفل السرَّة، من أجل استخراج جميع الأعضاء الموجودة بالأحشاء وفحصها، ثم استخراج طلقات الرصاص إن وُجدت، أو تحديد ما إذا كانت هناك كدمات داخلية أو نزيف. وبعد ذلك يتم إغلاق البطن وإجراء عملية تجميل ثانية بسيطة.

ظل «سعد» يراقبه لدقائق بصمت وتركيز.

كان «معتز»، في هـذه اللحظـة، يلـتقط «مفتـاح الجمجمـة»، وهـو يعمل على إزالة «القلنسوة».

– أعرف أن المصريين القدماء لم يؤمنوا بأن «الدماغ» عضو أساسي في الجسم، بل كان القلب هو كل شيء.

– آه بالمناسبة، هل تلقيت البريـد الإلكـتروني الـذي أرسـلته لـك لحضور مؤتمر «النانو وهرم التكنولوجيا» غدًا مساءً؟

أومأ «سعد» برأسه إيجابًا وصديقه يتابع:

– نعم، كان المصريون القدماء يحفرون ثقوبًا في الجمجمة، لمنع نمو البكتيريا، وكانوا يستخدمون «كلّابًا» طـويلًا لاستخراج الـدماغ من الأنف، ثم يذيبون «الراتنج» ويصبون سائلًا خاصًا، من خـلال فتحتي الأنف والأذنين، ومن ثَمَّ يـديرون الـرأس قلـيلًا ليـتم تغليـف داخل الجمجمـة. كـان غرضـهم الأسـاسي هـو حمايـة الجمجمـة من تكاثر البكتيريا. وقد نجحوا في ذلك تمامًا. الحقيقة أن تفوُّق المصريين القدماء في تحنيط الجُثث يثبـت نبـوغهم وبلـوغهم مـن العلـم مبلغًـا في علم التشريح، يُذهل العلماء أمثالي، والخبراء في هذا المجال.

– متى بدأ علم التشريح؟

أجابه «معتز»، وهو يباشر عمله، مـن دون أن ينظـر إليـه في لهجة روتينية، وكأنه يلقي محاضرة:



- التشريح: باللاتيني «أتوبسي»، وتعني: «ليرى نفسه». المصريون القدماء، منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، هم أصحاب أولى الحضارات التي مارست فحص الأعضاء الداخلية للإنسان وإزالة بعض مكوناته، وذلك في عمليات التحنيط. وكانوا يقومون بهذا في قدسية شديدة؛ لأنهم يؤهلون الجسد للعالم الآخر.

سكت لحظة وهو يحاول أن يتذكر شيئًا، ثم قال:

- هل معك هاتفك؟

التقط «سعد» من جيبه هاتفه الذكي، و«معتز» يقول:

- اكتب في خانة البحث لموقع جوجل: «علوم وتكنولوجيا التشريح في القرن الحادي والعشرين وقدماء المصريين»، فهناك موضوع طريف قرأته منذ أيام.

أطاعه «سعد»، ومحرك البحث يعود بعشرات النتائج، وضع الشاشة أمام عيني «معتز»، الذي ألقى نظرة سريعة، ثم قال، وهو يميل بذقنه للأمام:

الرابط الثالث.

نقر «سعد» بسبابته على الرابط، وأخذ يقرأ بعينيه (ملحق ١٢).

أنهى «سعد» قراءته، ثم وضع جهازه في جيبه. نظر إلى صديقه الذي أشار له بعينيه إلى «مِبْضَع»، فناوله إياه «سعد» وهو يشاهده يقطع به بعض الأنسجة «الليفية»، ويقول:

- ولم يكن المصريون القدماء هم الوحيدين الذين اهتموا بهذا العلم، فهناك أيضًا كتب «أبقراط»، أبي الطب، والفيلسوف «أرسطو» الذي لم يشرِّح جسدًا بشريًا قط، على الرغم من أنه قد كتب بالفعل في «التشريح المقارن».

- ظننت أن أول اسم سأسمعه حين أسألك عن علم التشريح هو:...

- ليوناردو دافنشي.

- «دافنشي».. هذا الرجل موسوعي، قلَّما يجود الزمن بمثله. أنا أعشق عبقرية الرجل، ومعجب به إلى أقصى درجة.

- لا أدري كيف كان رسامًا، مهندسًا، عالِم نبات، عالِم خرائط، جيولوجيا، موسيقيًا، نحاتًا، معماريًا، بل وشارك في تشريح الجثث!

- هذا أمر لا يصدَّق. ليس هناك رجل في التاريخ امتلك عبقرية هذا الرجل الذي يعتبر أحد أعظم وأهم عباقرة البشرية.. رجل ذو فضول جامح وصاحب خيال إبداعي محموم.

- هل تعلم أنه كان يذهب سرًا إلى المشارح، معرضًا حياته للخطر، ضد أباطرة الكنيسة آنذاك، التي كانت تحارب العلم؟ يمكننا اعتبار أن «دافنشي»، ومن دون مبالغة، هو مؤسس هذا العلم، جنبًا إلى جنب مع البلجيكي «أندرياس فيزاليوس».

ثم غيَّر دفة الحديث، ليقول ضاحكًا:



- للمرة الثانية، أكرر، أنا لا أدري ما سر شغفك المفاجئ بالتشريح. ذكرتني بأيام الكلية، حينما كنا نلتف حول الجثة في فضول، ونهم للعلم والتعلم.

نقلت عينا «سعد» شبه ابتسامة، بينما تخفي نصفَ وجهه كمامةٌ طبية، وهو يسأل صديقه:

- هناك أمر أثار اهتمامي.. أحد المحكوم عليهم بالإعدام قام بابتلاع خاتمي واختنق ومات. أردت أن أعرف، على سبيل الفضول، المكان الذي استقر فيه هذا الخاتم.

قال «معتز» في غير اهتمام، وهو يلتقط «الملقط المسنن»، لتمزيق بعض الأنسجة:

- هذا يتوقف على حجم الخاتم. قد يعلق في المريء، أو يهبط إلى منطقة الحوض. تستطيع عن طريق وضع يديك على هذه المنطقة أن تعلم ما إذا كان علق في المريء. أما لو هبط إلى منطقة البطن، فستجده هنا تقريبًا.

هز «سعد» رأسه، بمعنى أن المعلومة قد وصلت.

- «معتز».. ما الموت؟

أمال «معتز» ذقنه للأسفل، فبرزت عيناه من خلف عدسات نظارته الطبية، اللتان نقلتا تساؤلًا، لم يلبث أن ترجمه، بصوت مسموع مبطَّن بالدهشة:

- ماذا بك اليوم يا «سعد»؟ هل أنت على ما يُرام يا «صديقي»؟

حاول «سعد» أن يبتسم من جديد.. ظل صامتًا لثوانٍ وكأنه يسترجع أمرًا ما في ذاكرته، قبل أن يقول وهو يحرك كفيه في الهواء بلا معنى:

– نعم أنا بخير. فقط وجودي هنا في هذا المكان ربما جعلني أود أن أفهم كيف يرى «الطبيب الشرعي» الموت.

– هل تريد إجابة علمية، أم فلسفية، أم دينية؟

– أريد الثلاثة معًا، في إجابة واحدة.

– في داخل كل خلية، خلقها الله لنا، خُلِق الموت معها على هيئة ساعة حيوية فائقة الدقة. سخَّرها البادئ لتتحكم في جميع عملياتنا الحيوية، منذ ساعة الولادة وحتى نهاية العمر. هذه الساعة المبرمجة، الموجودة داخل كل خلية، تسير وفق نظام دقيق، لا يشذ عنها. وقد بُرمجت لتدق عددًا محددًا من الدقات سبق تقديره وحُدِّد بدقة غير مسبوقة، لا تزيد ولا تنقص، وعندما تحين ساعة الأجل وتدق آخر دقة، فإن الموت يأتي بعدها ولا يتأخر أبدًا، فسبحانه وتعالى قال لنا وهو يصف لحظات الموت: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

فالموت هو خروج للروح من الجسد. جسدك يحفظ روحك، والروح تحفظ جسدك. الروح تحفظ فسيولوجية الجسد ووظائفه، من دورته الدموية وعملية التنفس وغيرهما من الوظائف. وحينما تفارق الروحُ الجسدَ، تتوقف هذه الوظائف الحيوية، ويتحوَّل الجسد إلى مادة

فحسب. وعندئذٍ، يترسب الدم من الأوعية الدموية الكبيرة إلى الأوعية الدموية والشعيرات الصغيرة. وينكفئ بفعل الوزن في المناطق الأكثر انخفاضًا من الجسم.

ليس القلب الذي يضخه، وإنما الجاذبية الأرضية هي التي تشده.

كأن الأرض تنادي الجسد بعد الوفاة: «منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى».

ثم باغت «سعد» بسؤال غير متوقَّع:

- لا أفهم لماذا يتخلَّى بعض الناس عن حياتهم وينتحرون! لقد قلت إن الرجل ابتلع الخاتم، مفضلًا أن يموت منتحرًا قبل تنفيذ حكم الإعدام. هل تظن أن اختياره الموت كان أرحم له من أن يُساق هو إليه؟ هل الحياة والموت اختيار؟

- الموت لم يكن أبدًا خيارًا. وإن كان جدلًا فأنت أمام خيارين اثنين فقط في الواقع، وغير متعلقين بالموت أساسًا، بل بالحياة ذاتها. وهما: أن «تحيا» بضراوة، أو أن «تحيا» بشكلٍ باهت!

فالذين ليس عندهم سبب يدفعهم إلى الحياة، لماذا يكون عندهم أي سبب يدفعهم إلى الموت؟ أما الخوف من الموت فهو أكثر أنواع الخوف التي لا يمكن تبريرها. فلا خطر على «الميت» من أن تقع له أي بائقة، ثم من قال إن حياتك «الدنيوية» تنتهي بموتك؟ فهناك حياتان تنتظرانك: حياة دنيوية، أنت لست فيها مشاركًا، ولا تستطيع تغييرها أبدًا، وهي التي - فقط - ما سيتذكره الناس عنك بعد موتك.

ولعمري، هذه هي البُرَحَاء الأليم، التي لا تعادلها بَلِيَّة، إن كانت سيرتك سيرة سوء، غير مقترنة بالخير. والحياة الأخرى هي «حياة الجنان» أو «المعيشة الضنك»، التي سعيت إلى إحداهما في رحلتك الدنيوية.. الحياة الأبدية، التي فيها مستقرك ومقامك.

– أوافقك تمامًا؛ فالسيرة السوء، تُولَةٌ وأذى، ليس فقط بعد مماتك، وأيضًا في حياتك. هناك أناس يلقون القبول والاستحسان في الأرض وهم أحياء، ولا يذكر اسمهم إلا ويُجمع الناس عليهم بالخير.. هذا هو معياري؛ من كانت سيرته في الدنيا حسنة، فقلَّما تتبدل بعد موته.

ثم نظر إلى عيني صديقه مباشرة، وسأله:

– هل تخشى الموت؟

ابتسمت عينا «سعد» وهو يجيب:

– أنا أكثر إنسان اقترب من فكرة الموت، بل هي من صميم عملي.. ماذا تظن؟

– لقد سألتني عن الموت، وها أنا أكرر السؤال، بصفتك تعمل في مجال «قبض الأرواح»: هل تخشى ما تسببه للآخرين؟

«سعد» لم يكن أبدًا بالشخص الذي يناقش مشاعره مع الآخرين، وتحديدًا هذه المشاعر التي تعبِّر عن ضعف، فشرد ببصره وظل صامتًا ثواني، ثم قال في اقتضاب:

– إن الموت غدًا مثله مثل الموت في أي يوم آخر. وإن كل يوم يأتي إما لنحيا فيه وإما لِنغادر هذا العالم. والأمور جميعها تتعلق بعبارة



واحدة: أن القلم جرى بكل ما سيكون، وأن كل شيء مكتوب سابقًا. ومهما عرف الإنسان من تجارب يا صديقي، سيظل فراق الأحبة هو الأكثر ألمًا. أنا لا أخشى الموت، لكني أمقت الفراق.

بدا عليه الضيق فجأة، فقال في اقتضاب:

- صديقي.. أنا أريد أن أرحل؛ فأنا، بالفعل، مجهد.

أتبع كلماته بنزع نظارته، خلع كمامته، وتخلى عن سترته ومئزره. وبينما كان يغادر المكان، سمع صديقه يقول:

- أيها المجنون.. انتظر قليلًا وسأُقِلُّكَ إلى منزلك؛ فهي الرابعة صباحًا. لن تجد سائق أجرة متهورًا يعمل في مثل هذا الوقت، وفي عز الشتاء.

أتته الإجابة على هيئة صوت يبتعد، حتى وصل إليه خافتًا للغاية مع نهاية حروف آخر كلمة:

- لا تقلق عليَّ. وشكرًا على أي حال، أنا أعرف كيف أعتني بنفسي.

(٢٢)

وضع الخفير المسئول عن حراسة مقابر عائلة «الأسيوطي» ملعقتين من الشاي في كوب زجاجي صغير، قبل أن يضعه إلى جوار مذياع أحمر صغير في لا مبالاة. ثم اتكأ على مرفقه الأيمن ومد قدمه اليسرى عن آخرها فوق حصيرة صفراء، منتظرًا أن يغلي الماء داخل البراد المعلّق فوق الموقد الغازي البدائي الأزرق.

وكأنه امتلك الزمان والمكان وما فيهما، بدا راضيًا مستمتعًا، لا يلوي على شيء. فقط يُمنّي نفسه بكوب من الشاي الساخن، ليرتشفه مع نرجيلة بدائية الصنع، فيقتحم السعادة من أوسع أبوابها!

الرجل يعشق حياته البسيطة جدًّا، وليس عنده استعداد للتخلي عنها مقابل كنوز الدنيا. كهلٌ هو، على مشارف عقده السادس، تعلَّم أن السعادة الحقيقية في البساطة وقلة الأموال وصفاء السريرة ونقاء القلب



والعمل من أجل كفاية الحاجة والصلاة.. كل ما عدا ذلك ليس من اختصاصه، هذه هي مفردات عالمه بالكامل.

سرحت أفكاره وهو ينظر إلى البراد في انتظار الماء أن يغلي..

لقد بنى، في ستين عامًا، تلالًا من الذكريات، يعيش عليها، هي كل ما تبقى له ليؤنس لياليه الطويلة جوار المقابر، يعلّق بذكرياته حتى تحوّل إلى واقِعه. بينما اللحظات التي يعيشها الآن، على هامش الحياة، منتظرًا الموت بين لحظة وأخرى، كانت بالنسبة له هي عين الخيال.

أرهقته حياته جدًّا.. أيام عمره بالنسبة له هي وجع انقضى وخلاص اقترب. عشرون عامًا قضاها يعمل فيها خفيرًا وتُربيًّا. كل يوم يرى وجوهًا حزينة، ليست له ذكريات عندها. حدثت له مواقف مثيرة وغريبة. كان قد اعتاد الأصوات الكثيرة التي تصدر من مقابر الجثث، التي تُوفي أصحابها في حوادث قتل في أثناء فترات الليل، والتي لن يصدقها هؤلاء الذين ينامون كل يوم هانئين على أسرَّتهم، لديه مخزون لا بأس به أبدًا، والكثير من الحكايات التي يعتبرها كنوزًا وأسرارًا، يحكيها فقط للمقربين، لكن هناك أسرارًا لا تُحكَى، وقد احتفظ بها لنفسه.

هو يعمل في مهنة مقدسة، واقترب من أكثر الأسرار قداسة: «الموت»؛ لذا يجب أن يكون خازنًا أمينًا على هذه الأسرار، التي لا تنكشف إلا للقليلين الذين يقتربون جدًّا منه.

حتى اللحظة التي يدخل فيها على الموت بنفسه، سيظل يذكر دهشتين، الدهشة الأولى: حينما كان يحرك عظام ميت من مكانه بعد



دفنه بأكثر من ٢٠ سنة؛ ليرد عليه ويقول: «سيبني أنام». لن يصدقه أحد بالطبع إذا ما حكى تلك الحادثة.. هو وحده يعلم أنه سمع هذا الصوت وأن الصوت كان حقيقيًا جدًّا. الدهشة الثانية: حينما عرف أن هناك جثثًا لا تتحلل! حسنًا، لن يصدقه أحد، وهو لن يحكيها أيضًا لأحد. لم يكن مجنونًا ليفعل. هذه من النواميس والأسرار.

بدأ غطاء البراد يتقلقل ويضطرب، مع فورة غليان الماء، فاعتدل ليصب الماء المغلي، وهو يقلِّب الشاي، مولدًا ضجيجًا يعادل سرينة الإسعاف، مضادًّا للسكون المغلِّف للقبور من حوله، في تلك الساعة المبكرة بعد صلاة الفجر التي أقامها وجلس يتنسم عبير الصباح الصافي، قبل أن يتلوث الهواء بأنفاس العصاة.

أخذ يرتشف الشاي في رَوِيَّة وتُؤَدَة، مستمتعًا بكل رشفة، وهو يسحب نفسًا عميقًا من الشيشة بين الفينة والأخرى، لا يُفكر أو يشغل باله بأبعد من خمس دقائق قادمة.

سيذهب لينام بعد قليل، ولن يستيقظ قبل العاشرة صباحًا؛ فهو مرهق للغاية، هذا الصباح كان شاقًّا مضنيًا، خاصة بعد أن لقي «سيد الأسيوطي» حتفه. فما بين مراسم دفن وزيارة العائلة والأقارب، يظل المقربون والمحبون إلى جوار قبر المتوفَّى، وكأنهم سيقضون بقية عمرهم إلى جواره، متشاغلين عن حياتهم في الخارج. هو وحده، من بين المعزين الباكين، يعلم جيدًا أن هذا الأمر لن يدوم طويلًا؛ فسينسون المتوفَّى وسيعودون إلى دنياهم وعالم الأحياء قريبًا جدًّا، بل أقرب كثيرًا مما يتصورون!

وكأنهم لم يسمعوا من قبلُ بهذا النبأ..

فبعد أن يقبض «ملكُ الموت» الروحَ ويسمع صراخ أهلـه، يقـول: أتبكون مني؟ فأنا مأمور. أتبكون عليه؟ فهو مقهور. والله ما نقصت له درهمًا من رزقه، ولا لحظة من عمره، وإن لي بكم عودة بعد عودة، حتى لا أُبقي منكم أحدًا أبدًا. يقول رسـول الله – صـلى الله عليـه وسـلم –: «فلو سمِعوا كلام ملك الموت، لبكوا على أنفسهم وذهلوا عن ميتهم»!

لقد قضى عمرًا بـين شـواهد القبـور وأضرحتهـا، وتعلَّـم فلسفته الخاصة عن الحياة والموت، لم يعد يخشى الموت، بل كان يخشى الحياة. لا يفهم لِمَ يخاف البشر من الموت.. وهل يكره الإنسان الخلاص؟ عرف أنه في مأمن بين الأمـوات أكثـر مـن وجـوده بـين الأحيـاء؛ فـالأموات لا يملكون ضررًا ولا نفعًا، بينما الأحياء يفعلون.

تجرحه كلماتهم ونظراتهم، التي تحاكِمه وتحقِّـر مـن عملـه وفقـره.. كان عزيز النفس. نظرته إلى نفسه، دومًا وأبدًا، على أنه الرجـل الأول في حياته، لكنه كان الرجل الأخير لكل مـن قـابلهم، مرهـف الإحسـاس هو، تؤذيه نظرة دونية وعطف مبتذل وسلام بنصف يد، بحث عن الود بين الأحياء فلم يجده سوى في السماء.

وكان دائمًا يقول: يا رب إذا صح منك الود، فالكل هيِّن، وكـل مـا فوق التراب ترابُ!

عَدَّلَ من اتكاءته ليجلس القرفصاء، شيخ نحيل هو، يرتدي جلبابًا بنيًّا، من تحته ثياب من الصوف الخشن، اعتاد ملمسها على جلـده، فلـم



بعد تفقص مضجعه؛ فبرد الشتاء يقض مضجعه أكثر. أحاط ساقيه بيده اليسرى، وضع مؤشر مذياعه الأحمر الصغير على موجة القرآن الكريم. وأخذ يرتشف من جديد رشفات أخرى من الشاي على مهل وتأنٍّ.

فجأة، وعلى بعد ٥٠ مترًا، رأى نارًا مشتعلة، لم يدرِ لها مصدرًا، فترك كوب الشاي وهرع يرى ماذا هناك.

بعد دقيقة، كان يقف أمام النار الموقدة في دهشة. هناك مَن جمع كومةً من الأخشاب وأشعل فيها النيران، من دون سبب منطقي. نظر حوله فلم يرَ أحدًا، فأخذ يهيل عليها التراب، محاولًا إطفاءها.

في هذه الأثناء، كان هناك رجل طويل القامة متشح بالسواد يقف إلى حيث كان يجلس الخفير، ويضع داخل كوب الشاي الخاص به حبتين صغيرتين ويختفي في سرعة.

عاد الخفير، بعد دقيقة، إلى حيث كان، بعدما أطفأ النيران، وأمسك كوب الشاي، ليرتشف بقيته. ارتشف رشفة، لم يلبث أن بصقها وهو يقول:

اللعنة.. لقد أصبح باردًا كالثلج.

ويبدو أن العجوز فَقَدَ شهيته بعد عناء إطفاء النيران، التي أفسدت عليه جلسته، وبدأت زخات مطر على استحياء، سمع لها هسيسًا مجولًا، كنغمات صَبَا عليها صياح ديك من مكان قصي، يزف بشارة فرقان الليل فرحًا، بمقدم سحابة نهار جديد. فقرر أن ينهي كل شيء ويعود إلى غرفته الضيقة الصغيرة، ولا يقاوم الهُجُوع وذلك الوسن الذي يطرق بلطف على شباك وعيه، فيذكره بأنه تجاوز موعد نومه.

أما «سعد»، الذي وضع له حبتي المنوِّم، فقد كان يراقب ما يحدث في صمت من وراء شجرة غير بعيدة، وعرف أن خدعته البسيطة لم تنجح؛ فالرجل ألقى بكوب الشاي.

بعد خمس دقائق، كان الخفير داخل غرفة نومه يستعد للموت الأصغر. سمع دقات على باب الغرفة، فانتابه القلق، فأمسك بالفأس التي يحتفظ بها، ويؤدي بها وظيفتين: إهالة التراب في أثناء دفن الموتى، والحماية ضد من تسوِّل له نفسه الاقتراب من المقابر. واطمأن بيده على مُديته في جيبه، وهو يسأل بصوت قوي شجاع:

- من بالخارج؟!

لم يسمع إجابة، بل سمع المزيد من الطرقات.

فتح الباب متحفزًا، ليرى أمامه رجلًا طويلًا متشحًا بالسواد، له شارب كثيف، يحمل حقيبة صغيرة على كتفه. قال له في صوت عميق، وهو ينظر إليه بعينيه الواسعتين العميقتين:

- لقد ضللت الطريق.

تسمَّر الخفير أمام عيني «سعد»، وظل يتطلع إليهما بلا حراك لمدة دقيقتين كاملتين. بعدها كالمسحور اتجه إلى فراشه، وجذب الغطاء وغط في نوم عميق!

أما «سعد» فقد جذب سلسلة مفاتيح العجوز الضخمة وفأسه..

واتجه بخطوات مسرعة إلى حيث شاهد قبر «سيد الأسيوطي».



فتح «سعد» باب المدفن المغلق وأغلقه عليه من الداخل، وبقلب لا يعرف الخوف، نزل درجات معدودات، ووقف لحظة يدور حول المكان الذي دُفِنَ فيه «سيد الأسيوطي»، كما يدور الأسد حول فريسته قبل التهامها، ثم ألقى حقيبته الصغيرة، التي كان يحملها على كتفه، في لا مبالاة، وأخذ يزيح التراب حتى وصل إلى الجثمان المكفَّن. بعدها أخرج «سعد» محتويات غريبة من حقيبته:

أدوات تشريح بدائية، وزجاجة بها لتران من المياه، وكفن!

وبقفازين من البلاستيك الأبيض، وعلى ضوء كشاف كهربي صغير يثير خيالات ويلقي ظلالات مخيفة على جدران المقبرة، شرع «سعد» في تشريح الجثة من دون تمثيلٍ بها، يبحث عن حقه المسلوب فقط.. لم يكن هدفه أبدًا نبش القبر أو التمثيل بالجثة.

حتى وصل إلى هدفه بدقة، من دون الكثير من الإتلاف..

الذي جاء من أجله..

الخاتم.

وضعه في جيبه، ليشرع بعدها في القيام بإجراءات عكسية. من غسل الميت، بزجاجات المياه، ثم تكفينه من جديد.

وبينما يهيل التراب عليه مرة أخرى، كانت تختلط مع غباره دموع غزيرة لا تتوقف من عينيه، وهو يكرر بصوت مرتعش، من دون توقف:

الرحمة والمغفرة يا رب.. الرحمة والمغفرة يا رب.. منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

(٢٣)

مدينة الجليل الغربي – كهف «مانوت».

في هذه المدينة، التي تقع شمال فلسطين، شرق البحر الأبيض المتوسط، ويشكل عرب ٤٨ حوالي نصف سكانها، ومقسمة إلى ثلاثة أقسام: «الجليل الأعلى»، «الجليل الأسفل»، «الجليل الغربي».. وبداخل الكهف القديم، وقف «عزت عقرب»، وإلى جواره رجل التقاه لتوه، رفيع، طويل، حاد القسمات، له شعر بني وعينان زرقاوان قاسيتان، جليتان من وراء عدستي نظارة من دون إطارات. يتحدث العربية بلسان أجنبي لا تخطئه، كان الرجل يقول، وهو يشير إلى بقعة بعينها على جدار الكهف:

– كمية المعلومات المكوّنة منذ الأزل وحتى نهاية المستقبل الكوني ستكون لا نهائية. أنت رجل تمتلك المليارات، ومع ذلك أدركت أن هناك ما هو أهم من المال..

المعرفة المطلقة.

القوة والسلطة اللامتناهية تكمنان في امتلاك «المعرفة».

قطع حديثه فجأة، ثم تابع وهو يضغط على كل حرف من حروف الكلمات الآتية:

- الأهم من «المعرفة» ذاتها هو «حصرها» لمجموعة محددة تستحق وحدها السيادة. ونحن نعرض عليك أن تكون واحدًا منا سيد «عقرب».

ضيَّق «عقرب» عينيه وهو يسأله:

- ومن أنتم بالضبط؟

شد الرجل عوده وهو يعقد مرفقيه أمام صدره، وقال في تعالٍ وثقة وفخر:

- نحن الـ«ما بعد إنسانيين».

رمق «عقرب» الرجل ذا الملامح الحادة مرة ثانية في تأنٍّ وهو يسترجع تفاصيل ما جرى، بعدما تلقى رسالة من جوال «الملاح»، ليعرض عليه مساعدته في فك طلاسم الشفرة وإحضار القناع الذهبي المصمت.

لا يعلم حتى اللحظة بمقتل صديقه؛ فقد نفَّذ التعليمات حرفيًا اتجه إلى المطار مباشرة، ثم استقل طائرته الخاصة واتجه إلى تل أبيب وهناك التقاه أحدهم في المطار، ليأخذه حيث يقف الآن. كان عليه أن يستمر في مطاردة حلمه، لا مناص.

أحدهم يعلم بالفعل ما يبحث عنه، والعقدة التي انتهوا إليها، والمدة المتبقية أيام معدودات.. بل ويعرض الحل.

ردد «عقرب» في عدم فهم، ممزوج بريبة وشك:

- الـ«ما بعد إنسانيين»! من أنت بالضبط؟

مدَّ الرجل يده إليه في قوة بالتحية، وهو يقول بلكنته الغريبة:

- اعذرني.. نسيت أن أقدم نفسي.. «سلمون جيداليا».

تجاهل «عقرب» يد الرجل الممدودة، في صلف وغرور، وهو يسأله:

- كيف أرسلتم الرسالة من هاتف «أدهم الملَّاح»؟ ولماذا لا يرد على الهاتف من بعدها؟

وضع الرجل يده في جيبه في بساطة، متجاهلًا تجاهل «عقرب» ليده الممدودة، ثم قال بطريقة عملية استفزازية تحمل نبرة تهديد واضحة:

- لا تشغل بالك الآن بصديقك؛ فقد أصبح ماضيًا؛ لأنه رفض التعاون معنا ببساطة. وأنا أرى أننا أخطأنا، كان لا بد أن نفهم أنك الرجل المناسب.

- الرجل المناسب؟

- سيد «عقرب».. نحن منظمة قوية، يجب أن يكون لها رجال في كل مكان. لا نستطيع أن نعمل على أرض مصر من دون رجل مصري

ذي سطوة ونفوذ. ملياردير غني له اتصالات بمراكز السلطة والنفوذ ليفتح لنا الأبواب. كما تقولون بالمصري «إيده طايلة». ولقد كان «الحطّام» رجلنا قبل أن يُعدم، إلى جانب أنه من الطبيعي أن نلتقي نحن وأنت في نقطة ما، إذا كان ما نبحث عنه هو الشيء نفسه. وعلى العموم تعاونك من عدمه ليس اختيارًا الآن. لقد نجحنا، قبل أن نتخلص من شريكك، في الحصول على ما يلزم من مستندات لندينك بها. آسف، لم نكن لنغامر هذه المرة بأن ترفض التعاون أنت أيضًا، والوقت ضيق للغاية، والموضوع حرج. وكان لا بد من ورقة ضغط ملائمة تكفي لأن تذهب بك إلى حبل المشنقة في سهولة ويسر.

- لكن «الحطّام» لم يذكر لي أيًا من هذا من قبلُ؟!

- «الحطّام» رجل محترف، يحفظ سره، ويزن كلماته، ويعلم أي الكلمات التي عليها أن تذهب لأية أُذن، ومتى. نحن من مددنا يد العون إليه حتى تصل أنت اليوم لما احتوته رسالته. كل شيء تم بتنسيق منا. كل شيء محدد بدقة. حتى وقت خروج رسالته للنور، لم يكن صدفة. يجب أن تفهم أنك تقوم بدورك المرسوم لك بدقة، دور لا تستطيع عنه فكاكًا أو عروجًا عنه، وإلا ستسقط إلى هاوية عميقة سحيقة بلا قرار.

إن ما تحاول الوصول إليه هو أمر جلل، كبير، عظيم جدًا. لا يستطيع شخص واحد - مهما كان - أن يحققه.. أنت بحاجة إلى أن تصبح جزءًا من كل، عضوًا في كيان كبير، يستطيع مساعدتك في ما تصبو إليه، بل والأهم كيفية الاستفادة منه - إذا نجحت في وضع يديك عليه - على أكمل وجه، وعلى نطاق عالمي.



أخذ «عقرب» نفسًا عميقًا؛ ليعطي لنفسه مساحة كي يعالج ما سمعه لتوِّه، ثم أدار عينيه في جدران الكهف الواسع القديم، الذي أضيئه أنوار صناعية صفراء باهتة، قبل أن يقول في امتعاض:

- وطبعًا سيكون من الغباء أن أسأل كيف عرفتم بعقدة الشفرة التي انتهينا إليها. يبدو أن المخنثَين «ملهم» و«مميز»، ومن قبلهما عمهما «ابن الذكية»، يعملون لصالحكم، وكانوا يرسلون كل شيء، أولًا بأول، بأجهزتهم اللعينة، طوال الوقت.

نظر «سلمون جيداليا» إلى عيني «عقرب» مباشرة وقال:

- أحسنت لتفهمك الوضع الحقيقي للأمور.

ثم أخرج من جيبه سيجارتين، ناول إحداهما لـ«عقرب»، ووضع الأخرى في فمه وأشعلها. سحب نفسًا عميقًا وهو يمد يده بالقداحة ليشعل سيجارة «ضيفه»، ثم قال، وهو يضع يده على كتفه، وكأنهما صديقان حميمان لم يلتقيا لتوهما، بعد أن أخرج دفقة نيكوتين من فمه:

- سيد «عقرب».. نحن نعمل من خلال مشروع طويل الأمد نطلق عليه «مشروع منظمة الأوميجا لحفظ المعلومات على المستوى العالمي».

زامن كلماته بوضع شارة كبيرة، على منتصف صدره، قرأها «عقرب» في سرعة:

أوميجا كبير.. «جيداليا» (Ω).

والرجل يتابع:

- نحن وأنت نحاول الوصول إلى الشيء نفسه، لكن بطريقتين مختلفتين، أو بمعنى أدق: من اتجاهين مختلفين.

أنت تحاول الوصول إلى أعظم معرفة «وصل» إليها بشر.

ونحن نحاول الوصول إلى أعظم معرفة «سيصل» إليها بشر.

أي أننا نقف عند النقطة نفسها، لكن في المنتصف تمامًا، الفارق الوحيد هو أنك تنظر إلى «الخلف»، إلى نقطة البدء، ونحن ننظر إلى «الأمام»، إلى المستقبل، إلى نقطة «الأوميجا».

جذب مرفق «عقرب» في ود، وهو يسير به عبر ممرات الكهف المعقدة والمتشابكة، التي كانت خالية من أي شيء، سوى بعض الإضاءات الصناعية المتفرقة، ورائحة عطنة، وصوت خرير مياه يأتي من مصدر غير بعيد، لكنه مصاحب لكل خطواتها، وكأنه يمتد تحت أرضية الكهف.

سادت فترة من الصمت لم تتجاوز الثلاثين ثانية، قبل أن يقول «جيداليا» متابعًا:

- بداية الحضارة الإنسانية كانت منذ ٥٥ ألف سنة، حينما تزاوج البشر، مع أبناء عمومتهم الذين أتوا من المشرق، الذي كان موطن الإنسان الأول من «النياندرتال». وكان أول وجود بشري حيوي منتج هنا، في شمال «إسرائيل» حاليًا، و...

قطع حديثه على أثر ابتسامة ساخرة ظهرت فجأة على شفتي «عقرب»، فضيّق عينه اليمنى، وهو يميل برأسه قليلًا إلى اليسار، في تعبير وجه حمل معنًى متسائلًا:

- لماذا كانت هذه الابتسامة الساخرة؟

- على قدر علمي، لم يكن هناك وجود لدولة «إسرائيل» في ذلك الوقت.

تجاهل «جيداليا» تمامًا هذا النقاش الفرعي، وتابع:

- وكان أول وجود بشري، حيوي، منتج، هنا. وتحديدًا في هذا الكهف، وهذه البقعة، التي نقف أنت وأنا عليها الآن.. «كهف طابون».

عرفنا هذا حينما عُثِرَ على جمجمة غير كاملة، تعود إلى هذا الزمن، لامرأة عاشت وماتت في هذه المنطقة، ومنذ ذلك الحين، بدأ تطور الذكاء البشري جيلًا بعد جيل.

إن كمية المعلومات التي تنتجها أي حضارة إنسانية تكون مهولة، وهنا حدث استثناءان، الاستثناء الأول: كان في عهد «القدماء المصريين». والاستثناء الثاني: بدأ في زمننا الحالي، وبالتحديد في عام ٢٠٠٥.

قال «عقرب» كعادته في ملل:

- أنا لا أفهم أي شيء من هذه المقدمة السخيفة.

«سلمون جيداليا» يعلم جيدًا النقائص في طبائع «عقرب»، من سرعة غضب وملل وشهوة انتقام. ولقد طوَّر استراتيجية نفسية خاصة، تتيح له التعامل مع ردود فعله المختلفة، فتوقَّف أمامه ليسد عليه الطريق فيمنعه من التقدم. وتبدلت ملامح وجهه من الود إلى الحزم، ثم شد قامته وقال له في غلظة وصرامة:

- أنصت واستمع جيدًا لما أقول حتى تفهم.. أنت رجل غير متخصص، ولن تفهمني أبدًا من دون محاولة تبسيط المعلومات لديك.

ثم تابع مباشرة من دون أن يعطيه فرصة:

- الاستثناء الأول: حضارة «القدماء المصريين»، التي أنتجت وحدها - قيمة ما أنتجته البشرية من معلومات منذ بدء الخليقة، وحتى قرون كثيرة بعد اندثارها. أما الاستثناء الثاني، كما قلت، فقد بدأ منذ عشر سنوات تقريبًا، وعلى النحو التالي:

في عام ٢٠٠٥، كانت المعلومات البشرية تتضاعف كل ٣٦ شهرًا.

في يونيو ٢٠٠٨، أصبحت المعلومات تتضاعف كل ١١ شهرًا.

في يوم ٤ أغسطس ٢٠١٠، قال «إريك شميدت»، الرئيس التنفيذي لـ«جوجل»، بالحرف الواحد:

كل يومين، نقوم بإنشاء كمية معلومات، تقدَّر بما تم إنشاؤه منذ فجر الحضارة وحتى عام ٢٠٠٣.

وبحلول نهاية عام ٢٠١٠، كانت المعلومات تتضاعف كل ١١ ساعة.



أما الإحصاءات التي يلقي بها اختصاصيو الإنترنت يوميًّا، فأقل ما يمكن أن توصف به هو الجنون.

فكل ٦ ساعات، تجمع وكالة الأمن القومي الأمريكي، من البيانات، قدرًا يوازي ما يتم تخزينه في مكتبة الكونجرس.

الصور التي تم تجميعها في «الفيس بوك» وحده تزيد على ١٤٠ مليارًا.

أما متوسط ما يتم بثه في اليوم الواحد من تغريدات «تويتر»، فيقدَّر بـ ٥٠٠ مليون تويتة.

تقارير عام ٢٠١٢ أشارت إلى أن كل يوم يتم إنتاج ٢.٥ كوينتيليون بايت من البيانات. وإذا عرفت أن «الكوينتيليون» واحد أمامه ١٨ صفرًا، فسوف تدرك غزارة المعلومات التي يتم إنشاؤها يوميًّا، والتي يقدرها البعض بحوالي ٩٠٪ من البيانات التي تم إنشاؤها منذ بدء عالمنا، يوازي ما تم تجميعه في العامين الماضيين فقط.

جفَّ فيضان المعلومات، الذي كان نبعه من مجرى فم «جيداليا» وحتى المصب، عند عقل «عقرب» وهو يجذبه مرة أخرى من يده كالطفل، ليعود به إلى السير عبر ممرات الكهف. تبدلت لهجته وملامحه مرة أخرى من الحزم إلى الود والألفة، وهو يقول كمصلح اجتماعي، أو خبير تنمية بشرية، يعرف جيدًا أهمية لغة الجسد ونبرات الصوت في التأثير على مشاعر المستمعين:

- فوضى المعلومات هذه ستدفع البشرية إلى الانهيار أو الجنون يا عزيزي. نحن نحاول حماية العالم من انهيار فجائي لكل ما تم بناؤه حتى تلك اللحظة، والعودة إلى نقطة البداية من جديد.

لم يبدُ على «عقرب» أنه استوعب تمامًا كل ما قيل، ولكنه سأل السؤال الأهم بالنسبة له:

– وما دور منظمة «الأوميجا لحفظ المعلومات على المستوى العالمي» في هذا كله؟

– نحن لدينا الكثير من المشروعات، لكنني أقود مشروعًا خاصًا جدًا. هذا المشروع الذي ستعمل معي فيه يسمى «مشروع السيطرة على الفوضى المعلوماتية».

نحن سنعمل على تطور المعلومات في عالمنا، بحيث يصل إلى أقصى تعقيد منظم تسمح البشرية باستيعابه، ليس لدينا أدنى شك في أن البشرية ستنهار إذا استمر تطوُّر المعلومات على هذا النحو. لن يستطيع الإنسان – بقدرته الحالية – التعامل مع هذا كله.

نحن وحدنا سنسمح ببلوغ الحد الأقصى لهذا التعقيد المنظَّم.

هل تعلم أين تذهب هذه المعلومات كلها؟ أنت شخصيًا، بعد موتك، أين تذهب كل ذكرياتك، وأفكارك، وما أنتجته من معلومات طوال حياتك؟ هل فكرت في هذا الأمر من قبل؟

هز «عقرب» رأسه نفيًا، و«جيداليا» يتابع:

– المعلومات التي ينتجها كل كائن حي، على مستوى الفرد، تصبح متوافرة من خلال ترددات فريدة معينة، مثل بصمات الأصابع، ويتم ترميزها في مجال «الوعي البشري الجمعي الكلي». هذا لأن الطاقة لا تفنى، فتتحول أفكارك وذكرياتك إلى طاقة بعد موتك.

وتذهب مباشرة إلى هذا المجال الحيوي، تمامًا مثل الطيور حين تترك لأنسالها معلومات تُزرع في عقولها جيلًا من بعد جيل.

ونحن نعلم جيدًا ما ينقصنا لكي نصل إلى كل هذه الثروة المعلوماتية في هذا المجال، لكن يجب أن تعرف أن تطور المعلومات هذا سيتوقف عند نقطة محددة، حددتها منظمتنا بدقة.

هذه النقطة هي نقطة «الأوميجا».

- ولماذا يجب أن نوقف هذا التطور؟

- كما قلت لك سيد «عقرب».. بسبب الفوضى.. الفوضى المعلوماتية.. هناك مليارات المليارات من البيانات والآراء والصور والتقارير والكتب والموسيقى.. النتيجة الحتمية لهذا كله هي أمران لا ثالث لهما؛ الأمر الأول: التشويش في فهم الواقع، والثاني: العجز عن التخطيط الواقعي السليم للمستقبل.

توقف مرة أخرى في سيره بعدما لاحظ أن «عقرب» بدأ يلهث.

ما زال خرير المياه كما هو، بنفس الدأب والشدة، لكن كل شيء آخر ما زال هادئًا. أمر آخر أثار قلق «عقرب»؛ هو أنهم تحركوا داخل ممرات الكهف، المعقدة والمتشابكة، زهاء عشر دقائق. من المستحيل أن يعود أدراجه من دون «جيداليا»، الذي كان - في هذه اللحظة - يواجه «عقرب» بجسده ويبتسم له قائلًا:

- ولقد فهمت الحضارة المصرية القديمة هذه المعضلة: «الوصول إلى أقصى تعقيد منظم، وفي الوقت نفسه منتظم ومتطور، من دون

فوضى معلوماتية». ونحن نحتاج إلى فهم كيف قاموا بهذا ليساعدنا في مشروع السيطرة على الفوضى، وهذا أحد وأهم وأروع أسرار هذه الحضارة على الإطلاق، بل أهم من المعرفة ذاتها التي تحاول أنت الحصول عليها.

انتفخت أوداج «عقرب» في فخر، وكأنه هو المصري القديم الذي يشير إليه «جيداليا»، وهو يقول في جذل طفولي:

- بالتأكيد.

- هناك ثلاثة مبادئ تراكبت فوق بعضها البعض، في عقلية المصري القديم؛ المبدأ الأول: «عالم الآلهة»؛ حيث يخيِّم النظام التام والكمال، والمبدأ الثاني: «عالم الواقع»؛ حيث تسيطر الفوضى وعدم الكمال، وثالثًا وأخيرًا: «عالم وسطي»، عبارة عن إعادة تشكيل أو - على الأقل - محاولة تحقيق حالة الكمال، التي في السماء، على الأرض. ولا شك أن توجيه الأهرامات والمعابد الفرعونية كان جزءًا من هذه المحاولة، هذا ما كان في الماضي السحيق.

أما في عقلية الإنسان المعاصر؛ فهناك تفسير حديث، مشابه في الجوهر لمبادئ المصريين القدماء الثلاثة، وذلك بناء على تعقيدات الثقافات البشرية، في العصر الحديث، وبخاصة اللغة، التي يسَّرت في تسارع التطور، بحيث حدث، و«يحدث»، «التطور الثقافي»، بسرعة أكبر من «التطور البيولوجي».

وهذا ما أظهرته أبحاث جرت مؤخرًا حول نظم «الإيكولوجية البشرية» وتأثير الإنسان على محيطه.



وللتفصيل: فكما كانت هناك ثلاثة «مبادئ» تأصلت في عقلية الإنسان المصري القديم، قابلتها ثلاثة «مجالات» في عقلية الإنسان المعاصر كالآتي:

«المجال الأول»: تكوَّن منذ نشأ الكوكب نفسه (أي: المادة غير الحية)، وأطلق عليه «المجال الأرضي»، هذا قبل أن تدب الحياة على سطحه، لينشأ «المجال الثاني»، وهو: «المحيط الحيوي»، ثم «مجال نو»، وهو «المجال الثالث» في سلسلة مراحل نمو الأرض، وهو مجال الوعي البشري الذي حدثتك عنه.

المخزون العقلي، البشري، منذ بدء الحياة وحتى هذه اللحظة، موجود في هذا المجال، بل قد يصبح ما سأقوله عسير الفهم، وما هو آتٍ أيضًا! أي أن كل الوعي البشري أو الذكاء البشري، منذ الانفجار العظيم وحتى نهاية الكون، موجود في ذلك المجال. وما يقابل مجال «نو»، في العصر الحديث، هو بالضبط «العالم الوسطي» في حضارة «المصريين القدماء».

ابتلع «عزت» ريقه بصوت مسموع، ورأى «جيداليا» في عينيه نظرة عدم استيعاب كامل لكل ما قيل، لكن هذا لم يمنعه من أن يتابع:

- صدِّقني، ليست هناك حضارة على سطح هذا الكوكب أعظم من الحضارة المصرية القديمة. نحن قدرنا أن مساهمة المصريين القدماء في مجال «نو»، أو المخزون المعلوماتي البشري، بحوالي ٢٠٪ من المخزون الكلي الذي وصلت إليه البشرية حتى اللحظة.

ثم ابتسم وهو يشير بسبابته، التي لامست صدر «عقرب»، في اتهام مرح:

- ذلك الكنز الذي تحاول الاستحواذ عليه وحدك.. أيها الطماع.

- لكنك لم تفسر لي كيف استطاع المصريون القدماء الوصول إلى أقصى تعقيد منظم دون فوضى معلوماتية!

- بما أنك أحد رجال الأعمال الداعمين لمدينة النانو، التي أنشأها «زويل»، فأنت بالتأكيد مدعو إلى «مؤتمر هرم التكنولوجيا» الذي سيقام غدًا. هناك ستفهم الكثير.

افترس «عقرب» وجه «جيداليا» بنظرات مسمومة. ما جال في ذهنه هذه اللحظة أن هذا الرجل، أيًا من كان، فهو خطر للغاية، ويعلم الكثير جدًا. فجأة خطر على باله سؤال فوضعه على لسانه:

- وماذا أنتم فاعلون بكل تلك المعلومات التي تعملون على تجميعها منذ بدء الخليقة وحتى نقطة «الأوميجا» المفترضة هذه؟

- سنعمل على ضخها في عقل إنساني، رجل يدين بالولاء لنا.

تخيل هذا.. كيان مجسد، محسوس، ملموس، يعتمد على كمية من المعلومات المفترض لا نهائيتها، كيان يحمل الذكاء الكوني كله، ثم نعمم التجربة على كل فرد من أفراد هذه المنظمة، التي ستصبح أنت واحدًا منها - إن قبلت الانضمام إلينا - لنتحول جميعًا إلى الـ«ما بعد إنسانيين».. ستكون القوة المطلقة لمنظمتنا.

لمحت عينا «جيداليا» ارتجافة «عقرب». المال الشديد الذي يملكه لم يعطِه الذكاء. وها هو يقترب من حلم مادي ملموس أكبر بكثير مما حلم به. كانت أقصى أمانيه أن يمتلك معلومات ثمينة، أما الآن فهو سيتحول إلى كيان خارق الذكاء ليس له مثيل.

سيتحول إلى «ما بعد إنساني».

ألقى إليه «جيداليا» القنبلة الأخيرة، التي عرف سابقًا أنها ستحطم كل دفاعات «عقرب»، وهو يقول:

- هل تعلم أن ما نحاول عمله اليوم نجح الفراعنة في تنفيذه، وبطريقتهم الخاصة، منذ آلاف السنين؟

- كيف؟

- كان المصريون القدماء ينتجون أناسًا خارقين. وجدنا أدلة في مومياء تم العثور عليها عبر رحلة بحثنا الطويلة، تحوّل الخلايا الجذعية، المأخوذة من أجنة، إلى حيوانات منوية وبويضات تم اختيارها، وتخصيبها لتتحد معًا، لإنتاج جيل ذكي من الأجنة.. وهكذا دواليك، إلى أن وصلوا في النهاية إلى إنتاج أناس بلغ معدل ذكائهم إلى ٥٠٠، وهو معدل ذكاء خارق.

توقف «جيداليا» عند هذه النقطة وهو يواجه عيني «عزت» مباشرة، وقد رأى فيهما أن الرجل ابتلع الطعم كاملًا، قبل أن يقول في بطء وروية:

- باختصار يا عزيزي «عقرب»، الانضمام إلينا هو حلم حقيقي.



ثم مد يده إليه وهو يقول بابتسامة عريضة:

- نحن نعرض عليك كل شيء.. كل ما يمكن أن يتمناه إنسان.

«نفسك في إيه تاني»؟ زي ما بيقولوا عندكم بالمصري.

(٢٤)

- هل هو بالداخل؟

سأل شيخُ العبابدة «جابر وهدان» ابنَـه، في صـوت خفـيض، عـلى الرغم من أنهما وحدهما، وكأنه يخشى أن تسمعه جـدران ممـرات مغـارة الذهب، في المثلث الذهبي لمصر، داخـل «وادي العلاقـي». بـدت عـلى وجهه علامات الاهتمام والجدية الشديدين، وابنه يجيبه:

- منذ أن جاء إلى هنا لا يريد التحدث إلا إليك، ولم يفـارق حفـرة الذهب، وطلب ألَّا يدخل إليه أحدٌ سواك.

لهث الشاب من فرط الانفعال وهو يتابع:

- لن تصدق حين تراه. الخالق الناطق أبـوه، «الحطَّـام» الله يرحمـه. ولكنه...

تردد الشاب لحظات ولم يكمل جملته، ما دعا أباه إلى أن يسأله:

- ما لك يا ولدي؟ سكتّ ليه؟!

بدت علامات الحيرة والتردد على وجه الشاب، لثوانٍ، قبل أن يتغلب عليهما وهو يقول في خشوع غريب:

- ولكنه زي ما يكون واحد تاني يا أبوي غير اللي اتربى معانا. شخص مخيف وكأنه شيطان. تلات سنين ما نعرف له طريق. ده الحيوانات بتهرب منه، وما بتقدر تقرب له.

- «فرّاس» ليه نصيب من اسمه واسم أبوه يا ولدي. الاتنين ليهم معنى الأسد.. هو جه ازاي؟

- ظهر فجأة يا أبوي، راكب جمل بشاري أبيض، قدام مدخل المغارة.

وصل «شيخ العبابدة»، في هذه اللحظة، إلى الممر الضيق، الذي ينتهي عند حفرة الذهب. كان يقف على مدخله رجلان يرتدي كل منهما الجلباب، ويحملان مدفعين رشاشين فوق كتفيهما. فتوقف ابنه حدهما؛ حيث لا يجوز له أن يتقدم أبعد من ذلك.

تابع الشيخ مسيرته، بمفرده، يقطع الممر الضيق الذي لا يتسع سوى لشخص واحد. طوله يتعدى الخمسين مترًا بقليل. في نهايته هُوَّة أسطوانية، نصف قطرها خمسة أمتار، وبعمق ثلاثة أمتار مليئة بالذهب.

وبوجه امتلأ بتعاريج الزمان، تنعكس عليه الإضاءة الصفراء الخافتة التي تنبعث من مشعل يحمله بيمناه، قطع الأمتار الخمسين في لهفة وشوق، لا يطيق صبرًا حتى يلتقيه..

«فَرّاس الحطّام».

رآه هناك.. يقف كالأسد على مرمى البصر. فانفلتت من قلبه نبضات عالية، متسارعة الإيقاع، مع كل خطوة يخطوها، مقتربًا من ذلك الذي يقف في ثبات، بجسد طويل نحيف ممشوق، يرفع رأسه للأعلى، على حافة الهوة المليئة بالذهب، التي أضاءت الجدران من شدة لمعانها وبريقها.

لكنه لمح شيئًا آخر، جعل قلبه يرتجف.

كان «فَرّاس» يحرك يديه حركاتٍ غريبة والذهب يفور معها، ويصعد مع حركة يديه، كنافورة، متجاوزًا الحفرة الذهبية فيصل إلى سماء المكان، يتحرك مع قبضته، محدثًا صليلًا عاليًا، على أثر اصطدام السبائك بعضها ببعض. ومع هذا الصليل العالي، كان من المستحيل أن يسمع «فَرّاس» خطوات الشيخ العجوز الواهنة، على الأرض الترابية للممر الذي تفصله عنه قرابة عشرة أمتار.. وفجأة..

وقف «فَرّاس» ثابتًا. هدأت واستقرت يداه إلى جواره، لتهدأ معهما عاصفة الذهب ويسقط كله ركامًا فوق بعضه بعضًا، محدثًا دويًا جللًا. ومع آخر صليل، وخفوت آخر صدى صوت للسبائك المتصارعة المتساقطة، سمع الشيخ صوت «فَرّاس»، الحاد القاسي، المقبض، وكأنه الموت، يقول من دون أن يلتفت إلى الوراء:

- أهلًا أيها الشيخ الكبير.

وضع «شيخ العبابدة» يده على كتف «فَرَّاس»، ذي القامة الطويلة المهيبة، وقلبه يرتجف. استدار له «فَرَّاس» ببطء، فاتسعت عينا الشيخ واهتزتا وترقرق فيهما الدمع وهو يملؤهما بملامح «فَرَّاس»..

ثم احتضنه وهو يقول:

– الخالق الناطق أبوك الله يرحمه. وكأني بشوف «الحطَّام» في شبابه من جديد. أبوك اللي خيره على العبابدة كُلاتها. يا ولدي، ألف راجل من زينة شباب العبابدة رهن أمرك وإشارتك وتحت تصرفك كيف ما بتريد.

ابتعد «فَرَّاس» عن حضن الشيخ وقال بلكنة العبابدة:

– خدتوله بتاره من اللي قتله؟

– كله دمه سال يا ولدي. ظباط وعساكر وقضاة. كله إلا «سعد العشماوي». بس وشرف أبوك ما راح نسيبه.

– وليه «العشماوي» لِسَّاته عايش؟

– شيطانٍ يا ولدي.. شيطان.. عشر محاولات لقتله، في عشر سنين، باتنين وعشرين راجل من رجالتنا راحوا. بس خلاص هانت، كلها كام يوم ونهاره مش راح تطلعله شمس.

أدار «فَرَّاس» له ظهره مغاضبًا. خُيِّل لـ«جابر» أن عينيه نطقتا بشرر متطاير وهو ينظر إلى بحر الذهب، الذي أخذ يهتز ويفور مرة أخرى، محدثًا صليلًا عاليًا على أثر ارتطام السبائك، الأمر الذي جعل قلب

الشيخ يَوْجَل؛ فالأرض لا تهتز من تحت قدميه. وقد كان آخر مرة سمع فيها صليلًا مماثلًا على أثر هزة أرضية، فقال وهو يرفع من صوته - ليعلو صوت الصليل وكأنه يحاول أن يهدئ من روعِهما، «فَرَّاس» و«الذهب» -:

- فيه عشر رجالة من رجالتنا صابهم «الجذام» من سحر الفراعنة، وإحنا بنتبع الرسالة اللي سابها أبوك الله يرحمه، انقبض عليهم واتحكم عليهم حكم مؤبد.

القاضي، الله ياخده، حكم عليهم بالإعدام، رأفة ورحمة بيهم. بس هما طبعًا ما يعرفوا رحمة ولا يحزنون. هما خايفين على نفسيهم يا ولدي. وكمان شايفين إن عيشتهم كمجذومين ٢٥ سنة مالها داعي. بس الرجالة حالفين مش راح ينزلوا «البير» لوحديهم. روح «سعد العشماوي» هتكون في إيديهم.

- وكيف عرفت ها التفاصيل؟

- «عزت عقرب» إيده واصلة يا ولدي. ليه ناسه في كل مكان في البلد.

- وينه «عقرب» ها الحين؟

التقط الشيخ هاتفه ليطلبه، فسمع «فَرَّاس» عبر الهاتف:

- الهاتف الذي تحاول الاتصال به قد يكون مشغولًا أو خارج نطاق الخدمة. من فضلك، حاول الاتصال في وقت آخر!

(٢٥)

كنت أعلم أنك ستوافق على الانضمام إلينا، سيد «عقرب».

قالها «جيداليا»، تعلو شفتيه ابتسامة، يقف بذراع مفرودة، مصافحًا «عقرب».

كانا يوثِّقان بداية تعاون جديدة، داخل كهف «مانوت».

ساد الصمت لثوانٍ، لم يُسمع خلالها سوى خرير المياه، الذي لا يوجد مُتحرِّك سواه في هذا المشهد، وإن كان غير مرئي. ارتكن «عقرب» إلى نتوء صخري بارز في جدار الكهف، فاتخذه مقعدًا، علَّه يستريح قليلًا من عناء السير..

وأشعل سيجارة..

هي محاولة بائسة، في أن يستبدل برائحة جدران الكهف، العطنة، رائحة التبغ. تأمل النباتات الغريبة التي تسلقت على جدرانه، داخل هذا العمق الذي انتهيا إليه، لم يرَ من مثلها قبلُ قط.

انتزع «جيداليا» مشعل إضاءة صناعيًّا واتجه إلى حيث يجلس «عقرب» شاردًا، ملقيًا المزيد من الضوء على المكان.

وقف أمامه مباشرة، يقرأ تساؤلًا في عينيه، وقال:

- أرى في عينيك سؤالًا؟

- سؤال واحد فقط؟! بل كثير!

- هات ما لديك. أنا هنا لأجيب عن تساؤلاتك كلها.

- وكالة الأمن القومي الأمريكية. ماذا تفعل بكل هذه المعلومات والبيانات التي تتجمع لديها هذا الوقت كله؟

بطريقته العملية، التقط «جيداليا» هاتفه من جيبه، نقر عليه بإصبعه عدة نقرات. ثم رفعه ليواجه عيني «عقرب»، الذي قرأ:

-XKEYSCORE.

- إكس كي سكور؟!

- إكس كي سكور وما شابهه: «مارينا»، «بيشوال»، «ترافيك تشيف»، وغيرها من قواعد البيانات.

- وما كل هؤلاء؟





- يبدو أنك لا تتابع تسريبات «إدوارد سنودن»، هذا هو أحد أهم وأخطر البرامج ومحركات البحث السلبية، التي تجمع بيانات حول الأشخاص، مثل العرق، الجنس، الدين، الموقع الجغرافي. هذا البرنامج يجعل باستطاعتك قراءة أي بريد إلكتروني لأي شخص في أي مكان في العالم، تعرف عنوانه البريدي. تستطيع أيضًا أن تراقب أي كمبيوتر محمول على أي بقعة على الأرض. المواقع الإلكترونية التي زُرتها، الرسائل القصيرة التي أرسلتها، المكالمات الهاتفية التي قمت بها، بصمتك الشبكية على الإنترنت، يمكننا تقفي آثارها. هذا البرنامج مكون من أكثر من ٧٠٠ سيرفر (خادم)، تتضخم بالمعلومات يوميًّا، وتم تفعيله في أكثر من ١٥٠ موقعًا في الكرة الأرضية.

باختصار.. كلنا مراقَبون طوال الوقت يا عزيزي، فردًا فردًا في هذا العالم.

ثم وضع يده على كتفه في ود:

- وأنت يا «عقرب»، بما أنك أصبحت واحدًا منا، فيجب أن نسلِّحك بأسلحتنا. سنذهب الآن إلى مقرنا السري، ونمدك بهذه البرامج كلها وكيفية تفعيلها، حتى تكون قادرًا على معرفة كل ما تريد ممَّن يهمونك.

غمز بعينه عند هذه النقطة، وكأنه يبعث برسالة إلى «عقرب».. فهمها جيدًا..

رسالة صامتة، ولكنها تحمل اسمًا واحدًا..

«مريم الصواف».

حاول «عقرب» تغيير دفة الموضوع:

- ولكن كيف تسمح «أمريكا» لنفسها بالتجسس على العالم؟

ابتسم «جيداليا» وقال:

- الأقوياء لا يحتاجون لمن يسمح لهم عزيزي «عقرب». تمامًا كأجدادك «المصريين القدماء»؛ فهم قاموا بمثل ما تقوم به الولايات الآن. إذا كانت «أمريكا» قد ملأت ٧٠٠ «سيرفر»، ووزعتها في بقاع الكرة الأرضية لتحصل على المعلومات، فقد بنى المصريون القدماء ٧٠٠ هرم أيضًا، وفي كل مكان في العالم، وللغرض نفسه تقريبًا!

هز «عقرب» رأسه نفيًا واستنكارًا، غير مصدِّق، و«جيداليا» يتابع:

- «المصريون القدماء» شيَّدوا أكثر من ٧٠٠ هرم في نقاط محددة على سطح الكرة الأرضية. تستطيع أن تتعامل معها جميعًا بنفس مفهوم شبكات الإنترنت الداخلية والخارجية.

- لقد بنوا هرم «خوفو» في عشرين عامًا! متى؟ وأين؟ بل كيف بنوا هذه الأهرامات الكثيرة؟

أخرج «جيداليا» من جيبه ميدالية صغيرة، على هيئة هرم قزم، رفعها أمام عينيه وأجاب:

- حينما أقول بنوا ٧٠٠ هرم، فأنا لم أقصد أن تكون هذه الأهرامات كلها مثل هرم «خوفو». ببساطة شكل هرمي، حتى إن كان

في حجم هذا الهرم الصغير. المهم أن يكون على النمط المعماري والهندسي للهرم الأكبر، بمقاييسه واتجاهاته، التي تخلق في مجالها نوعًا خاصًا جدًّا من الطاقة. حضارتنا الحالية لم تكن الحضارة العبقرية الوحيدة التي وصلت إلى مفهوم نقل المعلومات والبيانات من نقطة لأخرى.

المصريون القدماء هم أول من قام بهذا، فعلًا.

عينا «عقرب» ترفض ما يقول، والرجل يكمل مسيرته كقطار غادر محطته:

- كان يتم تحديد مواقع هذه الأهرامات بدقة متناهية، على نسق وغرار مفهوم شبكات الكمبيوتر الداخلية والخارجية في عصرنا الحالي. مجموعة من الأهرامات تقع في نطاق شبكات داخلية، تستطيع أن تتصل عن طريق هرم آخر بشبكة أهرامات خارجية. للأسف، فَقَدَ العالم الحديث كل المواقع التي كانت فيها هذه الأهرامات، وكان منها ما هو معروف وما هو سري. ولم يتبقَّ على مستوى العالم إلا عدد قليل جدًّا من هذه الأهرامات الشبكية. ثم إن هناك أهرامات لم تُبنَ فوق سطح الأرض أصلًا.

سقط فك «عقرب» السفلي، وحاله كله دهشة، بينما «جيداليا» يشير بسبابته للأسفل، تحت قدميه، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة، قائلًا:

- مثل الهرم الذي نقف على قاعدته الآن، هرم كهف «مانوت» المعكوس، الذي بُني للأسفل؛ حيث رأس الهرم تحت الأرض.

الأمر الأهم أن كل هرم من هذه الأهرامات يقابل موقعًا بعينه من عالمهم السفلي، ولو استطعنا تحديد هذه المواقع الجغرافية للـ ٧٠٠ هرم، لأمكننا رسم خريطة تفصيلية لعالمهم الآخر، وتحديد نقاط الاتصال بين العالمين. حتى اليوم نجحنا - فقط - في تحديد أربع نقاط، لكننا على يقين تام من أن هذه المعلومات كلها ستتكشف لنا تِباعًا إذا ما نجحنا في وضع أيدينا على «كتاب المعرفة».

نظر «عقرب» تحت قدميه وكأنه سيرى رأس الهرم، وهو يُنْصِت.

- وحينما ينفصل تتابع الأهرامات، المكوِّنة لـ«شبكة داخلية» ما، هنا تعمل نقطة في أعلى قمة هرم بعينه، تابع لهذه الشبكة، كجهاز إرسال يعتمد على موجات «كهرومغناطيسية» يولِّدها الشكل الهرمي؛ ليتصل بمجموعة أخرى من الأهرامات، التي في هذه الحالة يمكن اعتبارها «شبكة خارجية». وسأنقلك حالًا إلى نقطة من نقاط شبكة خارجية.

- تنقلني، أم تنقل المعلومات؟

- الاثنان يا سيد «عقرب». لقد توصلنا، كما قلت لك، إلى أربع نقاط: نقطتان منها يمثلان شبكة داخلية، نحن نقف في إحداهما الآن، والأخرى «هرم خوفو». ونقطتان أخريان تكونان شبكة داخلية أخرى، هما: هرم «الشمس والقمر» (ملحق ١٠) وهرم «جزيرة القيامة» في «المكسيك»، لكنهما في هذه الحالة يمثلان شبكة خارجية بالنسبة للتي نقف داخلها الآن.

اختلج قلب «عقرب» و«جيداليا» يتابع:

- مستر «عقرب»، تخيل هذا! ستنتقل بحرية كالطيور من نقطة لأخرى، من شمال الأرض إلى جنوبها، فشرقها، وحتى غربها. هذا كله في ثوانٍ معدودات. لن تحتاج إلى ما يسمَّى حجة غياب، ستهرب من المراقبة بشكل دائم. إن لم يكن هذا هو الطريق إلى الجريمة الكاملة، فماذا يكون ذاك إذًا؟

كان يبتسم وهو ينظر في عيني «عقرب» مباشرة، وهو يسأله:

- لكنك لم تسألني السؤال الأهم: ما التقنية التي ستذهب بنا إلى مقرنا في «المكسيك»؟

- «المكسيك»!! سيد «جيداليا»، اسمح لي. لقد قلت توًّا: إن وقتنا محدود وتبقت أربعة أيام، وسيختفي حلمنا لعشرة قرون قادمة. ليس لدينا وقت لنذهب إلى «المكسيك» ولا لأي مكان آخر. يجب أن نهلك أنفسنا بحثًا في الأيام القليلة المقبلة. ذهابنا هناك سيستنفد يومين على الأقل!

ابتسم «جيداليا» في ثقة وهو يقول:

- بل سنذهب ونعود إلى هنا في خلال ٩٠ دقيقة.

تسمَّر «عقرب» في مكانه، كمن لدغته «عقرباء»، وهو يقول في انبهار:

- ٩٠ دقيقة!! كيف هذا؟!

اتسعت ابتسامة «جيداليا» حتى بدت نواجذه، وهو يبعث برسالة إلى هاتف «عقرب»، كانت هذه الحركة، بمثابة إجابة سؤال الأخير.

سمع «عقرب» نغمة هاتفه المميزة، التي تفيد بتلقي الرسالة، فأخرج هاتفه في سرعة وألقى نظرة سريعة، فلم يفهم شيئًا (ملحق ١١)، فسأله:

- ما معنى هذا بالضبط؟

- «Teleportation».

قالها «جيداليا» وهو يجذب «عقرب» من مرفقه، ليتابع السير عبر ممرات الكهف، مفسرًا:

- «الانتقال الآني» يا عزيزي. كما قلت لك سابقًا، هذه الحضارة العالمية، التي لم يكن لها مثيل، انطلقت من أرض مصر، وسيطرت على مشارق الأرض ومغاربها، ولكي تسيطر على الكوكب، يجب أن تكون شتى بقاع الأرض ذليلة لموطئ قدمك، متى أردت لذلك أن يكون. هل رأيت أفلام الخيال العلمي، حينما يرتقي البطل فوق منصة خاصة ثم يتم تسليط شعاع ضوئي على جسده، فيختفي من عليها ويظهر لحظيًا في مكان آخر بعيدًا تمامًا؟

هكذا كان يتنقل هؤلاء الأوغاد من مكان لآخر عبر شبكة أهراماتهم.

وقف «عقرب» في مكانه مرة أخرى، انبهارًا لما يسمع، ما دعا «جيداليا» إلى أن يجذبه، ويسحبه من يديه، كأب يقود طفلًا مسحورًا عبر متجر للألعاب، وهو يستأنف سرده بسؤال لا ينتظر إجابته من محدثه:



- هل تعرف كم التحديات التي تواجه علماءنا اليوم في تقنية الانتقال الآني، وكيف تغلب عليها الفراعنة الملاعين وكأنهم يلعبون النرد؟

- كلا. لم أكن أعلم أن هناك تجارب ناجحة بخصوص هذه التقنية.

- هذا ليس صحيحًا سيد «عقرب»، فلقد نجح العلماء في نقل الجسم آنيًّا، ولكن لمسافات محدودة للغاية، وحصريًّا على الجماد، أو بمعنى أكثر شمولًا: «الكائنات غير الحية».

- وما الفارق الذي يصنعه كونك إنسانًا أو جمادًا بالنسبة للانتقال الآني؟

- الفارق هو كمية المعلومات الهائلة التي تحتويها الأجساد الحية، خصوصًا عقل الإنسان.

تعالى لهاث «عقرب»، لكنه لم يعلُ على خرير المياه، الذي ما زال مصاحبًا لتقدمهما، وبالشدة نفسها، يكاد يشعر بتدفقه من تحت قدميه، لكن من دون أن يبصره. يمد ذراعيه أمامه فلم يكد يراهما. يتقدم في الكهف المظلم، المدلهم، بعين كفيف.

الرؤية أضحت شبه مستحيلة.

أخرج «جيداليا»، من حقيبته الصغيرة، نظارتين مدعمتين بتقنية الرؤية «تحت الحمراء»؛ ذواتي تقسيم «جيم – ٣٠٠٠ نانومتر». ناول إحداهما لرفيق دربه، وأجاب عن السؤال الذي ما زال عالقًا بين ثنايا

جدران الكهف، الأحَمّ، الأدْهَم، وهو يضع الأخرى فوق عينيه، بينما يتلون الوجود بلون آخر غير الذي عرفه، سمح له بالرؤية:

– تنطوي تقنية «الانتقال الآني» على تحديد وحفظ المعلومات الخاصة بـ«كينونة» الشخص، بدقة لا نهائية، تصل إلى مستوى أصغر مكون ذري من جسده، ومن ثَمَّ نقل هذه المعلومات إلى الوجهة التي يقصدها الشخص؛ ليتم تفكيك، ومن ثم إعادة تجميع، هذا المسافر آنيًا، وترتيب معلومات ذراته من مادة جديدة متوافرة هناك؛ حيث «سيتمظهر» مرة أخرى، في الوقت نفسه، الذي سيتم فيه تدمير النسخة الأصلية للشخص.

ضحك «عقرب» وهو يقول:

– ده شغل عفاريت.

توقف «جيداليا» ليقول في دهشة:

– هذا مذهل.. هذا ما قاله «آينشتاين» بالمعنى الحرفي للكلمة!

Spooky action at distance.

انتفخت أوداج «عقرب»، هذه هي أول مرة في حياته يُشعره أحد بأنه يقترب من العباقرة، وهو يستمع لمحدثه:

– المسألة أو المشكلة في حجم المعلومات، وهذه أول المعوقات التقنية: كمية البيانات التي نحتاجها لنصِفَ كائنًا إنسانيا بدقة؛ إذ إن متوسط عدد الذرات التي يحتويها جسم إنسان يزن ٧٠ كيلوجرامًا هو



عشرة مرفوعة إلى القوة ٢٧. ولو قدَّرنا أن كل ذرة منها تحتاج إلى مائتي بتْ لتشفير معلوماتها الكاملة - وهذا تقدير بالغ المرونة - فإن كمية المعلومات التي لا بد من تسجيلها وإرسالها لإعادة بناء هذا الإنسان هي مائتا ألف يوتابايت. اليوتابايت الواحد يساوي تريليون تيرابايت، أو ألف تريليون جيجابايت. وهذا الرقم المهول يمثل كمية بيانات هي أضعاف أضعاف كمية البيانات التي أنتجها الإنسان منذ بدء الحضارة وحتى يومنا هذا. ولا نستطيع حاليًّا حتى التفكير في طريقة لتخزينها، ناهيك عن إرسالها، وبسرعة!

وصلا في هذه اللحظة إلى نهاية الممر الذي بدا أن من بعده أي خطوة تكاد تكون مستحيلة. فأمامهما منحدر، شديد الانحدار، يبدو وكأنه لا نهاية له.

أخرج «جيداليا» من جيبه شارة أخرى، تماثل المعلَّقة على صدره وثبَّتها على صدر «عقرب» الذي قرأها في سرعة:

أوميجا صغير: «عقرب» (ω).

ودون كلمة واحدة، جلس «جيداليا»، على مؤخرته، على حافة المنحدر المظلم، وكأنه في الملاهي، يستعد أن يتزحلق، وقال في جذل:

- اتبعني يا سيد «عقرب».. مش هسألك نفسك في إيه، علشان مش هخلي نفسك في حاجة، زي ما بتقولوا بالمصري!

ودفع جسده..

ثم اختفى في الظلام.



وقف «عقرب» حائرًا يضع كفيه عند خصره، يسب ويلعن، ثم ينظر للأسفل؛ حيث اختفى «جيداليا»؛ ليسب ويلعن من جديد. نظر خلفه، يستشير عقله في أن يتراجع، الذي جاوبه بأنها فكرة حمقاء، فالعودة وحده في هذه الممرات المتشابكة مغامَرة تعادل القفز في هذا المنحدر.

لم يجد مناصًا سوى أن يفعل كما قيل له.

وانزلق جسده بسرعة رهيبة في ذلك الظلام..

بدا معها أن هذا المنحدر المظلم كنفق..

بلا نهاية.

(٢٦)

دخل «سعد» من باب منزله وساعة غرفة المعيشة تدق دقاتها السبع في الصباح، يلاحقه كلبه، يتودد إليه. ألقى جسده على أقرب مقعد وأغمض عينيه.

كان باطنه وظاهره في أسوأ حال، كمن بُعِث لتوه من قبره، ليوم الحشر.

حاله ما بين قلب مكلوم ومظهر غير مرغوب، بشعره الأشعث المغبر، وملابسه المتسخة بتراب المقابر. وحيد هو، ليست هناك جبيبة إلى جواره فتمسح عنه وسخ الأرض وتزيح عنه تعب القلب.

نظر حوله، فلم يجد هناك أي حبيبة.

أصابه الملل من الانتظار في صحراء الأمل..

فأحلامه تبدو بعيدة عنه للغاية.. مسافة سنين ضوئية.

هناك حائط صلب لا يلين، لا يقدر على تجاوزه. هذا الحائط هو شعوره بالموت الذي يحوم حوله، يتربص به، ينتظر منه غفلة، منذ لحظة إعدامه «الحطَّام»، ودوامة الثأر التي لم يعرف سبيلًا للخروج منها حتى الآن.

فعاش سنواته متهيئًا لرحيلٍ يوقِن أنه واقع، وقريب..

رحيل من عالم الأحياء إلى عالم الأموات.

شعر أنه خُلق للحزن، الذي دائمًا ما كساه هيبة ووقارًا وإجلالًا.

فخَلُصَ إلى حقيقة، عاش بها ولها، وألزمَ نفسه طريقها، فلا يحيد عنه، ولا ينبغي له. وأصبح شِعاره ودِثاره:

إذا كان ولا بد من الموت..

فليصنع من خاتمته ما يستحق عمرًا كاملًا..

وليُخْلِفَ أثرًا من بعده..

لا يُنْسَى.

دلف إلى أحزانه لتحتويه، التي لم يجد سواها، فأغمض عينيه مرهقًا.

لم ينَم منذ مغامرته ليلة الأمس. ما بين ثلاجة الموتى والمشرحة والمقابر. رفع خاتمه أمام عينيه، يتأمله. ما كان ينبغي له أن يتركه أبدًا



ملقًى في التراب، ليحصل عليه غيره بعدما تتحلل جثة «سيد الأسيوطي»؛ فالخاتم أمانة قد اؤتُمِن عليها.

قام من مكانه ليروي النباتات، وإلى جواره «آنوبيس»، يهز ذيله في سعادة، يأكل الطعام الذي وضعه له سيده. دار على كل النباتات داخل شقته، حتى وصل إلى تلك النبتة الخاصة التي احتفظ بها منذ لحظة إعدام «الحطّام»، والتي أطلق عليها «النبتة الحمراء» بسبب لونها الأحمر المميز.

جُل وقته يقضيه مع الطبيعة؛ فهو عاشق لكل ما تموز به من نباتات وحيوانات وصحارٍ وبحار، هو أيضًا قارئ نهم لكل ما يتعلق بعلم النباتات وعلم الحيوانات الخفية (Cryptozoology & Botanica).

كان هذان هما شغفه المعادل لعلم المصريات القديمة، وهو تَتَيُّم يسري في دمائه بالوراثة؛ فالمصريون القدماء اهتموا بالنباتات والحيوانات أيّما اهتمام، وكان للحيوان مكانته الخاصة جدًّا بالنسبة لهم.

لم تكن النبتة الحمراء هي النبتة الوحيدة المميزة داخل شقته، أو حديقة البناية الخاصة به، فكل ركن يحمل زرعًا مختلفًا من فصيلة نادرة. تعلَّم أفضل الطرق للعناية بنباتاته، التي عَرِفَ لها جميعًا مصدرًا ومنشأً، ما عدا النبتة الحمراء.

حينما جاء بها إلى منزله، منذ ما يقرب من عقد كامل، ظن أن لونها الأحمر مخضب بدماء يديه، إلا أنه أدرك فيما بعد أن هذا هو لونها. لها أيضًا أوراق مدببة بتعاريج حادة. نبتة قبيحة لا تبعث الارتياح، كما لا

تبعث وظيفتُه الارتياحَ في قلوب الكثيرين، كقابض للأرواح، لكنه لم يجرؤ على التخلي عن هذه النبتة؛ فهي تذكِّره ببداية عمله وتحوُّل جذري في دنياه.

النقطة الفاصلة، التي تزامنت وولوجه عالم «الموت».

نشأته وطفولته كانتا قاسيتين. عرف الحقيقة كلها في الثالثة عشرة من عمره. يومها أجلسه أبوه، هو وشقيقه التوأم «سليم»، يقصُّ عليهما سرًّا، آن أوان البوح به:

– «سعد»، «سليم».. الآن، وقد بلغتما الحُلم، وجب عليَّ أن أوضح لكما بعض الأمور. في ليلة شتاء باردة، ممطرة، كنت أجلس أنا وزوجتي في هذا المنزل، كان قد مضى على زواجنا خمس سنوات، عرفنا بعدها أن الله لم يُرِد لنا الإنجاب. وفي الليلة نفسها، التي اتخذنا فيها قرار التبني، سمعنا صوت بكاء رضيع في الخارج. وعندما فتحنا الباب، وجدناكما ملاكين رقيقين، لم تمضِ على مولدكما أيام معدودات. آويناكما، ونزلت أهرع أبحث لكما عن طعام في هذا الوقت المتأخر. بعد ساعتين، كنتما تضحكان لنا وتبتسمان، وكأنكما تعربان عن امتنانكما. ليلتها، لم يغمض لنا جفن، وظللنا نتناقش في مصيركما حتى الصباح.

في اليوم التالي، ذهبت إلى قسم الشرطة لأبلغ عن الحادثة، ولكن بعد شهر كامل من البحث، لم يبلِّغ أحدٌ عن فقدانكما، لكن الله زرع في قلبينا حبكما، وشاءت الأقدار أن تظلا معنا حتى هذا اليوم.

عاد «سعد» من شروده على نغمة هاتفه. اختلس نظرة إلى شاشته فظهر رقم غير مسجل. حرك إصبعه على شاشته ليجيب المتصل، ولمّا

ظل على صمته، منتظرًا مَن في الجانب الآخر أن يعلن عن نفسه، جاءه الصوت الأنثوي الرقيق الحاسم:

- «سعد العشماوي»؟!

ضيَّق «سعد» عينيه وهو يحاول أن يتذكر الصوت، الذي تعرَّفه مع بعض الاستنتاج، لكنه لم يفصح عن هذا؛ ليسأل بصوته العميق الواثق القوي، الذي لم يحمل أي ترحيب بالمتصل:

- من المتحدث؟ نعم، هذا «سعد».

جاءه الصوت الأنثوي مرتبكًا وقد فقد بعضًا من ثقته، كرد فعل للهجته التي بدت عدوانية:

- أنا «مريم الصواف».

مطَّ «سعد» شفتيه وبدا على وجهه علامات عدم الرضا ولم يعقب، ما زاد من ارتباكها وحيرتها. عَلِقَ صمت بارد بينهما لثوانٍ، حتى قررت أن تكسره، مستعيدةً بعضًا من نبراتها الواثقة:

- آسفة لاتصالي بك في مثل هذا الوقت المبكر، لكن الوقت ضيق. أنا أتصل بك لأدعوك أن تحل ضيفًا على برنامجي الأسبوعي؛ فأنا أعد حلقة عن الإعدام، كعقوبة رادعة، ومدى تأثيرها على الحد من الجريمة.

جاءها الرد المباشر كسدادة أُلقيت في حوض لتمنع تسرب المزيد من الكلمات:

- كلا.

ومن دون كلمة أخرى، قال لها بلهجته المهذبة، على الرغم من كل شيء:

- من فضلك، أستميحك عذرًا، عليَّ أن أنهي هذه المكالمة الآن، فأنا لم أنم منذ ليلة أمس.. شكرًا لعرضك على أي حال.

وأنهى المكالمة.

أطلق زفرة غاضبة، أتبعها بشهيق ملأ به صدره كله وهو يسند رأسه على ظهر مقعده، يداعب خاتم معلمه في إصبعه، ملتمسًا منه بعضًا من الأمن والأمان، حتى غاب عن وعيه؛ ليدخل بعدها في حلم يقظة جديد..

كان يرى الحلم نفسه الذي يراوده منذ فترة طويلة، لكن هذه المرة بمفردات جديدة؛ فهو لم يكن داخل حجرة الإعدام، بل حجرة سقفها هرمي، خالية من كل شيء، ما عدا تابوت بلا غطاء، يرقد بداخله. اختفى المشهد ليجد نفسه يتحسس طريقه، كضريرٍ، داخل كهف داجٍ، لا يرى مد بصره إثر ظلامه المدلهم. أصاخ السمع، وهو حصير الجدران، علَّه يجد مخرجًا، فيولِّي إليه جامحًا.

جاءه الآن خرير مياه قادم من لا مكان. قرر أن يهتدي بهذا الصوت، لعلَّه يجد فيه مَصْرِفًا من العتمة، فانتهى إلى شاطئ بحر عظيم، يقف على حده مركب مهيب، له شراع أثيث. وفجأة..

اختفى المشهد، ليجد نفسه داخل حجرة الإعدام.

يستعد لمباشرة عمله المعتاد ويسأل المتهم:

- نِفسك في إيه؟

لم يُجِب الرجل، فظن أن الرجل بلا رغبات مرجوَّة، وقبل أن يجذب «السكينة»، لتنبلج الضلفتان، تحوَّل حبل المشنقة إلى عدادٍ، مؤشره يقف على العلامة الغريبة نفسها: «ووو»..

التي أخذت تلف وتدور، بلا نهاية.

لا سبيل لإيقافها سوى جذب السكين..

وبينما يهوي الرجل، شاهده يحطم الأساور الجلدية، فتحرَّر يداه المغلولتان؛ ليقصي بهما لثام وجهه، فتتراءى ملامحه أمام «سعد» جليَّةً..

وتتسارع معها نبضات قلبه.. فلقد رأى من أزهق روحه..

الجلاد «سعد» يشنق المتهم «سعد»!

فيستيقظ من سِنته والعرق البارد يتصبب على جبينه.



(٢٧)

قفز «عزت» خلف «جيداليا» وهو لا يعرف ما الذي يقود إليه ذلك المنحدر الزلق، الذي لم يعد يرى فيه مسافة ذراع إلى أمامه. النظارة التي ما زال يرتديها، بتقنية الأشعة تحت الحمراء، لم تعد تعمل.

لأول عشرين مترًا تقريبًا، كانت زاوية ميل المنحدر ٤٥ درجة تقريبًا.

أحس بدهشة شديدة للمس ونعومة المنحدر، الذي بدا له وكأنه رخام مصقول. وفجأة، تغيَّرت زاوية ميله، وأصبحت درجة الانحدار شديدة للغاية، لتتحول إلى سقوط رأسي حر، سرعة عالية لم يتعرض لمثلها قبل ذلك. شعر وكأن روحه تسبقه وتتسلل من بين قدميه، وهو يكافح ليلحق بها كي يحتويها داخل جسده مرة أخرى. لم يعد يشعر بوجوده المادي على الإطلاق. خُيِّلَ إليه أنه يرى جميع أجزاء جسده مبعثرة من حوله، كلًّا على حدة.

لم تعد هناك دقائق أو ثوانٍ، وكأنه خارج حدود المكان والزمان.

ومن دون سابق إنذار..

أضاء كل شيء بغتة، بلون أحمر..

ولمست قدماه الأرض الصلبة، من جديد.

وقف يتحسس أعضاء جسده، وكأنه يطمئن إلى أن إعادة تركيب ذرات جسده تمت على النحو الصحيح. زفر الصعداء بعدما رأى أن يديه لم يُعَد تجميعهما محل قدميه. نظر من حوله ليجد نفسه داخل كهف جديد.

أما «جيداليا» فكان يتقدم إلى الأمام من دون أن ينظر خلفه، فتبعه بخطوات مسرعة ليلحق به وهو يسأله لاهثًا:

– أين نحن؟ وإلى أين ذاهبان؟ وما هذا العالم الغامق الذي نحن فيه؟

لم ينظر «جيداليا» إليه واستمر في تقدمه، فقط رفع كفه خلف كتفه، وأشار بسبابته، بمعنى أن يتبعه، وهو يقول:

– اخلع نظارتك التي ترتديها، لترى وجودًا غير غامق.

شعر «عقرب» وكأنه أحمق متسرع، فلقد نسي بالفعل أنه ما زال يرتدي نظارة الرؤية التي كانت تسمح له بالرؤية في الظلام. بعد حوالي دقيقة من الحراك، وصلا إلى مخرج الكهف.

توقف «جيداليا» عن الحركة، فتوقف بمحاذاته، ثم شهق منبهرًا!

هذا ليس مدخل الكهف الذي كانا فيه..

كل شيء مختلف..

كان يقف في غابة. تناهى إلى مسامعه زقزقة عصافير وهدير بحر، من مكان قريب.

- ما هذا المكان؟ أين نحن؟

- هل معك هاتف؟

- سألتك أين نحن، وتسألني عن هاتفي!!

- لو أجبتك ما صدقت. أغلق هاتفك وأعد تشغيله من جديد، ثم أنبئني ما الدولة التي سيلتقط جهازك إرسالها.

أطاعه «عقرب». وبينما تتناهى إلى مسامع «جيداليا» النغمة المميزة لإعادة تشغيل الهاتف، وقف يستنشق عبير الغابة البكر، ويستمع إلى أصوات الحيوانات في تلذذ واستمتاع، وكأنه في نزهة خلوية.

سمع بعدها نغمة استقبال رسالة. أدرك معها أنها هي تلك التي ترحب بصاحبها بسلامة الوصول، فطلب من «عقرب» أن يقرأها له بصوت عالٍ.

- عزيزي العميل، نرحب بسلامة الوصول، أسعار التجوال في دولة المكـ...

قطع عبارته انبهارًا، و«جيداليا» يلتفت إليه، لينظر في عينيه، كي يقول بابتسامة:

- إن أجَبْتُكَ قَبْلَ هذا، أكنت مُصدقي؟

- هذا مستحيل! كيف هذا؟ ومتى؟

- «الانتقال الآني» يا عزيزي. مرحبًا بك في «المكسيك». أنت تقف الآن فوق إحدى النقاط الأهم التي كانت موطنًا لِأقدمِ أقدام بشرية.

أنت تقف فوق «جزيرة القيامة».. هل سمعت عنها من قبل؟

أجابه «عقرب» محركًا برأسه نفيًا. هو ما زال تحت تأثير «مخدر الدهشة» الذي سرى في جميع أوصاله.

- هذه الجزيرة كانت مأهولة بالسكان، من شعب غير محدد، منذ العصر الحجري الأخير، أي منذ حوالي ٤٥٠٠ عام قبل الميلاد. لاحظ كيف كان يصر «المصريون القدماء» على ربط البدايات بما انتهوا إليه، وكأنهم يبعثون لنا برسالة مفادها: ألَّا انفصال لنا عن جذورنا إن أردنا تقدمًا وتوفيقًا.

«كهف مانوت» وهذه البقعة، التي نقف عليها، يعدان - فعليًّا - من أقدم البقع على سطح الأرض.

ثم مد يده إليه وقال:

أعطني هاتفك.

أطاعه «عقرب» في استسلام، وقد بدا له أن عليه أن يطيع «جيداليا» في كل ما يأمر به، وإلا فلن يعود إلى موطنه أبدًا.

كان «جيداليا» يُغلِق جهاز «عقرب». أعاده إليه وهو يعود إلى داخل الكهف من حيث أتيا، وهو يقول:

- المكان الذي سنذهب إليه الآن يجب أن يظل هاتفك فيه مغلقًا طوال الوقت. ومستقبلًا، لا تتحرك أبدًا داخل شبكة الانتقال الآني ومعك هاتفك.

ساد الصمت بعدها وكأن ليس هناك مخلوق سواه.

وصلا إلى ممر مماثل للذي انتهيا عنده في «كهف مانوت». كان المنحدر نفسه في انتظارهما.

قفز «جيداليا» من دون أن يطلب من «عقرب» أن يتبعه، الذي قفز وراءه من دون تردد هذه المرة. كله لهفة وشوق ليعيد التجربة نفسها من جديد، ولكن بإحساس وشعور مختلفين هذه المرة..

شعور من استلذ أمرًا، فتشوَّق لتكراره.

إن مراحل الإنسان مع التجارب الجديدة ذات طور مشابه، الأولى تدهشنا، أما الثانية فنتذوقها، والثالثة: نعتادها.. حتى نملها.

ها هو يمر بأطوارها: ظلام..

فانزلاق..

فنعومة..

فسرعة..

ثم ضوء.

ولامست قدماه الأرض من جديد..



وفتح عينيه..

وعلى الرغم من أنه يعلم أنه سينتقل إلى مكان بعيد، فإن هذا لم يمنع المفاجأة..

التي زلزلت كيانه..

واحتلته احتلالًا!

(٢٨)

لماذا يرفضني؟

جال هذا السؤال خاطرًا، كشِهابٍ عابرٍ، في عقل «مريم»، التي لم تبرح مخدعها بعدما أنهى «سعد» الاتصال. ما زال الوقت بِكرًا، كقلبها، الذي شعرت به وقد نسي كل تجاربه وأحزانه، وعاد قلبًا بريئًا غادر محطة طفولته، متجهًا إلى مراهقته. قلبها الذي قالت له دومًا منذ فشل تجربتها الأخيرة، التي آلمتها كثيرًا جدًّا: «لا تقع في الحب مرة أخرى كي تخرج من هذه الدنيا سالمًا، لا لك ولا عليك». إلا أن «سعد» كان ساحرًا، قادرًا على أن يمحو كل ندبات الدهر بنظرة واحدة من عينيه، منذ أن التقتها.

لماذا يرفضها؟!

جميلة هي كنبأ سار من أخبارها الصحفية، غنية، ذكية، مشهورة، تتودد إليه. وما من رجل لا يشعر بامرأة تريده.

هو حتى يرفض الشهرة، ملايين يتمنون الظهور في حلقة من برامجها..

إلا هو!

لا تملك القدرة على أن تغادر فراشها وتواجه العالم في هذه اللحظة. ضعف عام انتشر في أوصالها، كسرب طيور مهاجرة، فأثقلها. أفرغت حيرتها بتنهيدة ملتهبة. احتضنت دميتها الباسمة على الدوام، التي لا يعكس محياها أي تعاطفًا مع مليكتها.

يومها حافل؛ فبعد سويعات قليلة ستذهب لتغطية فعاليات مؤتمر «النانو وهرم التكنولوجيا». مصادرها أنبأتها أن «معتز وهدان» سيلقي كلمة افتتاحية. تتمنى أن ترى «سعد» هناك أيضًا، فقد رأتهما معًا البارحة، كما أن حلقة برنامجها الأسبوعي في اليوم نفسه مساءً.

وعلى غير عادتها ونشاطاتها المبكرة، طرق الوسن، على استحياء، ثلاث طرقاتٍ على شباك وعيها، فاستجابت وأذنت له بالدخول.

أغمضت عينيها ورأته حلمًا..

كان حزينًا، كالحًا، مشعّثًا، مغبّرًا، على غير عادته، يجلس أرضًا داخل بئر، سماؤها «غرفة الإعدام»، يتأرجح فيها «حبل المشنقة» كبندول ساعة مضطرب.



اقتربت منه.. دُفّ قلبها، دق باسمه قبل أن تنطقه بلسانها.. فنادته، قائلة بشوق هامس وحروف مرتجفة كقلبها:

- «سعد».. يا حبيبي. ما وجدت حياة قط أحلى من التي كنت أنت فيها.

التفت إليها، وعلى الرغم من حزنه ابتسم لها، حتى ظهر بياض أسنانه.

هذه ابتسامة انتظرتها طويلًا، كشمس أشرقت بين سحاب طال غيمه.

ذابت في ابتسامته، وتركت عينيه تسقيانها خمرًا، فشعرت بدوار خفيف، وسرى خدر جميل في أوصالها.

مسحت بيديها، عن وجهه وشعره، ما عَلِقَ بهما، من أتربة، وروحها تتذوق حلاوة القرب منه، ونشوة حملتها بعيدًا جدًّا، وارتفعت بها عاليًا.. إلى هناك.. حيث النجوم، والشهب.

هنا، إلى جواره، تبدو لها الحياة غير ما تعرف وتألف.

ثم استيقظت.. لا ينطق لسانها إلا بحروف اسمه الثلاثة: «سعد».

كسا قلبها ووجهها دلالات حزن، فقد أدركت أنه كان حلمًا..

لكن محياه ظل عالقًا في وجدانها..

أغمضت عينيها، محاولة أن تتمسك بصورته، متمنية أن تظل هناك للأبد..

لكن صورته تلاشت في الهواء.. وتركتها حزينة.

(٢٩)

اتسعت عينا «عقرب» وهو ينظر في انبهار إلى كل ما حوله.

قاعة واسعة، ضخمة للغاية، تضج بالحركة والنشاط الشديدين، وكأنها خلية نحل.. قاعة لم يرَ مثلها سوى في الأفلام، تشبه قاعات وكالة ناسا الفضائية، على أقل تقدير. هذا هو ما جال في خاطره.

شاشات عملاقة، حديثة، موزعة في أرجاء المكان.. أجهزة كمبيوتر متطورة بمختلف الأحجام، إلى جانب أجهزة تكنولوجية منتشرة في الأرجاء، لم يعاينها قبل هذا.. أناسٌ، من مختلف الجنسيات والهيئات واللهجات، يعملون بدأب وهمَّة، وكأنهم آلات ما جُبِلَتْ إلا على العمل والطاعة، يوحِّدهم جميعًا ما يرتدون وما يعلقون على صدورهم؛ فهي إحدى الشارتين، ولا محالة:

.(ω) ،(Ω)

القاعة نفسها ذات تصميم خيالي، جيء به من عالم آخر. الأرضية والجدران، والمستويات المختلفة، المتدرجة في العلو، كمستعمرة نمل فوق الأرض، بمساراتها الدقيقة الملتوية، وفتحات التهوية المدروسة بعناية. هناك أيضًا روبوتات تتحرك في أنحاء القاعة، كلٌّ له دور مدروس؛ فمنهم من يحمل الطعام والشراب، بآنية فخمة، تطوف على العاملين. ومنهم من يحرس المكان، ومنهم من ينظِّف القاعة.

وحينما أنهى «عقرب» دورة كاملة في المكان بعينه، وعاد ببصره حيث يقف «جيداليا»، وجده يمد يده إليه بورقة وقلم، يقول:

- مرحبًا بك في مركز قيادة «منظمة الأوميجا».

تناول منه الورقة والقلم، تأمل الشعار الذي ظهر باهتًا على خلفية الورقة: شمس صفراء كبيرة، بداخلها قمر أبيض:

- هل هذا هو شعار المنظمة، شمس بداخلها قمر؟

قال «جيداليا»، وهو يتحرك عبر ممرات القاعة في سرعة، وجدية فيتبعه «عقرب»:

- نعم، هذا هو شعارنا، وهو تصوير رمزي للمكان الذي نحن في قاعه الآن، هي نقطة على عمق ١٠٠ متر تحت سطح الأرض.

- وما هذا المكان؟

- نحن أسفل «هرم الشمس والقمر»، في المكسيك.

وصلا إلى غرفة زجاجية صغيرة، قرأ على بابها الزجاجي: غرفة اجتماعات. دلف «عقرب» إليها، وراء «جيداليا»، لم يكن بها سوى



منضدة بيضاء، نضيدة، دائرية، متوسطة الحجم، ومقعدين من اللون ذاته.

لم يجلس «عقرب» من فرط الدهشة، التي ما زالت لها الكلمة العليا على جميع انفعالاته، فوقف يراقب من داخل الغرفة الزجاجية كل ما حولها، قبل أن يلتفت إلى «جيداليا»، الذي بدا له وكأنه يراه لأول مرة. اختفت نبرته الودود تمامًا، وتحولت خلجاته وقسماته وكلماته إلى معدنٍ من حزمٍ خالصٍ، لا تشوبه شائبة:

- عليك أن توقّع على وثيقة انضمامك إلى منظمة «الأوميجا».

- «يا عم أمضي إيه بس؟! أنا هبصم بالعشرة».

حوّل كلماته إلى فعل، فذيّل الورقة بتوقيعه. التقطها «جيداليا» في مرونة، طواها وأودعها جيبه، ليسأله «عقرب» سؤالًا يؤرقه:

- ما معنى الشارة؟

- الشارة هي رمز للأوميجا. وله حرفان: «صغير» و«كبير»، بنفس مفهوم Capital letters and Small letters in English.

ثم أشار إلى الحرف، الذي يرتديه، على صدره:

- هذا هو حرف أوميجا الكبير «Ω»، أما الذي ترتديه فهو حرف أوميجا الصغير «ω».

وهذا لحداثة عهدك بمنظمتنا. وهذه الحروف لها دلالات الشارات ذاتها، التي يعلقها الضابط على كتفيه. هذه الشارات لها عدة وظائف،

ويجب أن يرتديها كل كائن حي داخل المقر وكل من يتحرك داخل شبكة ممرات «الانتقال الآني»؛ فهي أولًا: تُبقيك على قيد الحياة. وثانيًا تحمل كل معلوماتك وبياناتك ونقطة وجودك الحالية وتاريخ خط سير تحركاتك، إلى مركز المتابعة.

In Real Time Transmission

– تُبقيني على قيد الحياة؟! كيف هذا؟!

– نعم. ونصيحتي إليك: لا تتخلَّ عنها أبدًا. عاملها كروحك التي تُحافظ عليها بغريزة البقاء؛ فأنت ميت – لا محالة – من دونها. الروبوتات الآلية، المخصصة للحراسة، مبرمجة على التصفية الجسدية لكل من لا يرتدي هذه الشارات. ستفقد حياتك، في كسر من ثانية، قبل أن تدرك ما الذي حدث لك!

بحركة غريزية، وضع «عقرب» يده على الشارة وكأنه يمسك قلبه، وفجأة اتسعت عيناه وسقط فكه السفلي وهو يكاد يقفز فوق المنضدة؛ فلقد رأى «ملهم» و«مميز» يتحركان على «اسكوتر»، بملابسهما الرياضية وأجهزتهما الإلكترونية، إلى أن وصلا إلى مكتبيهما أمام غرفة الاجتماعات الزجاجية التي يقف بداخلها.

ألصق كفه وأنفه، بل كل وجهه، بجدار الغرفة الزجاجي وهو ينظر إليهما في دهشة، ليبدو منظره مضحكًا للغاية، قبل أن يهز رأسه يمينًا ويسارًا وهو يضيِّق عينيه قائلًا، في لهجة غاضبة متوعدة:

– «يا ولاد الكاااااااالب».



كان «ملهم» و«مميز» يكوِّران ثلاث أصابع، ويفردان إبهاميهما وسبابتيهما، على هيئة مسدس، في اتجاه صدره مباشرة، وهما يكوِّران شفتيهما، ويغمزان بعين واحدة، في تناسق مدهش، ليقرأ «عقرب» شفاههما التي قالت:

- بووووم!!

ابتسم «جيداليا» وقال:

- لا يجوز لك أن تسبهما؛ فهما أوميجا كبير، وأنت أوميجا صغير.

الأخوان يفوقانك رتبة، إن لم تكن لاحظت هذا، الأمر الذي يُوجِب عليك أن تتلقى الأوامر منهما وتحترمهما، كما تنص قوانين الأوميجا.

انتقل «عقرب» بعين طفل إلى شارته، ومنها إلى شارتيهما، اللتين رفعاهما في وجهه، وهما يخرجان لسانيهما له، فقال وهو لا يكاد يصدق كيف تبدلت الأحوال، من رئيس لهما إلى تابع مرؤوس:

- «كمان!! دي زاطت أوي بقى! طب والمليون الدولار اللي لطشوها مني؟ مش همشي من أم مقر الأوميجا قبل ماخد فلوسي من ولاد الكلب اللي اشتغلوني دول. مش عزت عقرب اللي يتعمل عليه شغل».

انتزعه من حنقه صوت «جيداليا»، الذي قال في حزم، ليعيد الأمور إلى سياقها:



- علينا أن نذهب الآن؛ فمؤتمر «هرم النانو» ستُعقد فعالياتـه بعد سويعات قليلـة. لقاؤنـا القـادم سـيد «عقـرب» سـيحمل لـك ثـلاث مفاجآت: القناع، وحل أعقد لغز من الشفرة، والأهـم: لقـاء، مـع أول تجربة حية، بأول كائن «ما بعد إنساني»!

تطلَّع «عقرب» إلى «جيداليا»، الذي بدا له كالمرشد، يقود «ألـيس» إلى «بلاد العجائب». لم يجد أي كلمة تناسب الموقف فَلَزِم الصمت.

(٣٠)

سطعت فلاشات الكثير من الكاميرات، الثابتة والمحمولة، بينما يتقدم العالم المصري «حمد زوين»، إلى جواره الدكتور «معتز وهدان»، وحولهما لفيف من أعظم العقول المصرية. اعتليا المنصة الخشبية العملاقة، التي تواجه عددًا من المدرجات بُنيَّة اللون، داخل القاعة الواسعة التي تحتل موقعًا مميزًا داخل «مدينة التكنولوجيا».

ستبدأ – بعد قليل – فعاليات المؤتمر، بمناسبة افتتاح المركز، وسيتم إلقاء الضوء على تقنية «النانو»، أحدث ما توصلت إليه البشرية من تقدم تكنولوجي، التي تعد بدورها أحد المكونات الرئيسية لمشروع المدينة القومي.

قام العالم المصري بتكوين مجلس أمناء، من علماء مصريين وأجانب، يضم ١٢ عالمًا، منهم ٧ حاصلون على جائزة نوبل، ومجموعة

أخرى من العلماء لم تأتِ إلى هنا اليوم، من أجل المال أو المصالح الشخصية.

جلس «سعد» في الصفوف الأمامية، بناءً على دعوة صديقه، بينها ميكروفونات لا حصر لها، تابعة لمحطات فضائية كثيرة جدًّا، بدت وكأنها باقة زهور مشكلة نبتت فجأة فوق المنصة الرئيسية التي يجلس وراءها «معتز». نظر «سعد» إليه في فخر وابتسم له. كان سعيدًا جدًّا وفخورًا به للغاية؛ فهو يحمل نحوه مشاعر صداقة حقيقية صافية، ويتمنى له كل خير بحق..

فنجاح صديقه هو نجاح شخصي له.

اختلس نظرة إلى ساعته، دقائق وتبدأ فعاليات المؤتمر، دار بعينيه في أرجاء القاعة الواسعة، المزدحمة بالكثير من رجال الأعمال وكبار رجال الدولة. رأى «هيب» يحمل جهاز اتصال لا سلكيًّا في يده، ويتحدث من خلاله في صرامة. لم يفهم «سعد» سر وجود الرجل في هذا المكان. تابعه ببصره وهو يتجه في خطوات واسعة مغادرًا القاعة؛ ليرى على خط بصره «مريم الصواف»، التي كانت تقف على مدخل القاعة وهي تتحدث إلى طاقمها الذي أرسلته قناة «ما وراء الخبر» لتغطية الحدث، تعطي الأوامر، تشير بيدها، هنا وهناك، كشعلة من نشاط لا تحترق.

تأمَّلها «سعد» لحظات في إعجاب. لوهلة غشيه حلمه: أسرة سعيدة، وزوجة يحبها، ولعلها كانت مثلها.

امرأة جميلة، ذكية، ناجحة، مشهورة، حققت نجاحًا كبيرًا في فترة وجيزة، وأهم من ذلك كله، نجحت في حوز احترام جمهورها الكبير.

من النادر أن يحصد إنسان هذه الزروع معًا في باقة واحدة: الاحترام، التقدير، النجاح، الشهرة. قليلون جدًا في هذا العالم مَن تمكنوا مِن تحقيق هذه المعادلة الصعبة.

و«سعد» - الذكي جدًّا بفطرته - يعلم جيدًا أنه لكي يصل إنسان إلى قمة هذا الهرم، لا بد أن يكون قد اجتهد وثابر وتحمَّل كثيرًا وعانى الأمرَّين. وكالعادة أثار تحديقه بها ذلك الشعور الذي يجعلك تلتفت مباشرة إلى من يحدِّق فيك من الخلف، ولعل هذا سببه أن المنطقة المسئولة عن الرؤية، داخل المخ، تقع في مؤخرة الرأس.

والتقت أعينهما.. نافذة روحيهما.

رأى في عينيها سعادةً تعادل فرحةَ بستانِ زهرٍ بقطرات المطر.

فظهرت نديَّة، تلمع مشرقة، كوردة بللتها الأشواق بعد توقُّف المطر.

هي أول مرة تشعر أن «سعد» يعيرها اهتمامًا، وهذا الشعور أفرحها وجعل قلبها يطرب، واستسلمت لابتسامة، ارتسمت على شفتيها في حبور؛ فقد تمنت وجوده في هذا المؤتمر، وقد كان، لكن «سعد» لم يبادلها الابتسامة، فذبلت زهرة ابتسامتها سريعًا، قبل أن يظهر هذا الرجل بين مجالي بصريهما.. «عزت عقرب».

لاحظ «سعد» تغيُّر تعبيرات وجهها ومشاعرها، عبر لغة جسدها المتوترة.

كانت «مريم» تقول، في غضب واضح، لـ«عقرب»:

- ما الأمر يا «عزت»؟ يبدو أنني أراك الآن في كل مكان أذهب إليه! كم مرة تود أن تسمعها مني لتقتنع أني لن أعود إليك من جديد؟

- ولكني لا أطاردك، أنا أحد رجال الأعمال الممولين لمشروع «النانو» كي يعمَّ الخير على أرجاء البلاد، ثم إنك تعرفين «عزت» أكثر من غيرك؛ فهو لا يقبل «لا» كإجابة.. أبدًا.

- يعم الخير على جميع أرجاء البلاد!! ولأنني أعرفك جيدًا أعرف أنك هنا لسبب آخر: هوسك بالحضارة المصرية القديمة، التي سيتم إزاحة الستار عن بعض تفصيلاتها اليوم.

اعتذرت له في سرعة وهي تبتعد عنه. المؤتمر سيبدأ الآن.

صفَّق الحضور للعالم المصري الحاصل على جائزة «نوبل» في عام ١٩٩٩م وأستاذ «الفيزياء» في معهد «كاليفورنيا» للتقنية، وهو يمسك بالميكروفون ليبدأ حديثه. كان يقول، بطريقته المهذبة والمتواضعة وفي أدب جم كعادته:

- أشكر جميع الحاضرين لهذا المؤتمر: «هرم التكنولوجيا، والميثيولوجيا، والأنثروبولوجيا الحضارية للمصريين القدماء»، الذي رأيته ملائمًا جدًّا لوجودنا على أرض مصر ذات الأهرامات، التي تدل على ما وصل إليه المصري القديم من تقدُّم ونبوغ، ونحن نفتتح الآن ذلك الصرح التكنولوجي العملاق لنثبت للعالم أجمع أن المصريين ما زال لديهم ما يقدمونه لهذا لعالم، كما قدموا قبل الميلاد في مهد الحضارة الإنسانية.

فقد ظلت الحضارة المصرية القديمة عنوانًا يدل على عبقرية المصري القديم وتفوقه، آنذاك، في مجالات شتى، منها: بناؤه لأوابد حضارية، سجلت على واجهتها إنجازاته وفلسفته وحياته، بالكلمة والصورة، مدفوعًا لذلك باعتقاده الراسخ بعقيدة الموت الذي يتلوه البعث والخلود.

صفق الحضور لهذا الاستهلال الجميل، فابتسم وهو يتابع في بساطة:

- وأنا أؤكد لكم أن الطريق لمستقبل باهر سيبدأ، فقط، عندما تتصل الأمة بجذورها التاريخية، وتُحكِم صلتها بأصولها الروحية، وإذا ما عملنا على أن تكون وشائج ارتباط مصر القديمة، بكل مقوماتها التاريخية، المادية منها والمعنوية، وثيقة، متينة، مستمرة، بـ«مصر الحديثة»، فإن شبابنا - بلا شك - سيحلّقون نحو فضاءات الماضي الزاهر، وتتفاعل مشاعرهم القلبية مع مشاعر أجدادهم العباقرة، ويندمجون معهم في جَيَشَانهم الإبداعي وتألُّقهم عبر الزمن، بدافع قويٍّ من الوعي بالتاريخ، فتلتقي التصورات والأحلام وتتوحد الآمال والأمنيات، فيحققون بطولات مستقبلية تضاهي بطولات أولئك الأجداد، ويبدعون في تطوير أنظمة فكرية ورؤى عالمية ومبادئ ومشروعات جديدة، تحمل قدرة التأثير على المجتمعات البشرية في جميع بقاع الأرض، تمامًا كما كان تأثير الحضارة المصرية القديمة على العالم القديم.

أشار بيده، إشارة ذات معنى، ناحية الشاشة العملاقة، التي بدأت تعرض، تزامنًا مع كلماته، صورًا لأعظم متاحف العالم ولقطع ثمينة للآثار المصرية، وهو يتابع:

- إن آثارنا المصرية معروضة في أرقى وأكبر المتاحف العالمية «برلين»، «لندن»، «فيينا»، «المتروبوليتان»، «اللوفر»، وغيرها كثير، وبصورة لائقة وكريمة. وستظل شاهدًا حقيقيًا على عظمة وتاريخ وأخلاق شعب، تضرب حضارته، بجذورها، في أعماق التاريخ، وأنتجت للإنسانية أروع الإنجازات، في العمارة والبناء والطب ومجالات أخرى كثيرة مختلفة.

ظهرت في هذه اللحظة صورة عملاقة للأهرامات، وكلماته تتوالى:

- وكما يتنافس العالم الحديث على أعلى بناء، ظل الهرم الأكبر (هرم خوفو) أعلى بناء حجري في العالم، حتى بُنيت ناطحة السحاب «إمباير ستيت» في «نيويورك»، ولكن متى؟ بعده بآلاف السنين!

لعلّي أبدأ هذا المؤتمر بالعودة إلى الوراء، ثلاثة أرباع قرنٍ، وبالتحديد إلى عام ١٩٤٠م وصُنع أول حاسب إلكتروني، الذي كان ثقيلًا وضخمًا للغاية، بلغ وزنه ٢٧ طنًا، وفي جوفه آلاف الصمامات، وعدة كيلومترات من الأسلاك، وبلغت تكاليفه بضعة ملايين من الدولارات..

قطع حديثه لحظات، وهو يخرج من جيبه جهازًا أسطوانيًا بحجم قلم. ابتسم وهو يشير به أمام الحضور ويتابع:

- ثم توالت الاختراعات من خلال البحوث العلمية؛ ليتم التوصل إلى صناعة الترانزستور، الذي أحدث ثورة جديدة في عالم الإلكترونيات، ليصبح ما أمسكه الآن، بين أصابعي، حاسوبًا بحجم أقل وتكلفة زهيدة.

سأله أحد الصحفيين:

- هلا ألقيت لنا الضوء على تقنية «النانو» وآخر أبحاثك فيها، وكيف سيخدم هذا المقر بلادنا العربية!

- إن تقنية «النانو»، التي من أجلها صُمِّم هذا المقر، هي تقنية الجزيئات متناهية الصغر؛ حيث نهتم بدراسة معالجة المادة على المقياس الذري والجزيئي. وتطبيقات هذه التكنولوجيا ستفيد، تقريبًا، جميع مناحي الحياة. هي أشبه بالسحر؛ حيث تعمل على إنتاج الأشياء، عبر تجميعها على المستوى الصغير من مكوناتها الأساسية. وما دامت المواد كلها مكونة من ذرات، مرتصفة وفق تركيب معين، فإننا نستطيع من خلال هذه التقنية أن نستبدل ذرة عنصر، ونرصف بدلًا منها ذرة لعنصر آخر، وهكذا نستطيع صنع شيء جديد ومن أي شيء تقريبًا.

هذا، باختصار، معناه أننا نستطيع الحصول على الذهب من الحجر!

الأهم من هذا كله أنه أحيانًا تفاجئنا تلك المواد بخصائص جديدة لم نكن نعرفها من قبلُ، ما يفتح مجالات جديدة لاستخدامها وتسخيرها لفائدة الإنسان، فلنتخيَّل حواسيبَ خارقة الأداء، يمكن وضعها على

رؤوس الأقلام والدبابيس، ولنتخيل أسطولًا من روبوتات النانو الطبية، التي يمكن لنا حقنها في الدم، أو ابتلاعها لتعالج الجلطات الدموية والأورام والأمراض المستعصية.

سأله صحفي آخر:

- وهل تنحصر تطبيقاتها على المواد فقط؟

- كلا، بل حتى الإنسان، ستمكننا من صناعة إنسان خارق!

فمثلًا، يمكن صناعة خلايا أقوى ٢٠٠ مرة من خلايا الدم ويمكن من خلالها حقن جسم الإنسان بـ١٠٪ من دمه بهذه الخلايا، فتمكنه من العدو لمدة ١٥ دقيقة من دون تنفس!

سألته «مريم الصواف» وهي تحمل ميكروفون قناة «ما وراء الخبر»:

- ما الصعوبات والتحديات التي تواجهكم الآن في التعامل مع هذه التقنية؟

- في الحقيقة، نحن أمامنا عقبتان رئيستان: مشكلة تتعلق بدول العالم الثالث، وتحديات تتعلق بالتقنية ذاتها.

- هلّا ألقيت لنا الضوء، من فضلك، على طبيعة المشكلة التي تتعلق بوطننا العربي أولًا!

- المشكلة تكمن، باختصار، في عدم قدرتنا على شراء «النترات الكيميائية» اللازمة لتحضير «النانو» من الدول المتقدمة؛ وذلك لحرمان



دول العالم الثالث من شرائها؛ لنظل تابعين غير منتجين وغير قادرين على الاستفادة من هذه التكنولوجيا.

تعالت همهمات الاستنكار والسخط في القاعة، بينما سألت «مريم»:

- وما العقبة الثانية؟

- التمويل والدعم، عدم دعم الدولة ووزارة الصناعة ورجال الأعمال - إلا عددًا قليلًا للغاية - لتلك الصناعة، خاصة أنها مكلفة جدًّا، وتحتاج إلى مشروع قومي كبير، وهناك الكثير من الأبحاث والمشروعات العلمية حبيسة الأدراج، لا تجد من يدعمها أو يمولها، سواء من الدولة أو من رجال الأعمال. إننا نصرف على التجارب البحثية من أموالنا الخاصة، ومؤخرًا نجحنا في عمل شراكة مع الجامعة الأمريكية بالقاهرة، من أجل تحقيق أكبر استفادة ممكنة من تكنولوجيا النانو في المجالين الأكاديمي والصناعي، وسيتم التركيز من خلال هذا التعاون بين علماء المؤسستين على تصميم وتحليل أجهزة إلكترونية استهلاكية وأجهزة استشعار متناهية الصغر، تبلغ جزءًا من مليار جزء من المتر على مقياس النانو، ما يمهِّد لاستحداث عدد من التطبيقات في مجالات مكافحة الأمراض وتحسين الإنتاج الغذائي وتنقية المياه وإنتاج طاقة نظيفة ومتجددة.

- هل تعتقد أن معدلات الفقر العالية في بلادنا العربية تقف حائلًا دون وضع دولنا في المقدمة.

- بالطبع! فالتقدم يعتمد على ما تنفق. هل تعلمين كم تنفق الدول المتقدمة فقط على هذه التقنية؟ فلنأخذ الولايات المتحدة مثلًا؛ فقد أنفقت بلايين الدولارات في مجال تلك الأبحاث، وتعتبر البلد الرائد في امتلاك تلك التقنية والاستفادة من نتائجها، هناك أكثر من ٤٠٠ شركة أمريكية، من أصل ١٧٠٠ على مستوى العالم، منخرطة في هذا المجال، تليها اليابان وكندا وألمانيا، وتأتي الهند والصين في مقدمة الدول الآسيوية المهتمة بتقنية النانو.

توقف لحظات، ليلتقط أنفاسه، ثم تابع:

- أما إسرائيل، فهي رائدة هذا المجال بلا منازع؛ بسبب دعمها وتشجيعها مراكز البحوث العلمية الكثيرة المختصة بهذه التقنية؛ حيث أنفقت مئات الملايين من الدولارات لدعم مراكز البحوث، بدعم كبير من الولايات المتحدة، وتم حشد أكثر من ٢٠٠ عالم وباحث من مختلف الاختصاصات للبحث في أسرار هذه التقنية، علمًا بأنها تمتلك وتدير أكثر من ٨٠ شركة متخصصة في هذا الميدان. وفي عام ٢٠٠٦ وحده، تم بيع منتجات مصنعة بهذه التكنولوجيا بما مقداره ١٥ مليار دولار، ويُتوقَّع أن يصَل مجموع ما تحصل عليه من صناعة النانو إلى تريليون دولار بنهاية هذا العام.

- وماذا تقترح سيادة الدكتور؟

- أنا أناشد أثرياء الوطن العربي مساعدة شعوبهم بثرواتهم. هل من المنطقي أن يحتكر عشرون شخصًا فقط حوالي ١٨٠ مليار دولار؟ ما قيمة هذه الأموال وهي بأيدي أشخاص وعدد قليل ممن سيرثونهم



مقارنةً بعدد سكان الوطن العربي الذي يصل إلى نصف مليار فرد؟! وهل من المعقول أن ٤٠ ملياردير‌ًا عربيًّا تعادل ثروتهم موازنة ١١ دولة عربية؟ أي عقل هذا؟!

ما قيمة المال إن لم يُنفَق في موضعه الذي يفيد أكبر عدد من البشر؟

لعلِّي أود أن أنهي حديثي عند هذه النقطة، لعلها تكون نداء استغاثة لمن يملكون المال، لينفقوه على أوجهه المستحَقَّة.

ارتجت القاعة بالتصفيق، مع صيحات بالتوفيق ودعاء بالتسديد، والرجل يتابع:

- سأنهي كلمتي الآن، وأدع المجال للطبيب الشرعي والعالم المتخصص في مجال الأنثربولوجيا، ليشرح لنا نظريته في أن ما نحاول أن نتوصل إليه اليوم طبَّقه أجدادنا قدماء المصريين من قبل التاريخ، في محاولة لطيفة منه لبثِّ الروح المعنوية ونشر طاقة أمل تحفزنا على أن نتجاوز ما نواجهه من تحديات وصعوبات، ويثبت لنا أن مكاننا كان الريادة ويجب ألَّا نرضى عنه بديلًا.

الدكتور «معتز وهدان» يحاول أن يعيد الأمور إلى نصابها باختصار.

صفَّق الحضور والدكتور «معتز» يتناول الميكروفون، ليبدأ حديثه:

- بداية، أحب أن أشكر العالِم الكبير، الذي كان مبدعًا ومدهشًا ورائعًا في ترتيب أفكاره، كعادته؛ فقد حدثنا بطلاقة، باسطًا أفكاره العلمية، التي لم تنفصل يومًا عن قيمه النبيلة، ولقد ألقى الضوء في استهلاله على سر التناغم بين القديم والحديث، وأنا لستُ هنا لأظهر

البون الشاسع بين ما كناه وما أصبحناه، ولكني سأعمل على وَصْل القديم بالحديث، التاريخ والماضي بالحاضر، وعلاقتهما التي لا تنفك عن المستقبل.

إن هدف قراءة التاريخ - في الأخير - هو الوصول إلى ذروة الفكر والوعي الإنساني.

ربما تجدون ما سأقوله صادمًا، لكنه موضوع رسالتي، التي ظللت عليها عاكفًا عشر سنوات، وأنا من خلال هذا الكيان العريق (مدينة التكنولوجيا)، الذي أتشرف بأن أكون عضوًا فيه، أعمل على تقنين الأوراق البحثية، التي تؤكد نظرياتي.

بعد هذه البداية، التي كان لا بد منها، أود أن أقول: إن هناك حضارة عالمية شاملة في القِدم، سيطرت على كوكب الأرض بأكمله، تماثل تمامًا ما يحاول مروجو نظرية المؤامرة إثباته، في عصرنا الحديث، من خلال فكرة: «الحكومة العالمية الموحدة»، التي تسعى من خلالها منظمة، أو دولة، في السيطرة على الكوكب بأكمله وإخضاعه لها وتسيير مقدرات العالم، وفقًا لما يحقق مصالحها فقط، بغض النظر عن الإنسان كقيمة.

سكت لحظات، وهو يدير عينيه في الوجوه، ثم قال:

- هذه الحضارة العالمية الشاملة، التي سيطرت على الكوكب كله، قبل الميلاد، انطلقت من هذه الأرض.. مصر.

تأججت القاعة، بهمهمات، جزؤها استنكار، بَعضُها دهشة، وشَطرُها سخرية. رأى «معتز» في أوجه الحضور تعبيرات متباينة؛ فهناك



من هو معجب.. ساخر.. مصدِّق.. مكذِّب. ترك كل شخص يفعل ما يحلو له، حتى هدأ الفوران وساد الصمت من جديد. فتابع وكأن شيئًا لم يكن، وبالهدوء نفسه:

- سأعود بكم إلى البداية جدًّا، إلى باكورة الوجود الإنساني كله؛ حيث فجر استيطان البشر للعالم.

تشير المستحاثات إلى أن الإنسان الحالي لم يكن الأول أو الوحيد على الأرض، وإنما الأخير! فمنذ «إنسان جورجيا»، إلى «إنسان بكين»، وبعده «إنسان نياندرتال»، ثم الإنسان العاقل الأول «هومو سابينس إيدالتو»، الذي يعد السلف المباشر للإنسان العاقل الحالي، حدث تراكم معرفي، يزداد يومًا بعد يوم، داخل الوعي الإنساني الجمعي.

كان هذا عبر انقلابين حضاريين عرفتهما البشرية:

الانقلاب الحضاري الأول هو اكتشاف «النار» التي هذَّبت طباعه ونقلته من المرحلة البدائية إلى بداية التحضر.

أما نقطة التحول التالية، فقد كانت بسبب المصريين القدماء، الذين هم أصحاب الانقلاب الحضاري الثاني، الذي كانت بدايته، تحديدًا، مع الألفية السابعة عشرة، إلى نحو ٣١٠٠ قبل الميلاد، وهو عصر ما قبل الأسرات مباشرة.

وأحدث المصري - آنذاك - الثورة الحضارية الثانية، التي تمثلت في معرفة «الزراعة» واستئناسه للحيوان، فعمل على تطويع «البيئة» لصالحه. وحينما أقول البيئة، فأنا أشير إلى مفهوم أوسع وأشمل وأعم وأكمل.. أعني هنا: «النظام الكوني» بأكمله!



وبما أننا اليوم نحضر افتتاح مدينة كاملة لتكنولوجيا «النانو» بتقنياتها التي ستغيِّر ملامح المستقبل، ولأن الشيءَ بالشيءِ يُذكر، فإنه من المناسب جدًّا أن تعرفوا أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى هذه التقنية، أي: قبل التاريخ!

تأججت القاعة، مرة أخرى، ببعض صيحات الاستنكار تعقيبًا على كلماته، وكما كانت استراتيجيته في التعامل معها في المرة الأولى، كانت هي نفسها في هذه المرة، الثانية.

وَاتَرَ صامتًا، يحدق في العيون بثقة وثبات، وهو يعلم أنهم سيعتقون انفعالاتهم، فَيُحَرِّرونها، ثم يهدأون. وكما توقع، ساد الهدوء، فعاد ليكمل من جديد، وبنفس الثَّوَاءِ:

– ولكن كيف؟ هل من الممكن أن يسبقنا الأقدمون حضاريًّا من دون التسلسل التكنولوجي، ومن دون أن يعتلوا سلم التطور التقني، خطوة بخطوة؟ هذا هو موضوع أبحاثنا، لكني سأعطيكم لمحة سريعة، ولعلها تكون وافية، كي نصل بسهم الفكرة إلى الرمية، في الدقائق الخمس المقبلة، المتبقية من عمر هذا المؤتمر الافتتاحي.

مع آخر حروف كلماته، أظلمت القاعة، وتجمَّد المشهد كله، إلا من متحرك واحد، له صوت حفيف: «شعاع البروجيكتور»، الذي كان يحمل في ثناياه الطيفية صورة الأهرامات، التي أُسقِطَت على لوحة بيضاء أمام أعين الناظرين.

وتعالت الشهقات والهمهمات، من جديد، لكن هذه المرة، كانت تحمل معنًى واحدًا: كل الانبهار والإعجاب.

فهم لم يروا الأهرامات على هيئتها التي أَلِفوها..

بل عاينوها كما لم يروها من قبل..

ثلاثة أهرامات بيضاء، من غير سوء، بقمم ذهبية، تعتلي رمال الصحراء الصفراء، التي تتلألأ كأجمل حبيبات من ياقوت ومرجان، من تحت سقف سماء ترتفع بلا عمد، صافية، زرقاء اللون، تسر الناظرين، بينما توَّجتها ثلاثة تيجان من سحابات بيضاء، تخترقها أشعة الشمس الذهبية، كأكاليل من مرمر، تقاطع بياضه مع صفاره فوق قمم الأهرامات الثلاث الذهبية، وكأنها تحتفي بها وتحميها من أشعة الشمس الحارة.

تبادل «زوين» و«معتز» الابتسامات، بعدما رأيا علامات الاستنكار السابقة تنحني احترامًا أمام آيات الجمال الناضحة، بجلاء، أمام الأعين؛ ليقول «معتز»، بنبرة أكثر قوة من ذي قبل، تعمَّدها ليصل إلى مبتغاه النهائي، وهو شحذ الهمم وتحفيز رجال الأعمال ليضعوا أيديهم في جيوبهم ويبسطوها رغداء، لدعم وتمويل هذا المشروع، الذي سيعم بالخير على الجميع:

– هكذا كانت أهراماتنا، فور الانتهاء من بنائها، مكسوة بالحجر الجيري الأبيض، وعلى تاجها القممي هذا الطلاء الذهبي، هذه حضارة لم تهتم فقط بالتقنية المعمارية، ولكن روعة الشكل وجماله أيضًا؛ ليضربوا لنا مثلًا حيًّا: العبقرية والفن والجمال، ثالوث لا ينفصل.

انغلقت الأكفُّ في تصفيق حار، بينما انفتحت العقول والقلوب، من دون مقاومة، لتسمع وتتقبل الذي سوف يقال، وهذا ما فهمه العالمان، بذكائهما، من لغة أجساد معظم الحضور.

تمامًا كما خططا وأدارا هذا المؤتمر، مقدمة حماسية، ثم معلومات مبهرة صادمة، ثم تحفة جمالية.

الآن حان وقت الرسالتين الأكثر أهمية.

استعد «معتز» ليلقي الرسالة الأولى، وهو يقول:

- الآن سآخذكما إلى هرم من نوع آخر، «هرم التكنولوجيا». بعدها سأفسح المجال للدكتور «زوين» كي يلقي كلمته الأخيرة ويكشف لنا عن سر تكنولوجي نانوي، حصريًّا للوطن العربي، فكما بدأ هذا المؤتمر كان لزامًا عليه أن ينهيه هو.

رأت العيون صورة الأهرامات البيضاء الجميلة تكبر، حتى احتل الشاشة الهرم الأكبر وحده، الذي تموَّج وتبدل ثم انقسم إلى خمسة أجزاء أمام العيون، و«معتز» يتابع:

- أمامكم الآن «هرم التكنولوجيا» كما أتخيله (ملحق ١٣)؛ حيث يرقد الجيل الأول (المصباح الكهربي - التليفزيون) في قاع الهرم، يليه الجيل الثاني (الترانزستور)، ثم الجيل الثالث (الإلكترونيات) - التي استخدمت الدوائر المتكاملة - فالجيل الرابع، واستخدام المعالجات الصغيرة، التي أحدثت ثورة في عالم الإلكترونيات بإنتاج الحاسبات الشخصية والرقائق السليكونية، وأخيرًا الجيل الخامس ذو القمة الذهبية، الذي هو سبب حضورنا اليوم: تكنولوجيا «النانو».

لقد استخدم المصريون القدماء «النانوتكنولوجي» خلال تشييد الأهرامات؛ وذلك عن طريق طحن حبيبات الرمل إلى جزيئات دقيقة



جدًا، لعمل طبقة أسفل الحجر الواحد، ليمكن تثبيته في مكانه بسهولة. اسْتُخْدِمَ «النانو» أيضًا في صناعة الكُحل؛ فقد قاموا بإضافة «النايترو أكسيد» إليه لتقوية جهاز المناعة، والحماية من أمراض معينة، هذا بالإضافة إلى استخدامه في طحن الذهب؛ ليأخذ اللون الأحمر الذي ظهر واضحًا جليًا في المشغولات الذهبية الخاصة بهم، أي أن قدماء المصريين استخدموا مواد «النانوتكنولجي» في الألوان ومواد الطلاء، عن طريق تنعيمها في المطحنة، وكلما تُطحن يصغر حجم الجزيئات ويزيد عمرها.

وفي عصرنا الحالي، نرى أن أحدث تقنيات «النانو» ستتمثل في علوم الهندسة الوراثية ودمج الجينات. ألا تتفقون معي في أن معظم رسوماتهم وتماثيلهم - حتى قلب الهرم نفسه - كان مهجنًا من أكثر من كائن؟!

السؤال الآن: كيف حملت إذًا حضارة قديمة، في عصر ما قبل التاريخ، تقنية، ما زلنا نحبو اليوم فيها، ونحاول سبر أغوارها؟

ولإجابة هذا السؤال، يجب أن نفصّل في مفاهيمنا، هذا المفهوم:

«أن التطور الزمني مرتبط، حتمًا، بالتطور التكنولوجي».

هذا افتراض خاطئ.

لقد بنينا كل تصوراتنا طبقًا لهذه الفرضية الصماء. وفي الحقيقة، يتحول هذا الفرض إلى مسلَّم إذا ظللنا حبيسين، ووقعنا أسرى لهذه الفرضية؛ فمثلًا، منحنى التطور التقليدي، من الجيل الأول وحتى

الجيل الخامس، يصبح أمرًا حتميًّا - فقط - في حالة أن يعتمد كل جيل في تطوره على تكنولوجيات وإمكانات الجيل الذي يسبقه. ولتبسيط هذا الأمر: تخيَّلوا معي جيل هاتف ذكي سادسًا، نجده يعتمد على تقنيات الجيل الخامس الذي يسبقه، مع بعض التحسينات والإضافات.. وهكذا. ونحن قد أسرنا كل عقولنا، وإمكاناتنا، على تطوير تكنولوجياتنا الحالية، ولم نعد نبحث عمّا يحقق الوثبات العملاقة.

نحن نبحث عن طفرة..

طفرة لن تتحقق سوى بتطويع «القوى الكونية».

إن كل ما نحتاج إليه هو أن نحرر عقولنا من قيود أفكارنا القديمة؛ فبدلًا من أن نحصر أذهاننا وأفكارنا فيما هو متاح في حدود إمكاناتنا الحالية، فلنترك العنان قليلًا، بل كثيرًا جدًّا، لخيالاتنا، ونركزها على أفكارٍ، جميعها من خارج الصندوق.. عندها، سنرى أن هناك الكثير الذي يمكننا تحقيقه والوصول إليه، من دون أن ننظر خلفنا وإلى خطواتنا السابقة؛ حيث آثار «ما» سبقنا و«من» سبقونا.

إن كل شيء، في حياتنا، مرتبط بـ«القوى الكونية».

ولنضرب لهذا مثلًا: رفع أحجار عملاقة، من دون رافعات هيدروليكية، يعد أمرًا مستحيلًا في زمننا اليوم، لكن إذا طوَّعنا تأثير الجاذبية الأرضية، وهي إحدى القوى الكونية المهمة والأساسية، سيصير بمقدور أي طفل رفع هذه الحجارة. إن كل ما أردت قوله: إن كل شيء يمكن تنفيذه بأكثر من طريق. وليس هناك طريق واحد فقط،



بل يوجد الكثير من الطرق المختصرة، التي تأخذنا للهدف نفسه، ولكننا لن نعثر عليها أبدًا ما لم ننقِّب عن هذه المباحث.

By shortcuts. it can take us from A generation to Z generation,

حضارات الأمم العظيمة، التي بلغت مبلغًا من التقدم، لم تحتَج إلى تقدم في الزمن وعمر الأرض، ليقابله تطور تكنولوجي. وما الحضارات العظيمة، التي حدثتنا عنها الكتب السماوية، ببعيد.

نقطة أخرى مهمة: إن الأكثر غباء هو أن نؤمن بأن الجيل الخامس أكثر تطورًا من الجيل الأول، ولكي تكون الجملة صحيحة، لا بد من تحديد مفهوم التطور عند المستمع.

على سبيل المثال؛ لماذا نقول: إن طاقة البخار كانت أساسية، ومن دونها لن تحدث الطفرة التي تليها في هرم التكنولوجيا؟ فهي لم تكن منتَجًا أساسيًّا بالنسبة للمصريين القدماء قبل الميلاد، ولم يحتاجوا إليها، ونجحوا في تسيير حياتهم من دونها، ومع ذلك بنوا الأهرامات. ونحن بتقنية البخار وحدها غير قادرين على أن نبني هرمًا مثل هرم «خوفو»، ولكنهم استطاعوا من دونها!

إن الذي يجعل التقنية عمودًا أساسيًّا في عمر الأمم، هو مدى ملاءمتها للحقبة التي وُجِدت فيها، وللحياة البشرية، والمجتمع الإنساني الذي كان يستخدمها آنذاك. وليس - فقط - مجرد وجودها في حد ذاته. أن تمتلك هاتفًا ذكيًّا أمرٌ، وأن تستغل إمكاناته كلها أمرٌ آخر.

وأخيرًا، أحب أن أنهي كلمتي برؤية قد تجدونها «فلسفية». ومن قال إن العلم ليس بفلسفة؟

إن الزمان والمكان موجودان منذ الأزل. ونحن الذين نتحرك فيهما. أي أن كل العلوم والفنون والآداب وغيرها، التي أنتجتها، بل وما ستنتجها البشرية، حتى فنائها، موجودة منذ بدء الخلق. إن دورنا مقصور فقط، على أن نستحضر، ونستجلب، هذه العلوم «بالاجتهاد»؛ فالروائي الذي يكتب رواية هو فقط «يجتهد» ليستحضرها، وإن لم يفعل، «سيجتهد» غيره، وحتمًا سيُخرجها للنور.

التهبت القاعة بالتصفيق هذه المرة، وصيحات تؤيد الفكرة، وهناك من قال إنه سيدعم هذه البحوث.

وطبقًا لأجندة عمل المؤتمر، التي نسقها كلٌّ من «زوين» و«معتز»، حان الآن كشف اختراع مهم في الثواني الأخيرة من عُمر المؤتمر.

عاد الميكروفون بين أصابع «زوين»، الذي قال، وهو يشير إلى علبة صغيرة أمامه:

– وقبل أن نختتم هذا المؤتمر، أحب أن أكشف لكم عن أول جهاز تتبع نانوي يُحقن داخل جسم الإنسان ويمكّننا من تحديد موقعه بدقة، هذا الاختراع رفضت بيع تقنيته لأحد. لن يأخذ أحد مرة أخرى ثمرة عقول شبابنا. يجب أن نفعل كما يفعلون.

ومن دون سابق إنذار، اشتعل الموقف بغتة.

زخات من الرصاص انطلقت من أربعة أماكن متفرقة، وصوت يصرخ بلغة عربية، لكنته أجنبية، آمرًا الجميع بالخروج من القاعة، تزامنًا مع قنابل دخان، أُلقيت في المسافة التي تفصل بين المنصة الخشبية والحضور، بشكل مدروس، أغشت المكان كله، فعميت أبصار كل من في القاعة عن المنصة.

ثم انقشع الدخان..

ولم يُصَب أحد بأذى..

وكان العالمان يجلسان في مكانيهما، تعتريهما الدهشة والذعر، بينما نظر «معتز» أمامه مباشرة، ليطمئن على سلامة صديقه «سعد»، لكنه وجد مقعده شاغرًا.

أما جهاز التتبع النانوي، فلم يكن له أثر على المنصة..

اختفى!



(٣١)

أنهى «عزت» مكالمته الهاتفية مع «جيداليا»، التي اتفقا فيها على أن يكون اللقاء منتصف الليل، في قصر «فَرَّاس الحطَّام» المنيف، الذي يقع على طريق «القاهرة - الإسكندرية» الصحراوي، وطلب منه أن يحضر بقية «الرماد الذهبي» معه. عاد بذاكرته إلى الوراء.. إلى كلماتٍ قليلة، قالها له «شيخ العبابدة»، منذ أسبوع، حينما أوقفه مستدركًا، قبل أن يُبعثر الرماد كله:

- تذكَّر! لا تستعمل الرماد كله. أبقِ قليلًا منه. التعليمات تقول: أن هذا الرماد سيُستخدم لكلٍّ من: «الجدار» و«الوجه الذي ليس له ملامح». فهذا هو «الجدار»، ولا تسألني عن أي «وجه» يتحدث، فلا أعلم عن هذا شيئًا حتى اللحظة، لكن يبدو أن بقية من هذا «الرماد» ستكون لذاك «الوجه»!

لأول مرة يجد أن لهذه الكلمات معنى.. الوجه الوحيد الذي عرف مؤخرًا أنه بلا ملامح، كان القناع المصمت!

شرد لحظات في مفهوم «القناع» عند هذه النقطة، فرحل عن واقعه. تذكر ما قرأه حوله. فقد عرف أن له مدلولات كثيرة، هي مزيج من الدين والفن والسحر، في أكثر من ثقافة، وليست فقط الثقافة «الفرعونية»؛ فعند الأفارقة، كان «القناع» بمثابة استحضار لقوى الطبيعة ولأرواح الموتى. وفي الثقافة اليونانية، تم توظيفها في مختلف أنواع الفنون، واستُخدِمت في الفن المسرحي؛ حيث كان القناع يصمَّم ليناسب تعبيرات الشخصية التي ستقدَّم على خشبة المسرح؛ فالمرابي كان يرتدي قناعًا ذا أنف وأذنين مشوهة، والشخص الكسول كان يرتدي قناعًا له وجه مسطح، أما المتكبر فكان ذا أنف معقوف.

عاد إلى واقعه عَكِرَ المزاج تمامًا.. «مريم الصواف» تحنقه وتثير جنونه.

عرف عنها الكثير، من خلال برنامج «إكس كي سكور»، الذي مدته به منظمة الأوميجا.

عرف أنها تبحث عن رجل اسمه «سعد العشماوي» كثيرًا في محركات البحث، وأنها تحاول الوصول إليه، واتصلت به أكثر من مرة.

بدا له الأمر أكثر من أن يكون مصادفة.

تأكله الحيرة.. هو متأكد أنه سمع اسم «سعد العشماوي» قبل هذا.. ولكن أين؟



كان قد قرأ، مؤخرًا، ورقة بحثية حول الحوسبة الاجتماعية لمواقع التواصل الاجتماعي، وعلم كيف أن موقعًا مثل «فيس بوك» يستطيع أن يتنبأ، بنسبة دقة تصل إلى ٩٠٪، عن مصير العلاقة بين الشريكين، بل من سترتبط به، ومتى.

Magic of big data.

هذا هو سحر البيانات الكبيرة. فعبر أكثر من نصف مليار مشترك، تمكَّن فريق علوم البيانات من مقارنة سلوك الشركاء، والتنبؤ ببعض السلوكيات، مثل الارتباط والانفصال.

كان صباحًا صاخبًا، بعد أحداث المؤتمر العنيفة.. أطلق تنهيدة حارة وهو يطل من وراء النافذة الزجاجية العملاقة، في الطابق الأخير من جناح فندقه الشهير، على النيل الجميل الهادئ، الذي تطفو عليه مجموعة من المراكب الشراعية البيضاء، التي تلونت بلون قرمزي، جميل، تزامنًا مع غروب الشمس.

غرق بأفكاره في مياه النيل الصافية.. ليس لديه أدنى شك في أنه فقد «مريم الصواف»، وأنها مهتمة بشخص آخر.

برقت في ذهنه الإجابة.. هذا هو الرجل الذي سمع من «شيخ العبابدة» أنهم يريدون الثأر منه لأنه نزع روح «الحطّام».

«سعد العشماوي»!

قطعت أفكارَه طرقاتٌ على الباب، أذن بالدخول لمساعده.



- الرائد «هيب هصار»، يطلب مقابلتك غدًا صباحًا سيد «عقرب».

- هل طلب هذا بشكل رسمي؟

- كلا. قال إنه يرغب في التحدث إليك بخصوص الراحل «أدهم الملّاح»، لعله يصل إلى بعض الخيوط التي تساعده في الوصول إلى القاتل.

استرق النظر إلى ساعته، بقيت دقيقة واحدة على برنامج ما وراء الخبر لطليقته «مريم الصواف»، فقال في عجالة، وهو يشير لمساعده بالانصراف:

- حسنًا، حدِّد له موعدًا.

انحنى له مساعده احترامًا، مطأطئًا رأسه، وغادر الغرفة.

جلس «عقرب» على مقعده أمام شاشة التليفزيون، وعقله مشغول بها. لم يدرِ أنه يعشقها إلى هذه الدرجة إلّا بعد الطلاق.

قطع أفكارَه، مرة أخرى، موسيقى التتر الشهيرة لبرنامجها؛ لتسرح أفكاره من جديد في محبوبته الوحيدة.

(٣٢)

- سيداتي وسادتي الأفاضل.. أهلًا بكم في حلقة جديدة من برنامج «ما وراء الخبر».

أطلّت «مريم الصواف» على جمهورها، تبتسم ابتسامة مضيئة كضيّ القمر، مشرقة كعادتها، مع بداية كل حلقة من برنامجها الأسبوعي، الذي يُبث على الهواء مباشرة.

ظهرت أمام المتفرجين، في الكادر، في لقطة قريبة (كلوز أب)، بنقطة تركيز على عينيها الجميلتين، قبل أن ينتقل الكادر إلى لقطة كبيرة، ليتغير معها منظور المتفرجين، مع تحرك الكاميرا حركة أفقية بانورامية من اليمين إلى اليسار، ليظهر المشهد كله، ويتبدّى معه للمشاهدين مَن يجلس إلى يمينها ويسارها.

إلى اليمين، رجل يرتدي جلبابًا أبيض، له لحية قصيرة.. وإلى يسارها، رجل يرتدي بدلة عصرية، ونظارة طبية من دون إطارات، تليه امرأة، في عقدها الخامس، ترتدي نظارة طبية أيضًا، لها لون أحمر مميز، وملابسها بسيطة عملية، شعرها «كيرلي»، غير منسّق، لن تظن مع مَرْآها أنها بصدد بث تليفزيوني مباشر، أمام نسبة مشاهدة مليونية، لأشهر برنامج في الشرق الأوسط. بدت وكأنها بصدد إلقاء محاضرة داخل مدرج الجامعة.

«مريم» تشير إلى السيدة، فيتبدل مع حركة يديها منظور الكاميرا، بعدسة مقربة، على وجه المرأة، مصحوبة بشريط أحمر، في الأسفل، كُتِبَ عليه بحروف بيضاء:

– «سعاد مندور»، رئيسة المركز العربي لاستقلال القضاء والمحاماة ومندوبة عن جمعية حقوق الإنسان.

ليتكرر ما سبق مع الرجل ذي البدلة، وينيف الشريط الأحمر الكلمات التالية:

– «حازم مبارك»، رئيس المنظمة العربية للإصلاح الجنائي، وعضو شرفي في مؤسسة حرية الرأي والتعبير.

وانتهاءً بالضيف ذي الجلباب، في لقطة أخيرة مقربة:

– «حمدي مراد»، مفكر وباحث إسلامي.

بعدما انتهت «مريم» من تقديم ضيوفها، انتقلت الكاميرا، بعدسة قصيرة البعد البؤري، تُظْهِر جزءًا كبيرًا من الخلفية، كنقطة فاصلة

نظامية، ليسطع من وراء الحائط الزجاجي، الذي يقبع أمامه الضيوف، نيل القاهرة الجميل، تتلألأ عليه الأضواء في الساعات الأولى من الليل.

اختفى مشهد النيل بعد عشرين ثانية، مع تغيُّر زاوية الكاميرا إلى مواجهة أمامية، ليظهر داخل الكادر «مريم» وضيوفها، في لقطة واحدة.. بدأت «مريم» حلقتها بسؤال:

- «هل تعد العقوبة هي العامل الرئيسي في ردع الفرد عن القيام بالجريمة؟». نحن هنا اليوم بصدد مناقشة هذا الموضوع، الذي يتمحور حول عقوبة قاسية جدًّا.

انبلجت الجدية واضحة على ملامحها وهي تستطرد:

- «عقوبة الإعدام».. لماذا قررت أكثر من ١٠٠ دولة التخلي عن هذا الحكم؟ معنا هنا الليلة، شخصيات بارزة، لنستعرض الموضوع من وجهات نظر مختلفة.

لكننا لن ندير الحوار هذه المرة بشكل جدلي، بل سنتيح المجال لكل منهم ليطرح وجهة نظره فقط، وسنترك الموضوع بعدها للرأي العام.

في هذه الأثناء، كان «سعد» يجلس في غرفته وحيدًا يداعب كلبه، فتلقى اتصالًا هاتفيًّا، أجابه في استرخاء:

- «معتز».. أهلًا يا صديقي.

- هل تتابع برنامج «ما وراء الخبر»؟

- ....!

- حسنًا، إن كنت لا تتابعه، فأنا أقترح أن تشاهده الليلة. يبدو أن «مريم الصواف» تحاول إيقاف تنفيذ عقوبة الإعدام. اللعنة! ما هذا الذي يحدث؟! افتح شاشة التليفزيون الآن يا صديقي؛ فصورتك تحتلها كلها.. بالمناسبة، تبدو وسيمًا جدًا على الشاشات. سعيد جدًا أنه قد أصبح لي صديق من نجوم المجتمع، بسبب نسبة المشاهدة المليونية لهذا البرنامج.. سأتركك لتتابع ما يحدث.

وأنهى المكالمة.

عقد «سعد» حاجبيه شاردًا للحظات، ثم أشار إلى «آنوبيس» أن يحضر جهاز التحكم عن بُعد.. أطاعه كلبه وعاد بالجهاز بين أسنانه. كان أول ما وقعت عينا «سعد» عليه صورته، ومن تحتها الشريط الأحمر ذات، بحروف بيضاء:

- «سعد العشماوي».. الجلاد الذي ينفِّذ الحكم في مصر.

أنزل الغضب قواته على ملامح «سعد»، واحتل كل مساحات وجهه من دون مقاومة، وفارت الدماء في عروقه. آخر شيء يتمناه أن يصبح وجهه مألوفًا ومشهورًا للعامة، فقال:

- اللعنة! هذه الحمقاء.. لقد أفسدت كل شيء!

كانت «مريم» تقول في اللحظة نفسها:

- لقد حاولت أن أدعو «سعد العشماوي» إلى اللقاء هذه الليلة، لكنه اعتذر لانشغاله.. نحن نثق كل الثقة في نزاهة هذا الرجل وحبه

الشديد لعمله.. لـه سـيرة طيبـة بـين زملائـه، ومعـروف بأدبـه الجـم، ومشهود له بالكفاءة. من وجهة نظره، هو أداة لتنفيذ القانون فحسب.

اختفت صورة «سعد العشماوي» من الشاشة ليظهر وجـه «مـريم» من جديد، وهي تأخذ النقاش إلى منعطف آخر، قائلة:

– الآن سنتناول الموضوع من وجهة النظر القانونية.

أطل «حازم مبارك» بوجهه على المتفرجين، ليبدأ حديثه قائلًا:

– القـول بـأن إلغـاء عقوبـة الإعـدام، سيؤدي إلى فـساد النظـام الاجتماعي، كلام ينقصه العقل والدقة. فعقوبة الإعدام، منذ تطبيقها، لم تؤثر على معدل الإجرام بالسلب؛ فيتناقص، ولم نجد، طبقًا لتقاريرنـا، أنه مَن كان لـديهم المقـدرة عـلى ارتكـاب الجـرائم، ووصـلوا إلى حبـل المشنقة، قد ردعتهم تلك العقوبة القاسية، أو حتى أخافتهم.. وإلا لمـاذا انتهوا إلى هناك؟

أنا أرى – أيضًا – أنه لا يجوز تطبيق حكم الإعدام في مجتمع ليست العدالة عنوانه. ولا يجـوز إزهـاق روح إنـسان منحهـا الله لـه مـن دون التأكد من سلامة جميع الجهات التي تتعامل مع القضية. إن ما تم تطبيقه من أحكام إعدام، خلال الفترة الماضية، يعد جريمة في حـق الـشعوب. وإذا أرادوا التأكد من ذلـك؛ فليرجعـوا إلى «الوبـاء التـشريعي» الـذي نعيش فيه حاليًّا؛ فلدينا ١٠٥ بنود من قانون الإعدام ليـست لهـا علاقـة بالشريعة الإسلامية، أو حتى مقاصدها.

شكرته «مريم»، ثم قالت معقبةً وهي تشير إلى الأستاذ «حمدي مراد»:

- فلنطرق وجهة النظر من الناحية الإسلامية للباحث والمفكر الإسلامي.

بدأ الرجل حديثه بالصلاة والسلام على الرسول الكريم، ثم دخل في الموضوع مباشرة:

- أولًا: قال رَسُول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ -: «ادْرَأُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ؛ فَإِنَّ الْإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ».

ثانيًا: نحن نعلم أن في الدول الأوروبية، المتشدقة على الدوام بحقوق الإنسان، في كل محفل ونادي، قد بلغت بعض الحالات التي يعاقَب فيها بالإعدام مائة حالة، أما الشريعة الإسلامية فقد تحدثت عن ثلاث جرائم، وطوَّقتها تماما.

إن الإسلام دائمًا يسعى إلى درء جميع أنواع العقوبات، التي هي أدنى كثيرًا مَن عقوبة القتل، ما استطاع، وذلك من خلال الشروط المشددة التي تمنع أي عقوبة مهما دنت، تحقيقًا للعدالة الإلهية، التي تكون نسبية في الدنيا بسبب التدخل البشري، ومطلقة في الآخرة. ولأنها نسبية في الدنيا، قال رسولنا الكريم: «ادرأوا الحدود بالشبهات». والشبهة تعني أن أي جناية ينزل مستوى التأكد منها دون المائة في المائة، إذا جاز التعبير، فيجب أن نسعى إلى درئها. هذا هو المقصود الشرعي،

الـذي للأسـف قـد لا يُفهـم أحيانًـا، حتـى عنـد بعـض المـشرعين الإسلاميين، الذين يوسعون دائرة ضبط الأحكام الشرعية في مثل هـذه المسائل.

سألته «مريم»:

- هل تود القول بأن الشبهة توقف تنفيذ الحكم؟

- قطعًا.. الشبهة هي إنشاء خلل في التأكد المطلق من المسألة؛ فـإذا دخلت الشبهة توجِّب إيقاف العقوبـة المحـددة، والنـزول إلى عقوبـات أقل، طبقًا للضوابط الشرعية.

- وما هذه الضوابط؟

- الضوابط الشرعية القطعيـة حـددها الله - سـبحانه وتعـالى - في مقاصد محددة؛ فنراه يذكر، بعد حفـظ الـدين الـذي هـو أنزلـه، حفـظ النفس مباشرة، أي: الحيلولة دائمًا دون الوصـول إلى إزهـاق روح هـذا الإنسان، والبحث الجاد لمنع وقوع عقوبة الإعـدام.. هـذه الأسـس لـو دخلنـا إلى تفاصـيل كثـيرة فيهـا، لأثمـرت وأزهـرت قـوانين ضـابطة وشروطًا مهيمنة، مانعة لتنفيذ حكم الإعدام.

- هل هناك عقوبات في الدين الإسلامي تستوجب القتل؟

- نعم، منها على سبيل المثـال لا الحـصر: القتـل، الزنـا، الحرابـة.. ولكن هناك بُعدين يتعين عليَّ ذكرهما هنا، لأشرح كيـف ضـبطت هـذه العقوبات، البعد الأول: الشرع قد أوجب أن عقوبة القتـل لا تطبَّـق إلا في مجتمـع إسـلامي ناضـج، تعـارَف وتـآلف عـلى المـنهج الإسـلامي

وضوابطه وأخلاقه وقوانينه.. وهذه قضية أساسية. إذا لم ينضج المجتمع الإسلامي، ولم ترقَ فيه أسباب الصلاح، لا تطبَّق هذه العقوبات القاسية، كما أوقف سيدنا عمر بن الخطاب قطع يد السارق في ذلك الوقت مؤقتًا.

- وما البعد الثاني؟

- لن يتسنى الوقت لتناول كل شيء بالتفصيل، سأضرب مثلًا واحدًا فقط، وليكُن عقوبة القتل العمد؛ لتوضيح هذا البعد.. فمن المعروف في الإسلام أن من قَتل يُقتل، وحتى في حالة أنه كان هناك قتل عمد بنسبة تأكد مائة في المائة، وهي النسبة المطلوبة لإيقاع العقوبة، فقد أعطى الله للأهل فرصة أن يعفوا ويصفحوا.. وأكثر من هذا، أن القرآن الكريم اعتبر أن الصفح والعفو هما الأصل في حياة المسلم وفي مجتمعه، وأن القتل لهذا القاتل، وإن كان يستحقه، فإنه لا يحقق العدالة المرجوة التي أرادها الله، بما أنه فتح باب الإصلاح بالعفو.

أُنهي حديثي بأنه في الوقت الذي جعل الله - سبحانه - فيه الحق قائمًا بعقوبة الإعدام، فقد جعل الوصول إلى تحقيقها صعبًا جدًّا ونادر الوقوع، ليحرِّك في النفس البشرية نوازع أنبل: نوازع الأخلاق.

وأخيرًا كان رأي «مندوبة حقوق الإنسان» لا يزيد على أن عقوبة الإعدام مرفوضة وغير إنسانية، ولا تمنع ارتكاب الجرائم.

وهناك دول عربية إسلامية ألغت العقوبة منذ سنوات، وعلينا أن نحتذي حذوها.. أشارت أيضًا، في لمحة عابرة، إلى مشكلة أخرى لا

تقل عن «عقوبة الإعدام» خطورة، بل تماثلها؛ لأنها كالحكم على من وقعت عليهم العقوبة بالإعدام، وهم أحياء، ألا وهي: «العقوبات السالبة للحرية، قصيرة المدة». وبيّنت - في عجالة - آثارها السلبية، على المحكوم عليهم، ومَن حولهم، من آثار نفسية واجتماعية واقتصادية، وربطتها بمعدلات العودة بعدها إلى السجون.

وعدتها «مريم» بأن تكون ضيفة حلقة الأسبوع المقبل من البرنامج، لتتناول هذه القضية الشائكة، باستفاضة.

وختامًا، التقطت «مريم» طرف الحديث، لتقول في لقطة أخيرة:

- أجهزة البحث الجنائي يلزمها المزيد من التطوير، والتوصل إلى الجاني بنسبة دقة ١٠٠٪، للتوافق مع الشرع، في الأغلب يعد ذلك أمرًا مستحيلًا. وفي كثير من الحالات، لا نعرف الجناة الفعليين للجريمة. وفي بعض الأحيان، يتم إجبار أبرياء على الاعتراف خطأ. وعلى الجميع أن يعلم أن العقوبة ليست هي العامل الرئيسي في ردع الفرد عن ارتكاب أي جريمة، بل هي الإصلاح، فالإصلاح، ثم الإصلاح. هذا هو أفضل وجاء ووقاية قبل وقوع المحظور.

واختتمت حلقتها بتساؤل:

- فما رأيكم، أنتم، أيها المشاهدون؟

ظهر استطلاع رأي على الشاشة: هل توافق على إلغاء عقوبة الإعدام؟



برجاء إرسال التصويت بـ«نعم» أو بـ«لا» على موقعنا الرسمي، وشكرًا. ونلقاكم، على خير، في حلقة جديدة الأسبوع المقبل، في الوقت نفسه، بإذن الله.

(٣٣)

تجاوز «هيب هصار» بوابة الخروج من مبنى المخابرات العامة المصرية، متجهًا إلى مبنى الأمن الوطني.. تم استدعاؤه من قِبَل ضابط في المخابرات المصرية، وطلب منه الحضور. علم «هيب» أن المخابرات مهتمة بالقضية التي يتابعها، والتي تتمثل في مقتل «أدهم الملّاح». قال له الضابط المسئول: إن «الملّاح» متورط مع شبكة خارجية، وهناك من الدلائل ما برز مؤخرًا ليشير إلى أنه كان جاسوسًا. وطلب من «هيب» أن يكون هناك تنسيق مع المخابرات العامة، في التعامل مع هذه القضية.

بعد نصف ساعة، كان «هيب» يجلس خلف مكتبه الكبير، يراجع ما توصّل إليه في الأيام القليلة السابقة في أثناء التحريات. أحد الخدم شاهد «سعد العشماوي»، داخل قصر «الملّاح» المنيف، قبل مقتله بيومين. وحينما سأله «هيب»: كيف عرفت شكل واسم الرجل؟ كانت

إجابته أنه رأى صورته في برنامج «ما وراء الخبر»، وأنه متأكد أنه منذ أن زار هذا «العشماوي» القصر، تغيَّر سلوك رب عمله، وأصبح عصبيًّا منزعجًا طوال الوقت..

قابل «هصار»، أيضًا، «سعد العشماوي»، في الجراج، ليلة وقوع الجريمة. لم يُثِر وجوده الشكوك وقتها؛ لوجود صديقه «معتز» هناك. ليس هذا كل شيء؛ وصلت إليه معلومة مهمة من شاب يدير ملجأ للأيتام سلَّم ربع مليون جنيه لقسم الشرطة منذ أسبوع، إلا أن الشاب ظهر فجأة، مرة أخرى، ليقول إن هذه الأموال تخص الرجل الذي ظهرت صورته في برنامج «مريم الصواف».

الأمر الآخر أيضًا، الذي وُكِّل إليه، بناءً على أوامر المخابرات المصرية، هو تقصِّي الحقائق في الجزء الجنائي المتعلق بقضية فساد للوزير؛ لأنهم لديهم بعض الدلائل التي تشير إلى وجود علاقة ما بين «أدهم الملَّاح» والوزير. ومؤخرًا قضية سرقة جهاز «التتبع النانوي». «عزت عقرب» وشريكه المقتول يموِّلان أيضًا مشروع مدينة التكنولوجيا.. هذه علاقات قد تربط كل الخيوط مع بعضها البعض.

نظر «هصار» إلى الساعة المعلَّقة على الحائط المقابل لمكتبه. هو على موعد الآن مع مديرة مكتب الوزير ليستجوبها.

بعد نصف ساعة انقضت، فيما بين الأسئلة والأجوبة، شكرها «هيب».. وقبل أن تغادر مكتبه، بدا عليها التردد لحظات، قبل أن تقول:

- هناك أمر ما تذكرته الآن، لا أدري إن كان له علاقة أم لا.

قال «هيب» في اهتمام حقيقي:

- أي شيء، حتى ولو صغيرًا، تظنيه أنتِ بلا أهمية، قد يكون هو مفتاح حل القضية.

- البارحة، رأيت صورة رجل، في برنامج «ما وراء الخبر»، للصحفية اللامعة «مريم الصواف»، عرفت منه أنه يعمل جلادًا...

اسمه «سعد العشماوي»، هذا...

قطعت جملتها، بسبب ذلك البريق الذي ظهر في عيني «هيب» بشكل مفاجئ وهو يعتدل في جلسته باهتمام، الأمر الذي أربكها، ما جعله يستحثها على مواصلة حديثها، بحركة دائرية بسبابته، فتابعت في توتر:

- هذا الرجل كان على موعد مع الوزير، وحينما تأخّر عليه رحل، وقال جملة لم أفهمها في حينها. قال: إنه هو الذي سيأتي إليّ!

ساعتها، تساءلت: كيف سيأتي الوزير إليه؟! ومع ظهور الأوراق التي تثبت تورط الوزير في قضايا الفساد والجاسوسية، والمعروف أن عقوبة الأخيرة هي «الإعدام»، لسبب ما، برقت في ذهني تلك الخاطرة: أن هذا الرجل كان يعني ما يقول.. تمامًا.

سيطر «هيب» على مشاعره وانفعالاته وهو يشكرها، في هدوء وأدب.



غادرت المرأة مكتبه، وتركته وحيدًا يضع كفيه خلف رأسه، ويريح ظهره على الكرسي العملاق، ويتمتم وهو ينظر إلى لا شيء في السقف:

- يبدو أن كل الخطوط تشير إليك يا «سعد».. تُرى، ما الأمر الذي تورطت فيه يا «عشماوي»؟

وعَلِقَ السؤال في هواء الغرفة البارد..

دون جواب.

(٣٤)

هدَّأت سيارة «فيراري» من سرعتها عند منتصف طريق «القاهرة – الإسكندرية» الصحراوي، ثم عرجت في ممر خاص، موازٍ للطريق السريع، قبل أن تقطع مسافة كيلومترين، في اتجاه عمودي عليه. دقيقة أخرى، وظهر ذلك البناء الزخرفي الرائع.

قصر أبيض، ينافس قصور ألف ليلة وليلة، لا يمكن أن تتخيل وجوده – أبدًا – في مثل هذه البقعة. تحوطه ربوة مخضرة، يرتفع من وسطها، وفوق مرتفعاتها، عدة مبانٍ ملحقة به.

نظر «عقرب»، عبر زجاج السيارة الفخيمة، إلى بوابة القصر الأسطوري، المذهبة إطاراته بنقشٍ رآه على ذراع «الحطَّام» من قبلُ: ثعبان ذهبي يلتهم ذيله. اختلس السائق نظرة على مرآة صالون السيارة، ليشاهد التعبير البادي على وجه من يقلّه؛ فقد اعتاد رؤية الانبهار في

أعين الزائرين والقادمين لمقابلة صاحب القصر. إلا أن «عزت» كسر توقعاته؛ فلم يرَ أي انبهار في عينيه.

بمجرد أن توقفت السيارة، نزل السائق في احترام، ليفتح الباب لراكبه الوحيد. كان في انتظارهما مديرة المنزل؛ لتقود الضيف، عبر بهو الاستقبال الجليل، الذي تزيِّن كل ركن فيه قطعة أنيقة ثمينة، ذات تصميم فريد وذوق بديع، إلى غرفة مكتب صاحب القصر.

أجلست مديرة المنزل «عزت» على مقعد وثير من الجلد الفاخر، إلى جوار مكتب عملاق، وتركته وحيدًا، يتفحَّص بعينيه الآثار المصرية القديمة، التي تزيِّن غرفة المكتب، التي صُمِّمت بدورها على الطراز المصري القديم، بدقة وحرفية شديدتين، تشعر معهما أنك - ولا بد - قد عدت إلى قرون ما قبل الميلاد؛ فالحجرة كانت نموذجًا مجسدًا لروعة وعظمة تلك الحضارة وهذا التراث. المكتب نفسه، للوهلة الأولى، تحسبه «سرخًا» مستطيلا، كالذي كان يصوِّر واجهة القصر الملكي للملك المصري القديم، ويعلوه تمثال «سِت» الغاضب، إله الظلام والفوضى والجبروت والبطش.

أما جدران الحجرة، فقد احتلتها أوراق البردي، برسوماتها الجميلة وألوانها المتناسقة، المتناغمة، التي تحمل جميعها ذوقًا عاليًا راقيًا. جذبت انتباهَ «عقرب» واحدةٌ من بينهنّ، وُضِعت داخل إطار متفرِّد، تمثل «خوفو» وهو يهوي على رأس رجل بدبوس. وصور أخرى كثيرة، تمثل «سِت» الغاضِب، وهو يقتل ويشوِّه أخاه «أوزوريس». ولوحات وتماثيل كثيرة، تصف الصراع الأزلي، الذي لا ينتهي، بين «ست»



و«حورس». لاحظ أيضًا تمائم أخرى كثيرة كلها تتعلق بمقتنيات «ست»، كصولجانه الشهير «واز».

زارت عيناه أيضًا الطاولات الثمينة والأرفف الجمالية، التي وقفت فوقها تماثيل شامخة، متباينة الشكل والحجم، للملوك وقطط وثعابين وتماسيح ذهبية. ثم تركزت عيناه على قطع من أحجار مصرية قديمة، تقف في ركن خاص، صُفَّت في تنسيق بديع، وكأنها تعزف نغمًا ساحرًا، على الرغم من محيطاتها المتعرجة.

عينا «عقرب» الخبيرتان، علِمتا أن كل القطع داخل هذه الغرفة أصلية، وكأن ما خبرته عيناه شأن وما تعاينه الآن شأن آخر؛ فقد كان هناك احتفاء خاص؛ ففي ركن مميز، وقفت ثلاثة تماثيل عظيمة لـ«ست»، وزوجته «نفتيس»، و«آنوبيس»، ومن حولها قطع نفيسة، تخص الأسرة الرابعة - تحديدًا - التي شيَّدت أهرامات الجيزة الثلاثة.

وكان هناك هذا التابوت، في ركن قصيٍّ، الذي استفز «عزت»، فقام من مكانه ليراه عن كَثَب. التابوت جميل رائع، مزيَّن بالنقوش، فوقه مجسَّد بحجم التابوت نفسه، لسفينة الشمس المميزة. وقف يتأمل مركب الشمس في إعجاب، الذي طالما تخيَّل نفسه يمتطي واحدًا مثله، ليمخر غباب العالم السفلي، عبر بواباته الاثنتي عشرة، في رحلة «الخروج إلى ضوء النهار»، كما يقول كتاب الموتى.

- كل ما عليك، يا سيد «عقرب»، أن تستقل مركب الشمس، لتبدأ رحلة البحث عن الحياة، عبر بوابات العالم السفلي. أم أقول: رحلة البحث عن «المعرفة»؟ المرء لا يحتاج سوى بعض التفكير والتركيز

وقراءة هذه الحضارة بعقلية اليوم؛ حتى يصل إلى تلك الحقيقة الناصعة الساطعة.. هذه حضارة أقل ما توصف به أنها عبقرية.

التفت «عزت» إلى مصدر الصوت الذي قابله لمرة واحدة، لكنه لن ينساه أبدًا. كان «جيداليا» يرتدي حلة سوداء أنيقة، وكأنه يستعد لاحتفال ما. أشار بكفه اليمنى كلها إلى نقطة أمام «عزت»، وهو يقول:

- أقدِّم لك صاحب القصر، ومضيفنا: «قرّاس الحطّام أشجع».

حوّل «عزت» نظره إلى حيث يشير «جيداليا»، فبدت على وجهه علامات الدهشة، التي أخفاها بأنْ عقد حاجبيه في قلق.

فحينما [illegible] الغرفة، لم يكن هناك من أحد سواه. والركن، خافت الإضاءة، الذي يقف فيه «قرّاس» الآن، من المستحيل أن يصل إليه، من دون أن يمر من أمام عينيه. كيف [illegible] إذًا هذا الشاب؟! الأمر الآخر الذي أثار دهشته وحيرته، أن الشاب [illegible] منذ عشر سنوات، أو يزيد..

«الحطّام».

تجاوزه الشاب في هدوء، من دون أن يلقي عليه التحية، وهو يتجه ليتخذ مقعده وراء المكتب السرخي. تَبِعه «جيداليا» إلى أحد المقعدين الأنيقين أمام المكتب، ثم أشار إلى «عقرب» بأن يحذو حذوه.

تقدَّم «عزت» ليتخذ المقعد المقابل لـ«جيداليا»، وهو يتحيّن الفرصة ليلقي على «قرّاس» نظرة متفحصة. شاب غريب الأطوار، مستحيل أن تألف منظره من المرة الأولى. ساقاه نحيلتان للغاية، أبرز



نحولهما الجينز الأسود الضيق الذي يرتديه، طويل القامة، نحيفها، بشكل لافت، يناهز المترين طولًا، رأسه صغير، أصلع تمامًا. له لحية بنية قصيرة كثيفة تحدد ملامح وجهه النحيف، ذي العظام البارزة. يده اليسرى التي يرتكز بمرفقها على سطح المكتب في ثبات، يلتوي عليها وشم على هيئة ثعبان يلتهم ذيله، من المرفق إلى الرسغ. وعلى صدره قلادة فضية، تميل إلى جهة اليسار قليلًا، وكأنها بوابة إلى قلبه مباشرة، على هيئة خنفساء مقززة.

الغريب أن أول خاطرة خطرت في ذهن «عقرب» أن هذا الكائن، المدعو «فرّاس»، يشبه الثعبان تمامًا. بنحوله ورأسه الصغير الأصلع، وهذا الوجه النحيف، ذي الذقن المدبب، الذي يحتل نصفه عينان متوثبتان متقدتان على الدوام. هو فقط ينتظر أن يفتح فمه ليرى اللسان السام والمشقوق.

حاول «عزت» أن يتجاوز الحضور المقبض، المخيف، لـ«فرّاس»، فقال محاولًا إذابة جبل الثلج:

- كيف حالك يا «فرّاس»؟ أبوك كان رفيقًا عزيزًا، وكان عشقنا للتراث المصري القديم جامعنا، والمغناطيس الذي جعلنا نقترب من بعضنا البعض، كما ينجذب أصحاب الهوايات المشتركة، في كل مكان.

لم يُجِبه «فرّاس»، ولم يلتفت إليه أصلًا، بل لم يبدُ عليه حتى أنه سمعه. ظل على حاله ينظر أمامه مباشرة، لا يهتز ولا يتحرك. ساكن هو كالجماد. فوجّه «عزت» سؤاله إلى «جيداليا»:

- هل هو أصم؟ هل سمع ما قلته له؟

- نسيت أن أقول لك أيضًا: إن «فَرَّاس» لا يتكلَّم إلا قليلًا، وللضرورة القصوى؛ فعقله يعمل بسرعة غير عادية، تجعل من خروج الكلمات من فمه عملًا شاقًّا للغاية. لا تقلق عليه؛ فهو يرى ويسمع ويتكلم أفضل منَّا جميعًا. أنت لست بأسمع منه! صدِّقني.

نظر «عزت»، في دهشة مرة أخرى، لم يحاول أن يخفيها هذه المرة، إلى «فَرَّاس»، الذي لا يهتز، وكأن على رأسه الطير، و«جيداليا» يتابع:

- إن غاية الحكمة: الصمت. هو فقط يتحدث حينما تستدعي الحكمة أن يتفوه، فيوضح أمرًا ما، أو يصحح خطأ.. يتنبأ بأسرار لا ندري من أين أتى بها، وكأنه يخطف الخطفة التي يتبعها الشهاب الثاقب.. لا يتكلم إلا بالقليل، وهذا القليل - في الواقع - عندما تقترب منه، ستعرف أنه كثير جدًّا. كلماته فاصلة حادة كالموسى. لن تكون الأشياء بعدها كما كانت قبلها!

أخذ «عزت» نفسًا عميقًا، وعيناه تمتلئان بعدم اليقين. قال «جيداليا»:

- بما أنكما ستعملان مع بعضكما البعض، عن كثب، في الأيام القليلة المقبلة، عليَّ أن أنصحك أن تتخلى عن نظرة الشك هذه. وأن تثق في كل ما سيقوله لك «فَرَّاس»، ثقة عمياء.

ثم مال إلى الأمام وهو يقول في لهجة خاصة:

- أنت أمام أول تجربة حية لأول «ما بعد إنساني».



نظر عزت إلى «فَرَّاس» مرة أخرى نظرة متفحصة متأنية، على ضوء كلمات «جيداليا» الأخيرة، وكأنه يعيد برمجة عقله من جديد؛ ليراه بشكل مختلف.

في الثانية التالية مباشرة، ومن دون أن يتحدث «فَرَّاس» أيضًا، أخرج من درج مكتبه - بيمناه - «قناعًا» مصمتًا ذهبيًّا، تعرَّفه «عقرب» على الفور، فاتسعت عيناه انبهارًا وفغر فاه ليقول شيئًا ما، إلا أن ما أخرجه «فَرَّاس» في الثانية التالية - بيسراه - ليضعه أيضًا على المكتب كان بمثابة المفاجأة التي ألجمته: جهاز «التتبع النانوي» الذي اختفى خلال أحداث اقتحام المؤتمر.

لم يُبالِ «جيداليا» كثيرًا بالجهاز، فسأل عمَّا يشغله؛ فقد تبقت ثلاثة أيام فقط وتنتهي المهلة المحددة لفك ألغاز الطلاسم:

- هل هذا هو القناع المطلوب؟

لأول مرة، فتح «فَرَّاس» فمه ليتحدث، بكلمات قليلة، وصوت مبحوح له فحيح الثعبان، ليؤكد الصورة التي رسمها له «عقرب» في ذهنه، وهو يقول:

- سنعرف هذا بعد قليل.

ثم ركَّز بصره على عيني «عقرب» وتابع:

- هل أحضرت بقايا «الرماد الذهبي» معك؟

ناوله «عقرب» العلبة الذهبية، التي أعطاه إياها «شيخ العبابدة» منذ أسبوع. ومن دون كلمة واحدة، قلب «فَرَّاس» القناع وتناول البقية

الباقية من الرماد الذهبي، لينثرها ويحركها بكفه حركة دائرية، على ظهر القناع. وكما كان الحال على الجدار، الذي ظهرت عليه النقوش، أخذت حبيبات الرماد تُصنفِر ظهر القناع؛ لتبرز على ظهره كلمات باللغة الإنجليزية:

looks skee-en-tee-eye.

لم يصدِّق «جيداليا» ما يرى، فوقف في مكانه، ومال بجذعه حتى كاد أنفه يلامس ظهر القناع، ثم قال في توتر:

– هذا مستحيل! هذه كلمات باللغة الإنجليزية، وهذه اللغة لم تكن موجودة في ذاك العصر، ثم إن هذه كلمات ليس لها معنى.

رفع عينيه إلى «فرَّاس»، وقلبه يتواثب داخل صدره، في جزع، يَلتمِس منه أي تفسير لهذه الحروف الإنجليزية، وسر وجودها على قناع يُفترض أنه يعود إلى عصور قبل الميلاد، قبل أن يقول بنبرة قلِقة:

– هل ضللنا الطريق؟ ما علاقة هذا القناع بطلاسم أسرار المعرفة؟

أغمض «فرَّاس» عينيه وأرجع رأسه إلى الوراء، باسطًا كفيه على سطح المكتب، ثم أخذ نفسًا عميقًا وعقله يعالِج الموقف كأسرع محركات البحث المتطورة، قبل أن يتحدث فحيحًا:

– بل نحن على الطريق الصحيح تمامًا.. **looks skee-en-tee-eye** هو منطوق كلمة لاتينية..

Lux Scientiae.

- وما معنى هذه الكلمة؟ ولماذا تؤكد أننا على الطريق الصحيح؟

- هذه الكلمات اللاتينية تعني:

The Light of knowledge.

أي: «ضوء المعرفة». وهذا له علاقة وطيدة بما نبحث عنه، إن لم تكن قد لاحظت هذا.

- وهل عرف هؤلاء الملاعين أبجدية اللغة «الإنجليزية»؟ ثُمَّ تعالَ هنا! ما علاقة «الإنجليزية» باللغتين «اللاتينية» و«المصرية القديمة»؟

- هناك علاقة راسخة ووطيدة بين هذه اللغات، ومرسوم حجر «رشيد» دليل صارخ على هذا؛ فقد سُطِرَ هذا المرسوم بخطوطٍ ثلاثة، هي - حسب ترتيب كتابتها من أعلى إلى أسفل -: «الهيروغليفية» و«الديموطيقية» و«اليونانية»، حينما أراد الكهنة أن يسجلوا العرفان بالفضل للملك «البطلمي» بالخط الرسمي، وهو الخط «الهيروغليفي»، وخط الحياة اليومية السائد في هذه الفترة، وهو الخط «الديموطيقي»، ثم بالخط «اليوناني»، وهو الخط الذي كُتِبت به لغة «البطالمة»، الذين كانوا يحتلون مصر.

وهو نفس خط تطوُّر الكتابة في مصر القديمة، التي يُمكن حصرها في إطار هذه الخطوط الثلاثة، أما حلقة الوصل مع اللغة الإنجليزية، فقد حدثت عن طريق حلقة التطور للخط الرابع، وهو الخط «القبطي»، الذي كُتِبَ بحروف «يونانية» أيضًا، وكان مُدخلًا لنشأة اللغة «الإنجليزية»، مع بداية القرن «الخامس»، التي اعتمد جزء كبير منها

على جذور من «اللاتينية» و«اليونانية» القديمة، التي تعـود إلى سـنة ٧٠ قبل الميلاد.

فهم، بهذا، يُوصِلُون ثلاثة عصور مختلفة بثلاثة أزمنة متباعدة، عن طريق هذه الكلمات القليلة على «القناع»؛ ليعطونا بذلك علامة على أننا نتهِج الطريق الصحيح، ويدللوا بالبينة، على أنهم - فعلًا - قد امتلكوا أسرار المعرفة، وربما تقنيات «السفر عبر الزمن» أيضًا.

وهذا الأمر من صميم فكرة مجال الوعي الجمعي للإنسان، التي تنص على أن: كل العلوم البشرية، منذ بدء الخليقة وحتى فناء الكوكب، قد وُجِدت وخُلِقت ونشأت مع بداية هذا الكون.

فجأة، تعالت طرقات على باب الحجرة، ليدلف «ملهم» و«مميز» بزيهما الرياضي المعتاد، وأجهزتها الحديثة، وقبعتيهما المعكوستين، والعلكة التي لا تفارق فمَّيهما. بدآ يعدان المشهد: «بروجيكتور»، لوحة بيضاء، وصلات الأجهزة..

افتتح «ملهم» حديثه بعرض مقطع مرئي:

- لقد أعددنا لكم عرضًا خاصًا، نتمنى أن يحوز رضاكم، باستخدام أحدث التقنيات، التي قدمتها مجموعة شركات «ويتا» العالمية، رائدة صناعة الأفلام في العالم، التي استخدمت أحدث البرامج الكمبيوترية لصناعة أفلام مثل «الهوبيت» و«أفاتار».. ولكن قبل أن نبدأ، وددنا أن نحيطكم علمًا بأن الشفرة التي استعصت علينا قد شارفت على أن تلين تمامًا.



أشار بيده إلى «القناع» وهو يتابع:

- ها هو «القناع» قد جيء به، وهذا معناه أن كل «الإكسسوارات» قد اكتملت، ما عدا «الخاتم». وقد حددنا منهجًا عمليًّا في البحث، لعله يصلنا بصاحبه، سنعرضه عليكم بعدما ننتهي من هذا العرض، الخاص بحل اللغز الأخير من الشفرة، وتحديدًا: المتعلق بكلمات محددة على «الجدار الشرقي»: «وقد بات مكتوبًا عليَّ الهيام وحيدًا في كون آخر».

توقف عند هذه النقطة، ومطَّ شفتيه، وهو يدير عينيه في الوجوه، ثم تابع بنبرة غاضبة:

- لقد أخفى «المصريون القدماء» علومهم في «كون آخر».. ولو ربطنا هاتين الكلمتين، بالكلمات التي وجِدت مع «القناع»، في تابوت الموقع «سيتا»، لقُلنا: إن نقطة العبور هي نقطة عبر مصنع النجوم، عند «أبراج التخليق»، في «سديم النسر»؛ حيث الحالة «البلازمية» للمادة.

أظلم «مميز» إضاءة غرفة المكتب تمامًا، وكأنه لا يريد أن يرى وقع كلمات أخيه على وجوه الحاضرين، ولم يُنِر الغرفة سوى الشاشة العملاقة، المتصلة بالكمبيوتر المتطور. مر عليهم، مرورًا سريعًا، ليناولهم نظارات، تساعدهم على الرؤية، بتقنية الأبعاد الثلاثة.

وفي عرض مبهر، وجودة صورة عالية، بنظام كاميرات «الاندماج الرقمي»، التي تتعامل مع الصور بمبدأ «الصفر» و«الواحد»، احتلت الشاشة صورةٌ لفضائِنا الرحيب المترامي المُتَنَائي.



بيئة قاصية، منبسطة، ساحرة، مليئة بالأسرار، أخذتهم نظاراتهم إلى هناك، فشعروا وكأنهم يسبحون على صفحتها العريضة.

كان كل شيء ساكنًا..

وفجأة..

بدأ الانفجار الكبير، العظيم..

Big Bang..

وبدأ تكوُّن الحياة معه، من العدم.

و«ملهم» يتابع:

- عملية تمدُّد الكون، منذ الانفجار الكبير، أمرٌ لا رجعة فيه، ولا يمكن عكسه، تسير في اتجاه واحد، في كل من الزمان والمكان.. هذه الحركة، من العدم إلى «الحياة»، هي حدث لمرة واحدة فقط..

من الماضي إلى المستقبل.

كان يشير بكلتا يديه بحركة أفقية، من اليمين إلى اليسار، وهو يقول:

- كل شيء.. كل شيء.. يسير في اتجاه واحد، وبلا رجعة.

يقول لنا «المصريون القدماء» في كتبهم القديمة: إن كوننا ليس الوحيد، وإن هناك سبعة أكوان..

ليُكمِلَ «مميز»:

- بينما يقول علماؤنا المعاصرون: إن هناك أكوانًا متعددة، وبلا نهاية، تحمل عددًا لا نهائيًا من المجرات والكواكب.

الآن، أبرزت الشاشةُ صورةً أخرى، مبهرة، بجودة عالية، تحمل أدق التفاصيل، لفقاعات شفافة، متلاصقة، لا نهائية، وبداخل كل فقاعة كون مستقل. أشار بسبابته إلى فقاعة من بينهن، وهو يقول:

- فلنفترض أن هذه الفقاعة تحوي كوننا. إن سر الحياة في جعل كوننا صالحًا للحياة هو «ثوابت الطبيعة الكونية»، وهي الكميات التي لا تتغير أبدًا، مثال لهذه الكميات الفيزيائية الثابتة: «سرعة الضوء»، «كتلة الإلكترون»، «ثابت بلانك»، «ثابت الجاذبية».. وغيرها. إن جاز لي أن أقول: يقوم عالمنا على «٢٦» ثابتًا كونيًا مثل هذه، التي تعد بمثابة السقالات، أو الدعامات، التي تسمح بوجود عالمنا. ولو تغيَّر ثابت واحد.. ثابت واحد فقط، ولو بمقدار ضئيل للغاية، لاختلت معه كل قوانين الطبيعة، وما عاد كوننا يصلح للحياة.

تابع «ملهم»:

- تعمل هذه الثوابت الفيزيائية في دقة مدهشة؛ كي تحتفي بنا، وكأنها كيان مدرك، يعي ما يفعله بالضبط، كالأم التي ترعى جنينها بحب وشغف حقيقيين.

فيقول «مميز»، والشاشة تحمل صورة أخرى للشمس ومن حولها الكواكب:

- وقع عالمنا في حيرة من أمره! فمنذ بداية علم الفيزياء، نجحت الفيزياء «النسبية» في إيجاد تفسير سر هيكل كوننا الكبير، من خلال قوة



«الجاذبية»، التي تؤثر وتربط بين الأجسام الكبيرة، المشكِّلة للأجرام السماوية، كالأرض والشمس والنجوم.

أصلًا، نستطيع أن نؤكِّد أن حركة الحياة كلها تقوم على وجود قوة «الجاذبية»، فيُعزى دوران «الأرض»، حول محورها وحول «الشمس»، وترابط هذا الكون ببعضه، إلى هذه القوة، التي من دونها لتناثرت الكواكب، واندثرت، كحبات عقد مفروط.

ليتابع «ملهم»، والشاشة تعرض صورة «الذرة»، وما تحويه من بروتونات موجبة الشحنة ونيترونات متعادلة، في نواتها، والإلكترونات السالبة تدور حولها:

- ومع تقدُّم العلم، اكتشف العلماء أن البنية الأساسية، المكونة لكوننا ولهذه الأجرام الكبيرة هي: «الذرة»، وتوصلوا حديثًا إلى أن هناك مستوى أصغر من الذرة، يسمى المستوى «تحت الذري»، ليصطدم العالَم بحقيقتين مذهلتين!

تابع «مميز»:

- الحقيقة الأولى: أن كل العناصر في هذا الكون مكونة من البنية الأساسية الذرية نفسها، وتحديدًا «البروتونات»، وأن الذي يجعل من «الحديد» حديدًا، و«الكلور» كلورًا، هو، فقط، عدد «البروتونات» داخل نواة الذرة؛ ولهذا ظهر علم «النانو»، الذي يعبث بالبناء الذري وما دونه، فيستطيع أن يحوِّل «الحجر» إلى «ذهب»؛ لأنه ببساطة كل المطلوب هو تغيير في عدد «البروتونات»؛ لنحصل على مركب جديد.



تابع «ملهم»:

- أما الحقيقة المذهلة الثانية، فكانت تتمثل في أن قوانين «نيوتن» و«أينشتاين»، المتعلقة بقوة «الجاذبية»، لا يمكن تطبيقها على المستويات الذرية وما دونها؛ فهي تصلح فقط للأجرام السماوية الكبيرة؛ لأنها ذات كتل عملاقة. وتفشل تمامًا حين نطبق علاقتها على تلك المستويات الذرية وما تحتها؛ لأن الكتلة - في هذه الحالة - تكون تقريبًا معدومة.

ليقول «مميز»:

- فكان لا بد من ظهور «فيزياء» أخرى - غير «النسبية» - تصلح للتعامل مع المستوى «تحت الذري»؛ فنشأت «الفيزياء الكمية»، التي أوجدت أنواعًا أخرى من القوى - غير «الجاذبية» - تربط هذه الدقائق المنمنمة مع بعضها البعض، فحددت منها ثلاث قوى: «القوة الكهرومغناطيسية»، «القوة النووية القوية»، «القوة النووية الضعيفة».

فتابع «ملهم»:

- هنا انبلج لُبُّ المشكلة، التي أوقعت العالم كله، والعلماء، في حيرة: أن كل نظرية تفشل إذا ما تم تطبيقها بمفردها، على كوننا!

فرفض علماؤنا، المعاصرون، كِلتا النظريتين: «النسبية» و«الكمية»؛ لسبب بسيط للغاية، ألا وهو: أنه من المستحيل أن يُسيِّر هذا الكونَ نظامان! فمن غير الممكن أن يفسِّر كوننا نظريتان مختلفتان، كلٌّ منهما تفشل إذا ما تم تطبيقها على الكون كله، بل قد وجدوا - أيضًا - أن كلًّا منهما تناقض الأخرى.

أي أن الأمر يشبه أن يكون هناك نظامان مختلفان لقوانين المرور في دولة واحدة.. بالتأكيد، عندها، ستقع حوادث وكوارث.

قال «مميز»:

- الأكثر مدعاة للدهشة: طريقة تصرّف هذه القوى مع بعضها البعض.. كيف يتغلب «مغناطيس» صغير، في حجم حبة البندق، على قوى «الجاذبية»، فيجذب مسمارًا للأعلى؟ كيف تتغلب القوة «المغناطيسية» الصغيرة في هذه الحالة، المتمثلة في مغناطيس صغير، على قوى عملاقة، مثل قوى «الجاذبية»؟

فتابع «ملهم»:

- لهذا ظهرت نظريات أخرى، الهدف منها هو محاولة التوفيق والجمع بين كلٍّ من «النسبية» و«الكمية»، فكان من أشهرها:

Theorey of EveryThing.

«نظرية كل شيء»، التي حاولت أن توحِّد القوى الأساسية الأربع الموجودة في الطبيعة: «الجاذبية»، على مستوى الكتل العملاقة، والقوى الثلاث الأخريات، على المستويات تحت الذرية. فعمِلت جاهدة على إشراك قوى الجاذبية، مع هذه القوى الثلاث، من أجل صياغة معادلة توحيد.

ليقول «مميز»:

- وقد تحقق هذا من خلال «نظرية الأوتار»، وهي إحدى النظريات المرشحة، وبقوة، لتكون «نظرية كل شيء».

تابع «ملهم»:

- الفيزيائي «ميشيو كاكو»، منشئ هذه النظرية، يقول: إنه بمجرد السماح لإمكانية نشوء عالم واحد، كعالمنا، يفتح الباب أمام احتمال نشوء عوالم أخرى كثيرة، ممكنة ولا متناهية. وفاجأنا بأن المستوى «الكمي» ليس هو المستوى الأصغر للمادة، كما كنا نعرف؛ لذلك لا يمكن لهذا المستوى أن يمدنا بنظرية «كل شيء». بدلًا من ذلك، تحوَّل إلى مستوى نظري آخر «تحت الكم»، يسمى «الوتر»، وغيَّر كل مفاهيمنا السابقة حول أن كتل البناء الأساسية، لكل المواد، ليست هي الذرة والبروتون؛ فهناك مستوى تحت الذري يسمى: «الكوارك»، وهذه الكواركات تتكون من «الأوتار»؛ ليقول لنا: إن الذي يحدد بالضبط نوع المادة ليس عدد البروتونات، بل هو تذبذب هذه الأوتار.

ابتسم «مميز»، ملتقطًا خيط الحديث من أخيه، وهو يبدِّل وضع ذراعيه، في حركة مسرحية، وكأنه يمسك جيتارًا ويعزف على أوتاره:

- بهذه الطريقة، فإن كوننا بأكمله يصبح عبارة عن «عزف موسيقي»، وهذا العزف - وكل حلٍّ من هذه الحلول - يصف كونًا متناسقًا، رياضيًّا، ومختلفًا. وهذه النظرية هي التي بدأنا بها أول صورة، التي نصت على أن كوننا عبارة عن فقاعة بجانب فقاعات أخرى كثيرة، تحتوي كل منها على أكوان موازية شبيهة، وأن هذه الأكوان يمكنها أن تكون على اتصال مع بعضها البعض.. وكوننا، المُشاهَد، هو واحة من واحات أخرى كثيرة ومنعزلة، محاطة بفضاء لا نهائي، غير مأهول. وإذا حاوَلْتَ المغامرة بدخول كون آخر، فإنك سوف تُوقِف كَينونَتك؛ لأن كينونتك تخضع، ببساطة، لقوانين عالمنا وثوابته فقط.

قال «ملهم»:

– هنا التقط طرف الخيط العالِم «هيو إيفيريت»؛ ليأتي بنظرية تبني فوق نظرية «الأوتار»، وهي نظرية: «الوضع الفائق»، التي نصت على أن قياس الشيء «الكمي» يسبب تفرُّعًا حقيقيًا في الكون.

فالكون يتم نسخه إلى كونين، كل واحد من الكونين يمثل نتيجة محتملة للقياس. وعليه، فإن وقوع أي حدث عشوائي، معناه أن احتمالًا، من ضمن عدة احتمالات أخرى، قد وقع، ما يؤدي بنا إلى افتراض أن الاحتمالات الأخرى جميعها قد تكون وقعت في أكوان أخرى موازية لكوننا، وما تجربة «الانتحار الكمي»، ونموذج «قطة شرودر»، إلا نموذج عملي للوضع المركب أو الفائق للمادة.

فمثلًا لو تعرضت إلى حادث، إحدى نتيجتيه: «الموت» أو «الحياة»؛ فكلا الاحتمالين قد تحقق. وقد تفرَّع الكون لكي يلبي كلا الاحتمالين. وبهذا، أنت حيٌّ يُرزق في كوننا، وميت في كون آخر. هذا هو الوضع الفائق، وهذا هو أيضًا كل ما لدينا من تفسيرات لكلمتي «كون آخر».

لكن هذا لن يسبب عائقًا؛ فمن يمتلك جميع القطع، سيعبر من نقطة الولوج: تابوت الموقع «سيتا»، وسينتقل إلى هذا الكون الآخر. فقط ينقصنا «الخاتم»، ليكون لدينا كل ما يلزم لنعبر الطريق.

قال «جيداليا» في لهجة ساخطة:

– ولكن كيف سيعود من هناك؟ هذا ما لا نعرفه.

تبادل «ملهم» و«مميز» النظرات، قبل أن يقول الأول:

- ليس لدينا أدنى شك في أن من يصل إلى «سر الأسرار» سيعرف طريق عودته.

صاح «عقرب» فجأة وكأنه استيقظ من سبات عميق، مبديًا اعتراضه، ومعلنًا عن وجوده بهذه الطريقة المنفّرة، قبل أن يقول:

- كون يلبّي كلا الاحتمالين: عايش وميت.. سر الأسرار.. سيعرف طريق عودته.. الليلة كده قلبت «ميكي ماوس» خالص يا جدعان!

هنا قام «فرّاس» من مكانه بغتةً، وفي خِفَّة ثعبان، وقف بين الأخوين.. أزاحهما بطول امتداد ذراعيه، ثم..

أضاءت الغرفة.

شهق الجميع.. لا أحد يدري مَن أضاءها وكيف!

ولأول مرة، يتكلم «فرّاس»، منذ حضور الأخوين

- اسمحا لي أن أرحب بكما ضيفين في بيتي؛ فلم تسنح لي الفرصة قبل هذا.. والآن لن أترككما عاجزين عن فهم النقاط الحائرة، التي توقف عندها علماء كوكبنا. في الواقع، «المصريون القدماء» هم الأدق، عدد الأكوان الأساسية ليس متناهيًا، هي سبعة أكوان فقط. ونحن في الكون الأول، وقد أخفى المصريون أسرارهم في الكون السابع.

كان «جيداليا» يتطلع في ثبات إلى «فرّاس». هو يثق فيه. إن لم يثق في أول «ما بعد إنساني»، فبمن يثق إذًا؟! بينما لمعت عيون الأخوين، تهيّأ

للمعرفة، وظل «عقرب» على حاله؛ فكل ما يهمه هو الوصول إلى الأسرار، أما موضوع الأكوان فهو لا يشغله..

أنهى «فرّاس» صمته الاختياري، ثم حرَّك يده اليمنى على مرفقه الأيسر الذي يحمل الوشم الثعباني، وتابع، مغمض العينين، وكأنه منوَّم مغناطيسيًّا:

- الأزمنة ليست واحدة في الأكوان السبعة.. هناك مسافة يوم واحد من الكون الأول إلى السابع، أي: ما يعادل تقريبًا ٣ ساعات ونصف الساعة بين الكون والكون الذي يليه، ما يجعل أقصى رؤية مستقبلية تسمح لك بالقفز خلالها إلى الأمام أو العودة إلى الوراء هي مسافة يوم واحد فقط. ومن لم يعد في خلال هذا اليوم ستتحلل جزيئاته ويفقد كينونته. ولو ربطنا هذا الكلام بكلمات الطلاسم التي تقول: «هو الرجل الذي يخطو على طريق الأمس»، فنستطيع أن نقول في هذه الحالة: إن الذي سيعود بكتاب الأسرار من «الكون السابع» إلى كوننا (الكون الأول)، سيعود إلى الوراء أربعًا وعشرين ساعة كاملة.

قال «ملهم» معلقًا:

- فقط للفضول لا أكثر.. هل هناك فعلًا تفرُّع في الكون؟

أجابه «فرّاس»:

- نعم، لكن يظل هناك سبعة أكوان فقط، هي الأكوان الرئيسية والمهيمنة. كلٌّ له ثوابته الكونية، التي تجعل منه كونًا منفصلًا تمامًا، ومستقلًا بذاته. له قوانين فيزيائية جديدة، لا نعرف عنها شيئًا. أما



الأكوان المتفرعة، فهي، فقط، مجرد أكوان شبيهة، تندرج تحت كونٍ ما من الأكوان السبعة.

اندفع «مميز» قائلًا:

- حسنًا، ما الوضع إذًا إذا كانت لحظة «الانتقال» هي لحظة حدث مفصلي، أوجب تفرُّعًا في الكون الأول؟

- المشكلة ليست في لحظة «الانتقال»، المشكلة تكمُن في لحظة «العودة» من «الكون السابع»، إذا كانت اللحظة المقابلة لها، بأربع وعشرين ساعة ماضية، في الكون الأول (أي كوننا) هي لحظة تفرُّع!

عندها، ربما سيعود إلى كون آخر شبيه لكوننا، لكن هذه حالة استثنائية للغاية، ذات احتمال محدود، ولكن كل شيء جائز الحدوث، وعلى الرغم من هذا..

لا ضمانات هناك.

فكَّ «جيداليا» رابطة عنقه واتجه إلى ماكينة القهوة، في ركن قصيٍّ من غرفة المكتب، وضغط زر «الإسبريسو» مرتين، ليحصل على «دبل شوت»؛ فالأمر معقد للغاية. عاد بفنجانه ليواجه «فرَّاس» بسؤال:

- وماذا عن «الخاتم»؟ كيف سنحصل عليه؟

ظل «فرَّاس» على حاله وكأنه لم يسمع السؤال.. طال صمته دقيقتين، ثم فتح عينيه الضيقتين، كثعبان، وقال في ثقة وهدوء:

- كلمات الطلاسم تقول: «الرجل يحمل السر عبر الأنسال الملكية».



علينـا أن نقتفـي نـسب الـذكور الأحيـاء، مـن الـسلالة الملكيـة للمصريين القدماء، وحتـى تاريخنـا المعـاصر؛ فالرجـل الأخـير يحمـل «الخاتم».

تبادَل «ملهم» و«مميز» النظرات، قبل أن يقول الأول في حماس:

- قد عبرنا منتصف ليل اليوم «السابع»، وبدأ عـداد تنـازلي لليـوم «الثامن».. تبقّى أمامنا يومان فقط. علينا أن نبدأ فورًا في تتبع «الأنـسال الملكية» منذ عهد «القدماء المصريين» وحتى يومنا هذا.

وبدأت رحلة أخرى، وأخيرة، في سباقٍ مُضنٍ مع الزمن..

للبحث عمَّن يحمل السرَّ معه عبر الأجيال..

سر «الخاتم».



(٣٥)

وقف «سعد» أمام فردَي أمن، استأجرَتْهما «مريم الصواف» لحماية خصوصيتها من الصحفيين وعامة الناس. تأمله فرد الأمن المسلح في شك، وعيناه تحملان عداءً واضحًا بلا مبرر. شعر أنه رأى هذا الرجل من قبل، لا يتذكر أين. بادره قائلًا:

- هل لديك موعد سابق لمقابلة السيدة «مريم»؟

اقتحمه «سعد» بنظرة ثاقبة، وجَل معها قلب الرجل، قبل أن يقول:

- كلا! لكنها حادثتني عبر الهاتف وطلبت مني إجراء...

قاطعه فرد الأمن، متذكرًا الآن أين رأى هذا الوجه:

- آه.. تذكرت! أنت «سعد العشماوي»، نائب «عزرائيل» على الأرض، لقد رأيت صورتك في برنامج «ما وراء الخبر» ليلة أمس، لكن السيدة «مريم» لم تترك لنا خبرًا بموعد سابق، وأنا لا...

قاطعه «سعد» في صرامة أكبر، وهو يقبض على مرفق الرجل بكفه، ما جعل الرجل يشعر وكأن فكّي تمساح قبضا عليه، وعينا «سعد» تتسعان بلا قرار، لتبتلعا كيان الرجل:

- ليس لديَّ وقت لهذا الهراء. أخبرها الآن أني أنتظر بالخارج.. حالًا.

أطاعه الرجل كالمسحور.

بعد «١٠» دقائق، كانت الخادمة تقود «سعد» إلى الصالة الواسعة المعدة لاستقبال الضيوف. لم يجلس «سعد»، بل ظل رابضًا في مكانه، يتطلع من وراء الزجاج، الذي يحتل حائطًا بأكمله، إلى حيث الحديقة الواسعة، الجميلة، العامرة بالنباتات. جذب انتباهه الأنواع الكثيرة النادرة المزروعة بعناية، ميَّز منها «ميموسا بوديكا»، النبتة الخجول، الحساسة، التي تنكمش على نفسها بمجرد لمسها، ولا تعود إلى حالتها إلا إذا تركتها لبضع دقائق!

لحظات وشعر بذلك الكائن الصغير الذي يتمسَّح في قدمه. خفض بصره لتقع عيناه على قطة «البورميلا» الجميلة، تنظر له في ود، وتهز ذيلها في سعادة. حبه الشديد للحيوانات والنباتات، بلا حدود، جعله ينسى، لحظيًّا، الدنيا وما فيها، ويحني قامته الطويلة، ليحتضن



القطة بين راحتيه في حنان وحب شديدين، بينما استسلمت هي للمساته، في غُنْجٍ ودلال، وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد.

- يبدو أن «ميريا» راضية عنك.. هذه أول مرة أراها تترك جسدها بين يدي غريبٍ لم تقابله من قبلُ!

أنزل «سعد» القطة، ذات الاسم الجميل، أرضًا، ثم التفت، عاقدًا ساعديه أمام صدره، مباعدًا بين قدميه كالوتر المشدود، ليجيب سؤال «مريم» الداهش، بسؤال آخر:

- مَن سمح لكِ بعرض صورتي على الملايين؟

ارتبكت «مريم» من سؤاله المفاجئ. كانت ترتدي ثيابًا رياضية، من اللون الأبيض، أظهرت قوامها الرشيق، وتعقص شعرها بدبوس، على هيئة زهرة نرجسية بنفسجية، بوجه عارٍ من المساحيق، لكنها بدت رائعة الجمال، بيضاء مشرقة، كصباح يوم عيد. مكتملة الأنوثة، تفيض رقة ونعومة.

ارتبكت أكثر من تجاهله لها كأنثى.. هو أول رجل لا تشعر بتأثيرها الأنثوي، الفاتِك، الآسر، البتَّار، ينال منه!

ولسببٍ ما، لم تستطِع مواجهة عينيه، ولا نظراته الثاقبة المقتحمة المخيفة، فخفضت له جناح الخنوع من الضعف، وكأنها تعترف باقترافها إثمًا، وهي التي لم تكن تطمع في أكثر من نظرة راضية منه.. هي فقط حاولت أن تقترب منه جدًّا بأية طريقة، فجرحتها أشواك وروده، ومن قبلها أشواقها، فأشارت إليه أن يجلس وهي تقول:



- بالفعل أنا آسفة، إذا كان هذا ضايقك. لكن البشر كلهم يحبون الشهرة، وأنا لم أتكلم عنك بالسيئ، بل تحدثت عنك بالحسن، وسمعتك الطيبة في الأوساط المحيطة بك، بل وإتقانك لعملك أيضًا.. فما الضرر الذي سببتُه لك؟

تجاهل «سعد» دعوتها له بالجلوس، وفاض الغضب من عينيه كسيل العرم:

- ومن قال إن «البشر كلهم» يحبون الشهرة؟ وإن كان هذا زعمًا صحيحًا، فإما أن الذي يقف أمامك ليس بشريًّا، وإما أنه البشري الوحيد الذي أثبت عدم دقة هذه النظرية البلهاء.

لا تدري بما تجيب؛ فكل كلمة قد تكون ما يجب ألا تنطق به. استجمعت شجاعتها، فبدت كقطة غاضبة، إلا أن صوتها خذلها فخرج مرتعشًا، غير واثق، وهي تقول:

- أنا لا أسمح لك أن تحدِّثني بهذه الطريقة. بشكل رسمي، ومن الناحية القانونية، عرضي صورتك والتحدث عنك بالخير والسمعة الطيبة، لا يشين ولا يدين، ثم إن...

قطعت كلامها بنفسها، على أثر إشارة حازمة، وطلقة نارية من عينيه، فابتلعت حروف كلماتها، بينما اقترب منها حتى ما عادت تفصلها مسافة ذراع، وهو يقول لها متوعدًا ومحذرًا:

- اسمعيني جيدًا.. عليكِ أن تختفي من حياتي تمامًا. المادة المسجلة ستتم إعادة مونتاجها، لحذف الجزء الذي يحمل صورتي.. فريق عملك



سيبذل المزيد من الجهد لحذف الحلقة بأسرع ما يمكن من على «يوتيوب» بشكل خاص، ومن الشبكة العنكبوتية بشكل عام، قدر المستطاع، وتحميل الحلقة، إن أرادوا، بعد إعادة مونتاجها.

أريد من الناس كلها أن تنسى «سعد العشماوي». وقبل هذا كله...

سكت ثواني، وأشار بسبابته لها متوعدًا:

- أريدك أنتِ شخصيًا أن تنسي «سعد العشماوي».

وقبل أن يهم «سعد» بالرحيل، انبعث صوت يقول:

- أنا آسف لقطع هذا اللقاء الشاعري.. هل هذا هو من ترفضين العودة لي من أجله؟!

كان «عزت عقرب» يقف على مدخل بهو الاستقبال، بينما تقف خلفه الخادمة تعتذر لسيدتها بكلمات متلعثمة عن إصرار «عزت» على الدخول ومقابلتها من دون أن تأذن له.

أشارت «مريم» لها بكفها أن تتركهم، بينما وقف «سعد» يراقب المشهد من دون أن يفهم ما يدور حوله. عقدت «مريم» ساعديها أمام صدرها، واستعادت نبرتها الواثقة وأسلوبها المتحدي وهي تقول:

- «عزت».. لقد قلت لك أكثر من مرة، وبأكثر من طريقة: إن العلاقة بيننا انتهت.

تعرَّف «عزت»، على الفور، على «سعد»؛ فهو لا يفوِّت حلقة من برنامجها، فقال ساخرًا، وهو يشير بسبابته ناحية «سعد»، مستهزئًا مستحقرًا:

- وهل لهذا «العشماوي» علاقة بمشاعرك التي تغيّرت فجأة؟!

لم يكن «سعد» ممّن يسمحون للآخرين بالتقليل من شأنه، لكنه قرر أن يتجاهل الرجل؛ لعدم رغبته في التورُّط مع «مريم» أكثر من هذا. بدا له أن تجاوزه عن إهانة «عزت» سيساعده في اختصار هذا المشهد، لكنه فوجئ بآخر رد فعله يتوقعه من «مريم» في هذه اللحظة؛ فقد تعلقت بذراعه القوية وهي تقول:

- تحدَّثْ بشكل لائق مع خطيبي «سعد».

فغر «عزت» فاه في دهشة وعجز عن النطق، بينما نظر «سعد» ناحية «مريم» في عدم رضا، ثم جذب ذراعه في خشونة من بين كفيها، واتخذ طريقه في خطوات مسرعة ناحية الباب. حاول «عزت» أن يعترض طريقه، فمد ذراعيه عن آخرهما ليمنعه من التقدم.

طأطأ «سعد» رأسه وهو يخفض بصره ناحية قدميه، متخليًا عن المواجهة، للمرة الثانية، وقال من دون أن ينظر إلى «عقرب»:

- من فضلك.. أفسح الطريق.. أريد أن أرحل.

كان ردُّ فعل «عزت» عدائيًّا؛ دفعهُ دفعةً قويةً وهو يقول:

- لا تُملِ عليَّ ما يتعين عليَّ فعله أيها الأحمق. أقسم أن أ...

لم يستطِع أن ينهي عبارته. فجأة، أحاطت كُلَّابة حديدية بعنقه، عرف بعدها أنها قبضة «سعد»، الذي حمله من رقبته، ليرتفع بجسده مسافة نصف متر عن الأرض، و«سعد» ينظر إلى عينيه مباشرة، نظرة

أرعبته وأسقطت قلبه أسفل سافلين. وجد نفسه محمولًا بيد واحدة، كطفلٍ صغير، حتى التصق ظهره بالباب وعيناه تحملان ذعر الدنيا كله، لا يستطيع أن يخلِّص رقبته من بين فكي التمساح اللذين يقبضان عليها.

دقيقة كاملة تجمَّد المشهد خلالها، حتى شعر «عزت» بالاختناق.. بدأ الأكسجين ينحسر داخل أنسجة جسده، فشحب وجهه، ثم ازرقت شفتاه، وأيقن أنه هالك لا محالة، وهو يرى الموت مجسدًا في عيني مهاجِمه الشرس، الذي قرر أن يلقيه بقوة، فاصطدم ظهره بالباب، وسقط أرضًا، واضعًا كفه حول رقبته، يلهث الهواء لهثًا.

لا يصدِّق أنه ما زال حيًّا يُرزق، بعدما ظن أنها النهاية.. لحظات وبدأت بشرته المحتقنة تستعيدُ لونها الطبيعي. وبكل قسوة الدنيا، فتح «سعد» الباب، في خشونة متعمَّدة، ليضرب به مرة أخرى رأس «عزت»، قبل أن يعبر بقدمه فوق جسده، ويغلق الباب من خلفه من قوة، تاركًا «مريم» تنظر إلى الباب المغلق في دهشة! هي أول مرة ترى «عزت عقرب» يتعرَّض لهذا الكم من الذل والمهانة!

بينما كان «سعد» يغادر مبتعدًا، كان «هيب هصار» يركِن سيارته أمام فيلا «مريم»؛ ليتحدث معها بخصوص قضية «الملَّاح». فضغط فرامل سيارته بقوة، وهو لا يكاد يصدق من يرى، بينما يبتعد «سعد» مندفعًا، غاضبا، بخطوات مسرعة، فتساءل في دهشة:

- اللعنة.. ما الذي كان يفعله «سعد» هنا؟!

(٣٦)

أنهى «سعد» سقاية أصص الزرع المنتشرة داخل شقته، ثم خرج مع كلبه «آنوبيس» ليروي نباتات الحديقة الصغيرة المحيطة بمنزله.

علا نباح «آنوبيس» وتوجَّه بجسده ناحية البوابة. ترك «سعد» خرطوم المياه، واتجه ناحية كلبه، ثم مسح بيده على رأسه، وهو ينظر أمامه مترقبًا:

- ماذا هناك يا «آنو»؟

بنهاية عبارته، ظهرت سيارة تقترب من المنزل، ومن خلفها قرص الشمس الأحمر الغارب الموشك على الزوال. أُثيرت حولها زوبعة ترابية محدودة؛ فالمنزل منعزل، والطرق المؤدية إليه غير مرصوفة، ما زال يسكن أرضها الرمال، حتى لتبدو الحديقة الصغيرة المحيطة بالمنزل وكأنها واحة وارفة ظليلة خصبة، وسط صحراء قاحلة جدباء مقفرة..

تعرَّف «سعد» على القادم على الفور، من هيئته وملامح جسده، على الرغم من عدم وضوح الرؤية، بسبب زاوية سقوط أشعة الشمس الغاربة، لكنه تجاهله، عائدًا إلى ما كان يفعل؛ يُكمل سقايته.

ترجَّل «هيب» من سيارته، يضم ياقتي معطفه حول رقبته، اتقاءً لبرودة الجو وشدته، مع بداية الليل.

– أريد أن أتحدث معك قليلًا يا «سعد».. هل تأذن لي؟

ألقى طلبه، في صرامة، وهو يتأمل زي «سعد» الذي لا يلائم الجو، حيث بدا له أنه يروي نباتات حديقته في متنزه صيفي. تساءل من دون كلمات: كيف لا يشعر هذا الرجل ببرودة الجو من حوله؟

أجابه «سعد»، من دون أن يتوقف عن ري نباتاته:

– أهلًا وسهلًا سيادة الرائد. «سعد العشماوي» لا يرد ضيفه أبدًا. كيف لي أن أساعدك؟

أنهى عبارته ووضع الخرطوم جانبًا، ثم أشار بيده إلى «آنو»، ناحية صنبور المياه، فركض وأنزل الذراع الصغيرة بقدمه، ليوقف تدفق المياه.

أشار «هيب» بيده ناحية باب المنزل:

– هل تسمح لنا بالدخول للتحدث بضع دقائق بالداخل؟ فدرجة الحرارة هذه الليلة لا تتجاوز ٥ درجات، ولم أكن أتوقع أن تستضيفني في حديقة المنزل.

– بالطبع.



تجاوز «هيب» الحديقة، وهـو يلقـي نظـرة فـضولية عـلى النباتـات الغريبة المنتشرة في أرجائها. لحظات وكان داخل المنزل.

هي أول مرة يحل فيها ضيفًا على «سعد العشماوي» في منزلـه. كـان قد رسمه في مخيلته منزلًا جافًّا، غير مرتَّـب، يخلـو مـن الـذوق؛ لـيلائم طبيعة «سعد» القاسية الخشنة، وحياته الجرداء، كعازب لم يتزوج، ولكنه اصطدم بواقع مغاير!

المنزل تم الاعتناء به عناية فائقة. النظافة تـشع مـن أرجائـه. ذوقـه رفيع جدًّا على الطراز المـصري القـديم. رأى النباتـات منتـشرة في كـل مكان، وأحواضًا لأسماك الزينة في أكثر من ركن. شـاهد عـلى الجـدران أوراق بردي سُطِّرت عليها آيات قرآنية وأشعار، كلها تتعلق بالموت.

لكن المكان، ككل، كان في غاية الفخامة والأناقة.

أكثر ما جذب انتباهه تميمة زرقـاء كبـيرة، تحتـل مكانًـا بـارزًا عـلى الجدار، تمثِّل عين «حورس»، إلى جوارها لوحـة بديعـة لزهـرة لـوتس، يقف عليها أبناء «حورس» الأربعة.

لمح «سعد» انبهارًا في عيني «هيب»، لكنه لم يُظهـر هـذا. أشـار لـه بالجلوس، ثم سأله، بلهجة جافة، ولكن مهذبة، وهـو يتجـه إلى المطـبخ المكشوف، داخل غرفة المعيشة:

- نِفسك في إيه؟

كان السؤال مباغتًا لـ«هيب». شعر معه أن «سعد» يتهيأ لإعدامه.

- كوب شاي ساخن، هو ما أحتاجه في هذا البرد.

طوال خمس دقائق كاملة، لم ينبس أحدهما ببنت شفة. واتجه «آنوبيس» إلى ركن قصي داخل غرفة المعيشة، يرقب ما يحدث في حذر، وكأنه أسد مستعد للذود عن سيده بروحه.

حمل «سعد» كوبي الشاي الساخن بيديه العاريتين من المطبخ، واتجه بهما إلى «هيب». مد يده بالكوب إليه وهو ينظر في عينيه مباشرة. تناوله «هيب» شاكرًا، وما إن أمسكه حتى أفلته من يده؛ لسخونته الشديدة، مخلفًا فوضى، لتحطُّم الزجاج وانسكاب الشاي. نظر إلى أصابعه في جزع، التي كادت تتحرق قبل أن يعتذر عمَّا سبَّبه من فوضى، بينما اتجه «سعد» ليجلب ما ينظِّف به المكان.

بدا «هيب» متوترًا للغاية، وساد صمت ثقيل لدقائق، يشاهد فيها «سعد» يمسح آثار الشاي، ويكنس الزجاج المبعثر. لا يفهم كيف حمل «سعد» الكوبين بيديه طوال المسافة من المطبخ إلى حيث يجلس هو في غرفة المعيشة، وهو الذي لم يستطِع أن يفعلها لمدة ثانيتين!! شعر بألم في يديه، فنظر إلى كفه مرة ثانية، فرآه محمرًا. أخذ نفسًا عميقًا وهو يتأمل «سعد»، ويتساءل - بينه وبين نفسه -: هل كان يقصد «سعد» إيذائي؟

- «سعد».. باختصار: الشكوك تحوم حولك في قضية مقتل «الملّاح».

سأله «سعد» وهو ينظف الأريكة، لا يرفع بصره عنها:

- هل تتهمني بقتل الرجل؟

- أنا لا أتهمك.. أنا أقوم بعملي، وأنا أراعي قواعد الزمالة، فأنت تعد زميلًا، وعلى الرغم من فارق الرتب بيننا، فقد قررت أن آتي إليك بنفسي، لألقي عليك سؤالين، بدلًا من أطلبك في مكتبي، وأسألك بشكل رسمي.

لم يرُق لـ«سعد» ما ذكره «هيب» بخصوص «فارق الرتب»، ليس لأن هناك ما يُشين، أو يُخجِل، ولكن لأنه خارج سياق الحديث.

كان المعنى الذي أراده له «هيب» أن يصل واضحًا جدًّا، وهذه طريقة تجافي تمامًا طريقة «سعد» المهذبة في تعامله واحترامه للآخرين، لكنه قرر أن يتجاوز هذا التلميح غير المناسب، فقط لأنه يدرك أن «هيب» يحاول القيام بعمله، وهناك سبب ما - بالتأكيد - يدفعه إلى أن يظن أنه متورط، بشكل أو بآخر.

فقال له بلهجة لا تحمل أي مشاعر:

- تفضل.. هاتِ سؤاليك.

- الأول: لماذا ذهبت إلى قصر «أدهم الملَّاح» منذ أسبوع؟

- وهل وجودي داخل قصره قبل موته بأسبوع يجعلني مشتبهًا فيه؟

- ولكنك كنت في موقع الجريمة أيضًا ساعة وقوعها؟

- تقصد بعد وقوع الجريمة؛ فأنا ذهبت إلى هناك لألحق برفيقي.

مط «هيب» شفتيه، ثم سأله:

- الثاني: لماذا ذهبت إلى مكتب وزير الآثار قبل القبض عليه؟

- لأعرض عليه مشروعًا. في الحقيقة، أنا لا أجد في أسئلتك ما يدل على سبب يجعلني مشتبهًا فيه. لو كان هذا كل ما تملك، فأنا أعلم لماذا قررت أن تزورني وتوجه إليّ هذين السؤالين بشكل غير رسمي؛ لأن هذين السؤالين لا يصلحان دليل إدانة. واختصارًا لسؤالك القادم؛ لأنه قد حان موعد نومي، أنا لديَّ «حجة غياب»، لكنني لن أذكر تفاصيلها لأني غير متهم، بشكل رسمي، حتى هذه اللحظة، فلست مُلزَمًا بشرح أي شيء لك.

زفر «هيب» في ضيق، وهو يهز رأسه معلنًا عن رفضه وعدم رضاه، فقرر الرحيل. تحسس أصابع كفه التي ما زالت تؤلمه وهو يتجه إلى باب المنزل، ثم قال، بلهجة محذرة، قبل أن يغادره:

- أنت واهم يا «سعد»، فأنا لم أُلقِ إليكَ بكل أوراقي بعدُ. كنت أود أن أجد لديك بعض الصراحة كي أساعدك، قبل أن أحصل على إذن يسمح لي بالقبض عليك. أنت لن تستطيع تبرير ربع المليون جنيه التي ذهبت بها إلى ملجأ الأيتام.. سنلتقي عمّا قريب. بالمناسبة، يبدو أنك أثرت غَضَب «عزت عقرب» وأهنته. سمعته من وراء باب فيلا «مريم»، هذا الصباح، يقسم أن يقتلك. رجل مثل هذا لا يسامح. توخَّ الحذر، يبدو لي أنه، يعد عملًا انتقاميًا. هذا رجل يستطيع أن يجد من يقتلك داخل السجن.. سلام يا «عشماوي».



(٣٧)

لم يُبالِ «سعد» كثيرًا بتحذير «هيب». أول رد فعل له، بعد مغادرة الأخير المنزل، أن أشار إلى «آنوبيس» بعينيه، فراح إلى حيث يشير سيده، والتقط له الهاتف بفمه، ثم وقف أمامه يهز ذيله في سعادة، ينتظر منه أن يأخذ ما أتى به إليه.

التقط «سعد» منه الهاتف، ثم نطق خمسة حروف: صديقي.

سرعان ما احتلت صورة «معتز وهدان» الشاشة:

- ما الأمر يا صديقي؟

نبرة «سعد» أقلقت «معتز»، وهو يقول:

- أريدك أن تحققني بجهاز «التتبع النانوي». أنا متأكد أنكم تمتلكون واحدًا غير الذي سُرق، وبالتأكيد تبحثون عن متطوعين لاختباره.

بدت الدهشة في صوت «معتز» وكلماته:

- بالطبع يا صديقي.. لكن لماذا تود ذلك؟

أجاب «سعد» سؤاله بسؤال لم يخطر على باله:

- هل تثق في يا صديقي الوحيد؟

- بالطبع أثق بك! إن لم أفعل فبمن أثق إذًا؟ لقد عرفتك على مدار عشر سنوات، ولم أرَ شخصًا مثلك في نقائه. أنت رجل قلَّما يجود الزمان بأمثاله، وأنا فخور بصداقتك.

- أبادلك الشعور نفسه، وأنت صديقي الوحيد، بل وعائلتي كلها؛ لهذا طلبت منك هذا الطلب. إنَّ حاستي لم تخُنِّي أبدًا، وأنا أشعر أني مُقبِل على خطر داهم، وأحتاجك إلى أن تعرف مكاني باستمرار، وأنا متأكد أنه ليس هناك أفضل من جهاز «التتبع النانوي» ليقوم بمثل هذه المهمة.

ارتبك «معتز» وتبدت حيرته على هيئة ضحكة قصيرة قبل أن يقول:

- الجهاز يستطيع تحديد مكانك طالما تنقلت في عالمنا، لستُ مسئولًا عنك إذا ما قررت القيام بمغامرة في عوالم أخرى.

- ما التقنية المستخدمة لنقل الإشارات من داخل جسدي إلى حيث الجهاز، كي يمكِّنك من تحديد موقعي؟

- يا صديقي، ما بالك هذه الليلة؟ هذه تقنية حديثة للغاية ولم نكشف أسرارها بعدُ. ربما لن تفهم ما سأقوله.

كرر «سعد» سؤاله في حزم:

- ما التقنية يا صديقي؟

- «القوة الكهرومغناطيسية في الأثير». لم نشأ أن نعتمد على الأقمار الصناعية التي يمتلكها غيرنا.

بدت الراحة على صوت «سعد»، واتفق معه أنه سيمر عليه غدًا في الخامسة صباحًا كي يحقنه بالجهاز، ثم يذهبان معًا إلى السجن لتنفيذ حكم الإعدام على المجذومين.

جلس بعدها هادئًا ساكنًا، وكأنه ليس هناك.. وحيدًا شاردًا ينظر من نافذة بيته.. يشعر أنه سيخرج غدًا بلا عودة.

أمطار غزيرة، لها زجل مدوٍّ.. يبدو أنها تحاول أن تخترق الزجاج..

لأول مرة يؤرِّقه همار المطر، واهديداره..

لم يعد يحتمل وقعه..

حمل نفسه وحزنه إلى خارج منزله، ووقف في حديقته، علّه يهرب تحت جوَرِّ الأمطار الغزيرة، من ارتطام قطراتها بزجاج بيته.

كوَّر قبضتيه، مسدلًا كتفيه وهو ينظر إلى الأرض المبتلة..

خُيِّل إليه أنه يسمع دردرة سيل مندفع نحوه..

الأمطار لم تحنُ عليه..

بل بللته تمامًا..

وقف تحت النجوم، وقمر يعافر السحاب..

رفع رأسه إلى السماء، فردته الأمطار، فأغمض عينيه..

هرع «آنو» خلف سيده تحت المطر، يجذبه من بنطاله ليعود به إلى الداخل..

لكن سيده أبى ذلك..

كانت تجتاحه مشاعر فيَّاضة جيَّاشة..

كان يتمنَّى أن يعود بحياته إلى مسار يرضيه..

يترك عمله، يؤسس مشروع المزرعة الذي طالما حلم به..

يتركه من يريدون الثأر منه وشأنه..

لا يريد أن يتربَّص به الموت كل يوم..

يحتاج إلى زوجة ترعاه، وابن يكون له سندًا..

لماذا بَقي هذا حلمًا فقط؟!

لا يفهم..

رفع رأسه إلى السماء مرة ثانية..

فتجافت عنه، مخاصمة، بأن وارت قمرها خلف غمامة بيضاء.

سمع جماعات من العقبان تزعق في السماء ببعضها البعض، كي تعود إلى حيث أتت..



جذبه «آنو» مرة أخرى، ليعود للداخل، وهو يعوي بصوت خفيض منكسر، وكأنه يستجدي سيده..

استجاب له «سعد»، وعاد أدراجه إلى الداخل. لم يجفف ثيابه، فقط اكتفى بأن خلع قميصه، وجلس عاري الصدر، شعره مبتل، غير مرتب، وجسده تنحدر عليه قطرات المياه النقية الآتية من السماء مباشرة.

أزال ما عليه من ملامح رهق، بعث من عينيه نظرة جلد.

عليه الآن القيام بأمر مهم.. يجب أن يُعد عدته لتنفيذ حكم الإعدام في الصباح على «١٠» مُذنبين مرة واحدة!

هذه هي أكبر عملية إزهاق أرواح سيقوم بها في وقت واحد..

رقم قياسي لم يسبق له مثيل..

ولكن هذه المرة، سيكون الأمر مرهقًا للغاية؛ فهو لا يستطيع أن يستخدم الحبل أكثر من «٣» مرات، حسب مواصفات الاستخدام، ما يستدعي أن يستخدم أربعة حبال. عليه أيضًا أن يُعد مقاس الحبل ليلائم كل رقبة. بالتأكيد سيكون الأمر مرهقًا، وسيستغرق عدة ساعات. هناك أمر آخر سيزيد من تعقيد التنفيذ. المذنبون جميعهم مرضى، بمرض مخيف.. الجُذام.

ذلك المرض اللعين الذي تسببه بكتيريا «باسيللوس»، ويرجع عمره إلى أكثر من «٤٠٠٠» سنة. ما قيل له: إنه ظهر فجأة على المذنبين، من دون مقدمات أو فترة حضانة اعتيادية - التي تتراوح، في المعتاد، بين خمس وسبع سنوات.

شغَّل جهاز الكمبيوتر الخاص بـه، ونقـر عـلى ملـف «الإكسيل»: «سجل الأرواح المسلوبة». ثم شرع في تسجيل البيانات الآتيـة، قاصـدًا الصفوف من رقم: «٦٥٧» وحتى «٦٦٦».

«٢١ جرامًا»

الرقم	التاريخ	الاسم	مذنب/ بريء
٤٥٦	١٠ يناير	إكرامي يعقوب	مذنب
٥٥٦	١٥ يناير	صابر جلال	مذنب
٦٥٦	٢ فبراير	سيد الأسيوطي	انتحر، لم أعرف
...	...	...	...
...	...	...	...
٦٦٦	٧ فبراير	أسامة البرادعي	

حدسه أنبأه، وهو يُدخل بيانات الخانة رقـم «٦٦٦» أنهـا سـتكون آخر خانات جدوله. وضـع جهـازه جانبًـا. مـلأ صـدره بهـواء الغرفـة البارد. ثم أسند رأسه على ظهر مقعده، يداعب خاتم معلمه في إصبعه، وكأنه يلتمس منه الأمان، حتى غاب عن وعيه، ليدخل بعـدها في حلـم يقظة جديد.

رأى نفسه يقف إلى جوار «السكينة»، ممسكًا بها، ينتظر لحظة التنفيذ ليسحبها، فتنفتح الضلفتان الخشبيتان، ويسقط المحكوم عليه بالموت إلى البئر العميقة..

كان يؤدي دوره المعتاد: يسأل الشخص الماثل أمامه، الذي يرتـدي زيًّا أحمر وغطاءً أسودَ، يُخفي من ورائه وجهه كله:

- «نِفسك في إيه؟».

سمع صوتًا غريبًا، وإجابة أغرب:

- «نفسي أقتلك».

وبينما تُفتح الضلفتان ويهوي الرجل، تتحول دائرة حبل المشنقة إلى عداد مؤشره يستقر على ثلاثة حروف، دائمًا حيَّرته حقيقة ماهيتها: «ووو». فجأة استيقظ. هذه أول مرة يشعر أن هذه الحروف لها معنى. هرع إلى جهازه، ليرى الرقم الأخير، الذي سجله: «٦٦٦»

مال برأسه قليلًا إلى جهة اليمين، ليعيد قراءته بالمقلوب. وأدرك في هذه اللحظة أن حدسه، كان صادقًا، تمامًا..

كالعادة.

(٣٨)

ترك «عزت» حجرة الاجتماعات مغاضبًا، ودلف إلى مكتبه داخل الصرح العملاق المطل على النيل، الذي تعتلي قمته لافتة عملاقة تحمل اسم مجموعة شركات «الملّاح & عقرب».

تبدّل مزاجه العام، مع الإهانة التي وجهها له «سعد» أمام طليقته التي يسعى إلى استعادتها. الرجل مليء بالغرور والتكبر والتعالي الأجوف.

هذه هي أول إهانة حقيقية طوال عمره تنال منه.

هو الطفل المدلل - ولا شك - الذي وجد كل شيء يريده في هذه الحياة طوعًا لإرادته. لا يحتمل أن يحدث له هذا. المشكلة الأكبر أن الجنون الذي انتابه، منذ لقائه «سعد»، يتنامى من دون توقف، حتى تحول إلى وحش عملاق بداخله، يأبى أن يستكين، أو ينصت لصوت



العقل، بل يوسوس له بفكرة واحدة، وبإصرار: «سعد» يجب أن يموت.. ما عاش ولا كان مَن يحطُّ مِن كبريائه..

نعم.. «سعد» يجب أن يغادر الدنيا، وربما «مريم» - أيضًا - إن اقتضى الأمر. إن لم يحصل عليها هو، فلن يحصل عليها أي رجل آخر إذًا. لم يُخلق بعدُ من يجرؤ على إذلاله أو من ترفضه. ما فعله به كلاهما، بالنسبة له، كان وجهين لعملة واحدة. ولكن قبل أن يقتله، لا بد أن يجثو تحت قدميه، طالبًا الصفح والعفو.

جنون عظمة، وكبرياء مهلكة.. هذا هو «عقرب» في أربع كلمات.

أعطى الإذن لطارق الباب بالدخول. مديرة مكتبه تسأله إن كان على استعداد لاجتماعه [illegible] فهز رأسه بمعنى «نعم».

لحظات وتقدم داخل حجرته [illegible] رجل في عقده الخامس، ينعم بصحة وافرة، رياضي القوام، [illegible] قصير، حليق من الجانبين، ملامحه جافة قاسية حادة، يبدو كقائد قوات لفرقة مقاتلة. أشار له «عزت» بيده أن يجلس، وقال:

- «نِسر».. لقد كنت بانتظارك.

«سِرَاج نِسْر»، ضابط متقاعد من القوات الجوية. بعدما أنهى خدمته مبكرًا، استغل مكافأة نهاية الخدمة في تأسيس شركة أمن «الحارس الخاص»، التي تقدم خدمات حراسة مميزة لأصحاب القوة والنفوذ. سرعان ما تغلغلت وتشعبت علاقاتها، حتى أصبحت لها علاقات وطيدة مع شركات أمنية عالمية لها نشاط مشبوه، مثل «بلاك



ووتر» التي كانت تقدم أفرادها كجنود مقاتلين في أماكن مختلفة من الشرق الأوسط، كالعراق وليبيا والصومال. يقال إن شركة «الحارس الخاص» هي ذراع «بلاك ووتر» في مصر. يتردد أيضًا أن شركته لديها تسليح يماثل قوة صاعقة، من دبابات ومدافع، بل وحتى صواريخ مضادة للطائرات.

لم يكن هذا كل شيء؛ فلقد توغل «سراج نسر» في تجارة السلاح وأنشأ شبكة من الجواسيس داخل المؤسسات الأمنية، لكنه كان، في السنوات العشر الأخيرة، وما زال، رجل «عقرب» المخلص والمسئول عن تأمين كل شيء يملكه، حتى حياته الشخصية.

دخل عامل البوفيه حاملًا كوبين من القهوة، وخرج من دونهما.

قال «عزت» وهو يتناول فنجانه:

- أريدك أنت، شخصيًّا، معي، على رأس فريق خاص، لنقتنص «سعد العشماوي». فهذا الحقير تطاول عليَّ. أريده تحت قدمي يقبِّلها ويطلب الصفح قبل أن آخذ روحه. سأعدمه. سيموت بالحبل. ولن أغطي رأسه بطاقية سوداء. أريد أن أرى الموت والذعر في عينيه.

- اعتبر هذا أمرًا مقضيًّا. رجالي يراقبونه كظله، أنت تعلم أن «سعد» في هذه الأثناء يواجه المجذومين. رجالنا داخل السجن أكدوا لي أن «سعد» قد ابتلع الطُّعم منذ ثوانٍ. وحتى إن نجا من المواجهة داخل غرفة الإعدام، سنحضره من منزله.. لا تقلق.

برقت عينا «عزت» في توحُّش، وهو يقول:

- هل تعلم مَن سيرافقنا؟

ظل تساؤل من عيني «نسر»، لم يدُم طويلًا مع تصاعد طرقات أخرى على باب حجرة المكتب الواسعة، دلف بعدها «فَرَّاس» في خطوات واثقة. ضيَّق «نسر» عينيه ملقيًا نظرة متفحصة على الشاب الغريب.

لقد رأى هذا الوجه من قبلُ، ولكنه لا يتذكر أين ومتى. ابتسم «عقرب» وهو يشير إلى الشاب بالجلوس:

- هل رأيت هذا الوجه من قبل؟

اتسعت عينا «نسر» لحظة في ذهول، لم يلبث أن أخفاه بحرفية، من وراء قناع بملامح ثابتة، لكن إثارته ظهرت في نبرات صوته على شكل كلمة خاطفة، متسائلة، تنتظر من يؤكدها:

- «الحطَّام»؟!

ظل الشاب على صمته ولم يُجِب تساؤله. بينما قال «عقرب» في زهو:

- اسمح لي أن أتحدث نيابة عنه؛ فهو لا يتكلم إلا قليلًا. هذا هو «فَرَّاس الحطام»، ابن الرجل العظيم.

- أنت ابن «الحطَّام»؟!

لم يبدُ على الشاب أنه سمعه، ما دعا «نسر» إلى أن يوجه سؤاله هذه المرة إلى «عقرب»:

- هل هو بخير؟

- نعم هو بخير.. لكنه يتحدث فقط عندما يريد. المهم، «فرَّاس» سيرافقنا في خطواتنا المقبلة. هو أيضًا يريد أن يثأر من قاتل أبيه.

- هذا إن لم يغادر «سعد» غرفة الإعدام إلى قبره، بعد ساعات.

ألقى نظرة أخيرة على «فرَّاس»، ثم وضع راحتيه على فخذيه في حركة لا إرادية وهو يستعد للمغادرة. وبمجرد أن أدار ظهره للجالسين، متجهًا ناحية الباب، سمع صوتًا يقول، وكأنه يأتي من بئر سحيقة:

- «سعد العشماوي» سينجو من المجذومين.. لن ينالوا منه بشكل تام.

وضع «فرَّاس» القلادة الخنفسية، التي يرتديها، موضع قلبه، وتابع وهو يغمض عينيه، في خشوع، وكأنه يصلي:

- لا أكذب.. لا أغش.. لا أخدع.. وقلبي طاهر.. بريء.

تسمَّر «نسر» في مكانه، واتسعت عينا «عقرب» في دهشة.

ما قاله «فرَّاس» ما هو إلا «تعويذة» من كتاب الموتى. وخنفساء القلب كانت مجرد خديعة يستخدمها الأموات، حينما يخشون أن تكشف قلوبهم بعد موتهم عمَّا اقترفوه من خطايا آثمة وهم أحياء في أثناء المحاكمة؛ حتى تساعدهم كي يعبروا هذه المرحلة إلى الخلود.

لكن الذي أدهش «عقرب» لم يكن «التعويذة»، بل «الصوت»!



فالصوت الذي تحدث به «فَرَّاس» كان صوت شخص آخر..

شخص لم يتوقع أن يُسمع صوته في هذا المكان..

صوت «سعد العشماوي».

ظل قلبه يتواثب داخل صدره، وهو ينظر إلى «فَرَّاس»، الذي عاد هادئًا ينظر إلى الأرض وكأنه لم يتكلم..

(٣٩)

داخل حجرة ملحقة بالسجن، في تمام الساعة السابعة إلا الربع صباحًا، جلس «سعد» على دكة خشبية صغيرة، مسندًا مرفقيه على فخذيه، مخفيًا وجهه براحتيه، مغمض العينين. لم يغمض له جفن طيلة الليلة الماضية. هناك شعور عام يعتريه بالقلق ويؤرقه. لن يمر هذا اليوم بسلام. تعلَّم أن يثق في حاسته بعدما أثبتت صحتها في أكثر من موضع، بصورة تكاد تكون شبه ثابتة.

اقترب منه عامل البوفيه وهو يضع أمامه كوبًا من الشاي لم يطلبه، ورحل من دون أن يزعجه. تناول «سعد» الكوب بين راحتيه، ليبثّ فيهما بعض الدفء، وارتشف منه رشفة، ثم غرق مرة أخرى في أفكاره.

لم يكن الأمر مريحًا في البداية؛ فحينما تكتشف في نفسك أمرًا خارقًا غير مألوف، لن يستوعبه عقلك في بادئ الأمر، ستقول لنفسك إنها

مصادفة، أو ربما إنك تخيَّلت هذا. ثم يتكرر الأمر. فتلقي لنفسك بعذر آخر. المهم، ستستنفد الأعذار كلها، وفي أكثر من موضع، قبل أن تصدقها فعلًا..

لم يكن تأثيره الإيحائي على الآخرين، والقدرة على التنويم المغناطيسي، هما الموهبتين الأساسيتين، بل كان منتجين جانبيين، تطورا داخله في مرحلتين فاصلتين، المرحلة الأولى كانت: «الخاتم» الذي أخذه من معلمه، ولحظة إعدامه «الحطَّام». المرحلة الثانية: بعد عدد كبير من الأرواح المسلوبة تجاوز الستمائة. هنا تبلورت القدرتان الخارقتان: قراءة أفكار المقبلين على الموت، وفي بعض الأحيان كان يرى مشاهد كاملة..

ربما غرفة.. مكانًا.. شخصًا..

كان يستغل هذه الموهبة في رد المظالم إلى أصحابها، وإعادة توزيع أموال السارقين على مصارف الخير، بطريقته الخاصة.

وحينما وقع «صابر»، رجل «أدهم الملَّاح»، تحت يديه ليعدمه، كان هو بداية الخيط الذي تتبعه ليعرف الطريق إلى «كنز الأسرار» الذي سيوصله إلى معرفة ستفيد البشرية أجمعين. وحتمًا وقوعها في أيدي هؤلاء الفسدة سيزيد الطين البلة. لن يدخر وسعًا في أن يمنعهم عمَّا ينوون، وليحصل هو على هذه الأسرار.

فذهب إلى قصر «الملَّاح» ليزرع أجهزة تصنته في كل مكان.

ويعرف الكثير، والكثير.

- «سعد».. هيا بنا، قد حان الوقت.

انتزع «سعد» من شروده صوتُ مأمور السجن، فرفع إليه عينين مرهقتين، ما دعا المأمور أن يسأله في قلق:

- «سعد».. هل أنت بخير؟

هز «سعد» رأسه بمعنى «نعم» وهو يقوم من مكانه، يدير أصابعه في أرق فوق عينيه المغمضتين، وكأنه يستحثهما أن تظلا مفتوحتين؛ فهو لم ينم ليلته، وذهب مباشرة في الفجر إلى «معتز»؛ ليزرع جهاز «التتبع النانوي» داخل جسده.

اقترب منه مأمور السجن، ووضع راحته فوق كتفه، قائلًا:

- هذه هي أول مرة أراك على هذه الحالة. هذا الصباح سيكون شاقًّا ومرهقًا. عشر حالات إعدام كلها مصابة بحالات متطورة من الجذام. إذا لم تكن مستعدًّا لهذا الأمر فأعرِب عن هذا الآن.

ربت «سعد» على ظهر الرجل في قوة، وهو يتقدمه في إصرار، قائلًا في حزم وأدب، كعادته:

- شكرًا لاهتمامك.. أنا بخير.. لا تقلق.

- بالمناسبة، تحدث إليَّ مديري المباشر هذا الصباح، ليخبرني أن حالات الإعدام هذه قد تكون هي آخر حالات إعدام في جمهورية مصر العربية، مؤقتًا.

توقَّف «سعد» في الممر الضيق فجأة، فتوقف المأمور خلفه. دار بجسده ليواجهه بعينين متسائلتين، ليتابع المأمور مفسرًا:

- الموضوع الذي أثارته «مريم الصواف» في حلقتها هيَّج الرأي العام، وجاءت نتيجة التصويت بأغلبية ساحقة لإيقاف العقوبة. عندها تحرك كل شيء بسرعة: قانون سيناقَش أمام البرلمان، حقوقيون، ومحامون يرفعون قضايا. لم يُحسم شيء بعدُ. لكن الأمور تبدو وكأنها ستسير في اتجاه إيقاف العقوبة مؤقتًا، حتى يتم البت في شأنها.

هذا الأمر الأكثر احتمالًا، ولكن الأيام المقبلة ستكشف لنا إن كان هذا صحيحًا أم لا.

لوهلة غمرت «سعد» مشاعر غير مفهومة، وهو يستدير من جديد، ليعاود تقدمه نحو غرفة الإعدام..

شعور غريب أن تنتفي الحاجة لما تقوم به..

فمنذ عشر سنوات لم يعرف مهنة سوى هذه..

على الرغم من أن البيتين اللذين ورثهما عن أبويه كانا يكفيانه: منزل يعيش فيه، وإيجار الآخر يؤمن له دخلًا معقولًا.. لكنه كان يعمل؛ لأن كلًّا منا يريد أن يكون له دور في هذه الحياة.

لم يجُل بخاطره - أبدًا - أن تتوقف هذه المهنة، في يوم من الأيام..

لكنه بالتأكيد لن يعمل بسواها..

إذا تم إيقاف عقوبة الإعدام فسيتقدم باستقالته، وينال معاشًا مبكرًا. وربما يفعل الأمر الآخر، الذي طالما شغفه حبًّا: مزرعة، يزرع فيها الثمار ويربي فيها الماشية ويبيعها.

وربما عليه أن يفكر في الزواج.. هل سيظل طوال عمره ينتظر الموت على أيدي من يريدون الثأر منه؟

فقد يأتي أمر الله ويحين أجله قبل أن يتمكنوا هم منه.

هو لم يجد من تقبل الزواج منه، وهو يعمل قابض أرواح..

فقد حاول مرتين، لكن الإجابة كانت مباشرة بـ«لا»..

هناك أصلًا من رفضوا مقابلته..

وهناك من اشترطت عليه أن يترك مهنته.

لكنه لم يكن أبدًا الرجل الذي يقبل أن يُملي عليه أحدٌ شروطه..

أيًا من كان..

لهذا أسقط موضوع الزواج من حساباته، حتى إشعار آخر، لكن يبدو أن هذا الـ«آخر» قد حان أوانه.

وصل الآن إلى داخل غرفة الإعدام الكئيبة.

بدا التوتر على وجوه كتيبة الإعدام، بسبب طبيعة المرض. كان أول سؤال له من إدارة السجن: كيف ينوي أن يتعامل مع هذه الحالات؟

وكانت إجابته بعشرة أكياس بلاستيكية بطول جسد رجل بالغ، وكمامات على الأنف والفم، لجميع من سيوجدون داخل حجرة الإعدام. هذه الاحتياطات، التي ابتدعها، كان الغرض منها فقط هو التهدئة النفسية للموجودين داخل الغرفة وإزالة الشكوك من قلوب



كتيبة الإعدام. الإجراءات الشكلية، التي لا تقدِّم ولا تؤخِّر، تكون مفيدة في بعض الأحيان.. هو يعرف هذا جيدًا.

«معتز وهدان» قام بدوره كما ينبغي؛ فقد سبقه إلى الغرفة ووضَّح للكتيبة أن المرض غير مُعدٍ ولا ينتقل بسهولة.

كان الأشخاص العشرة يقفون الآن داخل الأكياس البلاستيكية، تظهر بدلاتهم الحمراء من تحتها، لكن وجوههم جميعها كانت تظهر من وراء الغطاء الرقيق الشفاف..

وجوه مخيفة.. مرعبة.. حالات متقدمة من الجذام، لم يرَ «سعد»، وأعوانه، مثلها من قبلُ. تشوهات رهيبة.. فهناك من سقطت عيناه، أو جزء من أنفه، شفتيه، أذنه.. ومن تآكلت المسافة بين شفته العليا وأنفه، فيقترب شكله أكثر من الأسد، مع تساقط الشعر وشعيرات الجفون.. ومن تآكل الجلد تحت عينه، فظهرت العين كبيرة مخيفة وكأنها تحدق على الدوام. إلى جانب الكثير من التقرحات الحمراء.

هذه التشوهات أدت إلى تلف الألياف العصبية، وفقْد الأعضاء وظيفتها؛ ففَقَدَ الجلدُ الإحساسَ وشُلَّت بعض عضلاتهم.

كانت الإجراءات صارمة، بخصوص هذه الحالات العشر. وطيلة مدة احتجازهم، تم عزلهم، ليتناولوا ثلاثة عقاقير في وقت واحد، كما أوصت منظمة الصحة العالمية، هي: «ريفامبيسين» و«كلوفازيمين» و«دابسو».. عقاقير تؤدي إلى أن يفقد المريض قدرته على العدوى.

وعلى الرغم من هذه الاحتياطات والتدابير كلها، خيَّم القلق والوجوم على كل وجوه كتيبة الإعدام..

بل وعلا الخوفُ بعضَها أيضًا..

ما عدا شخص واحد..

«سعد».

وعلى الرغم من ثباته وقسوة ملامحه وصرامتها، التي تبثُّ الرعب في قلوب من سيقتنص أرواحهم، فإنه بدا مرهقًا للغاية. هذه هي أول مرة يراه أفراد كتيبة الإعدام على هذه الحالة من الضعف، الأمر الذي زاد من توتر ورهبة الموقف بحق.

وفي داخل البئر المظلمة، التي لا تتجاوز الأمتار الأربعة، وقفت كتيبة الإعدام، المكونة من ١٢ عضوًا، أمام الجناة..

هذه المرة أيضًا، ولأول مرة، منذ أن بدأ «سعد» عمله، يجتمع مع الكتيبة «مُفتٍ» و«قسيس» في اللحظة نفسها؛ لتعدُّد ديانات الجناة..

بالإضافة إلى ممثل الطب الشرعي، وممثل عن النيابة، ومأمور السجن، وعدد آخر برفقتهم.

بدأت الإجراءات الاعتيادية عندما شرع المأمور في قراءة ملف القضية، من بداية دخول القسم، والمحضر، وحتى لحظة النطق بالحكم.

ونظرًا لأن المتهمين العشرة قد حُكم عليهم في ظروف القضية نفسها، فقد تقرر، في إجراء استثنائي، أن تتم قراءة ملخص القضية مرة واحدة فقط، حتى يتم الانتهاء من عملية الإعدام في أسرع وقت.

وقف المتهم الأول بين مساعدي «سعد»، والمأمور يقرأ:



- بسم الله الرحمن الرحيم..

إن الحكم إلا لله، هذا وقد أعلنت محكمة جنايات القاهرة حكمها، في قضية خلية الآثار والتجسس، المتهم فيها عشرة متهمين؛ لقيامهم بالتخطيط لسرقة آثار الدولة وبيعها لأجانب، وتأسيس وإدارة جماعة تنظيمية تجسسية، على خلاف أحكام القانون.

هذا وتشير المحكمة إلى بعض ما ورد بأسباب الحكم:

فلقد كانت غاية العقوبة هي إصلاح المجتمع وتحقيق الردع للمفسدين، وإن هؤلاء المتهمين ثبتت التهم المنسوبة إليهم بالأدلة.

وقد ذكرت المحكمة المضبوطات التي تم ضبطها قِبل المتهمين.

وبعد الاطلاع على المواد «٣٠٤ و٣٠٩» من قانون الإجراءات، و«٣٠ و١٣٧» مكرر، و«٢٤١ و٣٦١ و٣٩٧» من قانون العقوبات، و«١٦٥» لسنة «١٩٨١»، والمرسوم بقانون رقم «٦» لسنة «٢٠١٥»، قررنا أولًا، وحضوريًا، بمعاقبة كل من المتهمين «طارق طه عبد السلام»، «جرجس الكاشف»، «عادل عوض شحتة»، «بسام إبراهيم»، «مينا السيد»، «رامي محمد»، «نبيل محمد»، «عبد المنعم كامل»، «سيد دسوقي»، «أسامة البرادعي»، بالإعدام شنقًا.

صدر الحكم برئاسة المستشار «شعبان الهادي»، والمستشارين «عبده الأحمداوي» و«هاني صادق»، بأمانة سر «محمد جاد».



هنا تحرك القاتل الشرعي «سعد»، لينفذ حكم القانون، وفي يده الغطاء الأسود.. وكعادته، قبل وضع الغطاء حول رأس المتهم، يقف أمام وجهه، وينظر إلى عينيه..

هذه المرة رأى تعبيرًا غريبًا لم يفهمه، ولم يدرِ إن كان سببه أن وجه الرجل مشوَّه بطريقة بشعة أم لا، ما جعل تعبير وجهه يظهر بهذه الصورة؛ فالرجل لم يكن يبالي، بل بدا وكأنه يتحدى الموت ويرغب في مقابلته، وهذا أمر غير مألوف؛ فالإنسان العادي عند لحظة الموت يعرف قيمة الحياة، ويقدِّرها أيَّما تقدير. والمحكوم عليه بالإعدام هو الوحيد الذي يتم تحديد ساعة وفاته، وبدقة.

رأى «سعد»، خلال مشواره العملي، كثيرين أصابهم شلل، وإغماء، بل هناك من فقد الرؤية على الإبصار، ومن تبوَّل على نفسه أمامه من شدة هول تلك اللحظة.

وكان دائمًا ما يغالب تأثره، ويظل يردد داخل عقله أن هؤلاء قد ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا الناس، حتى وصل بهم المطاف إلى هذه البئر المظلمة.

سأل «سعد» الرجل في صرامة:

- «نِفسك في إيه»؟

نظر له الرجل في كراهية وغلٍّ شديدين، ثم أجاب أغرب إجابة يتوقعها أحد في غرفة الإعدام، خصوصًا «سعد»:

- نِفْسي أقتلك!

كان صوت الرجل يشبه الفحيح، ويضغط على حروف كلماته في قسوة، حتى إنه بوصوله إلى حرف «الكاف»، صدرت معه طرقعة ورنة خاصة، تعالت بعدها همهمات استنكارية، مصحوبة بدهشة، بين أفراد كتيبة الإعدام، بسبب إجابة الرجل. بينما ظل «سعد» جامدًا لم تُجل وجهه أي علامات، فتُبرز حمم البركان، الذي فار داخل أعماقه. اختلس نظرة لا إرادية إلى أقرب إنسان لقلبه داخل الغرفة.. صديقه الوحيد «معتز»، الذي بادله نظرة مطمئنة، مشجعة، حاول بها أن يشد من أزر صديقه. على الرغم من أن إجابة المجذوم كانت صادمة له شخصيًا..

تجاوز «سعد» الموقف بطريقة عملية، كمحترف، ثم وضع الغطاء الأسود على رأس الرجل، وصعد به فوق «الطبلية»، التي من تحتها «الضلفتان»، تنتظران الإشارة، عندما يسحب «سعد» السكينة، لإرسال الرجل إلى العالم الآخر، فتتخاصمان وتتجافيان مبتعدتين، ليسقط جزء من جسد الرجل في البئر المظلمة، ليبدأ معها رحلته الطويلة الشاقة في عالم الأموات.

لم يستطِع «سعد» أن يرى أي شيء داخل عقل الرجل. ربما كان هذا سببه إرهاقه الشديد وارتفاع درجة حرارة جسده التي تتزايد كل لحظة عن التي تسبقها.

تكرر الموقف بصورة مطابقة، مدهشة، مخيفة، ومقلقة أيضًا، في حالات الإعدام الثلاث الأولى.. الموقف نفسه، والكلمات ذاتها..

لا يقرأ شيئًا في عقولهم. لكنه بدأ يرى مجموعة من الهلاوس.



وكما خطط «سعد»، شرع في تغيير الحبل، الذي لا يُستعمل سوى لتنفيذ ثلاثة أحكام فقط، لكي لا يتجاوز عمره الافتراضي.

ليبدأ تنفيذ الحالة الرابعة.

وتكرر الموقف أيضًا في هذه المرة. «سعد» يشحذ حواسه وتركيزه أكثر وأكثر، حتى يستطيع أن يرى أي شيء لحظة الإعدام.

سحب ذراع «السكينة»، وفي رحلة هبوط جسد المجذوم الرابع داخل البئر، ولكسر من الثانية، تراءت له تلك الصورة التي احتلت ذهن الرجل بالكامل.

لتنتفض معها كل ذرة داخل جسد «سعد»..

وتمنى أن يكون ما يراه هلاوسَ..

فالصورة كانت لوجه يعرف صاحبه جيدًا جدًّا..

بل كان يعرفه بصورة شخصية..

وآخر شخص يخطر على باله، ويتوقع رؤيته..

على الإطلاق.

(٤٠)

وقف «جيداليا» بين مكتبي «ملهم» و«مميز»، أسفل هرم «القمر، والشمس»، في مركز قيادة «أوميجا». بدأ حديثه بسؤال:

- هل توصلتما إلى شيء في مهمة تتبع الأنسال الملكية للقدماء المصريين؟ ما المنهج الذي اتبعتماه في بحثكما؟

أجابه «مميز» من دون أن ينظر إليه، وعقله ووجهه مُعلقان بشاشة جهازه:

- هناك فارق جوهري بين المنهج القديم ومنهج بناء شجرة العائلة في العصر الحديث؛ فالمنهج الحديث يمكن تنفيذه بعدة أشكال؛ فمثلًا: أن تشمل شجرة العائلة جميع المنحدرين مباشرة من الجد الأول، أو جميع الأجداد المعروفين لشخص حي، ويمكن أيضًا أن تشتمل على تقسيم جنسي، مثل خط المنحدرين الذكور. وثمة نهج آخر، هو رسم

شجرة تحتوي على جميع أصحاب منصب معين، مثل ملوك «ألمانيا»، وهذا الأخير يعتمد على الزواج الوراثي للحفاظ على تماسك الروابط بين السلالات.

أما لكي تعرف حجم الدور المعقَّد الذي نقوم به نحن الآن، فنحن نحاول أن نعود إلى الوراء «٣٠٠٠» سنة، إلى ما قبل الميلاد!

سكت لحظة، ليتناول رشفة من كوب العصير إلى جواره، ثم تابع:

- إن المصريين القدماء لم يعرفوا تسجيل تاريخهم في أُسرات متعاقبة؛ لهذا تم الاتفاق على دراسة تاريخ «مصر القديمة» بالشكل الذي وضعه الكاهن المصري «مانيتون السمنودي» في عصر الملك «بطليموس الثاني» (٢٨٤ - ٢٦٤ق.م)، عبر إحدى وثلاثين أسرة، تبدأ بالأسرة الأولى، وعلى رأسها الملك «مينا»، حوالي سنة «٣١٠٠ق.م». وتنتهي بعودة «الفُرس» إلى مصر، مؤسسي حكم الأسرة الحادية والثلاثين والأخيرة، حوالي عام «٣٤٣ق.م»، التي استمر حكمها حتى دخول «الإسكندر الأكبر» مصر، في عام «٣٣٢ق.م»، وهي السنة التي تتحدد بها نهاية تاريخ مصر الفرعونية، وبداية تاريخ مصر الهيلينستية، ولقد بنينا برنامجًا خاصًّا لتتبع خط الذكور، معتمدين على ما قام به من عمل هذا الكاهن العبقري..

ليكمل «ملهم»، كعادتهما كلما اجتمعا، و«جيداليا» ينقل بصره بينهما حائرًا، من دون أن يولياه وجهيهما، المنعكفين على شاشاتهما:

- بعد أن تتبَّعنا الأنساب، عبر عهد الأُسرات، انتقلنا إلى العصر اليوناني (عهد البطالمة)، ووصلنا إلى «العصر الروماني»، حينما أصبحت

مصر أهم ولايات الإمبراطورية «الرومانية» في سنة «٣٠» قبل الميلاد، ثم دخول «المسيحية» في منتصف القرن الأول الميلادي، حتى دخول «الإسلام» مصر في عهد «عمر بن الخطاب»، بقيادة «عمرو بن العاص»، في سنة «٦٤١م»، مرورًا بالعصر «الفاطمي»، ووصولًا بالعصر «العلوي»، في عهد «محمد علي»، حتى ثورة «عرابي» التي انتهت باحتلال «بريطانيا» لمصر عام «١٩١٤»؛ لتنهي تبعيتنا للدولة «العثمانية»، فعهد «الجمهورية» و«الثورة»، فـ«الجمهورية الثانية»، ثم انتقلنا إلى «دار الوثائق المصرية والمحفوظات» في القلعة، وتحديدًا داخل «قصر عابدين».

أنهى حديثه، ليتابع «مميز» وهو يشير إلى شاشة جهازه:

- ونحن الآن على وشك اقتحام شبكة البيانات الخاصة بدار الوثائق.

سأله «ملهم»:

- هل انتهيت من تطوير «سبايدر» للبحث؟

- نعم.

- حسنًا، ضاعف عدد الأسماء إلى «٥٠٠» ضعف.

ضغط «مميز» عدة أزرار في سرعة، بينما ترك «ملهم» جهازه ووقف بمحاذاة «جيداليا» يتطلعان من فوق كتف أخيه إلى شاشته، التي ارتسمت عليها شجرة نسب، طويلة، معقدة، متشابكة، وهو يقول في فخر:



- شجرة العائلة الملكية هذه تضم أكثر من «١٠٠» جيل، وبها ثلاثة ملايين اسم.

استدار «مميز» وهو يضرب قبضته بقبضة أخيه، ويقول في سعادة موجهًا حديثه لـ«جيداليا»:

- هذا عمل يستحق الدخول في موسوعة «جينيس»، إن أطول شجرة عائلة في العالم، اليوم، تخص الفيلسوف والمعلم الصيني «كونفوشيوس»، حوالي ٥٠٠ سنة قبل الميلاد، هو من سلالة «تانج كينج» تعود إلى «١٦٠٠» سنة قبل الميلاد، وهي تمتد لأكثر من «٨٠» جيلًا، وتشمل أكثر من مليوني عضو.

قال «ملهم» في غرور وتعالٍ:

- ونحن كسرنا هذا الرقم، وعُدنا إلى «١٠٠» جيل و«٣» ملايين اسم.

تألقت عينا «مميز» وهو يشير بسبابته، في حركة مسرحية:

- الآن، وبضغطة زر واحدة، سيظهر لك اسم آخر شخص في عصرنا الحالي، ويمتد نسله إلى الأسرة المصرية الحاكمة التي بنت الأهرامات.

ثم ضغط على زر الإدخال وهو يقول:

- بووووم!



وقف ثلاثتهم يحبسون أنفاسهم، منتظرين ما تؤول إليه نتيجة البحث.

أظلمت الشاشة ثواني، قبل أن يظهر اسم في منتصفها تمامًا، بحروف ذهبية.

ردد «جيداليا» الاسم في بطءٍ، وتساءل:

- «مَالِك عبد الجبّار»؟! مَن هذا الرجل؟

استدار «مميز» إلى شاشة جهازه، وهو يبحث داخل شبكة جهاز الإحصاء السكاني. سادت دقيقة من الصمت، قبل أن يقفز في مكانه من الدهشة، ما أقلق «جيداليا»، فسأله:

- ما الأمر؟ أنت تثير أعصابي!

- هذا الرجل تُوفي منذ عشر سنوات، وكان له ولدان من الذكور، لكنهما توفيا صغيرين!

(٤١)

تيبّس «سعد» في مكانه، وظلت يداه معلقتين بالسكينة، لا تبرحانها..

لقد أربكته الصورة التي رآها في عقل الرجل.

«مَالِك عبد الجبّار»..

المُعَلِّم..

معلمه، وأستاذه في الصنعة.. الجلاد الأول..

وبحركة لا إرادية، تحسَّس الخاتم الذي يستدير حول بنصره، والذي أهداه إياه..

شعر بأن هناك من يضع يده على كتفه، فانتفض جسده في عنف، ما جعل «معتز» يقول، وهو يُبعد يده عنه بسرعة:

- آسف يا صديقي إذا كنت قد فاجأتك.. ماذا بك؟ أنت ثابت لا تتحرك منذ دقيقة كاملة.. هل أنت على ما يرام؟

في الحقيقة «سعد» لم يكن على ما يرام أبدًا، بل كان في حال يُرثى لها. قال مأمور السجن:

- يبدو أن «سعد» لن يستطيع الاستمرار؛ فلنكمل تنفيذ الأحكام في وقت آخر.

ليجيب ممثل النيابة:

- أخشى أن هذا أمرٌ سيسبب مشاكل أكثر. كما تعرف، الدنيا قامت علينا ولم تقعد، منذ برنامج «مريم الصواف». لقد أبلغني النائب العام أن الأمور تسير بشكل جدي نحو تعطيل عقوبة الإعدام مؤقتًا..

ونحن لا نستطيع تنفيذ الحكم بشكل جزئي، إن...

قال «سعد» مقاطعًا، وبشكل حاسم:

- أنا بخير.. سنكمل تنفيذ الحكم، حتى آخر رقبة.

«سعد» لم يكن يبالي سوى بمعرفة المزيد. هؤلاء العشرة كانوا في الموقف نفسه. لربما أكمل أحدهم المشاهد الناقصة..

عمِل على تنفيذ بقية حالات الإعدام، لكن هذا لم يُزِده إلا رهقًا، حتى بدأ يشعر أن الوقوف على قدميه عملية بالغة الصعوبة.

خطرت له خاطرة! كوب الشاي الذي ناوله إياه عامل البوفيه، هو لم يطلبه. إن ما يمر به الآن مستحيل أن يكون مجرد إرهاق.. يبدو أن أحدهم نصب له فخًّا محكمًا.

تحامل على نفسه، ومرت الحالتان الخامسة والسادسة..

تكرار ممل رتيب للحالات نفسها..

جميعهم «نِفسهم يقتلوا سعد»، وهو لم يستطِع أن يرى أي شيء مما كان داخل عقولهم. فقط هلاوس غير مترابطة..

ولإعيائه الشديد، وعدم تركيزه، نسي أن يغير الحبل بعد ثلاث حالات.

فاقترب منه مساعده، وذكَّره بأنه من المستحسَن أن يبدِّل الحبل، وإلا فلربما ينقطع. هذه هي مواصفات السلامة على أي حال..

أطاعه «سعد».

هذا أوان الحالة السابعة. شحذ كل قواه العقلية وهو يجذب السكينة، وفي رحلة هبوط الجسد، برقت الصورة..

فعلقت يداه مرة أخرى على السكينة، وهو ينظر إلى أمامه، يكاد يثقب الحائط ببصره..

فالصورة هذه المرة كانت مألوفة..

شخص يشبه «الحطَّام» تمامًا، ولكنه بدا أكثر شبابًا، حليق الرأس، بلحية بنية قصيرة، وقلادة على هيئة خنفساء على صدره..

هو متأكد أن هذا الوجه هو وجه «الحطَّام». الأمر الذي زاد من حيرته وارتباكه، وقلقه..

لكنه هذه المرة كان أقدر، وأسرع، في السيطرة على مشاعره، حتى لا يجذب انتباه مَن حوله.

وجاءت الحالتان الثامنة والتاسعة، ولم تضيفا أي جديد..

فقد كان لهما الأمنية نفسها: أن يقتلا «سعد»، لكنه لم ينجح في أن يرى أي شيء مما دار داخل عقليهما.

تنهَّد الجميع الصعداء وهو يعد عدته للحالة العاشرة، الأخيرة.

وللمرة الثانية، يذكِّره مساعده أنَّ عليه أن يبدِّل الحبل، لكنه ولأول مرة، ولربما لشدة وهنه ونصبه، تحوَّل ما به من كلالة إلى شرود وعدم تركيز. لديه الآن رغبة عارمة في أن ينهي الحالات بأسرع وقت، سيسقط مغشيًّا عليه لا محالة بعد قليل. الرؤى كلها أصبحت مشوشة أمام عينيه. قرر أن يستمر بهذا الحبل الذي لم يجف الموت من عليه، وقال:

– إن هي إلا رقبة واحدة وننتهي من هذا كله. ولعلها كانت آخر حالة إعدام كما يدَّعون.

أطاعه مساعده ولم يعقِّب، لكنه لم يمنع نفسه من التعجب.

فهي المرة الأولى التي يتخلى فيها «سعد» عن إتقانه الشديد لعمله وتفانيه، لكن رأى ما به من لُغُوب ومعاناة، ثم إن لكل جواد كبوة. و«سعد» إنسان، معرَّض للخطأ والنقصان، مهما بلغت استقامته وإخلاصه وحبه للوصول إلى أعلى درجات الكمال.

بدأت الإجراءات المعتادة للرقية الأخيرة.

كان «معتز» قلقًا بشدة. صديقه يبدو في أسوأ حال. هو متأكد أنه يعاني أمرًا ما. شحوبه الواضح، وما به من بُلُوح.

لا شك في أن رفيق عمره يمر بأزمة صحية، وعليه أن يتولّى هو هذا الشأن. ولكن فلينتهوا من هذه الحالة، بعدها سيأخذه إلى المستشفى في فحص سريع..

رأى «سعد» يفقد اتزانه أمام عينيه، فيستند بيده على جدران غرفة الإعدام، ويبدو أنه لم يستطع أن يقف أيضًا؛ فقد رأى مساعده يحاول أن يسنده، وآخر يجذب مقعدًا ويقرّبه منه. إلا أن «سعد» رفض أن يبدي عجزًا، بعناده الشهير، رفض أن يجلس وحاول أن يتماسك، لكن قدميه خذلتاه، فجلس على المقعد، الذي كان له بمثابة طوق النجاة من أن يسقط أمام الأعين.

مرقت، بصورة مباغتة، في ذهنه صورة الإكتهاب والمرض اللذين حلّا بـ«مالك عبد الجبار»، من دون مقدمات، أيضًا، ليلة قبض روح «الحطّام»، ليترقى هو مكانه.. هل هي مصادفة؟

فاختلس نظرة إلى الرجل المجذوم «أسامة البرادعي»، فوجده يصوّب نظرة نارية إليه، وهو يضع يده اليسرى فوق يده اليمنى، التي تآكلت ووقعت منها ثلاث أصابع.

هذا الوحش المجذوم يكاد يفترس «سعد» بنظراته.

ما هذا؟!



لقد ظنَّ أن يديه مكبلتان!

أغمض «سعد» عينيه، وهز رأسه في قوة، وفتحهما، فوجداهما مكبلتين مرة أخرى!

يبدو أن الحمَّى بدأت تولد مزيدًا من الهلاوس والهذيان.

تبادل كل مَن بداخل الغرفة النظرات في قلق على حال «سعد».

والجو المقبض انتقل من فراغ الغرفة إلى داخل القلوب، والعكس.

اقترب «معتز» من صديقه، وهو يمد إليه يديه، ليشد من أزره ويوقفه على قدميه.

كان الإجهاد يعصف بصديقه، ويسحبه حثيثًا من باحة الوعي إلى خندق الهذيان. نظر إليه «سعد» بعينين شاكرتين ضعيفتين، وعرق غزير يتصبب على جبينه، وهو يمد يده إليه في ثقل ومشقة من وطأة الإجهاد، شعر معها «معتز» بارتفاع دجة حرارة جسد صديقه بطريقة مقلقة، فوضع يده على رسغه، كي يتحسس نبضه.. لاحظ سرعة غير عادية في النبض، فقال لـ«سعد» بصوت خافت:

- يبدو لي أنك تعاني الحُمَّى، وها هو جسمك يحاول أن يكافحها، ما زاد من سرعة بعض معدلات جسدك الحيوية. ارتفاع الحرارة وسرعة النبض ليسا كل شيء. الحمَّى الشديدة تؤثر أيضًا على جهازيك العصبي والهضمي. بدرجة حرارة عالية كهذه، ستهذي بعد قليل. علينا أن نتوقف الآن. يجب أن تتخلى عن العناد.

«سعد» لم يكن بحاجة لمن يقول له هذه الأعراض؛ فهو يعانيها ويكابدها جميعًا. عليه أن ينصت لصديقه. رأى «معتز» على وجهه ما يدل على أن «سعد» سينصاع أخيرًا لنصيحته.

فجأة، انبعثت كلمات داخل الغرفة غيّرت مجرى الأمور!

– ربما عليك أن تنصت إلى زميلك أيها الرجل؛ فأنت ميتٌ ميت، لا محالة. لماذا تسرع من نهايتك إذًا؟ تمهَّل قليلًا؛ فهي آتية لا ريب فيها.

صوَّب جميع مَن في الحجرة أعينهم في دهشة ناحية «المجذوم» الأخير، الذي ما زال على قيد الحياة، بعد تفوُّهِه بهذه الكلمات؛ ليروه يراقب ما يمر به «سعد»، خائر القوى، في شماتة وابتسامة مخيفة تعتلي وجهه المتآكل، بدا معها وجهه كوحش شيطاني مخيف..

بل مسخ قادم من لظى.

الأمر الذي جعل «سعد» يَعْدِل عن قراره. كان الألم يفور في ملامحه، لكنه نحت، كذبًا، صرامةً على وجهه، وهو يبث في جسده دفقة أخيرة من الطاقة، انعكست على لمعان عينيه، ثم اتجه في خطوات واثقة ناحية المجذوم، وسأله قبل أن يضع الغطاء الأسود على رأسه:

– «نِفْسك في إيه»؟

– أتمنى الموت؛ لأنه يعطيني الحياة.. أنا هو، وهو أنا.. أننا فرس الأراضين وصقر السماوات.

تسمَّر «سعد» في مكانه، كأن على رأسه الطير، ولم يحرِّك ساكنا. و«المجذوم» الأخير يتابع، وبلهجة مخيفة، الكلمات نفسها التي سمعها، في الموقف نفسه، مع أول حالة إعدام منذ عشر سنوات:



- اسمك «سعد العشماوي»، وأنا آخر روح تقبضها، أؤكد لك أنك ترتكب أكبر خطأ في عمرك كله. اترك هذه المهمة لغيرك، وغادر هذه الحجرة، ولا تعُد إلى هنا أبدًا؛ فأنا أحب القوة والأقوياء، وأشم فيك رائحتها، وأكره أن أراك تدمر نفسك بنفسك. ستكون نهايتك بالحبل إذا انتهجت هذا الدرب، بإرادتك. سينسونك بعد موتك يا «سعد»، لا أحد يبكي على أحدٍ طويلًا هذه الأيام.

هزَّ «سعد» رأسه مستنكرًا، وغشيته الدهشة. لا يصدق ما يسمعه. هذه هي الكلمات نفسها التي قيلت له على لسان «الحطَّام»، وحُفِرت في وجدانه، في أثناء تنفيذ حكم الإعدام على الأخير.

الاختلاف الوحيد كان - فقط - استبدال كلمة واحدة: «آخر» التي حلت محل «أول»!

ولأول مرة، منذ أن عرف «سعد» في نفسه مقدرته غير العادية، التي يرى بها أفكار المقبلين على الموت، بعد جذب «السكينة»، يرى داخل عقله، قبل جذبها، وعلى غير العادة، أمرًا ما.

كان يرى مشهدًا غريبًا، وهو ينظر إلى عيني المجذوم..

شيخ يرتدي زيًّا بدويًّا يقف داخل مغارة، والشاب الأصلع، النحيف، الذي له ملامح «الحطَّام» نفسها، يرقد بلا حراك، مغمض العينين، داخل دائرة، محيطها ثعبان يلتهم ذيله. ورجل يرتدي السواد، يقف فوق رأسه، يتلو كلمات تخرج من فمه بسرعة رهيبة، وكأنه يفرم الحروف فرمًا، وهو يتمايل للأمام والخلف، كنخلة تكابِد إعصارًا. هذا



المشهد لم يكن له سوى تفسير واحد: هذه جلسة شيطانية، لربما كان الغرض منها هو تحضير الأرواح.

كان «سعد» ما بين مصدق ومكذِّب لما يرى؛ فلقد رأى أمورًا غريبة في عقول الكثيرين، لكن هذا كان أغرب ما رآه حتى الآن.

وضع «سعد» الغطاء الأسود فوق رأس المجذوم، الذي قال له متحديًا:

- سأنتشي بأن أرى الموت في وجهك يا «عشماوي»، ولَيكونن آخر ما أرى في عينيك هو ذعرك. سألمح «الحطَّام» في خوف عينيك وأنا أشنقك بيدي.

قرر «سعد» أن يتجاهل ما يقول فم المجذوم، فشحذ كل تركيزه، محاولًا أن يستجمع كل قواه العقلية، ليرى ماذا سيقول له عقل هذا المجذوم بعد جذب السكينة؛ فهو كل ما يريد أن يعرف.

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يمسك بها ليسحبها، لكنه تردد لثوانٍ..

ماذا لو كان «معتز» على حق؟ هذه الحمَّى التي أصابته أثَّرت على جهازه العصبي. هل ما رآه حتى اللحظة حقيقة أم خيال.. واقع، أم هلوسة حمَّى؟ هل هناك من يستحضر روح «الحطَّام» في هذه اللحظة؟ وهل هذا أمر جائز الحدوث؟ هو لا يؤمن بذلك على أي حال.

حسم تردده وسحب «السكينة»؛ لتحدث مع ذلك ثلاثة أمور متزامنة..



أول هذه الأمور، كان تكرارًا لنفس ما حدث لحظة إعدام «الحطَّام»؛ فقد جُرِحت يده في الموضع نفسه، وتساقطت منها قطرات الدماء.

وبينما كان «سعد» يرفع كفه ليرى الجرح، الذي انفتح بعد عشر سنوات، كان ثاني هذه الأمور يحدث؛ فقد رأى وجهًا غير متوقعٍ، لم يستوعبه من الوهلة الأولى..

فقد رأى وجهه..

بل وجهًا يشبهه تمامًا..

وجهًا مفقودًا، لم يرَه منذ عشرة أعوام.. وقد أوحشه كثيرًا.

كان هذا أخيه التوأم: «سليم العشماوي»..

أما الأمر الثالث، الذي جعله يفقد تركيزه، فهو انقطاع الحبل.

احتياطات الأمان تنص على أن يستعمل الحبل ثلاث مرات فقط، لكن هذا لا يعني أنه بالضرورة أن ينقطع مع الاستخدام الرابع! لكن هذا ما حدث، وهذه هي الدنيا.. عليك أن تنتظر منها الاحتمال الوحيد الذي لا تتمنى أن يقع!

وشاهد الجميع جسد «المجذوم» يسقط عبر الضلفتين، داخل البئر المظلمة، مع انقطاع الحبل. كان أسرعهم حركة هو «سعد»، الذي لم يعد يشغله سوى أن يعرف المزيد عن أخيه..

«سليم العشماوي».

فتحت كتيبة الإعدام عيونهم على أقصى اتساع، وهم يتابعون «سعد» الذي ركض في اتجاه البئر، وقفز داخلها في جرأة وإصرار..

التفَّ كل من كان بداخل حجرة الإعدام حول البئر، ليراقب ما يحدث في الأسفل.

كان المجذوم ما زال على قيد الحياة، وقد نجح في تحطيم قيوده الجلدية، وعندما رفع الغطاء الأسود من على وجهه، كان «سعد» يمسك بتلابيبه، وهو يقول في صرامة، محاولًا أن يستجمع قواه:

- مَن أنت أيها الأحمق؟ من أين لك أن تعرف أخي؟ أين هو؟

كان أفراد كتيبة الإعدام يشاهدون ما يحدث عبر البئر، والكل يخشى الاقتراب من هذا المجذوم، الذي تخلَّص من قبضة «سعد» المنهك في سهولة، ورفع جسده وألقى به أرضًا على التربة الرملية، ليسقط على ظهره في عنف، من دون حراك، ويرتفع من حوله الغبار..

وبينما يتقدم المجذوم ناحية «سعد»، الذي بدا للجميع أنه فقد وعيه، كانت عينا المجذوم تتسعان في توحش، وهو يرفع رأسه إلى أعلى، لينظر للجميع في شماتة وشراسة..

ومن دون سابق إنذار..

وبصورة مباغتة مفاجئة..

انغلقت الضلفتان!

ولم يعد أحد من أفراد كتيبة الإعدام بِقادر على أن يرى ما يدور بالأسفل، لكنهم أضحوا غير مستبشرين بما سوف يؤول إليه الحال.



فقد كان آخر ما رأوه من علي، قبل أن تلتحم الضلفتان لتحجبا عنهم الرؤية، المجذوم وهو يتجه بخطوات ثابتة نحو «سعد» فاقد الوعي، ثم يركع إلى جوار رقبته، على ركبة واحدة، فيجذبه من تلابيبه كي يرفع رأسه عن الأرض، ويلف الحبل المقطوع حول عنقه..

لينتزع روحه خنقًا..

ويسطر نهايته بالحبل..

كما أنبأه «الحطّام» من قبلُ، ووعده بها «المجذوم»!



(٤٢)

داخل أروقة أكبر استوديوهات «مدينة الإنتاج الإعلامي»، أضخم الصروح الإعلامية في الشرق الأوسط، يوجد مجمع خاص، مُقام على مساحة «١٢٠٠» متر مربع، وبتكلفة «٧٥» مليون جنيه، إلى جوار وحدة التحكم الرئيسية للقمر الصناعي العربي «نايل سات». يحتوي هذا المجمع على استوديوهين، تابعين لقناة الخبر الفضائية؛ حيث كانت «مريم الصواف» تعبر الممر الرئيسي المؤدي إلى مكتب مدير المحطة؛ حيث ينتظرها، مع المدير الإقليمي المسئول عن الشرق الأوسط، للخدمات الإخبارية العالمية، في هيئة الإذاعة البريطانية، ومدير التسويق لمدينة الإنتاج الإعلامي.

تتلقى عبارات التهاني والحبور مِن كل مَن يقابلها؛ فلقد حققت نجاحًا، آخرَ، مدويًا، يُضاف إلى نجاحاتها المتعددة، أسفر عن مدى تأثيرها وتأثير برنامجها على الرأي العام.

لقد أصدرت أعلى هيئة قضائية في مصر أمرًا بتعطيل عقوبة الإعدام مؤقتًا، حتى تتم إعادة صياغة المواد القانونية والدستورية المتعلقة بها؛ فقد كانت نتيجة التصويت النهائية في الاستفتاء، عبر برنامجها، أكثر من ٩٠٪، بعدم استمرار العمل بالعقوبة، من أكثر من «٣٠» مليون مصوِّت. التقط، بعد ذلك، طرف الخيط، الحقوقيون وبعض المحامين والنواب المتحمسين، في مجلسي الشعب والشورى، وجهة الإحصاء الرسمية للدولة، لتقييم إحصائي موثق للرأي العام، ونسب التصويت البرلمانية، الأمر الذي أدَّى في الأخير إلى تحريك المياه الراكدة نحو تعطيل العقوبة لحين البت في شأنها.

دخلت إلى مكتب مدير المحطة، الذي هنأها، ما جعل وجهها أكثر إشراقًا وتألقًا..

لكنها لم تكن تشعر بسعادة كاملة..

بل اعترتها مشاعر متضاربة..

يا تُرى، كيف سيكون رد فعل «سعد العشماوي» حينما يعلم بالخبر؟! وبقي هذا سؤالًا حائرًا في عقلها.



(٤٣)

انغلقت الضلفتان وانعدمت الرؤية تمامًا عن أفراد كتيبة الإعدام، وكان آخر ما رأوه: المجذوم يحاول أن ينتزع روح «سعد»، فاقد الوعي، بالحبل شنقًا. خيَّم الوجوم والصمت داخل الحجرة، بينما لم تفارق الوجوه علامات الجزع قلقًا على مصير زميلهم فاقد الوعي بلا حول ولا قوة، بين يدي من لا يرحم. كان أسرعهم سيطرة على مشاعره هو «معتز»، الذي صاح في مساعد «سعد»، يأمره بأن يجذب السكينة كي تُفتح الضلفتان من جديد..

اندفع المساعد، منتفضًا، ليلبي الأمر، وكأنه عاد من عالم آخر، وسحب الذراع، ثم..

لا شيء!

لم تُفتح الضلفتان!



- ماذا هناك؟!

قالها مأمور السجن وهو يتقدَّم ناحية السكينة، التي يحاول أن يجذبها المساعد، مرة أخرى، من دون جدوى. حاول مرتين، قبل أن يقول المأمور وهو ينظر إلى «معتز»:

- لا أدري ما الذي يحدث بالضبط.. السكينة لا تعمل.

كان وجه «معتز» محتقنًا، غاضبًا. زادت ضربات قلبه وهو يتجه نحو السكينة ويجذبها بكل عزمه، وهو يقول:

- لقد أضعنا وقتًا ثمينًا.. هذا وقت كافٍ ليقضي هذا المجذومُ على «سعد».

لم تستجِب له السكينة، فصرخ غاضبًا وهو يجذبها:

- أيتها الملعونة، استجيبي.

فاقتلعها من مكانها، لكن الضلفتين استجابتا أخيرًا، وانفرجتا..

تحرَّك أفراد كتيبة الإعدام كنملٍ منزعج، ناحية البئر، فطأطأوا رؤوسهم، مترقبين، متلهفين شغفًا، وهم يلتفون حولها.

لتنتفض القلوب، وتصدر الحناجر أصواتًا متحسرة..

لقد فات الأوان!

و«معتز»، الذي انفلتت دمعة ساخنة من عينه، وهو يرى المجذوم و«سعد» ممددَين بلا حراك متقابلي الرأسين، والحبل يلتف حول رقبة كل منهما.



ولا روحٌ هناك، ولا أي أثر لحياة..

الأثر الوحيد على رمال البئر كان لإقدام الموت، الذي ولّى منذ زمن قريب جدًّا.. لكنه لم يولِّ وحيدًا..

بل كان في جعبته..

روحان.

(٤٤)

ظلامٌ حالكٌ يلف المكان. لا يرى «سعد» فيه كفَّي يديه، وهو يسير في ممر ضيق له رائحة عطنة، يتحسس طريقه، محاذرًا. يده تلمس جدارًا لا يراه، لكنه يلتمس منه بعضًا من الهدي، وبعضًا من الأمان، وكأنه صغير يتعلق بأبيه..

يغمره التعب والإرهاق، وعرق غزير.

ضعف شديد ينتابه، لا يدري ما أصابه، وكأنه فقد السيطرة على كل خلية داخل جسده، بل كل ذرة منه..

شعر بخوف جارف، لم يستشعر مثله طوال حياته. قلبه ينكمش داخل صدره. يعضُّ على ضلوعه عضًّا. تثاقَلَ الهواء داخل صدره حتى صار عبئًا عليه. تضاءلت صورته أمام نفسه وشعر أنه مخلوق ضعيف بلا حيلة، وليس له قيمة..

مضغه القلق، ولاكه الحزن، فأصبح لقمة سائغة جاهزة للبلع.

فبكى.. لا يدري ما يبكيه.

لكنه شعر أن عليه أن يبكي، علَّ بعضًا من الذي بداخله، ويسبب له هذا الضيق كله، يخرج فيتطهر منه.

لم يستطِع المضي قدمًا، فترنح تعبًا، والتفت ساقه اليمنى باليسرى فتعثر. ترك نفسه لحزنه كي يسقطه أرضًا، فانكفأ على وجهه بين ذراعيه الممتدتين إلى أمامه. كانت الأرض موحلة، فتلطخ وجهه..

وحلٌ، أسود، سميك، ثقيل، لزج..

حاول أن يقف على قدميه من جديد، مرتكزًا على كفيه، لكنه سقط..

أراد مرة أخرى، لكنه سقط.

آمل.. ابتغى.. رجا.. طلب، لكنه أخفق، فخاب، فعجَز، ففشل..

كل مرة تفشل المحاولة..

ويسقط على الأرض الطينية الوحلة.

فاستسلم.

وظل في مكانه يبكي، وجسده كله يهتز من الألم..

مرت حياته، برقًا، كسرب طيور مهاجرة داخل عقله..

كلما يجد نفسه أمام خيار أذنب فيه، يزداد ضعفًا..

يزداد وهنًا على وهن..

يزداد نحيبًا وبكاءً..

وقلة حيلة..

لازمه دومًا شعور أنه على سفر، يحمل زاده معه. لا ينبغي له أن يفرغ حقائبه..

هو ذلك المسافر الذي عليه أن يظل على أهبة الاستعداد كي يرتحل.

تذكَّر أحلامه التي رسمها لنفسه. لم يحقق منها شيئًا، فلم تهبه إلا حزنًا. تبخرت أفكاره، وشردت كقطيع بلا قائد، حينما انفصل جزء من الظلام وتشكل أمام عينيه، ثم سمع ذلك الدبيب.

هي أصوات أقدام، تتقدم نحوه..

أناس يقصدونه، ومن أفواههم يصدرون أصواتًا مخيفة..

فرفع رأسه بوجهٍ ملطخ بسواد الوحل، في ضعف، وجسد ممدد على الأرض، لا يقوى على أن يقف على قدمين.

والذي يراه – الآن – أمام عينيه، مشهد جلل، مخيف، بدا له معه أن كل ما مر به حتى اللحظة وكأنه لم يكن..

فهذه بداية مرحلة جديدة، ومرعبة.

يجاهد أن ينكر قلبه ما تراه عيناه.. يكذب ما تسمعه أذناه.

لمع الخوف داخل عينيه كبرق عاصف، أضاء الظلام لوهلة.

فرأى حشدًا غفيرًا من الرجال والنساء.. عرفهم جميعًا. تتزاحم في رأسه أسماؤهم. هم من أعدمهم شنقًا بالحبل.

كلٌّ يرتدي البدلة الحمراء، وبدلًا من اللافتة التي تحمل رقم السجين، حملت اللافتة كلمة واحدة: «بريء».

عرفهم «سعد» واحدًا واحدًا..

ينظر إليهم مذنبًا.. معترفًا لهم بمقارفته إثمًا..

هؤلاء هم الأشخاص نفسهم، الذين حوى ملف الـ«٢١ جرامًا»، كلمة: بريء أمام أسماءهم

بريء.. مذنب..

ليسا سواءً.

أما الأصوات التي تصدر من حناجرهم، فهي طرقعة تحطُّم الترقوة.. تنفُّسهم مرعب..

فهم يختنقون..

يسمع منهم آهات سكرات الموت..

كل منهم يحمل حبلًا حول يديه، يرفع رأسه وعينيه للأعلى، وقد مالت رقبته المكسورة على يمينها، أو يسارها..

الحالة نفسها التي شُنقوا عليها..

توقفوا جميعًا على بُعد خمسة أمتار منه..



وتقدَّم أولهم ناحيته، يجر حبله خلفه، فيخط على الأرض الطينية أثرًا، وكأنه يذيِّلها بتوقيعه. فيتجاوز رأسه، ويستدير ليواجه زملاءه، ثم يدلي الحبل حول عنقه.

- أظنَّ القاتل ألَّن يقدر عليه أحد؟

هاج الحشد، وماج، بهذه العبارة. ثم صاحوا في نفس واحد:

- لا مفر.

فيشعر بالحبل يلتف حول رقبته خشنًا مؤلمًا، وهو يضيق حول عنقه، فيحس بكل آلام الاختناق. يحاول أن يتعلق بإيهاب روحه، يشدها إليه أن تبقى.. ينتظر خلاصًا لا يجيء.. رفرفت راية الموت.

خلت دنياه من الهواء رويدًا رويدًا، ضاق صدره، على رسله، مهلًا مهلًا، وكأنه يصَّعَّد إلى السماء. غابت عنه الحياة، على هونٍ، كعمر مضى وانقضى، فلم يتبقَّ منه سوى ذكريات حزينة..

عرف أنه يذبل في سرعة.. أدرك انسحاب الحياة من جسده.

ثم وكأن الروح تُعاد إليه من جديد، فقط ليقوم التالي بالمهمة نفسها..

إعدامه.

فيموت، وتبث الروح داخل جسده، من جديد..

فيُعدم..



ويموت..

ويبعث..

فيعدم..

مائة مرة..

وحاله ليس على ما يرام.

(٤٥)

ارتطمت حبات المطر المتساقطة، في تلك الليلة الصَهْبَاء، من الغيوم المطيرة والمنهمرة بين السحاب الوبيل، بزجاج النافذة التي يقف وراءها «معتز وهدان». بينما مالت شواشي النخلة القريبة من مدخل المستشفى الخاص الذي يملكه، وبالتحديد، عند مستوى الطابق الأول الذي توجد فيه حجرة العناية المركزة.

وبينما كانت الريح الشمالية العَصيَّة، تتناوح، كناسفات الترب بالأذيالِ، مُعْلِنةً عن وجودها بين فينة وأخرى، بصريرٍ كالفحيح، تزامنًا مع هزيم الرعد، الذي برق وانعكس لمعانه على وجهه المرهق ألتَعِب، مرتين متتاليتين، ليُلقي بعضًا من الوضح على الطريق المظلم، الممتد أمام عينيه، فيعوِّض غياب القمر التام - لحظيًّا - الذي توارى، في خجل، خلف السحب المُثْقَلة، فيتسنى مع وضحه، لمن ضلوا الطريق، أن يهتدوا على قبسٍ عابرٍ من ذلك السنا، فيروا الطريق الذي أمامهم..

لم يغمض له جفن، منذ أن عاد بصديقه من السجن إلى المستشفى وهو في حالة أقرب للموت منها إلى الحياة. أدار ظهره إلى النافذة، ثم اتجه إلى السرير الطبي الوحيد داخل الغرفة، الذي يتمدد عليه جسد «سعد»، المتصل بمحاليل وأسلاك شتى تخرج منه وإليه.

جلس على المقعد المجاور للسرير، وهو يغمض عينيه من التعب. لم يشعر عندما مال عليه «شعبان»، الممرض، في حذر، يحاول ألَّا يزعجه، ولكن على الرغم من ذلك، انتفض جسده، ما دعا «شعبان» إلى أن يعتذر في سرعة، وينبئه أن هناك زائرة تود أن تطمئن على «سعد». التفت «معتز» بعينين مرهقتين إلى «مريم الصواف» وهي تدلف من باب الحجرة، في خطوات خجِلة مترددة، تعتلي وجهها علامات القلق. بادرته قائلة، وهي تختلس نظرة ناحية «سعد»:

– كنت أحاول الاتصال به، لأعتذر له عن الحوار الصحفي؛ فقد طلب مني إعادة «مَنتجة» الحلقة، وجئت أُطمئِنه أن صورته لن تُعرض بعد اليوم في أي إعادة. هل هو بخير الآن؟

لم تكن بحاجة لإجابة «معتز»؛ فالرجل أمامها يسحبه القلق، ويطلقه زفيرًا. هزَّ رأسه في أسى، وقال وهو يشير بعينيه ناحية «سعد»:

– هو في غيبوبة تامة منذ أن عُدنا به من السجن. لقد اختنق وتم منع الأكسجين عن عقله تمامًا لمدة طويلة. نجحنا في إعادته للحياة بصدمات كهربية. هذا ليس كل شيء؛ هناك آثار سم قاتل يجري في عروقه، هناك من حاول أن يقتله، لكننا نجحنا في إخراج السم من جسده. منذ ساعة بدأ يغيب عن الوعي حينًا، ويفيق. جسده يرجف،



كلماته مختلطة غير مفهومة، لم ينطق إلا ليردد اسمًا واحدًا: «سليم»، أخوه المفقود منذ عشر سنوات.

تبادل معها قلقه، فنظرت ناحية وجه «سعد» البريء، كصبح وليد، مرة أخرى، الذي بدا خاليًا من الحياة تمامًا، ساكنًا بلا حراك، صورة نقيضة لذلك الشاب المفعم بالحياة والقوة والحضور والسيطرة، التي عرفته بها. فقدت السيطرة على مشاعرها، وانحدرت دمعة صامتة على وجنتها، وقلبها ينفطر ألمًا.

كانت تعرف أنها تحبه، منذ أن وقعت عيناها عليه. ولكن المشاعر قد تظل كامنة دفينة حتى يحدث ما يوقظها. ها هو الآن ممدد بلا حراك، وقد لا يعود للحياة من جديد. ربما لا تواتيها الفرصة أن تُفصح له عن مكنونات قلبها. ودت لو يعود لوعيه دقيقة واحدة لتقولها له. حالها كحال كثيرين، لم يبوحوا بما يشعرون لمن يحبون، حتى جاءت النهاية، فظلت مشاعرهم حبيسة قلوبهم للأبد.

أما «معتز» - الذي لم يفهم سر بكائها - فناداها باسمها متسائلًا:

- أستاذة «مريم»؟

أربكها سؤاله؛ فقد أنساها مرأى «سعد» أنها ليست بمفردها داخل الغرفة، فمسحت دموعها وقالت في لهجة معتذرة نادمة:

- لقد آذيت «سعد» مرتين من دون قصد: مرة بتعرُّضي لقضية حكم الإعدام، واقتحام خصوصيته. والمرة الثانية: حينما وضعته مع «عزت عقرب» في مواجهة. لا أستبعد أن يكون السم الذي جرى في

عروقه نتيجة لها. لقد آذيت هذا الرجل، ولم أفعل هذا مع أحد من قبلُ ولكن من دون قصد. أود أن يستيقظ لأعتذر له وأطلب منه أن يسامحني.

- لا تقلقي، «سعد العشماوي» يمتلك روحًا بيضاء مبتسمة، دائمًا كحاج أنهى توّه وقوفه يوم عرفة. لم أعرف قلبًا متسامحًا مثله قط. هذا الرجل ظلمه الناس، ونفر منه الكثيرون، وابتعدوا عنه لأنهم لا يعرفون معدنه، هو رجل من نوع خاص. القوة كلها والحنان كله يمتزجان داخل قلبه. أنا متأكد أنه سيسامحك. لقد اعتاد أن يسامح ويغفر مهما بدر من الآخرين تجاهه. صدِّقيني أنا عاشرته سنوات وأعرف جيدًا مَن أتحدث عنه.

صدح داخل الغرفة رنين هاتفه بنهاية عبارته، فقال معتذرًا لها وهو يغادر الغرفة:

- عليَّ أن أجيب على الهاتف.. هذا هو الضابط «هيب».

خرج «معتز» ودخل بدلًا منه قط صغير الحجم، قفز مباشرة فوق سرير «سعد»، وجلس إلى جوار قدميه، ثم استكان.

نظرت «مريم» إلى هذا القط الغريب، لم تعرف أن «سعد» يمتلك قطًّا. ابتسمت دامعة وهي تتذكر كيف تمسَّحت قطتها «ميريا» في قدم «سعد» أيضًا. وعندما تذكرت قطتها وكيف أنه احتضنها بين كفيه في حنان، تمنت أن تحتويها ذراعاه أيضًا.



فاقتربت من جسده بلهفة الصائم على الماء، مرَّغت عينيها في وجهه، وقلبها ينتفض عشقًا ولوعًا، وعيناها تئنَّان دمعًا، وكل ذرة في جسدها ترتجف، ولم تهدأ ارتعاشة يدها إلَّا عندما وضعتها على كفه. لم تشعر بنفسها وهي تفقد سيطرتها، فتقبِّل جبهته، في حب، وتهمس له في أذنه، وهي تريح خدها على خده:

- «سعد».. أنا أحبك كما لم أحب رجلًا من قبلُ.. أنت الرجل الذي أتمنى أن أقضي معه بقية عمري.. أرجوك سامحني.. لم أقصد أن أجرحك أو أؤذيك.

بُحَّ صوتها، بسبب انفعالاتها التي طغت عليها، وهي تتشبث أكثر وأكثر بصدره القوي، ودموعها تذرف بلا حدود.

أما «معتز»، الذي كان قد أنهى مكالمته عائدًا إلى داخل الغرفة، فقد تسمَّر في مكانه، وهو يرى «مريم» على هذه الحالة. ما شعرت به، بل لم تعد تشعر بأي شيء في الوجود سوى «سعد». فهم سريعًا أنها قد هامت عشقًا بصديقه، فلم يكن من الملائم أن يدخل الحجرة، فيحرجها.

جاءه الممرض «شعبان» يركض، وهو يقول في ذعر:

- يا دكتور.. يا دكتور.. مصيبة.

- ماذا هناك يا «شعبان»؟ لقد نلتُ حظي من المصائب اليوم.

بلع «شعبان» ريقه، ثم قال وهو يلهث:

- «النذير» دخل عند «سعد» بيه.. ربنا يستر.. هذا القط لا يرقد سوى جوار من شارفوا على الموت.



- يا أخي كف عن الجهل وحياة والدك.

وكأن القط يربأ بما سمعه من «شعبان»، فقرر أن يغادر الغرفة في هذه اللحظة من بين أقدامها. أخذ يسير في تؤدة وثقة، وكأن لا شيء في هذا الوجود قادر على أن يعكّر مزاجه.

لكمه «معتز» في كتفه معاتبًا وقال:

- أرأيت؟! ستدفع ثمن علاج هذا القط لو أصابه الاكتئاب من جرَّاء ما تطلقه عليه من شائعات مغرضة..

قطع حديثه، ثم هرع إلى داخل الغرفة، ومن خلفه «شعبان»، على أثر صوت «مريم»، التي نادت باسم «سعد» في فرح، وكان أول ما طالعه، داخل الغرفة، هو وجه «سعد» الذي عادت إليه الحياة، بعينين مشرقتين وابتسامة حنون.

(٤٦)

بعد مرور ساعتين، كانت «مريم» قد غادرت بعدما اطمأنت على «سعد»، وذهب «معتز» ليستريح قليلًا؛ لأنه لم ينَم منذ أن عاد بصديقه من السجن.

جلس «سعد» وحيدًا شاردًا، على سريره الطبي، انتزعه مِن أفكاره مَن يدفع الباب برفق. قط صغير، وقف على باب الغرفة ينظر له، وكأنه يطمئن عليه. ابتسم «سعد» إليه، وأشار له بمعنى أن يقترب. دنا منه القط حتى استقر تحت قدميه مباشرة، ولم يبرحهما..

نظر «سعد» إلى القط الصغير في دهشة واستغراب. لقد زار «معتز» في مستشفاه كثيرًا، ولم يبالِ به هذا القط أبدًا، بل كان يتجنبه تمامًا. يعرف أن هذا القط سمعته ليست حسنة. يطلق عليه العاملون في المستشفى اسمًا حركيًا: «النذير». كانوا يقولون إن هذا القط ينجذب كالمغناطيس لمن هم مقبلون على الموت، وكأنه يشمُّ رائحته.

دخل «شعبان»، فوجد القط يجلس مرة أخرى تحت قدمي «سعد» في استكانة وصبر. حاول أن يبعده، لكنه لم يبدُ عليه أنه مستعد للتفاوض، بل ظل ثابتًا راسخًا، فحمله «شعبان» إلى خارج الغرفة وتركه. إلا أن القط عاد في إصرار، ليجلس تحت قدمي «سعد» من جديد.

حكَّ «شعبان» رأسه في حيرة وتعجب وقال:

– سترك يا رب.. «سعد».. هل أنت على ما يرام؟

– أنا بخير.. أين «معتز»؟ أريد أن أغادر المستشفى إلى البيت.

– لا وحياة والدك. انتظر الدكتور «معتز» حتى يأذن لك. قال إنه سيغفو ساعتين في حجرته ويعود بنفسه ليطمئن عليك.

نظر «سعد» إلى ساعته فوجد أن عليه أن ينتظر صديقه لأكثر من ١٠ دقائق، كان أيضًا يحب الحديث إلى «شعبان»؛ فمزاجه مزاج طفل متقلب، يتسرب بين حكاياته مع المرضى كقط شارد. فقرر أن يفهم قصة هذا القط، الذي طالما سمع عنه، فسأله:

– قل لي يا «شعبان».. ما حكاية هذا القط؟

نظر «شعبان» إلى القط الذي يوليه مؤخرته، وقال بصوت حذر، وكأنه يخشى أن يسمعه:

– هذا القط لا يقترب سوى من الموتى.

ابتسم «سعد» وقال له:



- إن هو إلا مجرد قط صغير. لا تحمِّله أكثر من طاقته، ولا تنسب إليه نذير الشؤم.

- هذا ما كنا نقوله في البداية عنه، لكنه لم يخطئ ولا مرة واحدة طيلة الأشهر الثلاثة التي ظل فيها معنا.

- حسنًا.. قل لي ما تعرفه عن هذا القط.

- هذا القط جاء مع صاحبه، الذي لم يكن له صاحبة ولا ولد، وقد كان مريضًا بشدة، وطلب منا أن نسمح لهذا القط أن يظل معه بالغرفة؛ لأنه ببساطة كل أهله. وافق دكتور «معتز» على طلبه. ثم إن هذا القط لم يكن يتودد للبشر، ويحاول قدر الإمكان الابتعاد عنهم وعن طريقهم. لا يغادر غرفة سيده أبدًا. أحد المرضى كان يعشق القطط، وما إن رآه مصادفةً حتى حمله وأخذه على سريره، لكن القط تركه في سرعة، وعاد إلى حيث غرفة سيده. لاحظ العاملون في المستشفى نفور القط الفطري من البشر، لكن الغريب في الأمر أن سلوك هذا القط كان يختلف مع المرضى المحتضرين؛ فأينما كان هناك مريض يحتضر، يظهر القط فجأة، ليعتلي السرير على الفور ويرقد إلى جانبه وسط دهشة الجميع. كان يجلس في هدوء ووداعة يضع رأسه على جسد المريض كأنه يطيِّب خاطره ويواسيه، وما إن تغادر الروح الجسد حتى ينتفض القط فجأة ويغادر السرير على الفور، وكأنه يدرك أن جليسه قد فارق الحياة.

نظر «سعد» إلى القط، الذي جلس هادئًا صامتًا، وكأنه يسمع الحوار:

- وما المدة التي كانت تفصل ظهور القط وموت المريض؟

- أقل من ساعتين.

ابتسم «سعد» وربت بيده على ظهر القط وقال:

- لا تقلق.. أنا بخير.

ثم سأل الممرض في بساطة:

- ولماذا لم تتركوا هذا القط يرحل، ما دام هو نذير شؤم في المكان؟

- هذا القط عاش معنا طوال المدة التي مكث فيها سيده عندنا. نجح فيها في تحديد وفاة أربع حالات بدقة شديدة، ثم إننا، بعد موت سيده، كنا قد اعتدنا وجوده، ونحن نعلم أنه ما من مكان يؤويه. هذا إلى جانب أنه لا يؤذي المرضى، ولا يتجوَّل في المستشفى فيزعجهم. هو فقط يظهر قبل أن يموت المريض.

- وما رأي الدكتور «معتز» من الناحية الطبية في هذا الموضوع؟

- في البداية، قال إنها مصادفة، ومع تكرر هذه المصادفات، قال لنا إن التفسير الأكثر عقلانية لقدرات القط الخارقة هو حاسة الشم لدى القطط؛ فالخلايا المحتضرة تبدأ بإطلاق إنزيمات ومواد كيميائية معينة، داخل الجسم البشري، قبل الوفاة بفترة قصيرة، من أجل تهيئة الجسم لمرحلة التحلل التي تعقب الموت.

ويعتقد د. «معتز» أن هذا القط نجح في تطوير هذه الحاسة خلال وجوده داخل (المستشفى).. ولكن..



بدا التردد جليًّا في عيني «شعبان»، فسأله «سعد» يستحثه على المواصلة:

- ولكن ماذا؟

- في الحقيقة، هناك شائعات أثيرت حول هذا القط؟

دخل «معتز» الغرفة في هذه اللحظة، فقطع المرض حديثه خجلًا، حينما قال له وهو يجلس إلى جوار صديقه:

- هل ستستمر في إثارة الشائعات حول هذا القط يا «شعبان» إلى الأبد؟ هذه مخلوقات حساسة، وسأضطر أن أخصم من راتبك مصاريف علاجه عند «الشرينك» الخاص به.

- «الشرينك»!!

- نعم.. طبيبه النفسي؛ فالقط أصيب بالاكتئاب من هذه الشائعات.

- حسنًا.. أعترف بالذنب، سأسوِّي معه الأمر بنفسي.

واتجه إلى القط، ومسح عليه بيده وهو يقول:

- لقد كنت أمزح معك أيها القط الجميل.

أدار له القط جسده، ما جعل مؤخرته تواجه الممرض، فأشار «معتز» بسبابتيه إلى القط، وهو يقول:

- أرأيت؟! لو كنت مكانك لتوخيت الحذر. اغرب عن وجهه في هذه الساعة.

بدا على وجه «شعبان» الذعر، فابتعد مسرعًا، ما جعل قدميه تنزلقان، فيقع على ظهره، قبل أن يصل إلى الباب، فتأوّه الرجل وهو يمسك ظهره من شدة الألم، و«معتز» يستحثه على مغادرة الغرفة:

- ألم أقل لك؟ اختفِ من أمامه بسرعة؛ فهو فقط يمزح معك الآن.

نظر «شعبان» مرة أخرى، وراء كتفه، ناحية القط في خوف، ليطمئن أنه في مأمن وهو يتحرك للأمام. وبمجرد أن استدار اصطدم وجهه بالحائط، فوقع أرضًا من جديد. ولكن هذه المرة، قام مسرعًا وهو يركض في سرعة خارج الغرفة، بينما كان «سعد» و«معتز» يدمعان ضحكًا..

قال «معتز» لصديقه، بابتسامة عاطفة:

- لكن ما شاء الله عليك، الحمد لله. تبدو في صحة أفضل الآن. كان جسدك القوي بحاجة للراحة، الذي كان يعاني، ويقاوم السم الذي سبب لك هذه الحمى اللعين.

- الحمد لله.. أنا بخير.. كل ما يشغلني الآن أنني أصبحت بلا عمل.

أنا أفكر جديًا في تقديم استقالتي وتنفيذ المشروع، الذي طالما حلمت به: «مزرعة» مليئة بالحيوانات والنباتات.

كان يبتسم فرحًا، متابعًا:

- هـل تتـصور الجنـة مـن دون نباتـات وزروع وطيـور؟ هـذه المخلوقات هي ما تجعل حياتنا على الأرض محتملة.

- حسنًا يـا صـديقي، لكنـك لـن تبـدأ هـذا المشروع مـن دوني.. ستشارك.

- هذا ليس تطوعًا منك، بل أنت مُجبَر على هذا.. هناك أمـر آخـر، يتعين عليَّ القيام به قبل أي شيء.

- ما هو؟

- «سليم».. أخي.. أشعر أنه لا يـزال عـلى قيـد الحيـاة.. يجـب أن أبحث عنه. سأذهب بنفسي إلى قرية «العبابدة»؛ حيث اختفـى، وحيـث شوهد آخر مرة.

سأله «معتز» في دهشة:

- ولكنك بحثت عنه طويلًا من دون جدوى.. هل جد جديد؟

لم يشأ «سعد» أن يقول لصديقه ما رآه في عقول المجذومين، فيجيبه بأنها هلاوس الحمى، فقام من مكانه، محييًا صديقه، وهو يقول:

- «معتز».. أريد أن أغادر إلى منزلي.

نظر «معتز» في هلع إلى صديقه وقال:

- مستحيل أن أتركك تغادر.. جـسدك منهـك وفي حالـة ضـعف شديدة. أنت بحاجة إلى أن تظل تحت الملاحظة، لمـدة ٤٨ سـاعة على الأقل.

واجه «سعد» عيني صديقه، ثم قال في حزم، بطريقة ولهجة يعرف معهما «معتز» أنه ما من قوة في الوجود ستثني صديقه عن عزمه:

- بل عليَّ أن أرحل إلى بيتي الآن يا صديقي.. اطمئن، وسأكون على اتصال بك بشكل دوري.

جلس «معتز» على السرير الطبي ساخطًا، بينما وقف «سعد» ليضع عنه ملابس المستشفى ويرتدي ملابسه.

أشار «سعد» بيده محييًا «معتز» وهو يغادر الغرفة، لكن القط اقتفى أثر خطواته ملاحقًا، فنظر «سعد» في دهشة إلى القط وقال:

- لماذا تتبعني أيها الصغير؟

التصق القط بقدمه، و«معتز» يتابع القط بعينيه في حيرة ودهشة؛ فالقط لم يحاول أن يغادر المستشفى منذ ثلاثة أشهر كاملة..

كلما تحرك «سعد» تحرك القط، وإن وقف يقف!

رقَّ قلب «سعد»، فنزل على ركبة واحدة ليحمل القط، وقال:

- حسنًا، يبدو أنك مُصرٌّ على هذا.. سآخذك معي.. «آنوبيس» يعامل القطط برفق.

وابتعد وهو يحمل القط في رفق، بكلتا يديه، وهو يشير إلى صديقه:

- أراك غدًا يا «معتز».

ولكنه كان يشعر أنه لن يراه مرة أخرى. فقد كانت الأخيرة.

(٤٧)

دقت ساعة الحائط داخل غرفة المعيشة عدة دقات متتالية، استرق «سعد» نظرة إليها، ليقرأ عليها عدد الدقات التي سمعها. عاد ببصره متأملًا، متفحصًا، في النبتة الحمراء، وهو يرويها بالمياه، يحاول أن يعيدها إلى الحياة؛ فقد ذبلت تمامًا هذا المساء. شعر بحزن عميق لفقدانها، وهي التي رافقت مشواره العملي وانتهت بنهايته!

شرد ببصره من خلال النافذة، مشاهدًا الليل، الذي أرخى ستائره، مسدلًا خمائله في هدوء وإصرار..

هذه هي أول ليلة يقضيها، منذ عشر سنوات، وهو يعلم أنه لن يُزهق أرواحًا بيد القانون مرة أخرى. شعور غريب يجتاحه. لا يدري إن كان سعيدًا أم حزينًا. ترك أفكاره تشرد في الدجى؛ فلقد كان، وما زال، عاشقًا لليل. ينتظره بلهفة وشوق. وبنى فلسفته الخاصة تجاهه..

فالليل إما أصيل ونيس، وإما غَيْهب كئيب. وهذا المساء كان ليلًا مُوحِشًا مُقبضًا، ما جعل الوجود يقرر أن يسهر على عياله في حنو حتى الصباح؛ فهناك من لم ينَم في الدُجُنَّة من كثرة التفكير. وآخر حزين على فِراق محبوب. وما بين ساهدٍ يتمنى أن يغمض له جفن من دون فائدة، وساجد يقوم ليله يتبتل، مقتربًا من خالقه، وآخر كان ينتظر العتمة، ليشرع في كتابة قصيدة آخر السمر، وهو يشاهد الشمس الغاربة، تغيب في مغارب الفناء.

ينتابه حنين جارف تجاه أخيه «سليم». كان قد فقد أي أمل في عودته. من المستحيل أن يكون «سليم» على قيد الحياة ولا يتصل به. لم يشأ أن يصدق أنه لقي حتفه. بعدما مات أمله، عاد إلى قيد الحياة مرة ثانية، عندما رأى صورة أخيه داخل عقل المجذوم. هل هي هلوسة حمَّى، أم حقيقة؟ حتى لو كانت هلوسة حمَّى، فهو على استعداد أن يذهب إلى أبعد نقطة في الكون، لو هناك احتمال واحد في المائة أن يجده هناك.

- «سليم».. أين أنت؟

قالها بصوت خفيض، أتبعها بزفرة حارة. جاء إليه كلبه «آنوبيس» يدور من حوله في ونس؛ فقد شعر أن سيده حزين.

جلس سعد على كرسيه الهزاز أمام النافذة، وجلس «آنوبيس» تحت قدميه، وجاء القط الصغير ليجلس على فخذه. فرد جديد انضم إلى العائلة الصغيرة.



طارت روحه إلى هناك؛ حيث الماضي وذكرياته؛ حيث كان أخوه وتوأمه. «سَليم» كان درعه الواقية وحائط صد نوائب الدهر عنه.

كان له الأب والأخ، بعدما عرفا أنهما يتيمان.

«سَليم» كان دائمًا هو الأقوى، وهو من اتخذه «سعد» قدوة.

«سَليم» كان يحمل حقيبة المدرسة عنه، حينما يقول له إنها ثقيلة..

«سَليم» كان يفديه بنفسه من العقاب، عندما يرتكب جرمًا، فيقول لأبيه إنه هو من فعلها..

«سَليم» كان يعطيه من مصروفه حينما يشعر أن نفسه تشتاق لأمر ما، ودائمًا يقول له:

- لست خائفًا من الموت يا «سعد»، أنا فقط أخاف أن أتركك وحدك، وألّا أراك مرة أخرى.

«سَليم» هو الوحيد الذي كان يسأله:

- نِفسك في إيه يا «سعد»؟

انتزع «سعد» من شروده مرأى كشافي سيارة حديثة. سرعان ما وصلت السيارة إلى حيث كان منتهى ضوء كشافاتها؛ لتهبط منها امرأة جميلة تسرع من خطواتها حتى لا تبتل من الأمطار، وهي تضم ياقتي معطفها بيديها..

تعرَّفها «سعد» على الفور..

«مريم الصواف».

طرقت على بابه، ففتح لها بنظرة متسائلة ولم يدْعُها إلى الدخول، لكنه قال في أدب جم:

- لا أدري سرَّ هذه الزيارة المفاجئة، لكني وحدي بالمنزل ولا أظن أنه من اللائق أن تزور امرأةٌ رجلًا يقطن بمفرده..

بدا الارتباك على وجه «مريم» وهي تقول:

- أنا آسفة.. لقد حاولت الاتصال بك هاتفيًّا مرتين لكنك لم تُجبني، وأنا مدينة لك باعتذارين، وفي الوقت نفسه عليَّ أن أحذرك من أمر مهم متعلق بحياتك.

زأرت العاصفة بالخارج مرة أخرى، ما ألزم «سعد» أن يدعوها إلى الدخول اتقاءً للبرد؛ فهو بالفعل تجاهل مكالمتها، ما دعاها أن تأتي بنفسها..

بمجرد دخولها، رأت قط المستشفى يرقد في كسل إلى جوار الباب، ثم أتى «آنوبيس» ناحيتها، يتشممها، يتعرفها، يطمئن أنها مصرَّح لها بالدخول في عرينه. شعرت بخوف وهو يقترب منها، فقال لها «سعد»:

- اهدئي، لن يؤذيكِ.. فقط يقدم نفسه إليك، كل ما عليك هو أن تعترفي بوجوده.

أنهى «آنو» دوره، ثم تركها - غير مبالٍ - ليعود ويجلس في مكانه المخصص في ركن الغرفة، الذي يسمح له بمراقبة المكان كله.

سألها «سعد» وهو يشير إليها أن تجلس على الأريكة، بينما هو يتجه ناحية المطبخ:

- نِفْسك في إيه؟

- شاي أخضر من فضلك.

وبينما «سعد» يعد كوب شاي أسود له، وأخضر لها، جالت بعينيها الواسعتين الجميلتين كبحيرتين من عسل، في غرفة المعيشة. لم تتوقعها أبدًا بذلك الترتيب والجمال والأناقة، وهذه النباتات الجميلة المنتشرة في كل حدب وصوب، واللمسة الفرعونية الواضحة، واللوحات الجدارية الطبيعية، ورسومات البردي، وآيات الموت وأشعاره المعلقة في ترتيب هنا وهناك. كل شيء جميل وهادئ.. النباتات المنتشرة في الأرجاء جعلت من رائحة البيت وكأنها مُضَمَّخَة بعطر هادئ..

كان أكثر ما جذب انتباهها التميمة الزرقاء الكبيرة التي تمثل عين «حورس»، فقالت له:

- قرأت أن «حورس» فقد هذه العين في معركته ضد «ست». يطلقون عليه حامي أبيه، ذا العين الواحدة.. يبدو أنك متعلق به.

- «حورس» رمز العدل والنور والنظام.. حريٌّ بي أن أتعلق به.

عَلِقَت عيناها بالنبتة الحمراء الذابلة، التي لم ترَ مثلها من قبلُ، لكن «سعد» عبر أمامها في تلك اللحظة، يحمل كوبي الشاي. وضعهما على المنضدة أمامها، قبل أن يسألها مباشرة:

- حسنًا.. اعتذاران، وتحذير؟!

تناولت كوب الشاي الساخن، وأحاطته بكلتا يديها، لتبثَّ بعض الدفء منه إليها، وهي تنظر إلى «سعد» في تساؤل، وهو الذي يرتدي قميصًا خفيفًا ظهرت معه عضلات جسده القوي: كيف لا يشعر هذا الرجل بالبرد؟ وهي التي، حينما مدت يدها إليه مصافحة عند الباب، شعرت بدفء يده يعبر إليها ويغشيها، لدرجة أنها تمنت أن تبقى يدها في يده للأبد.

لا تستطيع أن تنكر أنها، منذ أن وقعت عيناها عليه، قد سقطت أسيرة في براثن سحره. الشعور الوحيد الذي يسيطر عليها إلى جواره، والذي تكرر في كل لقاء جمعهما، كان: «الأمان».

«مريم الصواف»، المرأة القوية، التي لم تشعر أبدًا أنها بحاجة إلى من يحميها، شعرت بكل الضعف أمامه، وكأنه ساحر، أزاح بيديه القويتين غشاءً واقيًا، كان يحميها ويمدها بالقوة، فانكشفت أمامه كقلعة غير محصَّنة، انهارت دفاعاتها. صمتُها كان فاضحًا في ثرثرته. صخب حبها يدوي زاعقًا من عينيها. ضجيج قلبها لا يمكنها أن تتجاهله.

«سعد» تسرَّب عبر نافذة روحها كشعاع شمس، فملأها دفء عينيه، فقد كان ينظر إليها في تساؤل منتظرًا أن تجيبه.

سرحت فيه تمامًا. كانت عيناه السوداوان الواسعتان تسقيانها خمرًا. تركت نفسها تتأمل ملامحه الصارمة، وشعره القصير الأسود اللامع، وشاربه الكث. فخرجت عن الوجود كله في حضرته. عبثت بها الأشواق، وتلعثمت منها الكلمات، فذبلت عِباراتها، كهشيم محتضر.



تنحنح بأدب، فعادت بوعيها إلى عالمنا، لتقول بصوت مبحوح، انسل من بين حنجرتها ليخذلها على استحياء:

- جئت أعتذر عن...

توقفت وهي تتنحنح، حتى تستعيد السيطرة على مشاعرها؛ لأن صوتها خرج منها خافتًا، ضعيفًا، غير مسموع، لتعيد القول بصورة أفضل:

- جئت أعتذر عن تسببي في إيقاف حكم الإعدام.. لا أدري إن كان هذا قد سبَّب لك أي ضيق، و...

قاطعها «سعد»:

- لا تشغلي بالك.. وما الاعتذار الآخر؟

- حينما ادعيت أنك خطيبي، لا أدري ما الذي دفعني إلى ذلك، لكني أردت أن أتخلص من «عزت عقرب»، وهذا يقودني إلى التحذير؛ فأنا لم أتوقع أن تتطور الأمور بينكما إلى حد الاشتباك بالأيدي. «عزت» إنسان مؤذٍ، سينتقم مما فعلته به؛ فأنا أعرف طريقة تفكيره، و...

وقف «سعد» في مكانه، مقاطعًا لها مرة أخرى، وهو يقول في لهجة مهذبة، حازمة، منهيًا الزيارة:

- شكرًا للاعتذارين، تم قبولهما. وبالنسبة للتحذير، فأنا أعلم كيف أتدبر أموري.

فهمت الرسالة. فقامت من مكانها في ارتباك، ومدت يدها لتحمل حقيبتها، وشكرته وهي تستعد للخروج..

وفي حركة مباغتة، مباغتة، مبادِهة، ركض «آنو» في اتجاه الباب، وهو يطلق زمجرة مخيفة، وكأنه يستشعر خطرًا ما من وراء الباب..

فأشار لها «سعد»، في صرامة، إشارة حازمة أن تلزم مكانها.

وتجمَّد المشهد كله إلا من زمجرة «آنوبيس».



(٤٨)

– غادَر!! ألم أحادثك صباحًا، فقلت إنه سيظل في المستشفى ٤٨ ساعة على الأقل؟

قالها «هيب هصار» في غضب لـ«معتز»، الذي أجابه بشكل رسمي:

– ماذا هناك أيها الضابط؟ «سعد» ليس محتجَزًا عندي، وله الحق في أن يغادر في أي وقت يشاء.

أخرج «هيب» من جيبه ورقة، وضعها أمام عيني «معتز» وهو يقول في حدة:

– وأنا لديَّ أمر بالقبض عليه.. سأذهب لآخذه من بيته حالًا.

(٤٩)

أشار «سعد» إلى «مريم» بأن تلزم مكانها، وهو يتحرك في خطوات رشيقة إلى النافذة، ويزيح الستار ببطء، فرأى سيارتين رباعيتي الدفع لا يختلف لونهما عن الظلام الأسود؛ السيارة الأولى داخلها أربعة أفراد، والسيارة التي تليها مباشرة بداخلها ثلاثة أشخاص. تعرَّف منهم «عزت عقرب» ومساعده الشخصي «نسر»، وفي المقعد الخلفي، الشاب الذي رآه داخل عقل المجذوم، وله ملامح «الحطَّام» نفسها.

ترجل من السيارة الأولى الأشخاص الأربعة، وتحركوا في سرعة، يحملون مدافع رشاشة قوية مزوَّدة بكاتم صوت في اتجاه المنزل، بينما ظل «عزت» ورفيقاه داخل السيارة..

أشار «سعد» بيده إلى «مريم» أن تصعد للأعلى، وهو يقول في حزم:

- يبدو أن «عقرب» قرر أن يقوم بانتقامه الليلة. ها هو في الخارج الآن، وأربعة رجال مسلحين يستعدون لاقتحام المكان..

تسمَّرت «مريم» في مكانها، وسقط قلبها بين قدميها. امتقع وجهها وكأنها لم تستوعب ما يحدث، فظلت على حالها، فأعاد الأمر مرة أخرى بحزم وهو يشير بيده إلى الأعلى:

- اصعدي إلى الأعلى الآن.. حالًا.

تابعها بعينيه وهي تركض على السلم، ثم أطفأ الأنوار في غرفة المعيشة ليعم الظلام في هذه الليلة التي لا يزين سماءَها قمرٌ.

وعلى حين غرة، اشتعل الموقف، ولكن بالنسبة للمقتحمين!

طلقات نارية صامتة عبرت الباب الخشبي، من داخل المنزل إلى خارجه، لتصيب اثنين من المهاجمين، أحدهما في مقتل، والآخر أصيب في ساقه، فسقط أرضًا يصرخ ويتلوَّى وهو يمسك قدمه بيديه..

أما الاثنان الآخران فقد استوعبا الموقف في سرعة، فأمطرا وابلًا من مدفعيهما على الباب، انهار على أثرها، مخلفًا غبارًا خفيفًا لم يلبث أن انقشع، لكن لم يتبدَّ شيء من ورائه سوى الظلام. تقدم الرجلان في حذر يتحسسان خطواتهما، وهما يعبران إلى داخل المنزل.

وفي اللحظة نفسها، بالأعلى، كانت «مريم» تختبئ داخل خزانة ملابس «سعد»، ترتعد في خوف.

وفي الخارج، كان «عزت» يغلي غضبًا؛ فقد تعرَّف سيارتها خارج المنزل. «نسر» يقبض على ذراعه، يحاول تهدئته ومنعه من مغادرتها،



واقتحام المنزل؛ لأن «سعد» يبدي مقاومة شرسة، وقد حصد بالفعل روحَي اثنين من رجاله.

انفجر صارخًا، كثورة بركان منهمر، تصدَّع، فأصبح غير قادر على السيطرة على حمم «اللافا»، التي سالت زبدًا من فمه، فخرجت كلماته كمقذوفات صخور «التيفرا» البركانية:

- هذه العاهرة.. لقد ورَّطت نفسها بمجيئها إليه. لن تخرج من هذا المكان طليقة حرة. أقسم أن أقتلها هي أيضًا. هي ما زالت في أيام عدتها، ويجب أن أثأر لشرفي. وهذا «العشماوي» سيطلب مني أن أنتزع روحه كي يتخلَّص من العذاب الذي سأسومه إياه ألوانًا.

ظل «فَرَّاس» يراقب ما يحدث من حوله في هدوء، وكأن ما يحدث من حوله لا يعنيه في شيء. كان مسترخيًا في مقعده، كَمُتَنَزِّه، أتى مرافقًا للجمع لا أكثر. وفي الداخل، كان الرجلان يتحركان في الظلام المستشري حذرًا، ثم فتحا النار من جديد، وهما يقفان متلاصقين، جنبًا إلى جنبا، فتنهطل الرصاصات أمطارًا، لتحصد كل شيء وأي شيء.

عمَّ المكان صخب تكسير الأواني والتلفاز، ولوحات تسقط، أحواض أسماك الزينة تهشمت. الظلام وحده وقف حائلًا دون رؤية آثار التدمير. حينما تشرق شمس الغد، ستنطوي دفقات نور الصباح خجلًا، كي لا تفضح آثار الخراب. هدأ كل شيء بغتةً، فقال أحدهما:

- أضئ النور يا رجل. دعنا نرَ إن كان هذا «العشماوي» حيًّا أم ميتًا.

لم يكد ينهي عبارته حتى انطلقت رصاصتان أصابتا النجفتين العملاقتين في غرفة المعيشة، لتتحطم الكريستالات وتتساقط بعضها على رأسيهما، فقال الرجل:

– هذا اللعين ما زال حيًّا، يسمعنا ويرانا من حيث لا نراه.

كانت هذه آخر عبارة قالها هذا الرجل في حياته؛ ففي اللحظة التالية، تلقَّى منَ الخلف ثلاث رصاصات متتالية، على خط واحد، تفصلها مسافات محسوبة بدقة، أصابت فقرات عموده الفقري العنقية والصدرية والقطنية؛ لينقطع معها الحبل الشوكي داخل قناته، التي تتوسطه، فانقطعت معها الإشارات العصبية من الدماغ إلى باقي أجزاء الجسد، والعكس، فأصابه شلل رباعي في الحال، وخرَّ صَعِقًا يعافر المنون. أما الرجل الأخير فقد تملَّكه الذعر بعدما صاد الموت أرواح رفاقه، وأخذ يبحث عنه كفريسة تتوارى خوفًا وجذعًا خلف سنابل البراري. فركض مبتعدا على غير هدى ، إلا أن «آنوبيس» كان له بالمرصاد، فأطاح به من الخلف، وأسقطه أرضًا، وانقض على عنقه ليقطع عنه وريد الحياة.

في الخارج، فتح «فَرَّاس» باب السيارة، دون سابق إنذار، رآه «عقرب» في مرآة سيارته يُخرج وعاء «البنزين»، سأله «نسر» بصوت عالٍ:

– إلى أين يا «فرَّاس»؟

رفع «فرَّاس» أربع أصابع من يده اليمنى، وحرك عينيه عليها، من دون أن يتكلم. فقال «عقرب» في توتر مفسرًا:



- يبدو أنه يقول: إن «سعد» قضى على الرجال الأربعة، ولا تسألني من أين عرف هذا.

تعالت نبضات قلب «نسر» وهو يشاهد «فَرَّاس»، يبعثر محتويات الوعاء الذي يحمله في أرجاء الحديقة، قبل أن يدلف إلى «المنزل» في جرأة. كان «عزت» يقول لـ«نسر» في صوت لاهث، من فرط الإثارة:

- لا تقلق. «فَرَّاس» سيأتي به إلينا. هذا «العِفْراس» يعرف كيف يفترس ضحاياه.

تجاوز «فَرَّاس» الباب المتهدم في شجاعة، ووقف يدير عينيه في الظلام قبل أن يتجه بخطوات ليث رشيق إلى حيث المطبخ، وكأنه يعرف أين يتجه. كان «سعد» يجلس القرفصاء وراء الثلاجة. تناهى إلى مسامعه وقع أقدام تتجه ناحيته. فعزم على المبادرة بالهجوم؛ إذ استيقن أن المواجهة آتية لا مِرية فيها.

وقف مشدودا كالوتر، ثم قفز كلاعب «باركور» محترف، كأمهر «ترايسوور»، يؤدي القفزة السريعة الشهيرة، مستندًا على الجدار المقابل بقدميه، ولكن.. في كسر من الثانية، التقت عيناه عيني «فَرَّاس»، الذي أشار بكلتا يديه ناحية «سعد» ورفعهما للأعلى ببطء، وكل خلجة من خلجاته تتألم، وتنضح بتركيز شديد. وبقوة تحريك عن بُعد متطورة، لم يشعر «سعد» سوى بما يجذب المسدس من يده، من دون أن يمسه، وجسده يرتفع عن الأرض، مع حركة يد «فَرَّاس»؛ ليقذفه بقوة، فارتطم بسقف الحجرة، وسقط من ارتفاع ثلاثة أمتار على ظهره، ليعيد «فَرَّاس» الكرَّة مرة أخرى، وهو يرفع جسد «سعد» هذه المرة بيد



واحدة، ويلتقط مسدسه، فيطلق ثلاث طلقات نارية على «آنوبيس»، الذي كان يندفع نحوه مهاجمًا، ليذود عن سيده، فأرداه صريعًا، مضرجًا بدمائه.

وبينما يسقط جسد «سعد» سقوطًا حرًّا، شعر وكأن هناك ما يشده من شعره، ليصطدم رأسه هذه المرة بالأرض الرخامية، ففقد وعيه في الحال. وفي بساطة، اتجه «فَرَّاس» إلى جسده المسجى، وحمله على كتفه كالرضيع، وغادر به المنزل. برقت عينا «عقرب» وهو يشاهد «فَرَّاس» يحمل «سعد» على كتفه، فغادر السيارة وهو يقول:

- الآن، حان دوري لأقتنص من هذه العاهرة.

ثم اندفع داخل المنزل، فوجد حقيبتها ملقاة على الأريكة، فأخرج منها مفاتيح سيارتها، ووضعها في جيبه، وشرع يبحث عنها.

خمس دقائق، وكان يفتح باب الخزانة، ويجذبها من شعرها، وينهال عليها بوابل من اللكمات والإهانات والصفعات، حتى فقدت وعيها. حملها إلى الخارج، وألقاها داخل سيارتها، ثم عاد أدراجه، وهو يحمل منديلًا مشتعلًا، ليلقيه في حديقة المنزل، التي أغرقها «فَرَّاس» بالبنزين، لتنال النيران وجبة شهية من النباتات النادرة.

بعدها كان «نسر» يقود سيارة الرجال الأربعة الذي لم يتبقَّ أحدٌ منهم حيًّا، و«فَرَّاس» يقود سيارة «عقرب» و«سعد» فاقد الوعي إلى جواره، و«عقرب» يقود سيارة «مريم»، والأخيرة إلى جواره أيضًا، فاقدة وعيها.



غادر الجمع المكان كله من دون أثرٍ واحدٍ يقود إليهم.

بعد أقل من عشر ثوانٍ، كان «معتز» داخل سيارته يقف أمام منزل «سعد»، وأمامه قوة من الشرطة بقيادة «هيب هصار»، أتت لتلقي القبض على صديق عمره. وقف الجميع ينظر عن بُعد إلى المنزل المشتعل الذي تأكله النيران، في انتظار أن تأتي قوة إطفاء الحريق.

لكن النيران لا تنتظر؛ فهي لا تُبقي ولا تذر.

(٥٠)

فتح «سعد» عينيه وهو يستشعر دوارًا عنيفًا، يعصف برأسه عصفًا ويذرو انتباهه ذروا. أول شيء تسلل إلى حواسه كانت رائحة عطنة عبر أنفه، أما ثانية الحواس؛ العينان، فقد كانت الرؤية مشوشة أمامها، رويدًا رويدًا بدأت تجمعان تفاصيل المشهد. فكان أول ما وقعتا عليه: حبل مشنقة يتدلى من السقف. وثالثة الحواس كان سمعه، الذي تسلل إليه صوت نهيز فئران، ليكون ثاني ما يراه على الأرضية الخشبية هو عددًا كبيرًا منها، يخوض ويلعب، غير معرضة عنه، تسير فوق جسده بحريَّة. حاول أن يبعدها عنه، فعرف أنه مقيَّد. فوسَّع مجال رؤيته، وهو يدور بعينيه دورة كاملة في أرجاء المكان. قاعة واسعة هي، أقرب ما تكون إلى قبو، مليئة ببراميل خشبية، وإضاءة صفراء باهتة، تنبعث من مصدر ضوء وحيد في ركن القاعة، ما جعل نصف القاعة تقريبًا يغرق في ظلام دامس. إلى يساره، عمود آخر، قُيِّدت إليه «مريم الصواف»،

لكنها أكثر حظًّا منه، حتى اللحظة؛ فهي ما زالت فاقدة الوعي، لا تدري ما الجحيم الذي صُفِّدت فيه. سمع صرير باب يُفتح من الخلف، فأرهف سمعه. ميَّز، بصعوبة، وقع أقدام لثلاثة رجال تتقدم باتجاهه.

«عقرب» و«فرّاس» و«نسر».

وقف ثلاثتهم على خط واحد أمامه. كان منهك القوى، خائرًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. رأى غضبًا، مستطيرًا، جامحًا، على وجه «عقرب»، ورأى نقيضه على وجه «فرّاس» الهادئ، الذي يقف متكئًا بمرفقه، مسترخيًا، في لا مبالاة، على برميل خشبي. بينما حمل «نسر» تعبيرًا وسطًا بين هذا وذاك، وهو يقف مباعدًا قدميه، متحفزًا بمدفع رشاش، يصوب فوهته إلى رأس «سعد» مباشرة.

أحنق «عقرب» عدم تحرك «سعد»، الذي اقتحم عينيه، ببحر عينيه الواسعتين، في تحدٍّ، شعر بأن انتباهه يتشتت، وحالة شبه كاملة من الاسترخاء بدأت تغزوه، الأمر الذي جعل «فرّاس» ينتبه، ويقف كوتر مشدود، عادلًا عن اتكاءته على البرميل الخشبي. عقد حاجبيه للحظة وجيزة، قبل أن يعود من جديد ليرتدي قناع «اللاتعبير». نظر حوله وكأنه يبحث عن شيء ما. وجد ضالته، فانحنى يجذبها: خرقة بالية. ثم خطا ثلاث خطوات، كانت تفصله عن «سعد»، الذي لمح وشمًا لثعبان يلتهم ذيله على ذراع «فرّاس»، قبل أن يغشى عينيه ظلام، على أثر الخرقة البالية التي أحكم الأخير وثاقها حول عينيه.

اتجه «فرّاس» بعدها، ليواجه «عقرب»، الذي يقف هادئًا شاردًا وكأنه ليس هناك، يفتح عينيه بلا حراك كالمسحور. حرك يديه أمام

عينيه، فانتفض «عقرب» وكأن الروح عادت إليه فجأة، وهو يسأل «نسر» في دهشة:

- لماذا غطيت عينيه؟

أشار «نسر» من طرف خفي إلى «فَرَّاس» ولم يعقِّب. فحوَّل «عقرب» بصره في اتجاه «فَرَّاس» متسائلًا، فأجابه، في أربع كلمات فقط لا غير، وهو يمرر راحته أمام عينيه:

- لا تنظر إلى عينيه.

ساد الصمت لثوانٍ، بينما «عقرب» يحاول أن يسترجع ما حدث له في اللحظات القليلة الماضية. شتت انتباهه أنين «مريم الصواف»، وهي تتأوه في ألم، مستعيدة وعيها. متى نُفِخَ في الصور؟ آخر ما تذكره أنها اختبأت في بيت «سعد». صرخت في ذعر، وهي تلملم تفاصيل المشهد. برق الخوف في عينيها، ساطعًا كألف قمر. كل شيء من حولها مرعب: القبو، الفئران، «عقرب» الغاضب، وطلّة «فَرَّاس» المقبضة، الكئيبة. بينما «سعد»، مصدر الحماية والأمان الوحيدين، بالنسبة لها، مقيَّد إلى عمود، لا حول له ولا قوة، بعينين لا تريان.

ألقى «عقرب» نظرة دونية ناحيتها، وهو يقول:

- لقد حكمتِ على نفسك بالموت. أنتِ الآن متورطة حتى النخاع.. ستموتين هنا إلى جوار عشيقك.

أجابه «سعد» وهو يوجِّه رأسه ناحية مصدر الصوت:

- أنت أحمق. ليس هناك أي علاقة بيني وبينها. عليك أن تتركها ترحل في سلام، ولتفعل بي ما تشاء.

صفَّق «عقرب» بيديه في بطء، ثم دار حول «سعد»، المكبل، المعصوب، الذي لم يدرك أن ظل «عقرب» يغشيه حينما وقف أمامه. ركله «عقرب» في وجهه بكل قسوة، ليصطدم رأسه بالعمود المقيَّد إليه، وتسيل الدماء من أنفه، حزينة، وتنكسر سنة أمامية من فمه، قبل أن يمسك به من شعره، فيقيمه على ركبتيه، في ازدراء:

- أداؤك رائع. لقد تأثرتُ كثيرًا.. أنت بطل حقيقي.. لا تفتح فمك قبل أن آذن لكَ بالحديث مرة أخرى، وإلا قطعت لسانك. أنت أيضًا لن تخرج من هنا حيًّا، فكيف نطلق سراحها؟ لكنني سأتركها إلى جوارك قليلًا حتى ترى نهايتك بعينيها، قبل أن أفجِّر رأسها برصاصة ثمنها أغلى منها.

أشعل سيجارًا، وأخذ نفسًا عميقًا، وهو يقول مستمتعًا، مثبتًا عينيه إلى سماء الحجرة:

- لقد أعددت لك طريقة شاعرية للموت: «الاختناق».

هيا قُل لي، هل تفضِّل الاختناق بالماء، أم بالغاز، أم بالحبل؟

علا نحيب «مريم» وهي ترتعش وترتجف، بينما ظل «سعد» صامتًا ثابتًا، ما ضاعف من غضب «عقرب» أضعافًا مضاعفة، فركله في وجهه ركلة أشد قسوة، لتتحطم معها سنّتان أخريان من فم «سعد»، وتصطدم مؤخرة رأسه في عنف بالعمود مرة أخرى، ويرتد رأسه في



عنف؛ لتلتحم عينه اليسرى المعصوبة مع قدم «عقرب» الذي كان يعاجله بركلة أخرى، علِمَ «سعد» أنه ولا بد قد فقد عينه اليسرى، فأطلق صرخة مكتومة قبل أن يشعر بوعيه يتسرب منه مرة أخرى، بينما «عقرب» قد ازداد توحشًا، وهو يقول:

- لقد أعددت لك خليطًا مبتكرا، سأتركك هنا مع حبل المشنقة، وسأفرغ غاز الأعصاب السام في جو الغرفة. هذا الغاز غير مرئي، وليس له طعم ولا رائحة، سريع التأثير، شديد السمية، يؤدي إلى فقدان التحكم والإصابة بالارتعاش، وغشاوة على البصر. لو كنت مكانك لشنقت نفسي بالحبل، قبل أن تبدأ هذه الأعراض؛ لأنه، حينها، ستتمنى لو وافتك المنية بشكل أسرع.

أنت وحدك من يملك الخيار، إما أن تمر بلحظات العذاب، وإما أن تشنق نفسك بنفسك، فتستريح من العذاب. ألا ترى معي، في هذا كله، عدالة شاعرية، من نوع خاص؟ هيا قل لي: «نِفسك في إيه»؟

لكن «سعد» لم يكن هناك ليجيب عن تساؤله.

لقد فقد وعيه تمامًا.

لاحظ «فرَّاس» الدم الذي يسيل من وراء الخرقة، وتحديدًا عند موضع عين «سعد» اليسرى، فاتجه إلى «سعد» ونزع عنه الخرقة، ثم قال لـ«عقرب»، وهو يشير إلى عين «سعد» اليسرى، الراقد بلا حراك:

- هل شفيت غليلك في إذلاله؟ أخشى أن أفسد فرحتك.. «سعد» لن يموت الآن؛ فنحن ما زلنا بحاجة إليه!

ثم أشار إلى «مريم» في لا مبالاة من دون أن ينظر إليها:

- يمكنك أن تقتل هذه؛ فنحن لسنا بحاجة إليها بعد الآن.

نظر «عقرب» في دهشة واستنكار ناحية «فَرَّاس»، الذي عاد أدراجه إلى حيث كان يقف، مستندًا بمرفقه على البرميل الخشبي، قبل أن يقول:

- ولماذا نحتاج إلى هذا الحقير؟

- لقد تلقيت رسالة من «جيداليا» قبل ثوانٍ.

- وماذا تقول هذه الرسالة؟

مدَّ «فَرَّاس» ذراعه على امتدادها، وكأنه يُقحم شاشة هاتفه داخل عيني «عقرب» اللتين اتسعتا في دهشة، وهو يقرأ رسالة «جيداليا»:

- «سعد مالِك عبد الجبار».. آخر الأنسال الملكية.

مد بصره إلى كفَّي «سعد»، الممدد بلا حراك، فاقدًا للوعي، قبل أن يتقدم نحوه، فينتزع الخاتم الوحيد الذي يرتديه في يده اليمنى. شهق بصوت مسموع، وهو يرى الجزء الذي كان قد خفِي عنه..

نقش الثعبان أعلى الخاتم..

الذي يقف رأسه حدّ منتهى ذيله.

تمامًا.



(٥١)

كان «سعد» يجاهد كي يعود لوعيه..

وهنٌ، وضعف بلا حدود..

لم يأكل أو يشرب منذ ساعات طويلة.

ما مر به في الأربع والعشرين ساعة الماضية يفوق طاقة البشر، هذا في الأحوال العادية، لكن حالته كانت استثنائية؛ فقد كان يحتاج لأن يظل تحت الملاحظة، في المستشفى..

صراعه مع المجذومين..

السم..

الحمى..

الغيبوبة..



ثم الهجوم على منزله..

والآن العذاب الذي مرَّ به داخل القبو..

الألم قد يكون محتملًا حينما لا يكون متصلًا..

الحزن ربما يمكن التعايش معه عندما لا يستمر..

لكن الألم والحزن اتصلا واستمرا، إلى درجة يَصْعُب معها الاستمرار..

من دون مبالغة، هو الآن يمر بأضعف لحظاته..

كان يعرِف نفسه مقاتلًا..

عَهِدَ نفسه مثابرًا..

سقط من قبلُ، فقط ليقف على قدميه من جديد..

لكن هذه المرة الوضع مختلف..

لا يفهم السبب، لكن الشعور المسيطِر عليه الآن أنه يقترب من النهاية..

نهايته..

من المستحيل أن يكون ما يحدث له الآن أمرًا عارضًا أو طارئًا سينتهي، وتعود الأمور إلى ما كانت عليه..

عرِف نفسه ذكيًّا..

عهِد في نفسه فراسة واستبصارًا، يجبرانه أن يدرك إذا كان ما يمر به
في هذه اللحظة مجرد ظرف عابر.. أم وضعًا جديدًا أتى ليستمر..

لماذا اصطبغ الوجود من حوله بلون أسود..

وفقدت كل الأشياء معانيها؟

لم يعد هناك أي مذاق لأي شيء..

نسي قلبه طعم الفرح..

عقله لم يعد ينتظر لحظة سعادة..

يشعر وكأن أحدهم قفز بزرِّ العرض إلى الأمام..

إلى نهاية العرض..

لقد رأى كل شيء..

وعرف كل شيء..

والعرض يوشك على الانتهاء..

ربما تبقى مشهد أو مشهدان..

على الأكثر.

عاد بذاكرته إلى الوراء.. إلى المشهد الأول..

إلى حكاية زُرِعت بذرتها منذ عقد كامل، حان حصادها؛ إذ
استوت على سوقها..

حينما وقف أمامه في ذلك اليوم..

«مالِك عبد الجبار»..

المُعَلِّمُ.

كان «مالِك» ممدَّدًا على سرير طبي، داخل وحدة العناية المركزة التابعة لمستشفى السجن، في ذلك اليوم المشؤوم..

يوم إعدام «الحطَّام»..

والحمى التي انتابته..

وقد أدرك «سعد»، البارحة فقط، أن هذه الحمَّى لم تكن مصادفة..

بل هي سم.

يومها، وقف «سعد»، وهو في ريعان شبابه، أمام «مالك» الذي طلب أن يتحدث إليه على انفراد، قبل لحظات من مفارقته الروح:

- اجلس يا بني، عليَّ أَقُصُّ عليك نبأ لم تكن لِتَخْبُرَهُ أبدًا من بعدي، فلا يوجد على سطح الأرض من يحمل هذا السر سواي.

أغمض عينيه وبلع ريقه، متألمًا، ثم سعل مرتين، قبل أن يقول، وهو يتشبث بذراع «سعد» القوية، في صوت ضعيف أنهكه السم:

- والآن، وبعد موتي، لن يحمل هذا السر على وجه الأرض من أحد سواك.

جلس «سعد» منصتًا بكل حواسه إلى الرجل، بينما أشار «مالك» في ضعف إلى الخاتم الذي أعطاه إلى «سعد»، ليحميه من الكوابيس، كما قال له من قبل:

- هذا الخاتم أتوارثه، لا تتخلَّ عنه أبدًا. فيه خلاصك، ومفارقته فيها هلاكك، منذ أربعة آلاف سنة، جيلًا من بعد جيل، نتواتر السر. والدي فعل كما فعل معه جدي، كما فعل أبو جدي. وها أنا ذا أقوم بدوري كما ينبغي، وها هي نفس الكلمات، أقولها لك كما سمعتها.

أخذ «مالك» شهيقًا عميقًا، وبلل شفتيه بلسانه، وأخرج زفيره في ضعف وحرقة وهو ينظر إلى عيني «سعد» مباشرة:

- «سعد».. يا بني، إن لم يكن لك ولد، فاعمل على أن تدمر هذا الخاتم، اسحقه. اجعله فتاتًا. وإن كان لك ولد، فلتعطِه إياه. وقُصَّ عليه هذا النبأ الذي سأقصه عليك.

ظل «سعد» صامتًا منصتًا، في خشوع، و«مالك» يتشبث أكثر وأكثر بساعده القوي، وكأنه يستمد منه رونق الشباب:

- «الخير» و«الشر» كانا أخوين. منذ بدء الخليقة، الخير كان يحمل معه بذرة، والشر كان يحمل «الفأس». اتفقا على أن يزرعا شجرة. «الخير» يؤمن بالمشاركة، لكن «الشر» أناني، يحب الاستحواذ. طمع وقرر أن تكون الشجرة له وحده، فقتل «الخير» بفأسه، ودفنه ومعه بذرته التي ارتوت بدمه، وطرحت شجرة كبيرة، أكبر ألف مرة من التي تخيلها «الشر». فخاف ألَّا يستطيع السيطرة عليها، وأسرَّ له شيطانه في

هاجسه أن هذه الشجرة ما زالت تحمل روح أخيه: «الخير»، وأنها - يومًا ما - ستلف أغصانها حول عنقه لتنتقم، فاقتلعها من جذورها، فعاش حياة جدباء ومات بعدها.

هذا هو الحال يا بني مع العلم والمعرفة. الشر يحاول أن يقود ويستحوذ، ويكون له السبق، لكنه لا يستطيع التعامل بحكمة مهما حرص، الأمر الذي سيؤدي إلى فساد العالم، ويتحول معه إيذاء الآخرين إلى دفاع شرعي عن النفس. كما قتل «الشر» أخاه «الخير» واقتلع شجرته، ظنًّا منه أنه يحمي نفسه! لكن هؤلاء، قبل أن يؤذون الآخرين، هم يؤذون أنفسهم، وما يشعرون.

كان «سعد» في كامل تركيزه، و«مالك» يتابع، وصوته يضعف، ويخفت:

- أجدادنا «المصريون القدماء» ملأوا بردياتهم ومتون أهراماتهم بحكاية «إيزيس» و«أوزوريس». وكيف أن «ست»، أخا «أوزوريس»، قتله؛ ليصل إلى الحكم، وقطَّع جسده «٤٢» قطعة، وُزِّعت على أقاليم مصر وقتها، لكن زوجته الوفية تحوَّلت إلى طائر وجمعت كل أجزائه، وعادت إليه الحياة فقط، لتحدث بينهما علاقة جماع، أسفرت عن «حورس» الابن، قبل أن يخلّد «أوزوريس»؛ ليصبح ملك مملكة الموتى. واستمر الصراع في الأرض بين «حورس» و«ست».. صراع بين «الخير» و«الشر». وفي إحدى جولاتهما، اقتلع «ست» إحدى عيني «حورس»، وكان اقتلاع عينه ذا أهمية كبيرة؛ لأنها كانت تمثل إظلام القمر خلال مراحله المختلفة. وعودة عينه إلى جسده كانت تمثل عودة القمر إلى

كامل ضيائه. وأصبحت من يومها عين «حورس» رمزًا للتضحية والفداء بالغالي والثمين، بل صارت - أيضًا - تميمة وحجابًا ووجاءً واقيًا.

ربت «مالك»، في هذه اللحظة، على يدي «سعد» وهو يقول مشفقًا:

- لا تحزن يا بني، حين تفقد الغالي والثمين من أجل «أتباع حورس»؛ فهم أتباع الخير. سيظل أتباع «ست» يقاتلونكم. ربما تفقد أعز وكل ما تملك: عيناك.. بل روحك ذاتها، لكن المقابل أكبر من أي شيء تتخيَّله. لقد استطاع «حورس» أن يسيطر على النيل والأرض الخصبة من حوله، وقلب الحضارة المصرية بعلومها كلها. أما نصيب «ست»، فقد كان الصحراء الجرداء الجدباء، هو وأتباعه.

إن انتصار «حورس» كان بمثابة إعادة النظام، الذي فقده العالم إبان حكم «ست». وظل الصراع بين النظام والفوضى قائمًا منذ ذلك اليوم، وحتى هذه اللحظة. وسيستمر إلى ما شاء الله له أن يستمر.

توقَّف «مالك» ليلتقط أنفاسه، وكحَّ مرتين، قبل أن يقول، وضعفه يستشري في كل أطرافه، مع كل كلمة تخرج من فمه:

- ولقد سيطرت حضارتنا على الكوكب كله، من هذه البقعة، من النيل، من أرض مصر، حضارة المصريين القدماء، ووصلت إلى ذروة العلوم. أراد الملك توزيعًا عادلًا للعلوم والتقنية والخير، لكل أرجاء البسيطة، لكن كان هناك من له رأي آخر، يريد أن ينحصر التفوق في فئة

معينة، يسمح لها بالسيطرة على مقدرات الكوكب، ويضعها موضع الريادة. وحدث النزاع. وحينما تراءت للفئة الخيرة أنهم لن تكون لهم الغلبة، ولن ينجحوا في حربهم، أخفوا هذه العلوم؛ ليحافظوا عليها، ووضعوا مفاتيحها في سلالتهم، وكان دليلهم هذا الخاتم الذي ينتقل يدًا بيد، إلى أن تأتي اللحظة المناسبة للحصول على هذه الأسرار.

الفئة الخيرة تقتفي أثر نسلها بخاتم، والفئة الشريرة تقتفي أثر نسلها بثعبان يلتهم ذيله، كنايةً عن انحصار المعرفة بداخلهم فقط. وكانت الحرب على مر العصور بين حاملي الخاتم وأهل الثعبان، بأشكال متنوعة. الفئة الخيِّرة القليلة تحاول مساعدة البشرية، والفئة الباغية تحاول السيطرة لجمع المال والتقدم: مخدرات، ودعارة، ونظام مالي يضع السيطرة وموازين القوى في أيديهم وحدهم.

- ولماذا تقص عليَّ هذا النبأ؟

- لأنك ابني.. أنت يا «سعد»، وأخوك «سليم»، من ذريتي. أحببتكما حبًّا جمًّا، كانت تنتابني الأحلام والهواجس كل يوم، قبل مولدكما، بأن حياتكما ستنهار، بسبب هذا الأمر. وقررت أن أبعدكما عن هذا الصراع، وأن أضع نهاية لهذا الأمر، الذي جعلني أعيش طوال حياتي في أرق، فقررت أن أوقف هذا التسلسل وأن أسحق الخاتم وأنتهي منه، ولا أقص نبأه لمن بعدي، وأن أبعدكما عن أي حروب قد تخوضانها بسبب هذا الأمر. عشت عمري منتظرًا هذه الحرب، ولم أتمنَّ أن تمرا بما مررت به، ولكني تحرَّيت الدقة لأن أترككما عند من أعرف أنهم أناس خيرون، لا ينجبون. واتفقنا على كل شيء. وكانوا يسمحون



لي أن أكون دائمًا بالقرب منكما، وإلى جواركما، أرعاكما من دون أن ترياني. وأعرف كل أخباركما يومًا بعد يوم.

لم يستطع «مالك» أن يكمل حديثه، فبلع ريقه بصعوبة، وكأنه يبتلع حجرًا، وأغمض عينيه، وتشبثه بيد «سعد» يخفت:

– كنت أود أن أُنهي هذا الأمر، لكن الأقدار كان لها رأي آخر. عرفتُ أن «الحطَّام» يسعى بكل جهده وراء هذا الأمر، ووراءه أناس لا يقلون شرًّا عن أتباع «ست» نفسه. وها هو قد تخلَّص مني. «الحطَّام» يجب أن يموت يا «سعد»، واحذر مَن وراءه، فسيظلون وراء هذا الأمر سعيًا، لكنك مختلف؛ أنت قوي يا «سعد»، أقوى مني. أنا الذي أقض هذا السر مضجعه، مع المسئولية التي وُضعت على عاتقي. وها أنا أقول لك. فلتحافظ على هذا الأمر بحياتك، أو تمُت من دونه. إما أن تصل هذه العلوم لمن يصونها، وإما ألَّا يصل إليها أحد من العالمين. الخاتم يا «سعد».. الخاتم يا بني.. دونه روحك.

– كيف أصل إلى هذه العلوم يا أبي؟ أخبرني.. كيف حَمَيْتُمُوها؟ وأين أخفيتموها؟

لكن روح «مالك» فاضت إلى بارئها قبل أن يقول أي شيء آخر، بعدما غيَّرت كلماته حياة «سعد» للأبد.

ومن يومها، كان الخاتم بمثابة عقد قران مع هذا الأمر..

لقد تزوجه، وتحول اهتمامه بشكل مطلق ناحية علوم أجداده..

وبهرته هذه الحضارة..

واستشعر داخل عروقه الدماء الملكية..

حتى ذكاؤه لم يكن صدفة..

فأجداده عملوا على تحسين أنسابهم بعلوم الهندسة الوراثية..

ويبدو أن ذكاءه وقدراته لم تكن محض الصدفة..

عاش عشر سنوات منتظرًا..

حتى لحظة إعدام «صابر»، التي رأى فيها طرف الخيط..

الخيط الذي تتبعه..

حتى عرف كل شيء..

ترتيب البوابات..

ما معهم، وما ينقصهم..

لهذا قرر أن يهب حياته بإرادته.

فقد عاش طوال عمرٍ يستعد للنهاية..

وقرر منذ اللحظة الأولى أن ينتهي هذا الأمر على يده..

فالموت واحد والأسباب متعددة..

وإذا كان لا بد من الموت..

وإذا كان قد حُرِم من الحياة..

فليصنع من لحظاته الأخيرة ما يستحق عمرًا كاملًا..

وليُخْلِفَ أثرًا من بعده..

لا يُنْسَى.

وها هو الآن على بُعد خطوات من تحقيق حلمه..

وبينما كان «سعد» في غيبوبته القصيرة، كان «عزت» يردد في تساؤل:

- «سعد العشماوي».. هو آخر الأنساب الملكية؟!

قال «فرَّاس» بكلماته القليلة الموزونة:

- «جيداليا» يرى أن هذا هو الاحتمال الأرجح. «مالك عبد الجبار»، الجلاد، الذي تخلصنا منه يوم إعدام «الحطَّام»، كانت له ذرية.. ذكران توأم. و«سعد» و«سليم» كانا لقيطين. الآن، ومع هذا الخاتم، الذي كان في حوزة «سعد»، الدلائل كلها تؤكد أنه من ذريته. وها هو الآن بعين واحدة، كما تقول الطلاسم: اليتيم حامي أبيه، ذو العين الواحدة. ألم يكن «حورس» هو صاحب العين الواحدة؟

تقدَّم نحو «سعد»، فاقد الوعي، وأزاح الغمامة من على وجهه، ليتبدى لهم جليًّا وجه «سعد» الأعور.

حمله «فرَّاس» على كتفه، وهو يقول بكلمات مقتضبة:

- تبقَّت أربع ساعات حتى مطلع الفجر، هذا جيد، لدينا من الوقت ما يلزم قبل أن تنغلق بوابة الولوج عند بئر موقع «سيتا». «جيداليا» والأخوان ينتظروننا هناك مع القناع والأسورة والنسر الآشر. ليس هناك وقت لنضيعه.. هيا بنا إلى هناك.



تبعه «عقرب»، وقبل أن يغادر القبو، نظر إلى عينَي «نسر»، ثم أومأ برأسه ناحية «مريم الصواف»، وكان آخر ما رآه، وهو يغلق باب القبو، الرجل يصوب مسدسه ناحية «مريم»..

ثم دويٌّ عالٍ لطلقة نارية..

وتطايرت قطرات الدم بقعًا قانية على الحائط.

وفتح «سعد» عينيه فجأة، من فوق كتف «فرّاس»، على أثر الدوي.

قبل أن يهوي مبتعدًا عن وعيه، في ظلام إغماضة طويلة..

مرة أخرى.

(٥٢)

استيقظ «سعد»، من غيبوبته القصيرة، على هواء رطب، ينضح ببرودة شديدة، تلقته بجفاء. فاجتاحت أوصاله قشعريرة تنذر بهلاك. لا يرى على مد بصره إلا آبِدًا من الرمال. كان محمولًا على كتف «فَرَّاس»، رأسه للأسفل، يحدد بصعوبة أربعة أزواج من الأقدام من حوله. الأمطار غزيرة، والرياح تقذف ذرات التراب داخل عينه الواحدة، فلا يستطيع منها وقاية. يشعر وكأنه يفقد السيطرة على جميع أطرافه. يريد أن يعرف الوقت؛ فقد تاه في مجرى الزمن، وتساوى عنده الليل والنهار، منذ أن أضحى غيابه عن الوعي أكثر من يقظانه. فمد رأسه للأعلى قليلًا، علّه يرى منها قبسًا يهديه علامة على الوقت. رأى من هذا الوضع المقلوب بشارة فجر، وسماء زاخرة بسحابٍ ثقالٍ، يوشك أن يسقط على الأرض.

حَرَّكت الرياحُ الغمامَ، فظهرت صفحة السماء مصطفة بشهب هاوية. دوَّامة من السواد اقتحمت وعيه من جديد، دفعته دفعًا..

إلى حالة أخرى من الانفصال عن الواقع..

كان يعافر سكرات الموت.

عاد إليه وعيه مرة أخرى.. فتح عينه ليرى نفسه ممددًا إلى جوار تابوت. استسلم تمامًا إلى «فَرَّاس»، وهو يحيط ذراعه بقماشة بيضاء لها ملمس خشن، كإبر حادة، استشعر على أثرها آلامًا حارقة، وكأنها تأكل جلده. بدأ القماش الأبيض يتغيَّر لونه إلى الأحمر القاني، فنزع «فَرَّاس» عنه اللفافة بحذر، ثم تناول زجاجة من الكحول، أفرغ محتوياتها على ذراع «سعد» ليزيح الدماء ويوقف تدفقه.. ثم وقف مبتسمًا يتأمل صنعته في إعجاب.

وشم آخر يماثل وشمه، تم وشمه على ذراع «سعد».

ثعبانٌ، رأسه يلتهم ذيله.

قال له «فَرَّاس» بابتسامته المخيفة، وفحيحه الثعباني:

- الآن لم يعد هناك وجود لأتباع «حورس»، وانتصر أتباع «ست».

نظر «جيداليا» إلى الأخوين و«عقرب»، قبل أن يقول لـ«فَرَّاس»:

- «سعد العشماوي» يلفظ أنفاسه الأخيرة. يُستحسن أن تدخل إلى التابوت، لكي نفتح بوابة العبور. عليك أيضًا أن ترتدي القطع اللازمة، وإن لم تُفتح البوابة، لربما وجب أن يكون «سعد» أيضًا داخل التابوت، لستُ متأكدًا إن كان وجوده بنفسه ضروريًّا أم لا.

كان أربعتهم، خامسهم «سعد»، ينظرون إلى «فرّاس»، وهو يضع خاتم «سعد» مكانه في التجويف الأوسط، المخصص له، عند ركن التابوت، بين الخاتمين الآخرين. يرتدي القناع المصمت والأسورة، ويضع على صدره النسر الآشر. ثم أجاب «جيداليا»:

- على الأرجح، البوابة ستُفتح من دونه.

ثم استلقى داخل التابوت..

وقف الجميع ينظرون، وهم يحبسون أنفاسهم..

وفجأة.. اهتزت الأرض من تحت أقدام الجميع..

ومن دون سابق إنذار، في الثانية الأخيرة، وقبل أن يدرك الجميع ما يحدث، كان «سعد» يستجمع كل ما لديه من قوة داخل جسده، وفي خفة منقطعة النظير، قفز، وهو يلتقط خاتم [illegible]، الذي أوصاه به معلمه بألّا يفارقه، ثم ألقى بنفسه داخل التابوت..

هرع «جيداليا» والأخوان و«عقرب» ينظرون إلى داخل التابوت..

كان كل شيء في مكانه، كما هو..

القناع، والأسورة، والنسر الآشر..

ولكن لم يكن هناك أي أثر لمخلوق بشري.. لا «فراس» ولا «سعد»!



(٥٣)

- «سعد»!

استيقظ «معتز» من نومه وهو ينطق باسم صديقه.

تعتريه حالة من القلق الشديد؛ فهناك أمر بإلقاء القبض عليه، قُتِل كلبه «آنوبيس»، احترق منزله، وأتت النيران على حديقته، التي قضى عمرًا يعتني بها. عالمه كله انهار. هي عملية انتقام كاملة.

رأى كابوسًا، في أثناء غفوته، التي غلبته في أثناء نزاله مع الأرق.

رأى صديق عمره، وهو في أسوأ حالة يمكن أن يراه عليها.

على وجهه حزن البحر، حينما يبتلع الغارقين، ينزف الدم حزينًا..

فَقَدَ عينه اليسرى..

نظرة حزن، وحيدة، باقية، تنبعث من عينه اليمنى..

وجهه يعتريه شحوب الموتى..

كان يُعافر سكرات الموت في صمت..

لكنه ابتسم في وهن لمرأى «معتز»..

فسأله في جزع، بعدما انفطر قلبه لرؤية صديقه على هذه الحال:

– ماذا بك يا صديقي؟ ما الذي ألَمَّ بك؟

ربت «سعد» على كتفه في ضعف، وهو يقول بابتسامة شاحبة:

– لا تقلق عليَّ.. لماذا أنت دائمًا مهموم بأمري؟ أنا على خير حال.

ثم اختفى «سعد»..

غاب كغسق القمر..

واستيقظ «معتز»، وهو يناديه، علَّه يعود.. ليدرك أنه كان حلمًا.

دوَّت في عقله عبارة قالها له «سعد» منذ أيام في المشرحة:

– مهما عرف الإنسان من تجارب يا صديقي، سيظل فراق الأحبة هو الأكثر ألمًا.

اختنق لفكرة فقدان صديقه.. شعر أن الهواء نفسه يخاصمه.

تذكر جهاز «التتبع النانوي» الذي حقنه به. عليه أن يذهب إلى المعمل حالًا. هو أمله الأخير؛ ليعرف أين يجده. فانطلق متعجلًا، يقود سيارته متهورًا، لعل هناك أملًا واحدًا وأخيرًا، تبقَّى كي ينقذ صديقه.

هذا إن كان حيًّا!

(٥٤)

بوابة «الولوج».

البوابة السادسة: الإبحار نحو الشمال - داخل مركب الشمس «يوف».

«تلك التي تحدد الطريق، ذا السكاكين الحامية» - «بئر العالم السفلي».

كان «فرّاس» و«سعد» يهويان..

روحان بلا جسد..

أو، على الأقل، هذا ما استشعراه.. كأن روحيهما انفلتتا من عقاليهما..

فتحررتا من جسديهما..

ذلك السجّان، الذي يسجن الروح في حيزها، فأصبحا خارج حدود واقعيهما بعقليهما.

كتلتين واعيتين، ضبابيتين، هلاميتين، تعرفان كينونتيهما جيدًا..

كتلتين من «البلازما».

هذا أول ما جال بعقل «فرَّاس»..

أن بوابة «الولوج» ما هي إلا «ثقب كوني»، عبر «وتر فائق». وقد تجاوزا «أبراج التخليق»، إلى حيث «مصنع النجوم»، ليتحول جسداهما إلى حالة «البلازما»، كمرحلة وسيطة، تسمح لبنائهما الجسدي بإعادة تشكيل ذراتهما وكينونتيهما، كي تستطيعا البقاء في هذا العالم الجديد، الذي يُخلَق لتوّه، بثوابته الكونية التي تميِّزه..

كان عالمًا كاملًا، يُشكِّل في هذه اللحظة..

وجودًا بأكمله، يُنشأ من العدم.

كينونتاهما كانتا خيطَي دخان أبيض، في ظلام دامس، في عدمٍ إلا منهما.

اندمجتا، والتحمتا..

وكأنهما تتصارعان..

وفجأة انتهت حالة التحرر..

وأظلم كل شيء..

وشعرا بجسديهما من جديد..

جسدين مكتملي النمو، لا يعرفان نقصًا أو عيبًا.

فقد خُلقا لتوهما..

وعاءان جديدان غلَّفا روحيهما..

نظر «سعد» إلى ذراعيه بعينيه..

فجسده الجديد لم يكن أعورَ.

واختفى الوشم، الذي وسّمه إياه «فَرَّاس» من على ذراعه.

يرتدي ثيابًا بيضاء..

وحُلّي أساور من ذهب..

تمامًا كقدماء المصريين..

لكن، لم تكن هناك قطعة من حُلِي تزيِّنه أجمل من خاتمه، الذي بعث هالة من نور غلّفته تمامًا، واحتوت جسده بالكلية.

- لا تفارق الخاتم يا «سعد»؛ ففيه خلاصك، ومفارقته فيها هلاكك.

أما «فَرَّاس» فكان يقف أمامه مباشرة..

على الهيئة نفسها.. واللباس نفسه..

ولكن من دون هالة النور التي تحيط بجسد «سعد».

كلاهما يناهز العشرة أمتار طولًا..

بديا كعملاقين..

ثم انبثقت الأرض فيما بينهما..

وانفجرت نوافير حمراء لها لون الدم..

لطَّخت وجه «فرَّاس» وملابسه..

وارتدَّت عن جسد «سعد»؛ بسبب الهالة التي تحميه، فبقي نظيفًا براقًا، ثم تراجع خطوتين إلى الوراء وهو يمد بصره للأعلى..

إلى حيث منتهى النافورة.

ثم دار حول نفسه دورة كاملة؛ ليرى أين هو..

كان يقف على أرض بيضاء، غير مستوية..

مليئة بمقابر وكهوف وتوابيت حجرية..

سماؤها حمراء..

وشمسها بيضاء..

كشروق شمس ليلة القدر..

تحملها عدد من الأذرع..

ثم مالت نافورة الدم الحمراء، كالقوس، بمحاذاة الأرض البيضاء..

وسقطت عليها، لتجري نهرًا أحمرَ، فكان حاجزًا بينهما..

يقف كلٌّ منهما على ضفتين متقابلتين منه، العبور إلى الضفة الأخرى ليس سهلًا هينًا؛ فمياهه تجري بموج كالجبال..

يحيط بضفتي النهر الأحمر، العظيم، سلسلتان من الجبال. إحداهما في الشرق، على اليسار، وهي الجهة التي يقف فيها «سعد»، رمز اليوم والحاضر في معتقدات قدماء المصريين. وسلسلة أخرى، في الغرب، على اليمين، ترمز للأمس أو السالف، يقف عندها «فَرَّاس»، ينساب ماؤه متجهًا من الغرب إلى الشمال، لنصف الوقت، ثم يعود فيجري من الشمال إلى الشرق، في النصف الثاني من الليل.

ثم هدأت نافورة الدم تمامًا..

والتقت أعينهما، فحوَّلاها، في اللحظة نفسها، إلى الاتجاه نفسه.

إلى حيث يفيض نهر الدماء..

ثم ظهر دون سابق إنذار..

انبلج فجأة..

كبير عملاق..

فيما بينهما:

«مركب الشمس»..

مركب واحد فقط..



فهذه اللحظة تم إعدادها لكيان واحد..

وقفز كلاهما على سطحه الخَطَران المتأرجح..

ثم انقض «فَرَّاس» على «سعد» وهو يقول:

- هذا العالم لن يتسع لكلينا.

أجابه «سعد» وهو يكوِّر قبضتيه:

- العوالم كلها لن تتسع لكلينا.

باءت كل محاولات «فَرَّاس» بالفشل. كلما أراد أن يصل إلى جسد «سعد»، ترتد قبضته عن هالة النور التي تحميه..

لم يفضّ شجارَهما سوى سربٍ يتجاوز آلاف الغربان الأغْباش، عبر فوقهما، فأظلمت سماؤهما، من أعدادها الكثيفة، وهي تطلق نعيقًا لا يُحتمل. ثم ظهر أمام المركب أربعة عشر كائنًا مهجنًا، لهم رأس الكبش وجسد التمساح. وفي تشكيل سباعي، من مقدمة المركب..

ألقوا حبالهم، ثم شرعوا في سحب مركب «الشمس»، لتكمل مسيرة رحلة الشروق مرة أخرى، وإتمام دورة الزمن.

لتبدأ الرحلة المخيفة عبر ساعات الليل المظلمة، وبواباتها الاثنتي عشرة.

(٥٥)

نظر «عقرب» إلى كلٍّ من «ملهم» و«مميز» يستجدي إجابة..

- اللعنة! ما المفترض أن يحدث الآن؟

أتته الإجابة من خلفه من صوت يعرفه جيدًا ولهجة فهم مغزاها فورًا:

- المفترض الآن أن تقضي نحبك؛ فقد انتهى دورك.

التفت «عقرب» إلى «جيداليا»، فوجده يصوِّب مسدسه نحوه..

وكان هذا آخر ما رآه، بينما كان آخر ما سمعه هو صوت طلقة نارية..

سقط «عقرب» أرضًا، مُضرَّجا في دمائه، ونافورة من الدماء تنبثق من رأسه، وآخر فكرة سيطرت عليه: أن شريكه «أدهم الملَّاح» كان - ولا بد - محقًّا في أن يرفض التعاون مع هؤلاء.

لم يلتفت إليه «جيداليا»، ووجَّه سؤالًا إلى الأخوين:

– سأعيد ما قاله هذا الأحمق: اللعنة! ما المفترض أن يحدث الآن؟

تبادل الأخوان نظرات متوترة، قبل أن يقول «ملهم» في تردد:

– مستر «جيداليا».. نحن أول مَن يصل إلى هذه المرحلة. لا نستطيع أن نقول على وجه التحديد أي شيء؛ فقد تتبعنا شفرة من أعقد الشفرات، ونجحنا في حل رموزها في تتابع. الأمر المؤكد أن هؤلاء القوم لا يمزحون. سنصل إلى المعرفة الكاملة، ولا شك. أما كيف؟ فهذا ما سنعرفه في القريب.

– في القريب؟! متى بالتحديد؟

– ما عساي أقول إلا ظنًّا. عقائد المصريين القدماء تنص على أن الشمس حين تأفل لحظة ما بعد الغروب، تبدأ رحلة العالم السفلي في مدة زمنية «١٢» ساعة، تمثل ساعات الليل.

ثم تابع «مميز»، وهو يشير بإصبعه محذرًا:

– هذا على اعتبار أن معيار الوقت واحد، لكن «فَرَّاس» قال إن هناك مسافة ثلاثة ساعات ونصف الساعة، بين كل كون وآخر، وأكد أننا نقف على الحدين الكونيين الأول والسابع، أي أن هناك ما يقارب يومًا كاملًا يفصل بيننا، وهذا معناه أن...

قطع حديثه على صوت دوي هائل، عظيم، ينذر بعذابٍ واقع..

كألف انفجار، آتٍ مباشرة من مكان قريب منهم للغاية..



من داخل التابوت!

وضعوا أصابعهم في آذانهم، حذر الصمم، قبل أن يهدأ كل شيء ويختفي الصوت بغتة - تمامًا - كما بدأ فجأة.

وقف ثلاثتهم يلهثون لثوانٍ، وهم يتبادلون النظرات، قبل أن يقول «جيداليا» في بطء، ونبضه ما زال في تسارع مستمر:

- ماذا كان هذا بالضبط؟

تبادلت العيون نظرات حائرة، قبل أن يتقدموا في بطء وحذر، ليلقوا نظرة إلى داخل التابوت..

ليحتنق وجه «جيداليا» غضبًا، وسقط فكا «ملهم» و«مميز»، وهما لا يصدقان ما يريانه..

والأول يصرخ في انفعال ليس له مثيل:

حمقـــــــــــــــــــــــى!!

(٥٦)

بمجرد عبور مركب الشمس «يوف»، بوابة الولوج، التي تحمل على متنها «فَرّاس» و«سعد»، انطلق شعاعان ضوئيان ذهبيان، من قائمي البوابة إلى السماء مباشرة، والتقيا في نقطة واحدة..

عند مثلثٍ رأسه في السماء، وقاعدته هي قائما البوابة «السادسة».

وبشكل تدريجي، تحوَّل المثلث إلى شكل هرمي!

فقد امتد شعاعان آخران من الضوء بمحاذاة النهر السماوي، وانتهيا حتى أبعد من مرمى بصريهما. ومن هذين النهايتين، انطلق شعاعان أخران إلى النقطة نفسها في السماء..

حيث رأس «الهرم».

كان المشهد مبهرًا، ليس له مثيل.

(٥٦)

بمجرد عبور مركب الشمس «يوف»، بوابة الولـوج، التـي تحمـل على متنها «فَرّاس» و«سـعد»، انطلـق شـعاعان ضـوئيان ذهبيـان، مـن قائمي البوابة إلى السماء مباشرة، والتقيا في نقطة واحدة..

عند مثلثٍ رأسه في السماء، وقاعدته هي قائما البوابة «السادسة».

وبشكل تدريجي، تحوَّل المثلث إلى شكل هرمي!

فقد امتد شعاعان آخـران مـن الـضوء بمحـاذاة النهـر الـسماوي، وانتهيا حتى أبعد من مرمـى بـصريهما. ومـن هـذين النهـايتين، انطلـق شعاعان أخران إلى النقطة نفسها في السماء..

حيث رأس «الهرم».

كان المشهد مبهرًا، ليس له مثيل.

«هرم» رأسه في السماء، وقاعدته المربعة، نقطتان منها ترتكزان على بوابة الدخول، ونقطتان أخريان هناك.. بعيدًا جدًّا.

بعين الخيال، رأى «سعد» أين تقع هاتان النقطتان الأخريان..

عند البوابة «الثانية عشرة»..

تطلع كلاهما حيث قمة الهرم في السماء، الذي احتوى مجاله كل شيء في محورين: محور رأسي، من الأرض إلى السماء، ومحور أفقي، من بوابة الدخول (البوابة السادسة)، وحتى بوابة الخروج (البوابة الثانية عشرة).

وفي ثلثي ارتفاع هذا المثلث السماوي، وبالتحديد عند نسبته الذهبية، بدأت تتشكل غرفة لها جدار واحد، أوشك أن يكتمل.

بالنسبة لـ«سعد» و«فرّاس»، كان الأمر واضحًا للغاية، لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء..

هذا هو «المنزل الخفي»..

الذي يحتوي على العلوم والأسرار..

فالنص يقول: «ترتبط كل ساعة من ساعات (كتاب ما في العالم السفلي) باتجاه جغرافي معين؛ فالساعات الأولى والثانية والثالثة والرابعة، مسجلة على الجدار الغربي للمنزل الخفي، والخامسة والسادسة، على الجدار الجنوبي، والسابعة والثامنة، على الجدار الشمالي، والساعات من التاسعة إلى الثانية عشرة، مسجلة على الجدار الشرقي.

هذا البناء سيكتمل تمامه إذًا مع عبور البوابة الأخيرة بنجاح.
الهدف معلوم، والكيفية مجهولة؛ فترتيب العبور الزماني والمكاني المعمول به في النصوص الجنائزية:

١\٢\٣\٤\٥\٦\٧\٨\٩\١٠\١١\١٢

أما الترتيب حسب فك طلاسم الشفرة:

٦\٥\١٠\١\٣\٧\٤\٨\٩\١١\١\٢\١٢

لكن الثابت والمعلوم أن بناءه سيكتمل في الأخير.

كان كل ما يشغل «فَرَّاس»، ومن قبله «سعد»، الكيفية التي سيختاران بها ترتيب العبور بين البوابات..

«سعد»، الذي حفظ ترتيب البوابات عن ظهر قلب، عن طريق أجهزة التنصُّت، التي زرعها في قبو «الملَّاح»؛ فقد كان مهتمًّا أكثر من أي أحد آخر بالحصول على هذه الأسرار؛ فأبوه قد لفظ آخر أنفاسه قبل أن يهديه إليها سبيلًا، حتى بادره الأمل، من جديد، مع لحظة إعدام «صابر»، فاقتفى آثارهم، وتركهم يخوضون في ما يصنعون، بدءًا من حل ألغاز الطلاسم، وحتى الحصول على القناع. وقد علم أنهم لن ينجحوا من دونه؛ فالخاتم معه.

أتت الإجابة لكليهما على مرمى البصر..

اثنتا عشرة بوابة على صف واحد، تشبه تمامًا بوابات العبور على الطرق السريعة، التي تخصَّص كل حارة منها لنوع معيَّن من السيارات..

البوابات كبيرة واسعة، وكأنها صروح عملاقة، يقف على مدخل كل منها ثعبان ضخم للحماية، عملاق وكأنه ديناصور، قادر على ابتلاع المركب نفسه..

وكانت هذه هي الطريقة التي حمى بها المصريون أسرارهم..

من يتجه بدفة المركب «يوف» إلى البوابة الصحيحة، سيُفسح له الثعبان الطريق للعبور.. ومن يأخذه حظه العاثر إلى هذا المكان، من دون معرفة الترتيب الصحيح، سيبتلعه الثعبان.

كل ما عليهما فعله إذًا، أن يمسكا بمقود المركب، ليدفعاه عبر البوابة الصحيحة..

البوابة التالية حسب شفرة العبور هي البوابة الخامسة..

التي تحمل اسم «السائرة وسط قاربها»!

نظر كل من «سعد» و«فرَّاس» باتجاه مقود المركب الدائري الخشبي. وفي الثانية التالية مباشرة، نظر كل منهما في عيني الآخر مباشرة..

وفي تحدٍّ، كوَّر كل منهما قبضتيه ليستعد للقتال..

ثم أرخياهما في وقت واحد..

لا فائدة من القتال في هذه اللحظة. الأهم هو أن يعبرا البوابة الصحيحة الآن، وإلا تم القضاء على كليهما..

ربما عليهما أن يتعاونا حتى يمرا بسلام.. هدنة مؤقتة.



ولا بأس من أن يشتعل الصراع من جديد، بين البوابتين الخامسة والعاشرة، التي تليها مباشرة، حسب شفرة العبور.

ثم ظهرت، لتقلب الموازين وتحسم الأمر، خمسة طيور بيضاء، لها تشكيل هرمي: طائر في قمة الهرم، استقر فوق رأس «سعد»، وأربعة طيور وقفت على رؤوس مربع حول قدميه، تحيط بهم سبع عقارب..

كانت تحمي «الخير»..

وآخر أنسالها الملكية..

التي تعرَّفته بسبب خاتمه، وهالة النور المنبعثة من حوله.

ففيه خلاصك، ومفارقته فيها هلاكك.

وكان هذا هو أعقد جزء في شفرة «الأخيار».

فالشفرة جزء كبير منها مسطور، وجزء ضئيل منها منقول..

جزء يسير، غير مكتوب..

ولكن لا يستقيم الأمر من دونه..

وهو الذي يُنقل «شفهيًّا» عبر الأجيال، وتحمله الصدور..

السر في «الخاتم».

وما كان لـ«فرَّاس»، وأعوانه، أن يكون لهم من علم بهذا السر..

كانت الطيور ترنِّم بتراتيل جميلة، والعقارب تصأى بحبور..

و«سعد» قد فهم ما تنشد:

- ستقابلهم يا بن «حورس»..

سكان العالم السفلي..

والكائنات المحجوبة..

والأبواب والطرق، التي يمر عليها الباحث عن الحكمة..

هل تعرف ما تفعل؟

هل تعرف ترتيب ساعات الليل وحراسها؟

هل تعرف مجريات الساعات ووحوشها؟

هل تعرف تعويذات البراءة للصالحين الباقين، ومن هم الأشرار المنتهين بالفناء؟

كل من يعرفها سوف يحيا وينعم بحياة سعيدة في عالم «دوات».

أما «فرَّاس»، فقد كان يشتعل غضبًا..

فلقد أدرك تحيُّز العالم السفلي لغريمه، وأنه لن يقدر على أن يمسسه بسوء. هو الذي لم تعد لـ«ما بعد إنسانيته» من فائدة مرجوَّة في هذا العالم.. لا تضر، ولا تنفع.

على الرغم من أنها كانت لها قوة، شبه مطلقة، في عالمنا.

لكن «عالم الفوضى» كانت له قواعد تختلف تمامًا..

قواعده التي تنص على أنه «ليست هناك أي قواعد على الإطلاق».

عقله قد غُذِّيَ بكل أنواع البيانات التي تخص عالمنا «الوسطي»، في معتقدات المصريين القدماء.

توقفت الترانيم من أفواه الطيور والعقارب، التي تحيط بجسد «سعد»، والبوابات الاثنتي عشرة، بثعابينها الضخمة، تقترب من المركب «يوف». ليتحرك «سعد» في حماية المخلوقات إلى مقود المركب، ليجبره على المرور من البوابة الخامسة، و«فَرَّاس» يراقب في حذر..

وحينما اقترب المركب – تتقدمه الكائنات الأربعة عشر، برؤوس الكباش – من الثعبان الضخم، الذي يحمي بوابة العبور الخامسة، بدأوا في تلاوة تعاويذ غريبة، لها وقع مقبض مخيف:

في البدء، لم يكن هناك سوى بحر هائج..

في هذا البحر، توجد قوى الخير والشر..

قوى الخير تحوي البذرة، لكل ما هو حي..

قوى الشر تقطن الحية العظيمة «أبوفيس»..

حارسة الآبار، وعيون الماء.

في اللحظة التالية، وقبل العبور مباشرة، وقع حدثان متزامنان؛ الحدث الأول: غطس الثعبان العملاق في النهر السماوي، الموكل بحماية «البوابة الخامسة»، ليفسح المجال لمركب الشمس للعبور بسلام. أما الحدث الثاني فقد خرج من مقصورة المركب الداخلية كائنان لهما تكوين البشر نفسه، ولكن برأس صقر..



على هيئة «حورس».

أحدهما وقف في مقدمة المركب، والآخر عند مؤخرته.

يُمثلان «الخلق» و«الإدراك»..

تمامًا كما تقول النصوص الجنائزية..

على مرآهما، برقت في ذهن «سعد» فكرة غريبة وعجيبة..

«الإدراك»!!

ثم جاءته هذه الخَطْرَة، التي ولدت فكرة: البوابة التالية «العاشرة»، التي سيحين ميعادها بعد «البوابة الخامسة» حسب ترتيب العبور، لها اسم قد لا يكون مصادفة: «الغاضبة التي تذبح المفسدين».

عليه أن يتحيَّن عبورها، ليحوِّل الفكرة إلى فعل..

«الإدراك»!!

ربما عندها ستواتيه الفرصة لكي يقتص منه.

ورؤوس «الكباش» ترنِّم:

استقل مركب الشمس، كي يبحر بك..

وستجدف لك النجوم..

اقتل بمجاديفه الأرواح الشريرة..

ليفنى الشر.



في اللحظة التالية، تناول «سعد» أحد المجاديف..

يعلم أنها محاولة لا تفيد.. ولكنه يفعل كما يُؤمر.. ولا يبالي بالنتائج..

فتحول طرف المجداف إلى سكين حاد مدبب..

وقذفه إلى قلب «فَرَّاس» مباشرة..

حيث أراد له أن يستقر..

تمامًا..

في اللحظة نفسها، التي عبر فيها مركب «الشمس» «البوابة الخامسة»، كان قد اكتمل جزء آخر من بناء المنزل الخفي، في فضاء الهرم السماوي..

ولِتلهث الأحداث وراء بعضها لهثًا، كأمواج بحر لُجِّيٍّ، تنحسر واحدة تلو الأخرى، على صخرة المجهول.. فقط لِتُفتح بوابة جحيم جديد.

(٥٧)

جلس «معتز» داخل المعمل أمام شاشة جهاز «التتبع النانوي» يحاول أن يرصد موقع «سعد».

لا شيء.. لا أثر له..

وهذا أمر مستحيل عمليًّا..

راجع المسار المسجَّل، منذ أن حقن «سعد» بالجهاز، الذي يجري في عروقه الآن مجرى الدماء، بين كريات دمه الحمراء والبيضاء.

بدأ الجهاز يعرض المواقع المختلفة التي وُجِد فيها «سعد»، في الأربع والعشرين ساعة الماضية..

غرفة الإعدام..

المستشفى..

منزله..

ثم نقطة في طريق الإسماعيلية..

وأخيرًا نقطة في الصحراء، في اتجاه الجنوب..

لم يكن يعرف أنها نقطة الموقع «سيتا»، التي انتقل منها «سعد» عبر بوابة الولوج، لكنه يعرف الآن أن «سعد» اختفى عند هذه النقطة.

وهذا مستحيل؛ فحتى لو قضى نحبه، فما زال الجهاز قادرًا على أن يحدد موقعه بدقة! أصبح صدره عاريًا من الطمأنينة. الكون كله أصابه الحزن.. الهواء حزين كالنذير.. ففراق صديق أمر مرير.

كل الأفكار السيئة تفرض نفسها في هذه اللحظة، وتهيمن على كل الأفكار الأخرى.

تناول هاتفه، وهو يبحث عن رقم «هيب هصار»، فربما كان قادرًا على أن ينقذ صديقه. وقبل أن يضغط على زر الاتصال، عدل عن قراره؛ فـ«سعد» مطلوب للعدالة، وهو يعلم أن صديقه بريء.

هل اختفى «سعد» بإرادته ليهرب من السجن؟

وضع رأسه، في حيرة من أمره وبلا حيلة، على سطح المكتب، عاجزًا عن الحركة أو اتخاذ أي قرارات، وتمتم:

- أين أنت يا «سعد»؟ أين أنت يا صديقي؟

أغمض عينيه، وقد هُدِي إلى قرار رشيد: أن يقضي ليلته أمام الجهاز. علَّه يعمل من جديد، ويكشف له عن موقع صديقه.

(٥٨)

بمجرد عبور المركب «يوف»، البوابة الخامسة، تحوَّل إلى ثعبان!

ثعبان عملاق، ضخم، بحجم المركب نفسه؛ وذلك لسبب بسيط:

أن الزواحف تزحف بسهولة ويسر ونعومة، فوق الرمال؛ فقد جفت تمامًا مياه النهر السماوي الأحمر!

وعلى ضفتي النهر الرملي، فاضت الجبال بلهيب من حمم مشتعلة، مسرعة، كجراد منتشر، لتأكل جثثًا لا تُعد ولا تحصى، منتشرة هنا وهناك، تنهش منها جموع الكواسر الجاثمة ما استطاعت، قبل أن تجرفها الحمم. هذا هو «امتداد الجحيم، مقر تل الرمال». الطريق الذي يسير عليه «ثعبان» المركب «يوف» الآن.

أما السماء، فما زالت حمراء، تحوم من تحتها طيور خضراء، مخيفة، بشعة المنظر، تصدر أصواتًا أبشع من نعيق الغربان الذي يأكل الأجساد الميتة.

اقترب من «سعد» طائر غريب، له وجه «ضفدع»، وألقى تحت قدميه حبلين من الذهب، ثم حلّق في مستوى أذنه، ليلقي سرَّه في أذن حامل الخاتم.

أما النصل الذي استقر في قلب «فَرَّاس»، فانتزعه بسهولة، وهو يقول:

- أيها الأحمق! هل تظن أنك قادر على التخلص مني بهذه السهولة؟ نحن في قلب أسطورة الدورة اليومية؛ حيث يتكرر كل يوم هذا الصراع ضد قوى الفوضى، حتى تستطيع الشمس الظهور في الصباح التالي في أعالي السماء.

ما إن أنهى عبارته حتى ظهرت الاثنتا عشرة بوابة من جديد، على الكيفية والهيئة نفسيهما. حتى الثعابين لم تمل؛ فما زالت تنتظر في لهفة وشوق، وتتمنى اختيارًا خاطئًا لبوابة العبور الصحيحة.

لكنها لم تنَل ما تصبو إليه؛ فقد وجَّه «سعد» رأس «الثعبان» نحو «البوابة العاشرة»، وتجاوزها في أمان، ليكتمل جزء آخر من «المنزل الخفي»، في أعلى «الهرم السماوي»، ومرحلة جديدة تنتظرها.



(٥٩)

«البوابة العاشرة» - «الغاضبة التي تذبح المفسدين».

ما إن عبر «الثعبان» هذه البوابة، حتى تحوَّل إلى «مركب» مرة أخرى. وانقسم المشهد إلى طريقين متعرجين:

طريق علوي، أزرق، مائي..

وطريق سفلي، أسود، أرضي.

اتخذ المركب الطريق العلوي، وكأنه جسر

مياهه عميقة، وشواطئه عالية..

ثم ظهرت هناك، يسمع لها زئيرًا، ويرى منها فورانًا..

«بحيرة من النار»، تفصل بين الطريقين.



يراها «سعد» آتية..

كان ينتظرها في شغف..

هنا، قزر القضاء على «فَرَّاس»؛ فقد كان هذا سرَّه، الذي أسرَّه إياه ذو الوجه الضفدعي.

المركب يقترب، في سرعة، من «بحيرة النار».

يرى ذلك الطريق الصغير الذي يصل «بحيرة النار» بالطريق العلوي الأزرق، المائي..

يعرف هذا الطريق جيدًا من النصوص الجنائزية للمصريين القدماء.

هذا هو طريق «روستاو» على الماء والأرض.

هنا أخذ «فَرَّاس» يتلو تعويذة خاصة جدًّا..

CT 1035.. هذا هو رقمها في كتابات المصريين القدماء.

من يعرف هذه التعويذة يستطيع أن ينجو من «بحيرة النار» ويكون من الآمنين. أما مصير من يجهلها، فهو الإبادة وأن يؤخذ بآلام الموتى.

«سعد» التقط حبليه السحريين؛ وسيلته لإبطال التعويذة.

رفعهما بكلتا ذراعيه إلى الأعلى، فوصلتا إلى أعالي السماء..

إلى الشمس مباشرة..

وسرت فيهما شحنة ضوئية، عالية، في مشهد مبهر.



«سعد» يقف رافعًا يديه، بحبلين يصلان إلى الشمس، يمتد منهما وإليهما ويسري فيهما أشعتها ذات الضوء الذهبي، محميًّا بخمسة طيور وسبع عقارب و«منزل خفي» غير مكتمل في أعلى هرم، رأسه في السماء وقاعدته على الأرض، ثم زأر، كالأسد، وهو يلقي بالحبلين ناحية «فرَّاس»، لينفلت الحبلان من بين يديه، ويلتف كل منهما حول جسد «فرَّاس» الذي أخذ يصرخ، وكأنه يحترق في سقر. قبل أن يُقْذَف به ملفوفًا، بحبلي الضوء والشمس، داخل «بحيرة النار»، وهو يصطرخ فيها، مطلقًا ألف أنين.

لقد هزمه «سعد»..

هزمت قوى النظام والنور، وحوشَ الفوضى والظلام.

وليتابع المركب «يوف» رحلته بترتيب الشفرة: البوابة الثالثة، السابعة، الرابعة، الثامنة، التاسعة، الحادية عشرة، والأولى، بسلام

و«سعد» الذي كان يعلم جيدًا ما ينتظره بعد ذلك..

«البوابة الثانية»؛ حيث صالة الحقيقة، التي يتم فيها وزن القلب.

ساعة الحسم.

(٦٠)

ركع «جيداليا» على ركبتيه، وهو يمسك بحواف التابوت. جسده كله يرتجف.. يشتعل غضبًا.. يكاد يخرج زفيره نيرانًا ملتهبة.. وعيون الأخوين لا تصدق ما تراه داخل التابوت..

أو «مَن» تراه، على وجه الدقة..

«فَرَّاس الحطَّام»..

يرقد مفارقًا الروح، داخل التابوت، متفحمًا كمومياء محترقة.

قُتِل على يد «سعد»، كما قُتِل «ست» على يد «حورس».

ترقرقت عيناه كمدًا وحسرة – وليس حزنًا – وهو ثابت كتمثالٍ من الحجر. لم ينبس الأخوان ببنت شفة، وهما يقفان وراءه، يضعان كفيهما على كتفيه، كل من جهته، يشدان من أزره.



كانت يداهما ترتعشان، فوق جسده، بمقدار ارتجافته..

خمس دقائق كاملة مضت، حتى هدأ «جيداليا»..

ووقف في مكانه؛ ليقول في غضب هادر وهو ينظر إلى جسد «فَرَّاس»:

- «جيداليا» لا يُقهر ولا يستسلم، ولا ييأس قط. دائمًا لديه خطط بديلة، وأكثر من طريق ليصل إلى مُبتغاه.

ثم دار بجسده في بطء، ليواجه الأخوين، وهو يتابع في إصرار وعزيمة:

- لن أترك هذا الأمر، ما دام هناك نَفَسٌ في صدري يتردد. وسنقتنص هذه الأسرار من بين أيديهم.

ثم وضع كفيه على كتفي «ملهم» و«مميز» هذه المرة، وهو يقول كالشيطان:

- الـ«ما بعد إنسانيين» سيغزون العالم.



(٦١)

فجأة.. اختفى كل شيء..

بدأت المرئيات تغيب عن عيني «سعد» رويدًا رويدًا..

ثم اختفى كل شيء بغتة..

كل شيء..

عدم مطلق..

المركب، والبحر، والطيور، والعقارب.. تركوه وحيدًا من دون حماية.

هنا، لن ينفعه إلا هو.

ثم ظهر أمام «سعد»..



كنقطة بيضاء، انبثقت في فضاء أغبش سرمدي، يتقدم ناحيته ببطء..

لا يصدق ما يراه..

ربما يتخيل ما يدور، بناءً على معرفته السابقة كيف تُدار الأمور داخل صالة الحقيقة..

لكن كل شيء يبدو حقيقيًّا..

جدًّا..

خفق قلب «سعد» وهو ينظر إليه مباشرة..

رمز «الخير» و«العدل» و«الشمس» عند «قدماء المصريين».

حامي أبيه، الذي فقد عينه اليسرى، في معركته مع «ست».

«حورس»..

شخصيًّا..

كانت له وجه منير كالقمر، يُشَمُّ منه مسك أذفر، ينبعث من ثوب جميل من الكتان الأبيض. يقف أمامه مُرحِّبًا. وبكل فخر، وإباء، اقترب من «سعد». علَّق على صدره تعويذة، عليها عين «حورس». يده اليمنى تحمل مفتاح الحياة، بينما يده اليسرى يمدها إليه في ود. رفع «سعد» كفه، في حذر، وتركها في يدي «حورس»، الذي عبر به من الظلام، إلى مكان جديد تمامًا.



قصر أسطوري؛ حيث الأروقة والدهاليز، المعبقة برائحة البخور، والجدران المزدانة والمزركشة بالنقوش والكتابات الهيروغليفية الزاهية، وحيث الكهنة، والفتيات الجميلات يتجولن هنا وهناك بهدوء، يرفلن بثيابهن البيضاء. الكاهنات ينشدن بصوتهن العذب الحزين، الرخيم، أعذب الترانيم، التي تقشعر لها الأبدان، من روعتها ودفئها وعذوبتها. هنا تطير الألحان، فتمس قمم الأشجار.

ها هو الميزان، وها هو الحارس «توت» يقف إلى جواره ليسجل بالقلم نتيجة الميزان، وها هو الكائن «عمعموت»، يقف متربصًا لالتهام المفسدين.

النصوص الجنائزية تقول: إنه يؤتى بقلب الميت، ويوضع في إحدى كفتي الميزان، بينما توضع في الكفة الأخرى «ريشة معات»، وهي رمز «العدالة والأخلاق الحميدة». فإذا رجحت كفة الريشة على كفة القلب، فمعنى ذلك أن الميت كان طيبًا في حياته، وعلى خلق كريم. أما إذا ثقل القلب عن وزن الريشة، فقد كان في حياته جبارًا عصيًّا. عندئذٍ يُلقى بالقلب، وبالميت نفسه، إلى «عمعموت»، الذي رأسه رأس تمساح، ومقدمة جسده أسد، ومؤخرته فرس النهر.

ووراء الميزان، استقر عرش ذهبي تخرج من قاعدته زهرة لوتس عملاقة، يجلس عليه «أوزوريس»، ومن خلفه تقف «إيزيس» و«نفتيس»، وأمامه ذرية «حورس» الأربعة، يقفون على زهرة اللوتس البيضاء الجميلة، بأوراقها الخضراء اليانعة.

كل ساعة، من ساعات الليل، في العالم السفلي، تسيطر عليها فكرة مركزية واحدة، وهذه الساعة لها فكرة مركزية خاصة جدًّا.

المبادئ والتعاليم، التي نتفق عليها بيننا وبين أنفسنا، في حياتنا..

المنهج الذي نقرر أن نتبعه بإرادتنا. ثم نحاسَب عليه في حياتنا الأخرى.

قال «أوزوريس» في وقار:

- فليخرج القلب من البدن، ويطهَّر بالماء.

ومن دون أي ألم، خرجت نطفة صغيرة بيضاء من قلب «سعد»، واستقرت في كفة الميزان. و«أوزوريس» يتابع بالوقار نفسه:

- هل حفظت جسدك طاهرًا كرداء نظيف؟

نظر «سعد» إلى نطفة قلبه المستقرة في كفة الميزان، والريشة في الكفة الأخرى، والكفتان تتأرجحان. بينما «عمعموت» يتمنى أن تثقل كفة القلب؛ ليلتهمه، و«سعد» يمسك تعويذة «حورس» التي علقها على صدره، ويقرأ ما عليها:

- يا قلبي..

لا تعارضني في المحاكمة..

لا تكن معاديًا لي..

لا تفترِ الأكاذيب عليَّ.

ثم ظهرت النتيجة!

لم يرجح الميزان إحدى الكفتين!

بل تعادلتا تمامًا!

وطارت النطفة من كفة الميزان، لتدخل قلب «سعد» من جديد، الذي وضع قبضته محل القلب متابعًا في قوة وشموخ وإباء:

- الآن يا قلبي.. أنت معي من جديد..

فلن أخاف شيئًا بعد الآن. قلبي هو وجودي على الأرض. ولن أسمح بأن يُهان أو يُحقِّر منه أحدٌ كائنًا من كان، فلك التكريم يا مقر شُعُوري..

أنا سيد القلوب ولا منازع، ولقلبي الكينونة وكل الفخر، فلا يُغْتَصَبَنَّ مني هذا القلب، ولا يُجْرَحنَّ، ولا يُسَددنَّ إلى آلامٍ، ولا إلى انتهاكاتٍ..

وسأحافظ على هذا القلب بريئًا، نقيًّا، طاهرًا. ولن أرتكب جُرْمًا..

فلا أنْكَسِرنَّ هنا..

بل فلأنتصرنَّ..

بل فلأنتصرنَّ.

سمع مناديًا ينادي من مكان بعيد:

- يا «سعد» كُن. يا «سعد» كُن. إنه من يتخلص من كل شهواته، تاركًا إياها، منفصلًا عنها، يمتلك جوهر الحقيقة ولبَّ المعرفة.

ثم اختفى كل شيء من جديد.. ليسود العدم.

خاطرة جالت في عقل «سعد» لوهلة..

كان يتمنى أن يكون قلبه أخف من الريشة، لتكون له نهاية الصالحين كما في نصوص المصريين القدماء؛ حيث يُكافَأ بأن يلبس ملابس بيضاء جميلة، ويقتني ضيعة، فيها من أشجار ونخيل وزروع وثمار وطيور وزينة.. يتمتع فيها، هو وزوجته، بالحياة في العالم الآخر..

الغريب أن هذه هي نفسها كانت أحلامه الدنيوية..

ثم شعر بألم عميق في قلبه..

لم يستطِع التحمُّل..

فركع على ركبة واحدة، وهو يمسك صدره، علَّه يخفف من الألم الذي يزداد حدَّة..

ثم أتى ذلك الصوت من مكان قريب، فناداه باسمه:

- أنت يا «سعد»..

هنا الحراس تقف أمامك..

هم ينتظرونك منذ الأزل..

هؤلاء الذين يقبعون في بيوتهم يخافون منك..

سوف يأتون إليك..

إلى عتبة سلمك..

قُم..

فأنت كبير لكي تنهض..

وإنك أُعطيت الحكمة..

وقد امتلكت أسرارها..

الآن فقط يمكنك فك جميع قيودك..

فك رباطاتك..

واطلب سريان الدم..

فينمو جسدك وينهض..

ونحن معك..

إلى أي مكان تذهب إليه..

خفت الصوت، وهدأ كل شيء مرة أخرى..

ثم اختفى الظلام بغتة..

وأشرقت الشمس بنور الحياة، بعد البوابة الثانية عشرة، والأخيرة.

لقد اجتاز «سعد» الكون الفوضوي.

ورأى أين يقف..

هذه هي «حقول الأيارو».

يقف على تل مائل بزاوية حادة..



من أسفله هوة عميقة..

وصخوره مدببة، بارزة، مسنونة، كأهرامات صغيرة متلاصقة.

لها من الألوان ثلاثة:

أبيض، ورمادي، وأزرق.

ثم طار هذا السرب في اتجاهه..

سرب صغير، من ثلاث يمامات، بيضاء من غير سوء، وثلاث يمامات، زرقاء.

ومن خلفهن، أتى طائر عملاق، له مزيج من اللونين نفسيهما:

الأبيض، والأزرق..

ثم ربض أمامه منتظرًا منه أن يعتليه..

امتطاه «سعد»، بينما رافقته الطيور البيضاء والزرقاء، وكأنها تزفه.. صعد به الطائر العملاق إلى أعلى..

إلى حيث «المنزل الخفي»، في أعالي السماء.

فقد اكتمل البناء تمامًا!

المنزل لم يكن سوى غرفة مربعة، لا تتجاوز تسعة أمتار مربعة، خاوية من الأثاثات.

لم يكن به أي شيء آخر سوى كتاب ضخم، ملقى في منتصف الغرفة، ونافذة صغيرة، عليها قضبان حديدية..

أخذ «سعد» الكتاب بقوة، وضمه إلى صدره.

هذا هو ما سعى وراءه عمرًا كاملًا..

وكانت حياته ومعيشته فداءً له.

سَمِعَ أصواتًا غريبة، آتية من النافذة الوحيدة..

فتوجه ناحيتها، متوجسًا خيفة، ليلقي منها نظرة..

وارتجف قلبه بين ضلوعه..

كان يرى، من النافذة، الأحداث التي عاشاها، منذ «٢٤» ساعة كاملة..

رأى غرفة الإعدام، إبَّان تنفيذ الحكم على المجذومين العشرة..

رأى «أسامة البرادعي» يسقط في البئر، مع انقطاع الحبل.

ورأى نفسه يقفز وراءه..

وانغلقت الضلفتان، وكتيبة الإعدام تلتف في هلع حول الكوَّة التي أُغلقت..

ثم رأى «أسامة» يلف الحبل حول رقبته، وروحه تنسحب منه..

ظهر «حورس» مرة أخرى خلف «سعد». كان له، هذه المرة، رأس الصقر. وضع يده على كتفه، وهو يقول له في حنان أبوي:

- يا بن «حورس». زمن كوننا يختلف عن زمن كونك بأربع وعشرين ساعة كاملة. أنت الآن ترى الماضي. لقد قُتِلت يا «سعد» في البئر..

قتلك المجذوم شنقًا. وتفرَّع كونك ليلبي كلا الاحتمالين:

كون أنت فيه ميت.

وكون كنت فيه حيًّا.

ولكنك للأسف يا «سعد» لن تعود من هنا!

التفتَّ إليه «سعد»، بعينين حائرتين كطفل، صافيتين كنهر، يترقرق فيهما الدمع، يهز رأسه ما بين مصدق ومكذب، يسأله متعجبًا، في صوت مبحوح خفيض:

– لماذا؟ لماذا لن أعود؟

مسح «حورس» دمع عينيه، وقال:

– إنه من يأتي إلى هنا يا بني لا يعود. يهب حياته بإرادته.. سيذكرونك بعد موتك يا «سعد». سيذكرونك بعد موتك يا بني.

رفع «سعد» الكتاب في وجه «حورس»، وقال له في غصة مريرة:

– وماذا عن هذا؟

أشار «حورس» إلى النافذة وقال آسفًا:

– عند تمام دورة اليوم أربعًا وعشرين ساعة، وهو «الحد الفاصل بين الأيام»، كما تقول الرموز، يرى القادم بإرادته إلى هنا، وعبر هذه النافذة، نفسه، فيلقي إليه بالكتاب. المشكلة الحقيقية أن التوقيت لم يكن في صالحك؛ ففي هذه اللحظة، تحديدًا، كنت تُقتل على يد المجذوم، وتفرَّع كونك ليلبي الاحتمالين: احتمال النجاة، واحتمال الموت، ولأنك

عشتَ بين الحياة والموت فترة لا بأس بها، حتى أعادوا قلبك للحياة بجهاز الصدمات الكهربي، فأنت منذ أربع وعشرين ساعة، لم تكن حيًّا في أيٍّ من الأكوان. وهذه النافذة ستُغلق بعد ثوانٍ قليلة. ولكنك للأسف، غير حي.. فمن سيأخذ هذا الكتاب الآن؟

ثم اختفى «حورس».

وبدأت النافذة تُغلق تدريجيًّا، والغرفة تظلم شيئًا فشيئًا.

فقذف الكتاب بكل ما أوتي من قوة وعزيمة، عبر النافذة، وهو ينطق باسم أقرب الناس إليه: «معتز».

وكان آخر ما رآه أنه استقر بين يديه، وهو مفارق الروح في البئر.

وانغلقت النافذة تمامًا..

وتغيَّر المشهد بعد ذلك.

فكان هناك شاطئ يقف عليه أسطول صغير من المراكب. ومركب كبير يتوسطها..

هناك نائحات مرتديات ثيابًا سوداء يواصلن اللطم على وجوههن.

وموكب من الرجال يحمله..

وأدخلوه إلى المركب الرئيسي..

رأى به غرفة كبيرة مبطنة من الداخل بأقمشة تشبه الكفن.

وتعالى نحيب النائحات، وصراخهن..

عبر به المركب حتى الشاطئ الآخر..

كانت هناك أرض واسعة، بيضاء، جرداء، ليس بها سوى بناء واحد مخيف..

قبر.. عليه شاهد كُتب عليه «سعد مالك عبد الجبار».

كان يرى قبره!

استمر به الموكب حتى وصل إلى القبر، وفي دهشة من «سعد»، قامت بعض الطقوس الجنائزية..

إنزال التابوت يتم الآن..

وكل الأثاث الجنائزي.

وفي عجز كامل عن الحركة، يراقبهم يرتبون بيته، ومثواه الأخير.

ودهشته تتعالى..

كيف يجهزونه للموت وهو حي؟!

وضعوا التابوت المصنوع على هيئة الجسد تمامًا، بنفس مقاييس جسده، داخل تابوت آخر من الحجر مستطيل الشكل..

ومن دون أدنى مقاومة منه..

وضعوه داخل التابوت، وحوله أشياء غريبة..

عصيٌّ، وأسلحة، وتمائم..

ووضعوا نسخة أخرى من الكتاب الذي ألقى به عبر النافذة.

حاول أن يتكلم..

يستنجد..

يصرخ..

بلا جدوى..

صوته لم يخرج..

ثم أقفلوا التابوت الحجري بغطاء ثقيل..

غابت كل المرئيات عن عينيه..

وأظلمت الدنيا..

ورحلوا جميعًا..

حتى سمع قرع نعالهم، كدويِّ الطبول في أذنيه..

فضاقت عليه نفسه بما رحبت، مستوحشًا وحدته..

انقطع رجاؤه وأمله من الدنيا..

وبدأ نَفَسه يغيب داخل صدره..

وبرق شريط حياته كله في ثوانٍ..

طفولة صعبة للغاية..

حياة قاسية.. جافة.. وحيدة.. كلها ألم..

عرف فيها أن الوجع كان هو الدنيا بما فيها؛ حيث لا راحة هناك.



فساعات التعاسة تفوق لحظات الفرح..

يتذكّر كل المرات التي ضحك فيها، وكل أوقات السعادة.

فقد كانت معدودات، يَسهُل حِسابها.

تمنى لحظة حب..

فلم يجدها..

تمنى أن يعيش حياة عادية..

مثله كأي إنسان آخر..

تكون له عائلة..

تضمه، ويحتويها..

لكن قدره كان مختلفًا..

فقد كان يحمل سر الخاتم..

ويعلم أنه مفارق..

قواه تخور أكثر فأكثر..

يتنفَّس بصعوبة..

مال بخدِّه على جدار التابوت..

ونظر في ضعف بلا هدف..

ثم ثقلت كل أطرافه..

حركة أصابعه وحدها تماثل الجبال ثقلًا..

هل هذا الذي يشعر به الآن هو الحزن، أم ماذا؟

هو شعور جديد عليه، لم يعترِه من قبلُ..

اختلطت عليه المشاعر والأحاسيس..

أين ذهبت الأحلام والآمال كلها؟

ثم سأل نفسه، وهو يبتسم في سخرية مريرة، ذلك السؤال الذي طالما سأله آخرين:

- «نفسك في إيه؟».

وطَفِقَ يُفكر ثواني.

هل من الممكن أن تكون هذه هي النهاية..

وهو الذي ما زال لديه الكثير من الأمنيات داخل قلبه؟

كيف تقسو الحياة بهذا الشكل؟

كيف خدعه الأمل حتى اللحظة الأخيرة؟

ظن دائمًا أنه سيعيش ليحقق أحلامه..

ويرى أمنياته..

يالها من قسوة..

أن يدرك هذه الحقيقة، في هذه اللحظة..

كل ما حلمتُه، وتمنيتُه، لم يكن إلا أوهامًا..

مجرد سراب.

قلعة في الهواء..

ليس لها وجود في عالمنا المادي..

جرعات مخدرة كان عقله الباطن يفرزها، كي يهوِّن عليه حاضره.

لكن الحقيقة أنه لم يعِش ليحقق هذه الأحلام..

تراءت له خاطرة غريبة في هذه اللحظة..

ماذا لو كان أدرك، في أثناء حياته، أنه سيموت من دون أن يحقق أمنياته وأحلامه؟

لحظة الإدراك، هي نفسها لحظة الموت!

اللحظة التي تتحطم عندها كل الأوهام.. تعرف وترى فيها كل شيء على حقيقته، لا كما تريد.. من دون ظنون أو أمنيات.

لو كان قد عرِف وقتها، لفقد الرغبة في الحياة.

وها هو قد عرف الآن..

فاستسلم لقدره ومصيره المحتوم.. عليه أن يتخلى عن حلمه الآن.

شيء ما يختفي هناك.. من داخل جسده..

ينحسر من قدميه، فلا يشعر بهما..

رويدًا رويدًا..

وفي كسر من الثانية..

رأى أحلامه البسيطة، التي يستطيع أن يحققها أي إنسان..

وحُرِم هو منها..

منزل بحديقة غنَّاء، مليئة بالطيور والحيوانات الأليفة، وأولاد وزوجة..

شعر بسعادة غامرة، لم يشعر بمثلها من قبل..

كطفلٍ، بين يدي ملائكة، تحتضنه وتداعبه..

كرجلٍ، عادت حبيبته إليه من الموت؛ فقط لتطبع قبلة على جبينه..

ترقرقت عيناه بدمع شفاف، ثم حرَّك شفتيه متمتمًا في خفوتٍ وضعف:

- نفسي في...

لم يجد كلمات أخرى على لسانه؛ فقد رأى نفسه وسط مروج خضراء، وطائر صغير رقيق استقر على رأسه، يمسح بجناحه على شعره، مواسيًا، فألزمه سكينة، وأمنًا، وأمانًا، وطمأنينة.

ثم رأى قبسًا من نور، والطائر يطير مبتعدا، وكأنه، يحمل روحه في حويصلته..

فقد بلغت الحلقوم.



وفارقت الروح الجسد.

قطع رحلته مرغمًا، ليسقط تَمْرُ أحلامه رطبًا، بعد أن ظل عالقًا، أمدًا، فوق نخيل الأمل.

لن يعود – مرة أخرى – إلى دنيانا؛ فلقد رحل تاركًا من ورائه ذكراه.

واستمرت الحياة على نافلتها.. فلا السماء انفطرت، ولا الكواكب انتثرت، ولا البحار فجرت، ولا الشمس كورت، ولا النجوم انكدرت.

ولا القبور بعثرت..

وظلت الأنفس على حالها.. فلم تعلم – بعدُ – ما قدَّمت ولا أخَّرت.



(٦٢)

كان «معتز» يجلس مرهقًا أمام شاشة جهاز التتبع النانوي.. فغـاب في سِنة قصيرة..

ثم رآه..

«سعد».

يرتدي رداءً أبيضَ مطرزًا بالذهب، ويبتسم..

ويمد يده إليه بكتاب.

استيقظ على أزيز متقطع..

ليرى النقطة التي تحدد جسد «سعد» أخيرًا..

لكنها لم تكن متحركة..

بل ثابتة، جامدة، هامدة..

نقر فوق النقطة ليحدد إحداثياتها..

النقطة كانت داخل السجن..

قرَّب الصورة أكثر، فأكثر..

فكانت بالتحديد غرفة الإعدام..

البئر.

لكن الجهاز حمل تاريخ وجود هذه النقطة في الماضي، وبالتحديد منذ يوم كامل. حينما كان يقف مع صديقه في لحظة إعدام المجذومين.

(٦٣)

٢٤ ساعة سابقة..

كانت كتيبة الإعدام تقف حول البئر..

فقد انغلقت الضلفتان، وآخر ما رآوه كـان «سـعد»، والمجذوم يحاول أن ينتزع روحه شنقا بالحبل..

وحينما فُتحت الضلفتان من جديد، كان «سعد» و«[illegible]» ملقيين بلا حراك على أرضية البئر، والحبل يلتف حول رقبة كل منهما..

هبط «معتز» إلى داخل البئر، ووضع يده على قلب «سـعد»، الـذي فارق الحياة وهو يصرخ باسمه.

«سعد»..



الذي ينام على الأرض في سلام، مبتسمًا، وفوق صدره كتاب مكتوب عليه:

- من «سعد»، فقط إلى «معتز وهدان».

ما حدث بعد ذلك من مراسم دفن «سعد» كان مؤلمًا للغاية..

«عبد العاطي»، عامل المشرحة، ينظر إلى وجه «سعد» المبتسم، وجسده الخالي من الحياة والروح، ويبكي..

عم «سعيد» يغسِّل «سعد» وهو يبكي. لا يصدق أنه كان سيأتي عليه اليوم الذي يغسِّل فيه هذا الرجل، الذي طالما امتدت يده إليه بالخير. وحينما كان يغسِّل، بالمياه الطاهرة، أصابع كفه الواهنة..

التي عهدها دائمًا قوية، وهو يضع النقود غصبًا عنه في يده، صرخ.. وبكى..

وأخذ يقبِّل أصابع يديه وهو يقول:

- «سعد».. يا بني.. لقد كنت أحبك كابني.. لماذا تركتنا؟

ثم وقف الجميع أمام قبره دامعي الأعين.

من المستحيل أن تقترب من هذا الرجل ولا تحبه..

«معتز» و«مريم الصواف»، التي - من حسن حظها - ما زالت تحيا في هذا الكون، و«هيب هصار» و«عم سعيد» و«عبد العاطي»، عامل المشرحة.. هؤلاء هم كل مَن يعرف هذا الرجل، الذي ضحى بحياته من أجل أن تصل المعرفة للعالم.



وكان يقف إلى جوارهم قط صغير.

القط نفسه الذي رافق «سعد» في الكون المتفرِّع.

كان القط يقف في هدوء، وكأنه يشارك الجمع العزاء..

ثم قرر أن يغادر..

ويبتعد..

حتى اختفى تمامًا.



خاتمة

بعد أسبوع..

تمت إقامة مؤتمر كبير آخر في مدينة المستقبل لعلوم النانو، لكن هذه المرة بسبب الوثبة التكنولوجية والطفرة المعلوماتية، التي ستحققها المعارف والعلوم التي وقعت في يد «معتز»..

المعرفة التي ستجعل من هذا البلد، مرة أخرى، في موقع الريادة والقمة، الذي كان يعتليه أجداده.

كانت «مريم الصواف» تغطي أحداث المؤتمر، وبناءً على طلب «معتز» كانت تعرض صورة «سعد العشماوي» أمام الملايين، وقالت في نبرة لم تستطِع أن تسيطر فيها على حزنها:

- هذا الوجه قد عرضته في برنامجي منذ عشرة أيام. جميعكم تعرفونه.. الجلاد.. لقد لقي حتفه منذ أسبوع، لكن الدكتور «معتز



خاتمة

بعد أسبوع..

تمت إقامة مؤتمر كبير آخر في مدينة المستقبل لعلوم النانو، لكن هذه المرة بسبب الوثبة التكنولوجية والطفرة المعلوماتية، التي ستحققها المعارف والعلوم التي وقعت في يد «معتز»..

المعرفة التي ستجعل من هذا البلد، مرة أخرى، في موقع الريادة والقمة، الذي كان يعتليه أجداده.

كانت «مريم الصواف» تغطي أحداث المؤتمر، وبناءً على طلب «معتز» كانت تعرض صورة «سعد العشماوي» أمام الملايين، وقالت في نبرة لم تستطع أن تسيطر فيها على حزنها:

- هذا الوجه قد عرضته في برنامجي منذ عشرة أيام. جميعكم تعرفونه.. الجلاد.. لقد لقي حتفه منذ أسبوع، لكن الدكتور «معتز

وهدان» يقول لنا: إن هذا الرجل كان له الفضل في هذه الطفرة المعلوماتية غير المسبوقة.. وسيفصح لنا عن كل شيء.. لكن في الوقت المناسب.

غلبها تأثُّرها، فتركت الميكروفون لزميل لها، وغادرت القاعة في سرعة.

تجاوزت مدخل البناية إلى موقف السيارات الكبير، تتجه في خطوات مسرعة نحو سيارتها، تمسح دموعها، قبل أن تتسمَّر فجأة على بُعد أمتار قليلة من سيارتها..

وسقط قلبها بين قدميها..

وارتعشت يداها، وهي تضع أصابعها على فمها، وتقول:

- «سعد»؟!

كان يقف أمامها، مستندًا على سيارتها، بقامته الطويلة وابتسامته المشرقة، ببشرته البيضاء وشاربه الكث، عاقدًا ذراعيه أمام صدره..

اقتربت منه في حذر، غير مصدقة، وهي تقول:

- من أنت؟!

ابتسم الرجل وقال بلهجة واثقة:

- «سَلِيم».. «سَلِيم مَالِك عبد الجبار».. توأم الرجل الذي عرضتِ صورته منذ قليل.

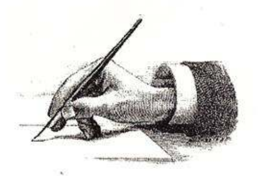
ثم غمز بعينه وهو يقول:

- ربما كان عليك أن تناديني بـ«سليم العشماوي»؛ فأنا «جلاد» مصر الجديد. ولديَّ سبق صحفي أريد أن أختصك به. سأقصُّ عليك أين كنت أختفي في السنوات العشر السابقة، لكن «نِفسي في قهوة ساخنة» وأنا أحكي لك التفاصيل كلها. وأنتِ.. «نفسك في إيه»؟

ومن خلفهما كان «جيداليا» يقف مرتديًا نظارة سوداء تخفي كل وجهه، وهو يشعل سيجارة. ينظر نحوهما بثبات، وهما يغادران المكان، ثم التقط هاتفه، ونقر على شاشته، بينما ساعده يحمل ذلك الرسم المميز..

الثعبان الذي يلتهم ذيله.

تمت

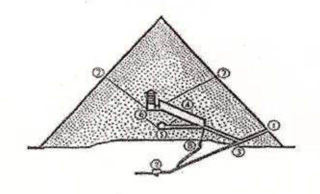


إن الموت ليس هو النهاية.. بل البداية.

Ehab Abdelmawla



ملحق «١»



مقطع داخلي للهرم الكبير

1 المدخل الرئيسي

2 حجرة مهملة تحت الأرض

3 دهليز صاعد

4 الرواق الكبير وحجرة الملك

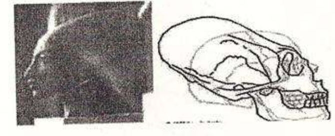
5 حجرة الملكة

6 كوّتا حجرة الملكة

7 كوّتا حجرة الملك

8 دهليز نازل

ملحق «٢»





ملحق «٣»

- الجدار الشرقي.

- للأسف، بـات مكتوبًـا عـليَّ الهيـام في الحـال الوسـيطة، عنـدما يتلاشى الاختلاف عند الحد الفاصـل بـين الأيـام؛ حيـث الأثـر غـير الواعي، فلتقُدني المعرفة على درب تجـاوز الخـوف والرهبـة، ولتـدفعني الحكمة وأمهات كل المعارف مـن الخلـف، ولتحـرر دربي مـن مخـاوف الجهل، ولتضعني في قلـب يقظـة «الـشمس»، بترتيـب، عـبر البوابـات الاثنتي عشرة.

ما زلت مرتبطًا بمن أحببت، وقد بات مكتوبًا عليَّ الهيام وحيـدًا في كون آخر، ها أنا ذا، الآن، أواجه الصور الفارغة لمـرآة انعكـاس، ومـن خلال عين الأنوار الخمسة الطاهرة المشعة للحكمة الأساسـية. اهـدني، بلا خوف ولا وجل، للطريق الصحيح عـبر البوابـات الـصحيحة وإلا

هلكت، وإن كان مكتوبًا عليَّ العذاب بسبب صنعي السيئ، فلتجنِّبني الألم، ولتنطلق من أعماق حقيقة الذات الخالدة، متجسدة من أجلي كآلاف الرعود، نغم ذاك التعبير السداسي الخالد، ثلاثة ثلاثة ذهبية، هم مني، بدمي هُمْ.

- الجدار الغربي.

- هو الرجل الذي يخطو على طريق الأمس. يحمل السر عبر الأنسال الملكية. سيعرفونه لعشر ليالٍ، كي ينسوه لعشرة قرون. كالقمر الوضَّاء فوق البحر. هو القادم من النهار، ذلك الذي يسير إلى العالم الآخر بإرادته، من يهب حياته ويترك جسده الفاني. اليتيم، حامي أبيه، ذو العين الواحدة.

قِفوه أمام الأبواب، التي تحجب عامة الناس؛ فهم ينتظرونه منذ قديم الأزل، وسيكون التابوت لجسده، ليبدأ رحلته من «الوصول، تلك التي تحدد الطريق، ذا السكاكين الحامية». في بئر العالم السفلي، ومن الأيام المكملة، من كل أسبوع، وفي كل فصل، من فصول السنة. فيصل إلى النجوم الخالدة، في المدة المحددة للتلاقي من كل قرون كثيرة. وسيذبح الموت بجناحيه، كل من يحاول أن يقترب، وهو لا يعرف الطريق.

وأنت الآن في طريقك؛ لأنك قد أُعطيت قوة، وستُعطى الحكمة. وحينما تكون أمامه، يمكنك فك جميع قيودك. فك رباطاتك. واطلب سريان الدم فيك. فينمو جسمك، وينهض. وسيشع عقلك.. وعندها ستكون ما سوف تكون.. بعدها لا رجوع عنه.

ملحق «٤»

ساعات الليل، أسماء الآلهة، أبواب وكهوف			
الساعة	كهف الساعة ومكانها	باب الساعة	اسم آلهة الساعة
الساعة ١	الباب الغربي نحو الأفق	تحطم أعداء النجوم	
الساعة ٢	صالة الحقيقة الكاملة	ملتهم كل شيء	الذكية التي تحمي سيدها
الساعة ٣	مجموعة سكان الشاطئ	لصوص	التي تفصل الأرواح
الساعة ٤	بأشكال حية	التي تخفي العلامة	الكبيرة في الدوات
الساعة ٥	الغرب	موقف الآلهة	السائرة في وسط قاربها
الساعة ٦	بئر العالم السفلي	ذلك ذو السكاكين الحامية	الوصول، تلك التي تحدد الطريق
الساعة ٧	كهف أوزوريس المقدس	باب أوزوريس	تلك التي تحمي من هيو الذي يقطع الرؤوس بغضب



ساعات الليل، أسماء الآلهة، أبواب وكهوف			
الساعة ٨	تابوت آلهتها	تقف بلا تعب	سيدة منتصف الليل
الساعة ٩	بأشكال تموجية	تلك التي تحمي فيضان النيل	المصلية، التي تصلي لسيدها
الساعة ١٠	بمياه عميقة وشواطئ عالية	بأشكال عظيمة، بوجوه مختلفة	الغاضبة، التي تذبح المفسدين
الساعة ١١	حافة الكهف	مكان الهدوء في العالم السفلي	النجمية، سيدة القارب التي تحمي من المعتدي عند ظهوره
الساعة ١٢	نهاية الظلام الأولي الأزلي	تعلي الآلهة	تلك التي تُعجَب بكمال سيدها



ملحق «٥»

- عرف المصريون القدماء كيفية ضبط الزوايا وربطها بهندسة الكون وحركة النجوم والاتجاهات الجغرافية والمغناطيسية للأرض.

- عرف المصريون القدماء المسافة بين الأرض والشمس وقطر الأرض، وخطوط الطول والعرض الجغرافية.

- كان المصريون القدماء يوجهون معابدهم وصروحهم بعناية فائقة، وكانوا يقررون توجيه محاورها يوم تأسيسها، وذلك خلال احتفال يسمَّى «شد الحبل».. ولقد أعطينا لكم لمحة لممرات التهوية التي تتجه إلى نجم الجبار ونجم الشعرى اليمانية من مقبرتي الملك والملكة على الترتيب. وهذا ليس المثال الوحيد؛ فمثلًا هناك أبو الهول، الذي ينظر إلى الشمس مباشرة عند شروقها، من جهة الشرق، أيام الاعتدالين الخريفي والربيعي، كما أن المحور الشرقي- الغربي لمعبد «حاثور» في «دنديرا»، القريبة من الكرنك، يتجه نحو الوجهة التي يرجع منها ظهور النجم «سيروس»، قبل شروق الشمس بقليل، هناك أيضًا تعامُد الشمس على وجه رمسيس الثاني داخل معبد الكرنك عند بدء الانقلاب الشتوي.. والكثير والكثير من الأمثلة.



- صُمّم الهرم الأكبر بطريقة معينة تجعله مقياسًا مصغرًا لنصف الكرة الشمالي من الكرة الأرضية وبنسبة محددة هي «١:٤٣٢٠٠»؛ بحيث يرمز رأس الهرم إلى القطب الشمالي وترمز قاعدته إلى خط الاستواء، بمعنى أنه بقياس ارتفاع ومحيط قاعدة الهرم الأكبر خصوصًا، وضرب الرقمين في ٤٣٢٠٠، نحصل على القياس الذي اكتشفه المصري القديم لمحيط الكرة الأرضية بدقة مذهلة لا يتخللها من الخطأ سوى نسبة ضئيلة، هي ١٪.

- ارتفاع هرم خوفو مضروبًا بمليار يساوي «١٤٩٦٧٠٠٠٠» كم، وهي المسافة نفسها بين الأرض والشمس.

- أساس الهرم مقسومًا على ضعف ارتفاعه يعطينا عدد رودولف الشهير «٣.١٤١٦» والمعروف برمز «ط» في حساب المثلثات (باي، أو ٢٢\٧).

- أركان الهرم الأربعة تشير بدقة شديدة إلى الاتجاهات الأصلية الأربعة (شمال، جنوب، شرق، غرب).

- الجوانب الأربعة للأهرامات تشكل زوايا أقرب ما تكون إلى ٩٠ درجة بفارق ضئيل جدًا يصعب علينا تحقيق مثله على الرغم من تقدمنا التكنولوجي.

- لن أحدثكم هنا عن إعجاز الشكل الهرمي في حد ذاته؛ فهذا وحده قامت عليه مؤلَّفات من الكتب.

بل إن قدماء المصريين كانوا يعرفون خلطة عندما تُستعمل يتكوَّن صخر أشد صلابة من خرساناتنا وقريب الشبه بالصخر الطبيعي؛

بحيث يعيش آلاف السنين متحملًا مرور الزمن وعوامل الطبيعة، وهذه الخلطة هي عبارة عن مواد متوافرة في الطبيعة مع قليل من المواد الكيماوية البسيطة؛ فهي بلا شك أفضل من الخرسانة بمئات المرات؛ فهي أصلب بكثير وتجف بسرعة أكبر من الخرسانة بكثير، وقد تكون أرخص، العلماء في أمريكا يحاولون الآن الوصول إلى سر هذه التركيبة!

عرف المصريون القدماء علومًا مثل البيولوجي واستنساخ البشر والحيوان، التي كانت متقدمة عندهم كثيرًا؛ بحيث كانوا يستطيعون استنساخ كائنات نصفها إنسان والآخر حيوان! مثل الحيوان الذي رأسه رأس كبش وجسمه جسم إنسان، أو رأس إنسان على جسم حصان أو جسم أسد.. يقال إن هذه الكائنات كانت موجودة فعلًا في الزمن القديم قبل الطوفان وكانت تعيش كائنات.

وكذلك هناك معلومات قيمة أخرى عن بعض العلوم المتقدمة عند قدماء المصريين، مثل سر التحنيط وأصل الإنسان ونشأة الكون وغير ذلك..

أكد فريق من علماء هندسة العمارة وعلم المصريات أن الفراعنة تمكَّنوا من إلغاء الجاذبية الأرضية عند رفع الأحجار التي استُخدمت في بناء الأهرامات وتحريكها لمسافات طويلة، وذلك عن طريق توجيه ذبذبات صوتية خاصة وشحنات كهرواستاتيكية لتسهيل عملية رفعها.

بل استطاعوا السيطرة على كثير من القوى الكونية، واستغلوا طاقتها في تحقيق أغراضهم العلمية، واستعانوا بالبندول في وضع



الأحجار بحيث تتفق مع اتجاه عروقها في الجبال لتكون أكثر مقاومة لعوامل التعرية..

وهذا ليس كل شيء؛ فهناك الكثير والكثير جدًّا، من الغباء أن نظن بعد هذا كله أن هذه مصادفات بدلًا من الاعتراف بأنهم أعظم العقول التي عمَّرت الأرض حتى اللحظة.. الكل يعرف أن علماء الرياضيات الحديثة اقتبسوها من علم المصريات القديمة، وأوضح دليل على ذلك بردية «رايند»، وبردية «أحمس»، وعليك أن ترجع إلى كتاب مقدمة في تاريخ الرياضيات.

ملحق «٦»

كتاب ما هو كائن في العالم الآخر يُدعى «الأمدوات»..

وهو أحد كتب العالم الآخر في مصر القديمة، التي وصل عددها إلى ١٢ كتابًا، هي كالآتي: متون الأهرام، نصوص التوابيت، كتاب ما هو كائن، كتاب الكهوف، كتاب الخروج إلى النهار، كتاب الأرض، كتاب البقرة السماوية، كتاب السماء، كتاب عالم الباطن، كتاب العبور إلى الأبدية، كتاب ابتهالات رع.

يصر علماء الآثار على تصنيف كتب العالم الآخر على أنها نصوص جنائزية وتعاويذ سحرية، لا لسبب سوى أنها غير مفهومة للعقل المادي البحت. يقول الباحث الأمريكي «جون أنتوني»، والكاتب الإنجليزي «جيرمي نيدلر»: إن كتب العالم الآخر لم تكن نصوصًا جنائزية أو تأملات عقلانية لما يمكن أن تكون عليه الحياة في العالم الآخر، بل هي تسجيل وتوثيق لتجارب روحانية حقيقية قام بها الأشخاص الذين وُجدت النصوص داخل مقابرهم.



كان الـ«دوات» عند قدماء المصريين هو عالم الباطن، وهو المصدر الذي تأتي منه الأرواح لتتجسد في العالم المادي؛ لذلك فالارتحال في العالم الآخر هو تجربة الموت الصغير التي يرتفع فيها وعي الإنسان ويندمج في الوعي الكوني الكلي.

وعالم الباطن (الدوات) هو عالم مخيف، لا يسبر غوره، وهو مليء بالأخطار والعقبات؛ فالأشكال في عالم الباطن تختلف عن عالم الظاهر، بل قد توجد مناطق خطرة جدًّا لا توجد فيها أشكال، وهو ما يُعرف بمصطلح اللاشكلية. واللاشكلية هي إحدى صور الفوضى؛ لذلك نجد الفنان المصري القديم قد صوَّر الثعبان الشهير «أبوفيس» في بعض مراحل الرحلة في الـ«أمدوات»، كإشارة إلى أن تلك المنطقة من عالم الباطن هي من المناطق الوعرة التي قد تتوه فيها الروح؛ لأنها منطقة لا شكلية/ فوضى.



ملحق «٧»

أهرام الجيزة الضخمة (خوفو، خفرع، منكاورع)، عبارة عن نقل لصورة نجوم النطاق أو «حزام الجبار»، وهي عبارة عن مجموعة نجمية مصطفة في السماء تدعى «أوريون» وتمثل أساس التوازن لمجرتنا. وعند رصده لهذه النجوم، وجد أن لمعان نجم «دلتا الجبار» يقل عن النجمين الآخرين، وأيضًا ينحرف عن مستواهما، وعندما أُخذت صورة للأهرام من الجو، وجد أن هرم منكاورع يقل حجمًا عن الهرمين الآخرين، إضافة إلى انحرافه عن مستواهما، وبذلك بدت الصورة مطابقة بشكل مذهل لنجوم حزام الجبار، ما يدل على أنهم نقلوا صورة النجوم إلى الأهرامات، ويستدل على أن الموضوع ليس مصادفة من خلال أن الأهرامات الثلاثة تقع غرب نهر النيل ونجوم النطاق تقع غرب نهر المجرة (الحزام المجري)، وهي الحزمة الضبابية التي تقطع السماء من الشمال إلى الجنوب تمامًا.

ولم يتوقف الموضوع عند هذا الحد، بل اكتشفوا أن الأهرام بُنيت بهندسة غاية في الدقة؛ حيث إن زاوية وموقع هذه الأهرامات نسبة إلى نهر النيل يتناسقان تمامًا مع زاوية نجوم النطاق نسبة إلى نهر المجرة، ما



يدل على أن نهر النيل هو انعكاس لنهر المجرة. وقد حدث هذا التطابق قبل ١٠٥٠٠ عام؛ حيث كانت «درب التبانة» تُشاهَد وكأنها تقطع السماء من الشمال إلى الجنوب مثل نهر النيل، ما دفع الفراعنة إلى بناء أهرامات الجيزة بهذا الشكل.

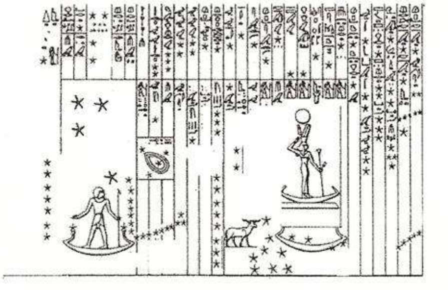
ولقد اكتشف علماء الآثار فوهات في الأهرام تبدأ من غرفة الملك وتنتهي بسطح الهرم؛ حيث وُجدت فوهتان في غرفة الملك خوفو واثنتان أيضًا في غرفة الملكة، إحدى هاتين الفوهتين في غرفة خوفو تتجه جنوبًا بارتفاع ٤٥ درجة تمامًا، والأخرى تتجه شمالًا بارتفاع ٣٢ درجة و٢٨ دقيقة، أما فوهتا الملكة فتتجه إحداهما جنوبًا بارتفاع ٣٩.٥ درجة، والأخرى شمالًا بارتفاع ٣٩ درجة.

وقد ظنَّ علماء الآثار أن هذه الفوهات عبارة عن مسالك للتهوية، لكن ذلك لم يقنع عالم الآثار المصري «ألكسندر بدوي»؛ إذ أحس أن أهمية هذه الفوهات تحوم حول معتقدات شعائرية ودينية؛ حيث اكتشف الباحثون داخل هرم خوفو متونًا تدل على أن الفرعون الذي يموت تصعد روحه عبرها، حيث الخلود؛ لذلك عندما نظر «بدوي» خلال هذه الفوهات لم يرَ نجومًا ذات أهمية فاستعان بفلكية أمريكية تُدعى «فرجينيا تمبل»، التي درست تغيُّر أماكن النجوم نتيجة ترنح الاعتدالين، وهي حركة بطيئة تتغير فيها مواقع النجوم الظاهرية في السماء بدرجة واحدة كل ٧٠ سنة، فوجدت أن زمن ميلاد الأهرامات، أي قبل حوالي ٢٤٥٠ سنة، كانت الفوهة الجنوبية في غرفة الملك خوفو تتجه نحو حزام الجبار، أو بالأخص نجم «زيتا الجبار».. والغريب في



الأمر أن الهرم نفسه يطابق موقع هذا النجم، ما يدعم نظرية أن بناء الأهرامات يتطابق مع نجوم النطاق، وأيضًا تتجه الفوهة الشمالية إلى نجم ألفا التنين (الثعبان) الذي كان النجم القطبي في زمن الفراعنة وقد تغيَّر موقعه بسبب الحركة الترنحية للأرض.

ملحق «٨»





ملحق «٩»

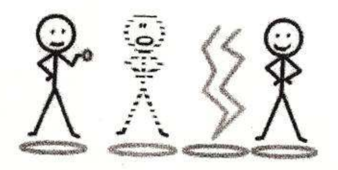
ذُكر «حورس» في إحدى الأساطير في مصر القديمة، وكان يُعتبر رمز الخير والعدل، وقد كان «أوزوريس»، أبوه، إله البعث والحساب عند المصريين القدماء، طبقًا للأسطورة الدينية أن عمه «ست»، الشرير، قتل أباه، ووزَّع أجزاءه في أنحاء القطر المصري، وكانت أمه «إيزيس»، فقامت بجمع أجزاء جسد أبيه، وتعتبر ذلك أول عملية لتحنيط الموتى، وعاشرت جسم أبيه. وُلد «حورس» بعد ذلك وأراد أن ينتقم من عمه ويأخذ الثأر لأبيه؛ لذلك يسمى حورس أحيانًا «حامي أبيه». وفقد حورس في تلك المعركة عينه اليسرى، وتبوَّأ عرش مصر.



ملحق «١٠»

هرم الشمس يعتبر واحدًا من المباني الأثرية الأكثر أهمية في أمريكا الوسطى، ويصل ارتفاعه إلى ٦٣.٥ متر، وقاعدته تصل إلى ٢٢٤ مترًا، ووفقًا للأساطير الشعبية التي تُحكى، فإن من يصل إلى قمة هذا الهرم يحصل على جرعات كبيرة من الطاقة الكونية، وتعادل رقعة الأرض التي أقيم فوقها هرم الشمس مساحة هرم خوفو في مصر، الذي يوازي ضعف هذا الهرم ارتفاعًا، أما هرم القمر فيقع في الطرف الشمالي في مدينة «التيوتهواكان»؛ حيث أقيمت هذه العاصمة على جانبي طريق فسيح مستقيم له دلالة دينية، ويطلق اليوم على هذا الطريق اسم «طريق الموتى».

ملحق «١١»





ملحق «١٢»

لقد اكتشفنا الغرائب حينما التقت علوم وتكنولوجيا التشريح في القرن الحادي والعشرين بما فعله قدماء المصريين من آلاف الأعوام قبل الميلاد.. في دراسة فريدة من نوعها، قام متخصصون في علم الآثار المصري بتطبيق علم التشريح على مومياوات عمرها ٣٠٠٠ عام؛ حيث سمحت التقنية الرقمية بفك الأكفان عنها افتراضيًّا دون إلحاق أذى بهذه الكنوز الثمينة، وتحت الأكفان وجدوا تميمة عمرها سحيق، لتحمي الميت – حسب معتقداتهم آنذاك – من مخاطر ما بعد الحياة؛ فعندما يلفون الجسد كانوا يضعون تمائم الحماية حول الجسد من الأمام ومن الخلف، في أماكن محددة للغاية، لكي تساعد هذه الأجساد في رحلة الوصول للآخرة.. هذه التمائم مرتبطة بنصوص خاصة ومحددة في كتاب الموتى الذي كان يُدفن إلى جوار الأجساد المحنطة التي تكبَّد المصريون القدماء عناء حفظ هذه الأجساد الميتة؛ لأنهم آمنوا أن الروح



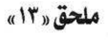
تحتاج إلى الجسد، لتستمتع بالملذات المادية في الآخرة؛ فالروح غير قادرة على الاستمتاع الحسي من دون هذا الجسد الذي صُمِّم كل شيء فيه ليشعر ويحس، من حواس وشعيرات دموية، وجلود تشعر، وأعضاء.. فحفظوا الجسد لكي تستخدمه الروح، وهكذا يستطيعون الاستمتاع بالطعام والشراب وأي شيء آخر تقدمه لهم الآخرة، وجميع الملذات الحسية التي يستطيع الجسد وحده استشعارها.

وعلى الرغم من أن تحنيط الجثث لم يكن أبدًا بالأمر الهين، ويدل على أنهم بلغوا بالفعل مبلغًا في علم التشريح، كان مذهلًا بجميع المقاييس، فإنهم كانوا يزيلون جميع الأعضاء الداخلية، كالرئتين والكبد والأمعاء والمعدة، ثم يضعون الأعضاء في جرار شعائرية تشبه الأواني الفخارية إلى جانب الجسد المحنط (داخل الروح). ما عدا عضو واحد: القلب؛ فهو العضو الوحيد الذي كانوا يُبقونه داخل الجسد؛ ففي اعتقادهم، هو مركز الذكاء والإحساس ومنبع العقل، وسيحتاجون إليه في الحياة الآخرة.. ثم يغسلون الجسد ويحشونه بالنطرون، وهو خليط من الملح وصودا الطعام، وبعد أربعين يومًا يمسحون الجسد بالزيت، ثم يلفونه بطقوس شعائرية كبيرة، وتكون هذه نهاية التحنيط، لتبدأ معها بداية الرحلة الطويلة.. رحلة أرواح الموتى، وكتاب الموتى كان بالنسبة لهم هو المرشد الوحيد لحياة ما بعد القبر.. هناك ١٨٦ تعويذة من كتاب الموتى يختار منها لفافة تناسب احتياجاته، ويساعد الكاهنُ الشخصَ في اختيار التعاويذ التي سيحتاج إليها بعد الموت؛ فما بين خنفساء عملاقة تُدعى «آشاورو»، ذات شفة ملتوية، تلتهم الجسد

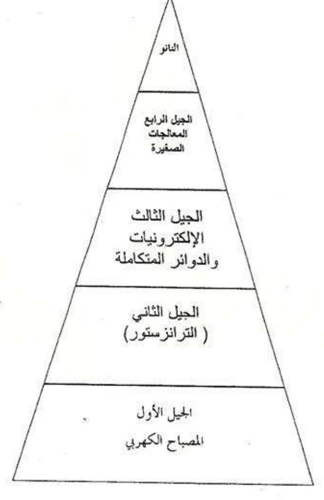


بوحشية، وإلهة مفترسة تُدعى «آميت» تسعى إلى التهام الروح، تكون اللفافة هي المنقذ أمام هذه الاختبارات المخيفة.. ويبدو لي أن هذه اللفائف كانت وسيلة يجمع بها الكهنةُ الأموالَ من الأغنياء، فبمجرد أن يحصلوا على اللفافة تصبح السماء بين أيديهم، ويبدو أن هذا هو فكر الكهنة على مر العصور، أمر يشبه صكوك الغفران في العصور الوسطى.





ملحق «١٣»



* صدر للمؤلف أيضًا: روايتا «اليعسوب»، و«المريخ واحد - اللاعودة».

بوابات موات

إيهاب عبد المولى

للأسف، بات مكتوبًا عليَّ الهيام في الحال الوسيط، حيث الأثر غير الواعي. فلتقدني المعرفة على درب تجاوز الخوف والرهبة، ولتدفعني الحكمة، وأمهات كل المعارف، من الخلف، ولتحرر دربي، من مخاوف الجهل، ولتضعني في قلب يقظة «الشمس»، عبر البوابات الاثنتي عشرة.

ما زلت مرتبطا بمن أحببت، وقد بات مكتوبًا عليَّ الهيام وحيدًا في كون آخر. ها أنا ذا الآن أواجه الصور الفارغة لمرآة انعكاس، فاهدني بلا خوف، ولا وجل للطريق الصحيح، وإلا هلكت، وإن كان مكتوبًا عليَّ العذاب، بسبب صنعي السيئ، فلتجنبني الألم، ولتنطلق الحقيقة الخالدة متجسدة، من أجلي، كآلاف الرعود.

قفوه أمام الأبواب، التي تحجب عامة الناس؛ فهم ينتظرونه منذ قديم الأزل، وسيكون التابوت لجسده؛ ليبدأ رحلته من الوصول، وسيذبح الموت بجناحيه، كل من يحاول أن يقترب، وهو لا يعرف الطريق.

أنت الآن في طريقك؛ لأنك قد أعطيت قوة، وستعطى الحكمة، وحينما تكون أمامه، يمكنك فك جميع قيودك، فك رباطاتك، واطلب سريان الدم فيك، فينمو جسمك، وينهض، وسينشع عقلك.. وعندها ستكون ما سوف تكون.. بعدها لا رجوع عنه.



إيهاب عبد المولى مهندس مصري من مواليد القاهرة عام ١٩٧٨. رواية بوابات موات هي العمل الأدبي الثالث له بعد روايتي "اليعسوب"، و"المريخ واحد - رحلة اللاعودة"

تصميم الغلاف: كريم سعد



